الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر **معهد الآثار**

المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية و نواحيها
(دراسة أثرية)

"أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية"

إشراف الأستاذ الدكتور:

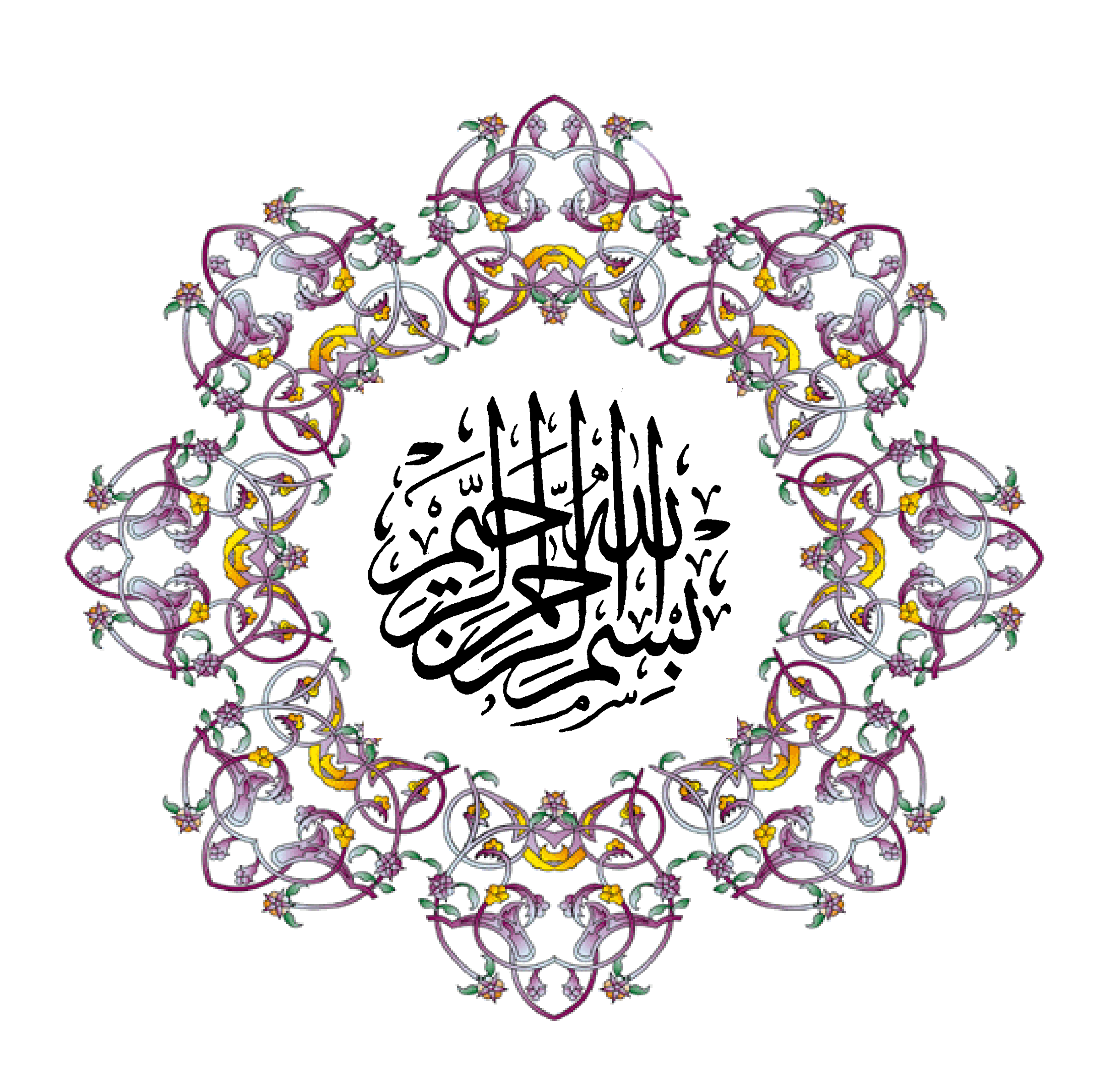
عبد العزيز لعرج

تقديم الطالب:

عبد الكريم عزوق

السنة الجامعية

2008/2007


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إ روح الوالدين الكر

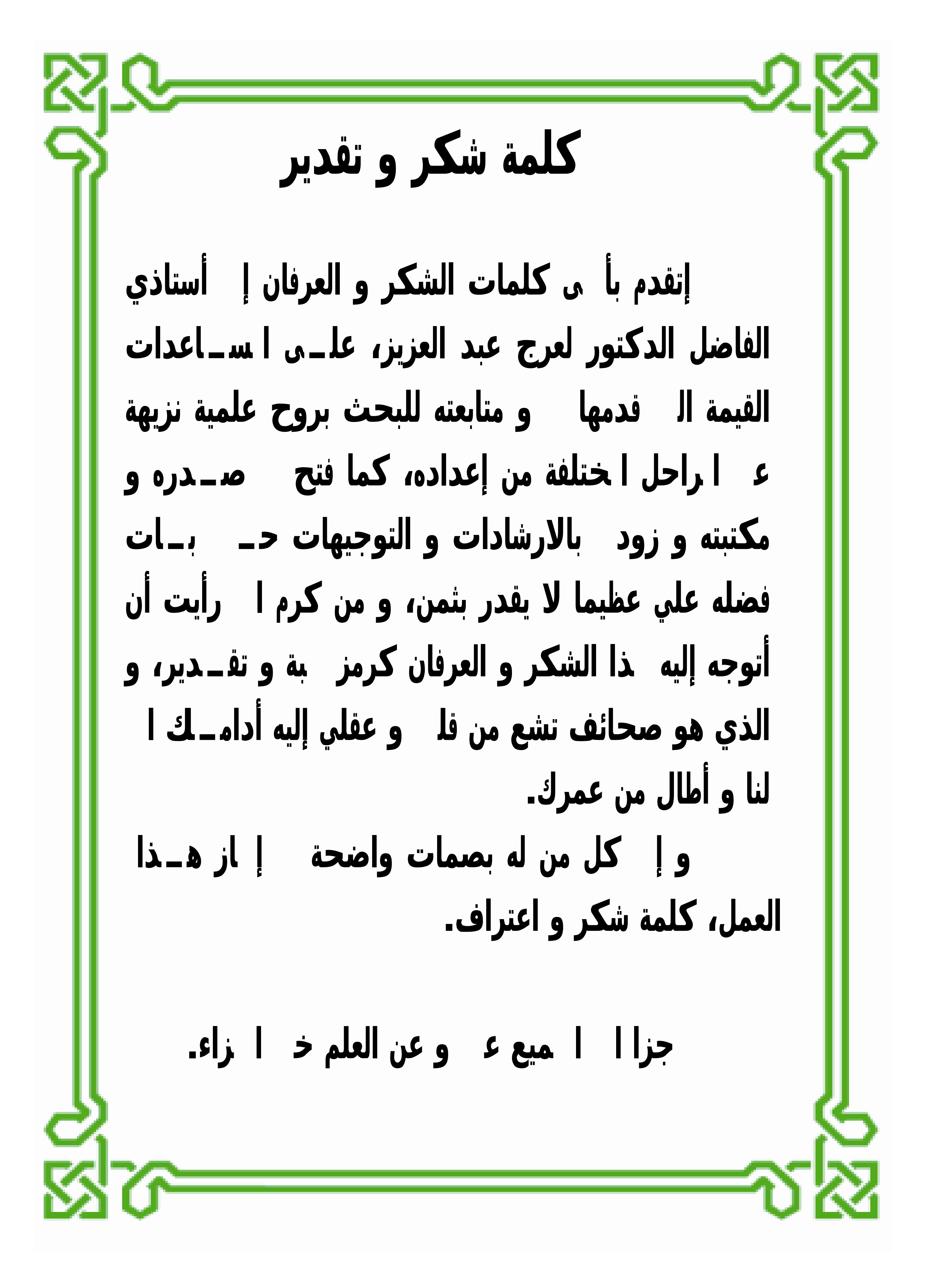
ر هما ا و أسكنهما فسيح ا نان

إ روح أخي بشـ ر ه ا و أسكنه فسيح ا نان.

إ زوج و ابنتاي يا و س ين.

إ عائل عزوق و بليط.

أهدي هذا العمل



كلمة شكر و تقدير

إتقدم بأ ى كلمات الشكر و العرفان إ أستاذي الفاضل الدكتور لعرج عبد العزيز، علـى ا سـاعدات القيمة ال قدمها و متابعته للبحث بروح علمية نزيهة ع ا راحل ا ختلفة من إعداده، كما فتح صـدره و مكتبته و زود بالارشادات و التوجيهات حـ بـات فضله علي عظيما لا يقدر بثمن، و من كرم ا رأيت أن أتوجه إليه ذا الشكر و العرفان كرمز بة و تقـدير، و الذي هو صحائف تشع من قل و عقلي إليه أدامـك ا لنا و أطال من عمرك.

و إ كل من له بصمات واضحة إ از هـذا العمل، كلمة شكر و اعتراف.

جزا ا ميع ء و عن العلم خ ا زاء.

مقدمة

مقدمــة:

تمثل مرحلة التواجد الإسلامي في بلاد المغرب الأوسط(الجزائر) إحدى الصفحات المشرقة في تاريخه، و تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، و ذلك لما جاء به الفاتحون للمنطقة من دين و فكر جديدين لسكان المنطقة يحثهم على التطور و التحضر في جميع الميادين، و كانت نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة من المدن، و المراكز الحضارية التي تطورت و ازدهرت و صدرت الكثير من التأثيرات الفنية و المعمارية و العلمية إلى مختلف المناطق من العالم الإسلامي آنذاك، و لقد تطرق لها الكثير من المؤرخين في كتاباتهم نظرا للدور الحضاري الكبير الذي أدته، و إلى المساهمات الكبيرة التي أضافوها للحضارة العربية الإسلامية.

و ما زالت هذه المدن و المراكز تحتفظ بكثير من معالمها الأثرية التي تشهد على العمق الحضاري الإسلامي لها،و من بينها مدينة بجاية التي عرفت عمرانا على درجة كبيرة من الأهمية في العصر الإسلامي، خاصة بعد أن رحل الحماديون من القلعة و استقروا ببجاية العاصمة الثانية لهم و التي كانت تعرف آنذاك باسم الناصرية نسبة لمؤسسها الناصر بن علناس الحمادي.

و الحق أن الآثار الإسلامية في الجزائر عامة، و بجاية و نواحيها على وجه الخصوص لم تنل حظها من الاهتمام العلمي ما حظيت به غيرها من الآثار الرومانية و البيزنطية. فالتراث المعماري الضخم الذي خلفه المسلمون في الجزائر، يندثر يوما بعد يوم، و ما من أثر نفقده إلا و نفقد معه لبنة من لبنات الحضارة الإسلامية في الجزائر.

إن بجاية نالت جانبا كبيرا في كتب الرحالة و المؤرخين و الجغرافيين و الشعراء نظرا لمكانتها كعاصمة علم و معرفة، و مركز إشعاع ثقافي في بلاد المغرب الأوسط ، و ما زالت بعض آثارها في كل من بجاية الحاضرة، و بعضها الآخر ينتشر في الريف البجائي من معالم دينية و مدنية و عسكرية و غيرها. لكن هذه المعالم الأثرية لم تنل حظها الكافي من الدراسة العلمية لإبراز مدى إسهام بجاية في الحياة الفكرية في الحضارة العربية الإسلامية، و مدى إسهام المنطقة أيضا ككل في هذه الحضارة من خلال إنتاجهم في مجال العمارة و العمران. و تطلبت منا الدراسة الانطلاق من اشكالية تتفرع منها مجموعة من التساؤلات على النحو التالي:

- محاولة التعرف على الطراز العمراني و المعماري و الفني الذي شكلته مدينة بجاية على مدى تاريخها الطويل الذي عاشته كعاصمة دولة في العهد الحمادي أو كعاصمة اقليم هام في العهدين الموحدي و الحفصي؟
- مدى مساهمة بجاية في الحضارة العربية الاسلامية؟
- مدى ممارسة مدينة بجاية لتأثيرها الفني و العمراني و المعماري على منشآت نواحيها من القرى و الأرياف و خاصة في حوض الصومام؟
- ما هي خصائص و مميزات العمران الريفي القروي في نواحي بجاية؟
- هل تأثر بطبيعة المنطقة الجبلية في جانبه الانشائي و المعماري من حيث العناصر و التركيب و التأليف و توزيع الكتل و مواد البناء؟
- و أخيرا ماهية أنواع المنشآت و المعالم العمرانية و المعمارية التي تزخر بها مناطق و نواحي بجاية؟ و مدى التواصل الذي يمكن قراءته من خلال منشآت القلعة و نواحيها بالمناطق الاسلامية القريبة و البعيدة كالأندلس و تونس و بلاد المشرق باعتباره طريق الحج للمغاربة؟

و للرد عن هذه الإشكاليات و التساؤلات، تطلب الأمر منا إجراء عملية جرد أولي لما تبقى من معالم العصر الإسلامي في بجاية الحاضرة، و في القرى المنتشرة في حوض الصومام و محاولة تصنيف هذه المعالم حسب الوظيفة التي تؤديها، ثم أخذ نماذج معينة من كل صنف من هذه المعالم و دراستها من الناحية الأثرية و المعمارية بغية التوصل إلى طرازها المعماري و ما تحمله من خصوصيات، و مقارنتها بنظائرها من المعالم الموجودة في المنطقة من نفس العصر، أو بأخرى ما زالت قائمة في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.أما المعالم الأخرى التي لم نأخذها كنماذج للدراسة فقد وضعناها في جداول خاصة موضحين فيها مكان تواجد المعلم و نسبته، و تاريخ إنشائه مع ملاحظات موجزة عن كل معلم. كما أنجزنا في الأخير خريطة لتوزيع المعالم الأثرية الإسلامية في بجاية و نواحيها.

و نحن نعتقد أن هطا النوع من الدراسة يؤدي حتما إلى اكتشاف ما هو مجهول و استجلاء ما هو غامض من المنتجات العمرانية و المعمارية للمراكز الحضرية الكبرى كبجاية على سبيل المثال في مجالها الضيق و امتداداتها الجغرافية في ريفها و قراها ،

كما تلقي أيضا أضواء ساطعة على الناحية المعمارية و العمرانية للمنطقة، و على كثير من الخصائص المعمارية و الفنية التي ميزت المنطقة موضوع الدراسة في العصر الإسلامي.

و قد استعنا في هذه الدراسة بمصادر و مراجع عربية و أجنبية متخصصة في موضوع البحث.فبالنسبة للمصادر التاريخية، فلقد أفادتنا في كثير من الأحيان في معرفة تاريخ المنطقة و تاريخ الأثر و معرفة أسماء مؤسسيه. و لقد أعاننا الوصف الذي زودتنا به المصادر التاريخية على وضع الدراسة في إطارها التاريخي العام. و لقد إعتمدنا إلى درجة كبيرة على المصنف الشهير للورثيلاني و الذي عنونه بالرحلة الذي كان لنا بمثابة الدليل الذي قادنا إلى معظم القرى و الأرياف، و الوقوف على معالمها التي ما زالت باقية لحد الآن. هذا بالإضافة إلى كتاب الغبريني "عنوان الدراية"، الذي أفرده لسيرة و تراجم علماء بجاية في تلك الفترة. أما كتاب الحفناوي " تعريف الخاف برجال السلف"،أفادنا أيضا في معرفة بعض الشخصيات و العلماء الذين عاشوا في المنطقة. هذا كله بالإضافة إلى تلك المصادر التاريخية المعروفة ككتاب العبر لإبن خلدون، و الرحلة المغربية للعبدري، و كذلك البكري و الإدريسي و صاحب كتاب الإستبصار و غيرها من المصادر التاريخية التي تناولت المنطقة من مختلف جوانبها بالإضافة إلى كتاب ابن الحاج النميري. فيض العباب و الذي هو عبارة عن رحلته التي تتضمن معلومات وافية عن الآثار المعمارية و مظاهر أخرى حضارية تناولها بالوصف و أطلعنا على مظاهرها بصفة عامة أو خاصة.

أما المراجع العربية الحديثة التي اعتمدنا عليها في إنجاز البحث، فهي عديدة و أبرزها تلك البحوث و المؤلفات في الآثار الإسلامية في الجزائر، و التي أصدرها الأثري الجزائري الأستاذ رشيد بورويبة، و منها كتابه: " الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، و كتاب حول بجاية ضمن سلسلة فن و ثقافة، بالإضافة إلى كتابه القيم: " L’art religieux musulman en Algérie »، و كتابه أيضا Apport de l’Algérie à l’architecture religieuse arabo-islamique ». و اعتمدنا كذلك على كتب عامة في الآثار الإسلامية في المغرب و المشرق لإيجاد نوع من الربط خاصة ما تعلق بتعريف المعلم و تاريخ ظهوره و أشكاله في العالم الإسلامي. كما اعتمدنا أيضا إلى درجة كبيرة

على المقالات التي تناولت المنطقة و المنتشرة في كثير من المجلات و كذا بعض البحوث و الرسائل الجامعية التي لها علاقة بموضوع البحث.

أما المراجع الأجنبية، فمعظمها باللغة الفرنسية، باعتبار الفرنسيين و حدهم من الأوروبيين الذين اهتموا بدراسة آثار الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي لبلادنا. و اعتمدنا على مراجع تقليدية لكل باحث في الآثار الإسلامية و منها كتاب جورج مارسيه: « L'architecture musulmane d'occident »، و الذي يعتبر مرجعا أساسيا لكل باحث في الآثار الإسلامية بالمغرب و الأندلس. و على كتاب لوسيان جولفان: « Le maghreb central à l'époque des Zirides »، و هو كتاب شامل لتاريخ و آثار الحماديين، هذا فضلا عن اعتمادنا على بعض الكتب العامة في العمارة و الفن الإسلامي، غير أن أهمها ذلك المصنف الشهير الذي كتبه شارل فيرو حول: Les villes de province de Constantine وNotes sur Bougie، و هما مصنفان شاملان لتاريخ المنطقة و حضارتها.

أما عن الدراسة الميدانية التي تعتبر جانبا هاما في هذا البحث، فتمثلت في التنقل إلى مختلف القرى و الأرياف التي ما زالت المعالم قائمة بها،و معاينتها عن قرب و دراستها من الناحية المعمارية و الأثرية، دراسة تفصيلية دقيقة، و تسجيل هذه العناصر بالصور الفوتوغرافية التوضيحية و رسم قطاعات و مساقط، و رسوم تخطيطية لواجهات بعض المعالم لمعرفة نظامها المعماري.

و لقد انتهجنا في دراستنا لموضوع الرسالة منهجا تاريخيا في محاولة تتبع المواضيع المعروضة للدراسة و تتبعها كرونولوجيا مستعرضا مداخل تاريخية حول بجاية و مناطقها بصورة مختصرة دقيقة ، و وصفيا في تشخيص المظاهر العمرانية و المعمارية و الفنية لمنشآت بجاية و نواحيها و مدى تواصل المدينة بعمقها الريفي و القروي و تحليليا مقارنا الذي حاولنا من خلاله استخلاص الخصائص و المميزات العامة و الخاصة للمنشآت في جانبها العمراني و المعماري و الفني و ظهر أثره في الخصائص و المميزات التي استخلصناها و سجلناها في أبواب و فصول الرسالة. و لقد حاولنا أن نميز بين أنماط المعالم التي خصصناها للدراسة و لاحظنا تطورا واضحا من عصر لأخر و إن كان بطيئا في بعض الأحيان خاصة ما تعلق بالمعالم الريفية. أما عن معالم بجاية الحاضرة

التي ما زالت قائمة، فلاحظنا عليها نضجا معماريا و فنيا راقيا يمكن مقارنتها بتلك الموجودة في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

و لقد ألزمتنا طبيعة الموضوع تقسيمه اعتمادا على المعالم التي تم إحصاؤها إلى ثلاثة أبواب كبيرة يشمل كل باب منها فصول خاصة. هذا بعد أن قدمنا لها بمدخل عام عن الموضوع، حددنا فيه موقع بجاية الجغرافي و أصل التسمية، ثم تأسيس المدينة مع لمحة موجزة عنها في العصر الإسلامي و دعمناها بنصوص من المصادر التاريخية، ثم أنهينا المدخل بحديث عن عمران بجاية في العصر الإسلامي، و الحديث عن رصد للحركة السكانية الوافدة على بجاية من حيث نوعيتها و التي كان لها أكبر الأثر في احتلال بجاية لمكانة حضارية مرموقة في ذلك الوقت.

أما الباب الأول فخصصناه لدراسة المعالم الدينية ببجاية و نواحيها و قسمناه إلى ثلاثة فصول، الأول منها خاص بالمساجد في المنطقة.و بعد التوطئة التاريخية عن عمارة المساجد في العالم الإسلامي تناولنا الحديث عن المساجد الجامعة داخل بجاية و أخذنا من أمثلة عن ذلك المسجد الجامع بقصبة بجاية و جامع ملالة، أما عن الجوامع خارج بجاية فأخذنا أمثلة للدراسة هيا الجامع العتيق بأمالو و الجامع العتيق بقلعة بني عباس و الجامع العتيق بصدوق. أما عن المساجد داخل بجاية فأخذنا نموذجا يتمثل في مسجد سيدي عبد الحق، بينما خارج بجاية استعرضنا كلا من المسجد القديم بتامقرة و مسجد بوديوان ببوحمزة و مسجد بني خيار ببني معوش، و أخيرا مسجد أوسحنون بقلعة بني عباس، مع الملاحظة أن هذه المساجد و المصليات أدت دور الجوامع عند الحاجة، لأن الشائع أن الصلوات الجامعة تقام في المدن فقط و هذا في العصر الاسلامي.و لقد تعرفنا على نمطين من المساجد، الأول منها يتمثل في المساجد الجامعة و الثاني يتمثل في المساجد الريفية ، و لقد وقع الاختيار على هذه النماذج كونها في حالة لا بأس بها من الحفظ، و أن بعضها ما زالت تؤدى فيه الصلاة. و لقد تركزت الدراسة لها من الناحيتين المعمارية و الأثرية.

و انتهجنا فيه نفس المنهج في الدراسة من حيث اختيار النماذج و نوعية الدراسة، و ختمنا الفصل بخلاصة عامة حاولنا أن نحصر فيها بعض النتائج المتوصل إليها، مع جدول خاص بمساجد المنطقة.

أما الفصل الثاني من الباب الأول، فافردناه لدراسة الأضرحة ببجاية و نواحيها، و بعد الحديث عن الأضرحة عامة من حيث انتشارها و مسمياتها، تحدثنا عن الأضرحة ببجاية و أخذنا منها نماذج خاصة للدراسة بمدينة بجاية نظرا لحالتها الأثرية الجيدة و لدورها في تاريخ مدينة بجاية، وهي ضريح سيدي تواتي في أعالي المدينة، و ضريح سيدي محمد أمقران من العهد العثماني، و ضريح سيدي عبد الرحمن الصباغ من القرن 9ه/15م.

أما عن الأضرحة الريفية فأخذنا نماذج هي: ضريح سيدي أحمد بن يحي بامالو، و ضريح سيدي يحي العيدلي بتامقرة، و ضريح سيدي عبد الرحمن الوغليسي في عرش بني وغليس، هذا مع ذكر مختصر لبقية الأضرحة الأخرى. و درسنا هذه النماذج دراسة معمارية وأثرية مقارنة. و ختمنا الفصل بخلاصة عامة ميزنا فيها خصوصيات هذه الأضرحة وهي نوعان: أضرحة ذات قبة و أخرى مغطاة بسقف مائل، و ألحقنا الفصل بجدول خاص لأهم أضرحة المنطقة.

أما الفصل الثالث من الباب الأول، فكان خاصا بعمارة الزوايا، و بعد حديث عام عنها في العالم الإسلامي، و في حوض الصومام على وجه الخصوص، ثم الحديث عن الحياة العلمية و الفكرية بالمنطقة و دور الزوايا في تاريخ الجزائر، أخذنا نماذج و هي: زاوية سيدي أحمد بن يحي بأمالو، و زاوية سيدي يحي العيدلي بتامقرة، و زاوية سيدي موسى بتينبدار، و هي زوايا ريفية بسيطة في عمارتها و مواد بناءها، لكن رغم ذلك تخرج منها علماء أجلاء ساهموا إلى حد كبير في الحركة العلمية في العالم الإسلامي. و لقد درسنا هذه الزوايا، دراسة تاريخية وصفية وأثرية، واخترنا هذه النماذج لأنها أدت دورا حضاريا كبيرا في تاريخ المنطقة، أما الزوايا الأخرى، فوضعناها في جدول خاص ألحق بالفصل بعد أن ختمناه بخلاصة عامة توحي بمدى تقدم فن العمارة التقليدية في حوض الصومام و على العمق الحضاري الإسلامي المتأصل لدى السكان.

أما الباب الثاني، فأفردناه للمعالم المدنية ببجاية و نواحيها و قسمناه إلى فصلين: الأول منهما خاص بالمعالم السكنية، و تناولنا فيها ثلاثة فصول هي: القصور الحمادية من خلال النصوص التاريخية و التعرض لأوصافها من خلال قصائد الشعراء باعتبارها اندثرت و لم يبق لها أثر،و حاولنا أن نتحدث في هذا المحور عن قصور قلعة بني حماد لإيجاد نوع من التشابه بينها.

أما الفصل الثاني في هذا الفصل فكان خاصا بالمساكن الحضرية بمدينة بجاية و ان كان تعذر علينا أخذ نماذج معينة للدراسة التطبيقية مما جعلنا نعتمد على أعمال الذين سبقونا في تناول هذا الموضوع و لكن يتضح من خلال النماذج التي ادرجناها في البحث و التي كانت ضمن النسيج العمراني القديم للمدينة أنها أكثر رقيا و تطورا و أن بعضها كان يتكون من أكثر من طابق.

أما الفصل الثالث فكان خاصا بالمساكن الريفية و هو موضوع جديد جدير بالدراسة بمفرده نظرا لما يحمله من بعض الخصوصيات التي يمكن أن تلقي الضوء على العادات و التقاليد الاجتماعية عموما التي تترجمها تلك المساكن البسيطة في تخطيطها و عمارتها و مواد بناءها و ملحقاتها و هي منتشرة بكثرة في المنطقة، و أخذنا نماذج منها و دراستها دراسة مفردة خاصة من مختلف المناطق الريفية بحوض الصومام، و ختمنا المحور بملاحظات عامة حول المسكن التقليدي معماريا و أثريا.

و لقد تناول الفصل الثاني من الباب الثاني، مرافق الحياة العامة بالمنطقة و أخذنا مجموعة من المعالم الهامة منها: معاصر الزيتون التقليدية بالمنطقة و درسناها دراسة مستفيضة بكل ما يتعلق بها و من مختلف جوانبها، ثم تناولنا السقايات باعتبارها أصل التجمعات السكنية، و تعرفنا من خلال دراستنا على نماذج منها و أنواع و هي بسيطة و تقليدية، ثم الآبار وأخذنا كنماذج ما تبقى ببجاية و ملالة و بوديمان من آبار، و فيما يخص الحمامات التقليدية أخذنا نموذج حمام سيدي يحي العيدلي من القرن 9ه/15م، ثم ختمنا الفصل بآخر عنصر و هو الطاحونات المائية و هي قديمة و تقليدية، و أخذنا نموذج بقرية لعزيب سيدي الصادق على ضفاف وادي بوسلام و ما زالت الطاحونة تشتغل لحد الآن.

أما الباب الثالث، فتناولنا فيه المعالم الدفاعية و التحصينات ببجاية و نواحيها، وقسمناه إلى فصلين: الأول تناولنا فيه القلاع و الحصون، و بعد أن عرفنا المنشآت العسكرية أخذنا نماذج و هي: حصن القصبة، و برج سيدي عبد القادر، و برج موسى، و قلعة بني عباس، و قلعة تمززدكت، و حاولنا أن نسلط عليها الضوء من الناحية التاريخية و الأثرية و المعمارية، مع الحديث بصفة عامة عن حصن قورايا الذي يعود إلى العهد الفرنسي والذي له علاقة استراتيجية مع بقية المنشآت المذكورة و التي ما زالت قائمة لحد الآن

و التي تدل على تطور فن العمارة خاصة في مجالها الدفاعي من حيث التخطيط و التقنية و الذي رافقه تطور في استعمال السلاح الدفاعي.

أما الفصل الثاني فتطرق لدراسة أبواب بجاية و أسوارها و فيه ذكرنا عدد أبواب بجاية الباقية منها و المندثرة، و خصصنا بالدراسة باب البحر و باب البنود باعتبارهما المعلمان اللذان ما يزالان قائمان لحد الآن و يعودان إلى العهد الحمادي. ثم تحدثنا عن أسوار بجاية من حيث امتدادها و علوها و سمكها و الأبراج التي كانت تلتصق بها، باعتبار الأسوار ظاهرة معمارية أساسية في المدن الإسلامية.

و ختمنا البحث بخاتمة أوضحنا فيها مدى إسهام بجاية و المنطقة ككل في الحضارة العربية الإسلامية من خلال مبانيها التي ما زالت قائمة لحد الآن كرد على الإشكالية المطروحة في مقدمة البحث و إلى الدور الفعال الذي أدته المدينة في تاريخ و حضارة المنطقة في العصر الإسلامي، لأن الدلائل الأثرية المتبقية مرآة تعكس مدى التطور الذي وصلت إليه في مجال العمارة و العمران، و أن العصر الإسلامي هو الذي طبع المنطقة و أعطاها شخصيتها المميزة.

و لقد اعترضتنا بعض الصعوبات في إنجاز هذا البحث نذكر منها: صعوبة تأريخ تلك المعالم الموجودة في الريف البجائي مما جعلنا نعتمد على المقارنات لا غير، و اندثار بعض المعالم مما جعل تصورنا لها قائم على الافتراضات كما هو الشأن في قلعة تمززدكت، و اندثار بعض المعالم كلية كقصور بجاية الإسلامية، و كذلك انعدام الدراسات حول آثار المنطقة و كلها عوامل كان في حالة توفرها أن تضفي على البحث أشياء إضافية و جديدة.

و في ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتقدم بأسمى آيات الشكر و التقدير و العرفان إلى أستاذي الفاضل حفظه ا   الأستاذ الدكتور عبد العزيز لعرج الذي مد لي يد العون و المساعدة و لم يبخل علي بنصائحه القيمة، و متابعته للبحث بروح علمية نزيهة، و منهجية دقيقة، كما أفادني بفيض علمه و غزارة جهده منذ أن كان الموضوع فكرة إلى أن أصبح على ما هو عليه الآن.

مدخل

1 - الموقع الجغرافي لمدينة بجاية:

تقع مدية بجاية على خط طول 2° و 45َ شرقا، وخط عرض 36° و45َ شمالا على مسافة 230 كلم شرق الجزائر العاصمة عند سفوح جبل قورايا التي تحمي المدينة وميناءها من التيارات الهوائية، مما جعل جوها معتدلا لا تتعدى متوسط درجة حرارته 17 درجة مئوية .[1]

ومن الناحية الجغرافية، تقع بجاية في المنطقة الشمالية الشرقية من وسط البلاد، ويحدها كل من: ولاية جيجل شرقا، ولاية تيزي وزو والبويرة غربا، و ولاية سطيف وبرج بوعريريج جنوبا، وهي مفتوحة على البحر الأبيض المتوسط بمسافة طولها 95 كلم.

أما تضاريس الولاية، فتضم ثلاث مناطق متباينة:

سهل الساحل طوله 30 كلم يمتد من مصب وادي الصومام إلى الغرب، ومصب نهر "أقريون" إلى الشرق، وطول سهل الصومام 80 كلم، وعرضه 04 كلم يفصل ما بين جبالي البيبان، والبابور شرقا، وأكفادو وقورايا غربا.

وتعتبر مدينة بجاية موقعا بحريا حصينا، ومرفأ طبيعيا، ترتسم حدودها الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط في شكل تقوس شبه إهليلجي يتصل في جهته الغربية بسهل الرمال الناعمة، كما تمتد في أسفل المدينة حيث يوجد وادي الساحل ثم يبدأ في التقوس شرقا عند رأس العوانة (كفالو)، وينتهي غربا عند الذراع الذي ينحدر من جبل أميمون، وجبل قورايا حاليا مارا بالتلال، التي يطلق البجاويون عليها اسم (سبع جبلات) ثم ينغمس في البحر تاركا فوق سطح الماء ثلاثة رؤوس هي: رأس بوحاي (Cap noir) في الوسط (صورة 1)، ورأس بواك (Cap Bouac) (صورة 2) في الجنوب، والرأس المثقوب (Cap carbon) في الشمال (صورة 3)، والتي تمتد منه المشارف الشمالية لجبال أمسيون، وعلى هذا الامتداد، تتناوب التلال والمنخفضات الشديدة الانحدار والمعتدلة الارتفاع عموما، وعلى هذه المشارف بنيت مدينة بجاية[2] التي تحيط بها أسوار

1- إ اعيل العر ، اية، لة الثقافة، السنة 3، العدد 18، ديسم - جانفي 1973. 1974، ص 26.

Gsell (st), **Atlas Archéologique de l'Algérie**, F n 07, p12, Paris, Alger 1902-1911.

2- إ اعيل العر ، **دولة ب اد ملوك القلعة و اية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ا زائر 1980، ص ص. 183. 186.

يتراوح سمكها ما بين 0,90م و2م، و يزيد ارتفاعها عن 4م، و تشكل ما يشبه المثلث الذي يحاذي بضلع قاعدته بشاطئ البحر، وينتهي برأسه في جبل قورايا على ارتفاع 660م[1] (شكل 1)، وفي منتصف ضلع قاعدته أين يوجد المرسى، ينفتح باب البحر الذي يليه جهة الشمال حصن سيدي عبد القادر، وباب أميمون، بعد هذا تأخذ الأسوار في الصعود بشكل منكسر باتجاه قمة قورايا، ولكن تبدأ الأسوار في الانكسار كلما صعدنا إلى أعلى، كما تبدأ أيضا في الانقطاع، مما يفسر بالتحصين الطبيعي للمكان، وصعوبة الأرضية التي لم تسمح ببناء الأسوار في هذه الجهة[2] التي يصل خط الأسوار بعد تجاوزها إلى أعلى نقطة (رأس المثلث) ليعود إلى النزول في شكل مستقيم ينفتح في منتصفه الباب الجديد.

وعلى يمين المدينة ترتفع قمم جبال "توجة" الشاهقة، وتأتي بمحاذاة الشاطئ جبال "بوعنداس"، وجبال "بني تيزي"، وأدرار أملال أي (الجبل الأبيض)، و"تيزي أوزرزور" المتفرعة عن جبال البابور، أما جبل قورايا، فعرف بكثرة عيونه وبساتينه الجميلة، كما عرف بأنواع عدة من النباتات الطبية.

2 - أصل تسمية المدينة:

كانت بجاية في العهد الروماني تدعى (صالداي- Saldae)، وهي أيضا حسب أقوال المؤوخ ابن خلدون لقبيلة بربرية كانت تقطن هذا المكان، ويعرف باسم بجاية في اللغة العربية (وقايث) بالبربرية. ويعتقد بأن اسمها يعود إلى القبيلة الصنهاجية التي سكنت المنطقة، والتي يرجع اسمها في اللغة العربية إلى كلمة (بقايا).[3] كما حملت اسم بانيها "الناصر بن علناس" فيما بعد، وأصبحت تعرف بالناصرية.[4]

أسست بجاية في عهد الدولة الحمادية في القرن 5هـ/11م على يد الناصر بن علناس، وأتى ذكرها في الكثير من المصادر التاريخية.[5]وكان موقع بجاية معروفا منذ

1- Debeylie (GL), **La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XI siècle**, Ernest Leroux, Paris, 1909, p. 105.
2- Ibid, p. 105.
3- Feraud (L.Ch), **Histoire des villes de la province de Constantine**, 1869, pp :85-407.
4- عبد الر ن ابن خلدون ، **الع** ...ج6. لبنان 1959.ص.857.
5- Bougie, **In. Encyclopédie de l'islam**, Tome I, Paris1913.

لأقدم العصور، وذلك لوجود المدينة على سفح جبل، كما جاء ذكره في المصادر التاريخية إذ كان يسمى (أمسيون).[(1)]

إن المتأمل اليوم يجد أن اسم "صالداي" و "الناصرية" قد اختفيا نهائيا إلاّ في ثنايا الكتب، أما اسم بجاية فقد كتب له الاستمرار، وهذا ربما لأنه يلتصق بالبيئة المحلية وأكثر اتساقا وتعبيرا عن المحتوى البشري للمنطقة خلافا لكلمة صالداي الفينيقية الذي يرتبط بهجرة بشرية استقر سكانها في نقطة ما من ساحل بلادنا. أما الناصرية فقد ارتبطت بمؤسس المدينة مؤقتا وهو يعبر عن مجد الباني، ولم يكن للسكان أي دخل فيه، كما لم يكن لهم دخل في التسمية الأولى أيضا.[(2)] ولذلك فكل ما يرتبط بذكرى الشعب أو بعضه يكتب له الدوام والبقاء[(*)]، وما يراد به تخليد شيء آخر، سرعان ما يمحى من ذاكرة الأجيال.

و لقد أشار ابن الحاج النميري الى الموقع الساحر لمدينة بجاية الذي شهد بأنه أحسن موقع لمن يريد الانقطاع للعبادة[3]

3 - تأسيس المدينة:

إن الحديث عن تأسيس المدينة يقودنا حتما إلى الحديث عن رحيل الحماديين من القلعة إلى بجاية، حيث تم الانتقال الرسمي لهم في عهد المنصور بن الناصر كما يشير إلى ذلك ابن خلدون.[(4)] إلاّ أن إنشاء المدينة كان في عهد أبيه الناصر بن علناس، وذلك بعد انهزامه في معركة "سبيبة"[(*)] سنة 457هـ/1065م، والتي نتج عنها قوة شوكة بنو

1- الشريف الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، قيق وتعليق إ اعيل العر ، ا زائر 1983، ص16.

2- موسى لقبال، " يزات اية وأ ية دورها مس ة تاريخ ا غرب الأوسط العصور الوسطى"، لة الأصالة، عدد 19 1974، ص.3.

*- اية فرع من صنهاجة الشمال، وهم سكان قطاعات هامة ا غرب الأوسط كانوا يتمركزون ا ناطق ا بلية غرب وادي الصومام.

3 ابن ا اج النم ي، فيض العباب و افاضة قداح الأداب ا ركة السعيدة ا قسنطينة و الزاب دراسة و اعداد مد ابن شقرون ط1 الرباط 1990 ص 268.

4- ابن خلدون، **الع** ... كتاب الدول الإسلامية...ج1. ص.227.

*- معركة فحص سبيبة ب ا مادي وا لالي سنة 457هـ/1064م، انظر ابن خلدون العبر ، البكري البيان المغرب ، ابن الأثير الكلمل في التاريخ .

هلال في المغرب الأوسط[1]،مما دفع الناصر إلى ترك قلعة بني حماد وتحوله لبجاية.[2] وهذا ما أشار إليه أيضا "دوبيلي" و "جولفان"، حيث يفهم من كلامهما بأن تأسيس بجاية جاء كملجأ للحماديين هروبا من الهلاليين، غير أن هذا الرأي، وغن كان فيه جزء من الحقيقة فإنه يعتبر سببا ثانويا، لأن السبب الرئيسي في اعتقادنا ما ذهب إليه "الأستاذ بورويبة" وهو طموح الناصر بن علناس إلى فتح مدينة المهدية الذي سبق وإن استعصى عليهم، بدليل أن قلعة بني حماد لم تكن مهددة لا في عهد الناصر، ولا في عهد المنصور،حيث بقيت عاصمة ثانية للحماديين وشيدت فيها عدة مباني مشهورة، وإن عصر الانحطاط في القلعة يسجل في عهد العزيز بن المنصور.[3]

ولذلك يغلب على الظن بأن تأسيس بجاية جاء كقاعدة توسع لسلطانهم، وهذا ما يشير إليه علانية "ابن الأثير"[4] حيث يذكر: "...أن وزير الناصر بن علناس أبا بكر بن أبي الفتوح أرسل رسولا من عنده إلى تميم يعتذر، ويرغب في الإصلاح، فقبل تميم وأرسل إلى الناصر محمد ابن البعبع..." ثم يذكر أن مبعوث تميم حالف الناصر وأسر إليه أن: "تميم مشغول... ولو وصلت بعسكرك ما يتّ إلاّ فيها أي- المهدية... وأشير إليك بما تملك به المهدية وغيرها، وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية...فأجابه الناصر إلى ذلك...وسار مع الرسول إلى بجاية... فلما وصل الناصر إلى بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية، فأمر الناصر من ساعته بالبناء..." [5]

ولو أخذنا برواية ابن الأثير، لا تضح المغزى الحقيقي من التوجه الحمادي من داخل البلاد إلى الساحل وذلك بغية التوسع من جهة، وللخصائص الطبيعية التي تمتاز بها المدينة وحصانتها، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي الحساس الذي تمتاز به، مما أهلها لأن تكون قطبا من أقطاب الحضارة الإسلامية في الجزائر، ومركز إشعاع علمي وثقافي وحضاري في بلاد المغرب ككل و ذالك بفضل تحول التجارة من الطرق و المسالك

1- بورويبة، **الدولة ا مادية تار ها وحضارتا،** ديوان ا طبوعات ا امعية، ا زائر، 1977، ص54.

2- ابن خلدون، **العـ ...**، طبعة بولاق، 1284هـ. ج6. ص. 355.

3- بورويبة، مرجع سابق، ص. 68.

4- ابن الأث (ا زري)، **الكامل التاريخ**، ج12، طبعة القاهرة. 1353هـ، ص

5- ابن الأث ، مصدر سابق، ص. 48.

البرية ، الى الطرق و المسالك البحرية و تذكر النصوص التاريخية أن بجاية كانت معروفة تجاريا قبل نزول الحماديين فيها ، فضلا عن صلاحية و توفر الشروط الطبيعية للمنطقة من حيث بناء السفن بفضل غطائها النباتي من الأشجار، و هذا ما ساعد الدولة أنذاك على بناء السفن البحرية العسكرية و التجارية.

4 - لمحة تاريخية عن بجاية في العصر الإسلامي:

كان لموقع بجاية الساحلي الحصين ومرفأها الطبيعي أثر في ظهور عدة حضارات متنوعة، جعلت إستراتيجيتها غنية تاريخيا وهذا منذ أقدم العصور، ولذلك سنحاول التطرق إلى أوسع حقبة تاريخية عرفتها المدينة، وهي العصر الإسلامي الذي أثر فينا تأثيرا عميقا وصنع شخصيتنا المعاصرة.

جاء تأسيس بجاية من طرف الناصر بن علناس الحمادي في سنة 460هـ/1067م، وذلك قبل رحيل الحماديين من القلعة، حيث قام بإحاطة المدينة بسور وشيد قصر اللؤلؤة،ومباني ضخمة وسماها "الناصرية".

وتألقت سمعتها في عهد الحماديين، وعرفت عمرانا لا مثيل له، وفي عهد المنصور أتم بناء قصر اللؤلؤة الذي يعد من أعجب قصور الدنيا، كما بنى قصر النجمة وقصر أميمون، وبنى المسجد الجامع.[1] وفي عهد المنصور عرفت بجاية الاستقرار والرفاهية واشتهرت بعلمائها وبناياتها.[2] وكانت بجاية في العصر الحمادي دار صناعة السفن من كل الأنواع، وكان يجلب الخشب من المناطق المجاورة لها. ولقد وصف الإدريسي المدينة في عصره حيث قال: "إن مدينة بجاية في وقتنا هذا، هي مدينة المغرب الأوسط، والسفن إليها مقلعة، ولها القوافل متجهة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير، وبها من الصناعات والصنّاع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق وبها

1- أبو العباس أ د الغ ي ، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في ا ائة السابعة ببجاية**، قيق عادل نويهض، دار الكتاب اللبنا ، لبنان 1979، ص.7.

2- Idris (H.R), **La berbèrie orientale sous Zirides**, Paris, 1962, pp. 267- 270.

تحل الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان بكثرة، والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد".[1]

واحتلت بجاية بحكم موقعها الإستراتيجي أهمية اقتصادية وتجارية برا وبحرا، فعن طريق البحر كانت تستورد الفواكه والعنب من ميناء جيجل، كما كانت تتبادل السلع مع السفن القادمة من سوريا، وأوروبا، والإسكندرية بمصر، واليمن، والهند، والصين. وعن طريق البر، كانت بجاية ملتقى القوافل التجارية نحو المغرب والصحراء، كما كانت بجاية قاعدة بحرية للفتوحات تجاه بلاد الروم، حيث لا تبعد عنها صقلية إلاّ بثلاثة أيام بحرا.[2] ولذلك فبجاية لها ميزتان في العهد الإسلامي انفردت بهما: ميزة من حيث الموقع، وميزة أخرى من حيث تحول النشاط الاقتصادي في اتجاه الطرق البحرية، فهي مدينة ساحلية بالدرجة الأولى، وميناؤها من أكبر الموانئ بعد ميناء الإسكندرية على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، حيث كانت السفن تقصده من أوروبا والمشرق الإسلامي ومن الصين والهند.[3]

وكان للمدينة آنذاك مجموعة من الأبواب اندثر الكثير منها، ولم يبق إلاّ بابان هما: باب البحر، وباب البنود. ومن هذه الأبواب نذكر: باب أمسيون، وباب المرسى الذي يحتمل أن يكون في منطقة "بريجة السفلى"، وباب البنود الذي يقع في الجانب الشمالي الغربي، وكان المدخل الرئيسي للمدينة[4]، بالإضافة إلى باب اللوز الذي اقتحم منه بنو غانية القصبة، ثم باب البحر الذي يفتح مباشرة على البحر، حيث كان المدخل الرئيسي للسفن القادمة من البحر، وكذلك باب الجديد، وباب الدباغين.[5]

ولقد أعطى العبدري في كتابه: الرحلة المغربية، وصفا رائعا ومفصلا للمدينة في العهد الحفصي حيث قال: "...وهي كبيرة، حصينة، منيعة، شهيرة، برية وبحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان... رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في أسفل جبل وعر،

1- الإدريسي، **نزهة ا شتاق اختراق الآفاق، قسم ا غرب العر**، قيق مد ا اج صادق، باريس، 1983 ص ص 90-91.

2- Cambuzat (Louis Paul) ; **L'évolution des cités du Tell en ifriquia du VII au XI siècle**. Tome I. OPU. Alger 1986. p. 33.

3- عز الدين بو ياوي، مرجع سابق، ص.262.

4- عبد الواحد ا راكشي، **ا عجب تلخيص أخبار ا غرب**، قيق سعيد العريان، القارة 1963، ص.164.

5- الغ ي ، مصدر سابق، ص ص.69- 82.

مقطوعة بنهر وبحر ومشرفة عليهما إشراف الطليعة...فلا مطمع فيها لمحارب، ولا متسع فيها لطاعن وضارب، ولها جامع عجيب".[1]

ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة للمدينة، والازدهار الذي بلغته في عهد بني حماد،نجد أن بابا روما (كريكوار السابع)، كان يتودد للناصر، ويكاتبه مكاتبات يلاطفه فيها ويوصيه خيرا برعاياه من النصارى.[2] وبعد قدوم الحملة الموحدية وعلى رأسها عبد المؤمن بن علي سنة 546هـ/1152م،[3] أصبحت بجاية تحت راية الموحدين إلى غاية القرن 13م، ولقد تعرضت المدينة أثناء هذه الفترة إلى احتلال بني غانية. ثم استعادها الموحدون بعد ذلك، وعرفت المدينة أيضا في هذا العهد ازدهارا ورخاءً وتقدما تجاريا وعمرانيا.[4] وبعد سقوط الموحدين أصبحت بجاية تابعة للحفصيين. حين استقل أبو زكريا عن الحكم الحفصي بتونس سنة 629هـ/1298م، وكان الصراع قائما عليها ما بين بني عبد الواد من تلمسان الذين دخلوها عدة مرات والمرينيين الذين دخلوها سنة 746هـ.[5]

وفي ظل الحكم الحفصي، تمكن أمراؤها عدة مرات من التحرر من سلطان تونس وجعلوا من بجاية عاصمة لولاية مستقلة، وتمكنوا من صد هجمات بني عبد الواد والمرينيين.

وأثناء الاحتلال الاسباني، حاول "عروج" عدة مرات افتكاكها منهم خاصة سنة 1513م،[6] لكنه لم يتمكن من ذلك، إلى أن قام بعده "صالح رايس" سنة 1555م، من تحرير المدينة، واصبحت بجاية تابعة لبايلك الشرق منذ عام 1567م.[7] وهنا لابد أن نسجل أن مدينة بجاية، عاشت خلال العهد العثماني فترة تتسم بالعقم الثقافي، والانكماش الحضاري الذي يلاحظ على مستوى الإنتاج الفكري المفقود خلال هذه الفترة الطويلة

1- مد العبدري البلنسي، **الرحلة ا غربية**، قيق أ د بن جدو، نشر كلية الآداب ا زائرية، مطبعة البعث، قسنطينة د.ت. ص ص: 23. 24.

2- رشيد مصطفاوي، "تاريخ اية"، لة الأصالة، السنة الأو ، العدد الأول، مارس 1971، ص90.

3- ابن خلدون، **الع ...**، ج6، لبنان 1959، ص363.

4- الغ ي ، مرجع سابق، ص7.

5- نفسه ص 7.

6- Wintzer (P), **Bougie Place Forte Espagnole**, Alger 1932, pp. 213-220.

7- Gaid (M), **Histoire de Bedjaia et sa région**, SNED, Alger 1976, pp. 115-123.

وأخذ مجدها العلمي ينمحي جيلا بعد جيل دون أن يترك أي أثر .[1] و يعود ذلك في جانب منه الى تحول المدينة من عاصمة دولة الى مدينة عادية فقدت قيمتها.

5 - بجاية من خلال المصادر التاريخية:

نظرا للمكانة التاريخية والحضارية التي كانت تحتلها بجاية في عصرها، وقف كل مؤرخ رآها، أو سمع عنها، أو مر عليها فدون وصفه في ثنايا الكتب، ولذلك سوف نقتصر على ذكر الأهم منها:

- **البكري:** "...ثم مرسى بجاية أزلية آهلة عامرة بأهل الأندلس، بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون...مرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي الطويل...وجزيرة جربة قبل مرسى بجاية، ثم يلي مرسى بجاية، مرسى سبيبة".[2]
- **الإدريسي:** "مدينة بجاية على البحر، لكنها على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل يسمى أمسيون، وهو جبل سامي العلو، صعب المرتقى...ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد..." [3]
- **ابن خلدون:** "فلما افتتح هذا الجبل، اختط به المدينة وسماها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا وأسقط الخراج عن ساكنيها، وانتقل إليها سنة إحدى وستين، وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم." [4]
- **صاحب كتاب الاستبصار:** "بجاية هي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة أصحاب قلعة أبي طويل وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية...بينها وبين قلعة بني حماد مسيرة أربعة أيام... ولها داران لإنشاء السفن...وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم...ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والثمار، وجميع الخيرات...فيها قصور من بناء ملوك صنهاجة، لم ير الراؤون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا."[5]

1- Feraud (Ch), **Histoire de Bougie**, In. Revue Africaine,1858-1859, pp. 45-275-276.

2- البكري، **ا غرب ذكر بلاد إفريقية وا غرب**، بغداد، د.ت، ص.82.

3- الإدريسي، **نزهة ا شتاق اختراق الآفاق**، ليدن 1864، ص ص.90-91.

4- ابن خلدون، الع ، مصدر سابق، ص.226.

5- صاحب كتاب الاستبصار، نقلا عن إ اعيل العر ، **ا دن ا غربية**، ا ؤسسة الوطنية للفنون ا طبعية، ا زائر 1984 ص. 321.

- **العبدري:** "إن مدينة بجاية مبدأ الاتفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة، منيعة شهيرة، برية بحرية، غريبة المعاني، موضوعة في أسفل جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة، متحصنة بهما، منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب، ولها جامع عجيب منفرد في حسنه، من الجوامع المشورة، الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع سحرها ونحرها، فهو غاية في الفرجة والأنس، ينشرح الصدر لرؤيته، وترتاح النفس. وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية...وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل حلة من العلماء، والأعلام".[1]

وبعد استعراض هذه الأقوال لبعض المؤرخين، يتضح بأن المدينة قد بلغت شأنا كبيرا من التقدم والرقي في شتى المجالات في العصر الإسلامي، خاصة بموقعها الساحر الذي تغنى به الكثير من الشعراء، حيث اتخذت موقعا إستراتيجيا هاما يتسم بالحصانة الطبيعية، كما أدى ميناؤها دورا بارزا في تاريخ المدينة، اما عن عمرانها ومعالمها، فلقد وصفها البعض بأنها من عجائب الدنيا، خاصة قصورها التي تغنى بها الكثير، والزخارف الذهبية التي كانت تتوجها، وهذا الكلام كله دلالة على أن مرحلة بجاية في التاريخ الإسلامي بالجزائر، تمثل مرحلة الانفتاح والتحضر، والتألق الحضاري، وكل العوامل سابقة الذكر أهلت المدينة لتكون مركزا حضاريا وعمرانيا ببلاد الجزائر، وقطبا من أقطاب الحضارة الإسلامية، ومركز إشعاع علمي و ديني واسع المدى، وهذه بعض المقتطفات من أبيات بعض الشعراء الذين تغنوا بالمدينة. ففي باب الوصف والرحلات يقول "ابن الفكون": الرحلة من قسنطينة إلى مراكش:

فجئت بجاية فجلت بـ ـ ـ ـ دورا   يضيق بوصفها حرف الـ ـ روي.[2]

وفي باب الشعر والأدب نجد ذكر بجاية الناصرية من قبل "أبي علي الحسن ابن الفكون القسنطيني" من أدباء القرن 7هـ/13م.

1- البلنسي، مصدر سابق، ص.23.

2- مولاي بلحميسي، " اية حدائق الكتب"، الأصالة، عدد خاص، اية ء العصور، السنة الرابعة، العدد 19. مارس-أفريل 1974، ص97.

دع العراق وبغداد وشامـ ـ ـهما   فالناصرية ما إن مثلـ ـ ـ ـها بلد.
بر وبحر وموج للعيـ ـ ـ ـون به   مسارح بان عنها الهم والنكـ ـ ـد.
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع   حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد.
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف   قل: جنة الخلد فيها الأهل والولد[1]

6 - عمران بجاية في العصر الإسلامي:

تعطي النصوص التاريخية أوصافا رائعة عن عمران بجاية، وعمائرها في العهد الإسلامي، وإن كانت هذه العمائر بدأت تضيع تدريجيا في العهد الإسباني، إلى العثماني وما تبقى منها ضاع في العهد الفرنسي، وحتى النسيج العمراني للمدينة تغير جذريا، ولم يبق منه إلاّ أسامي الأحياء، والشوارع، والساحات، مما يدل على أن للمدينة تاريخ عريق ضاعت معالمه. ولقد أفادتنا الحملات الفرنسية للمدينة بذكر المعالم التي وجدوها قائمة أو مهدمة وحتى الشوارع، ونذكر منها على سبيل المثال هذه القائمة:[2]

1- **باب البحر:** ما زال قائما إلى يومنا هذا ويعود للعهد الحمادي.
2- **أقليم[*]:** فوق باب البحر، بمحاذاة الفندق البلدي الحالي.
3- **مباني على قمة بريجة،** هدمت وبنيت عليها ثكنات.
4- **سيدي أبي علي:** يقع فوق المقبرة المسيحية، وهو ضريح رمزي ما زال قائما.
5- **حي أشرشور:** ما يعرف قديما بحي خمسة عيون، هدم ولم يبق له أثر.
6- **القنيطرة:** حول زاوية سيدي تواتي، هدمت ولا أثر لها.
7- **سيدي عبد الهادي:** بالقرب من برج موسى.
8- **باب اللوز:** هدم كلية ولم يبق له أثر.
9- **باب المرقوم:** مقابل لجبل خليفة، هدم ولم يبق له أثر.
10- **عزيب بقشي:** حي قديم هدم، ويقع بالقرب من الخزانات الرومانية.
11- **حي كرامان:** بالقرب من الكنيسة الحالية.
12- **قاع الزنقة:** وهو شارع (تريزيل Trezel) حاليا..

1- مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص.105.

2- Feraud (Ch), Notes sur Bougie. In. Revue Africaine, 3ème année, N°13.1858. OPU, Alger. 1985, p.299.

*- أقلميم: يقصد به باللهجة ا لية مكان مع ا ياه.

13- **حومة الشيخ.**

14- **سيدي عبد الحق:** حي قديم كان يحتوي على بساتين أسفل المدينة بين باب البنود والقصبة.

15- **دار الصناعة أو ما يعرف بحي سيدي الصديق،** لم يبق له أثر، موجود على شاطئ البحر، كان مخصصا لصناعة سفن الأهالي.

16- **عين أمسيون:** يقع فوق حي خمسة عيون، تهدم ولا أثر له.

17- **عين إيلاس:** بالقرب من حي خمسة عيون. تهدم.

18- **عين بوخليل:** تهدم.

19- **سيدي حمي:** تهدم.

20- **بن دراع:** يقع بين عين إيلاس، وعين أمسيون، تهدم.

21- **تغيات:** بين خمس عيون، وبرج موسى، تهدمت.

ملاحظة:

إن الملاحظ حسب ما تذكره الكتب، بأنه كان بكل هذه الأحياء مساجد، ومصليات وزوايا تحمل أسامي الشخصيات المدنية و الدينية ونذكر منها:[1]

1- **الجامع الكبير:** موجود بالقصبة،تحول إلى ثكنة، ومخزن للأسلحة في العهد الفرنسي.

2- **جامع سيدي الموهوب:** اندثر، يقع في شارع سيدي الموهوب.

3- **جامع صفية:** اندثر.

4- **جامع عين ياس:** اندثر، وكان يقع بالقرب من عين ايلاس.

5- **جامع بريجة:** اندثر، وكان يقع بالقرب من الثكنات الفرنسية.

6- **جامع السوق:** بالقرب من سوق الخميس، وكان عبارة عن زاوية.[*]

7- **زاوية سيدي تواتي:** تحولت إلى ثكنة.

1- Feraud (Ch), op.cit, p.300.

*- ونعتقد أنه جامع سيدي عبد ا ق الذي دفن سوق ا ميس، وبه جامعا مل ا ه، كان القد جامعا، وزاوية.

8- **زاوية لالة فاطمة:** اندثرت، ولم يبق اليوم إلاّ اسم شارع يحمل اسمها. (شارع فاطمة ببجاية. La Rue Fatima).

9- **سيدي أحمد النجار:** بالقرب من برج سيدي عبد القادر الذي حول إلى ثكنة.

10- **سيدي البتروني:** هدم.

11- **سيدي الصوفي:** ما زال قائما، ويعرف بهذا الاسم إلى يومنا الحالي.

12- **بابا سفيان تسوري:** بالقرب من حي خمس عيون،كان قائما أثناء الدخول الفرنسي.

13- **سيدي عبد الهادي:** بالقرب من برج موسى. تهدم.

14- **لالة قورايا:** في أعلى الجبل، ما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

15- **سي الصديق:** بالقرب من دار الصناعة على شاطئ البحر، كان قائما أثناء الدخول الفرنسي.

16- **سيدي يحيى القرطبي:** في سهول بجاية، عبارة عن أطلال آنذاك.

17- **سيدي يحيى أبو زكرياء:** على طريق الميناء، ما زال قائما.

18- **سيدي الخيضر:** هدم.

19- **سيدي المليح:** هدم.

20- **سيدي أبي علي:** هدم. وهو قاض مشهور أيام الناصر بن علناس، وحوله كانت تتواجد آبار زمزم كما كان يطلق عليها.

21- **سيدي محمد أمقران:** ما زال قائما.

22- **أم عالمة:** بالقرب من بريجة، هدم ولم يبق له أثر.

23- **سيدي حماني:** هدم في 1849، على الجهة اليمنى لوادي الصومام.

24- **سيدي عيسى:** هدم، ويقع في أعالي زيقواط.

25- **جامع السيدة:** عبارة عن أطلال، وكان يقع بالقرب من أفران الجبس على طريق الميناء.

إن هذه القائمة التي قدمتها السلطات الفرنسية لوضعية المدينة وآثارها، والحالة التي وجدوها عليها، بالإضافة إلى ما حولوه هم أيضا من منشآت باقية، إلى مرافق ذات طابع عسكري، يوحي بحجم الدمار الذي لحق بآثار المدينة من العهد الإسباني إلى العهد

العثماني، ثم التواجد الفرنسي، مما جعل آثار المدينة اليوم انمحت، ولم تبق إلا في ذاكرة البجاويين، تنتقل من جيل إلى جيل، عبر شوارعها وأماكنها، وساحاتها التي تحمل أسماء أوليائها الصالحين و علمائها في العهد الإسلامي، وهذا ما يفسره المخطط العام للمدينة قبل العهد الإسباني (شكل2) والذي يعود في جزء كبير منه إلى عهد بني حماد، حيث اتخذ الناصر بن علناس المقيم حينذاك في خيمة بالمكان المعروف حاليا باسم (حصن كاوزيل)، والذي اتخذ اسمه الصحيح، وهو دار السلطان من العهد الحمادي[*]، ومن هذه الخيمة كان الناصر يصدر أوامره للتخطيط والتنفيذ.[1]

أما في العهد الإسباني، فتقلصت المدينة (شكل 3)، فأصبحت عبارة عن مثلث رؤوسه هي: القصبة، و برج موسى، وبرج سيدي عبد القادر.[2]

أما العثمانيون، فلم يفعلوا شيئا من شأنه أن يغير الوضع العمراني الذي خلفه الإسبان، ولكن اكتفوا بما وجدوه، ما عدا بعض التغييرات التي تدل على بصماتهم الواضحة في بعض المنجزات المعمارية، كقصبة بجاية على سبيل المثال[3] فلم يبق في عهدهم سوى إحدى عشر جامعا وزاوية هي:

جامع السوق، سيدي أحمد النجار، سيدي الصوفي، بابا سفيان تسوري، سي الصديق سيدي يحيى أبي زكريا، سيدي المرجاني، سيدي محمد أمقران، لالة قورايا، زاوية لالة فاطمة، وزاوية سيدي تواتي. (شكل 4).

وفي العهد الفرنسي، اندثر ما تبقى من هذه المعالم، والبعض الآخر حول إلى مبان عسكرية.[4]

7 - تعمير بجاية:

ونقصد بها رصد للحركة السكانية الوافدة على بجاية من حيث نوعيتها، وجنسها. والواقع أننا لا نستطيع أن نحدد التركيبة السكانية لبجاية في جنس بشري معين، بل كل الذين توافدوا عنها إلا وتركوا بصماتهم واضحة في حضارتها، كما كان لها أيضا أكبر

---

*- مكان نزول الناصر ببجاية يعرف اليوم ي دار الناصر.

1- إ اعيل العر ، **عواصم ب زيري**، ط1، دار الرائد العر ، ب وت، لبنان، 1984.

2- Naima (Abderrahim), **Essai de restitution urbaine de la ville de Bejaia**, thèse de Magistère. EPAU, Alger2002 …. P.72.

3- بو ياوي، مرجع سابق، ص273.

4- Naima (Abderrahim), op.cit, P.72.

الأثر في التألق الحضاري الذي بلغته المدينة لاسيما في العصر الإسلامي. فالسكان المحليون في بجاية كانوا من البربر وقبائلهم المنتشرة في حوض الصومام، والتي كانت المورد الأساسي لتعمير بجاية في عهودها الغابرة، وهناك من يذكر بأنهم من البربر ذوي الثقافة الرومانية والمسيحية، وهذا قبل دخول المسلمين إليها. [1](شكل 5).

ولقد أشار(كومبيزا) نقلا عن ابن حوقل إلى كلمة بجاية في القرن 4هـ/ 10م على أنها ميناء هام من موانئ افريقية، لكن المقدسي لم يذكر عنها شيئا فيما بعد.[2] ليس لبجاية تاريخ واضح المعالم إلا مع دخول الحماديين إليها في عهد الناصر حيث كانت تابعة لإقليم سطيف، وان كانت تتعاون مع شيعة كتامة، قبل أن تتحول إلى صنهاجة. ولذلك فبجاية لم تكن من المدن النشطة على الساحل فحسب، بل من المدن المفتوحة على المدن الداخلية (شكل 6). فكانت تتصل بسطيف عن طريق إستراتيجي، وهذا ما سيتدعم في منتهى القرن 3هـ/9م، وعندما قويت شوكة بنو هلال في المدن التلية فيما بعد، وعليه وجب الحفاظ على الطريق الذي يفصل القلعة عن الساحل عن طريق وادي الصومام وهذا قبل أن تصبح بجاية ميناء للقلعة، ثم مدينة قائمة بذاتها.

ولابد من الإشارة إلى أن دخول عرب بنو هلال إلى القلعة كان له أثر كبير في هجرة السكان، والعلماء، والمهندسين، والحرفيين، والفنانين الذين أنتقلوا إلى القلعة فيما قبل عند دخول الهلاليين إلى القيروان. وبهجرة هؤلاء إلى بجاية حملوا معهم علومهم، وخصائصهم الحضارية ليوظفوها في عاصمتهم الثانية بجاية التي ساعدها ميناؤها وموقعها الإستراتيجي الذي أعجب به الناصر.[3]

ولما بلغت بجاية مكانة هامة من التقدم، والرقي، استقطبت العديد من السكان من العالمين العربي والأوروبي، وحتى من الأندلس خاصة بعد حركة الاسترداد المسيحية وتضاعف عدد الهجرات التي تمتد من 606 هـ/1212م إلى898هـ/ 1492م بسبب سقوط الحواضر الكبرى بالأندلس كقرطبة سنة634هـ/ 1236م، وبلنسية سنة682هـ/ 1283م، وإشبيلية646هـ/ 1248م، وهذا أدى إلى نزول العديد من الأندلسيين على مدينة بجاية خاصة في عهد بني حفص، ثم تلمسان في عهد بني زيان، وهما المدينتان

1- Cambuzat (Louis Paul), op.cit, P.33
2- Ibid, p.33.
3- Hady (Roger Idris), **La berbèrie orientale sous les Zirides, Du X au XII Siècle**, Paris,1962. p.267.

اللتان كانتا تعدان من أهم المراكز الحضارية في المنطقة، وللعلاقات الزيانية الأندلسية السابقة من جهة أخرى.[1]

ولقد قدم الأندلسيون خدمات جليلة للعثمانيين ساعدت على تثبيت حكمهم بالجزائر كما ساعدتهم في التصدي للهجومات الإسبانية، والقضاء على الإمارات المحلية، كما تواجد الأندلسيون في فترة حكمهم الأولى في الإدارة والجيش، خاصة لمعرفتهم استعمال السلاح الناري.[2] كما أثر الأندلسيون أيضا في الحياة الثقافية وفي التعليم، والموسيقى. فقد احتكروا ميدان التعليم في بلاد المغرب خاصة في الحواضر، وأدخلوا خطهم على حضارة المغرب، واهتموا بتحفيظ القرآن، والحديث، والقواعد العامة لمختلف العلوم. أما التعليم العالي، فكان يعطى في المدارس والزوايا، ويشرف عليه كبار العلماء الأندلسيين واستمرت في العهد العثماني، ولكن بضعف، وذلك لانتشار الدروشة والخرافات.[3]

وكان للحضور الأندلسي في بجاية مساهمة في التنمية الاجتماعية، والاقتصادية والعمرانية، فقد استفادوا أيما استفادة من الخبرة العمرانية التي كانت بحوزة الأندلسيين المقيمين بأرض الجزائر.[4] كما أدخلوا أيضا بعض الفنون، كالنقش على الخشب، كما برعوا في الخياطة، والنجارة، والحدادة، وبنوا بعض القلاع، والحصون، وبعض المدن الساحلية. وامتزج الفن الجزائري بالفن الأندلسي، كما طوروا النمط الفلاحي، وذلك بإدخال تقنيات زراعية متطورة، فنتج عن التحام الأندلسيين بالسكان المحليين علاقة زواج وتجانس عرقي ولغوي وديني وحضاري.[5] فالسكان بالمدينة كانوا من قبائل كتامة الشيعية، وقبائل صنهاجة الذين كانوا ببجاية، والأندلسيون الذين كانوا في المدينة. وفي القرن 4 و5هـ/ 10 و11م حوت بجاية ما يفوق عن مائة ألف ساكن كلهم داخل الأسوار،أما في القرن 5هـ/ 11م فسكانها كانوا من التجار، والأثرياء، والحرفيين.[6]

1- بن حفري شكيب، **"موقف الدولة العثمانية من ا الية الأندلسية با زائر ما ب سنة 1571-1573م"**، الذكرى ا مسمائة لسقوط غرناطة 1492-1992، ج2، ت إشراف الأستاذ عبد ا ليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية وا وريسكية، زغوان، فيفري- 1993، ص.31.

2- نفسه، ص.32.

3- سعد ا أبو القاسم، **تاريخ ا زائر الثقا** ، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ا زائر، 1981، ص36.

4- الصادق دهاش، "تضامن ا زائر مع مسلمي الأندلس أيام ا نة الك ى 1492-1640م"، حوليات جامعة ا زائر العدد 14، 2001، ص.13.

5- نفسه، ص.14.

6- Cambuzat, op.cit, P.37.

وهكذا كان لكل من البربر، والعرب، والأندلسيين، والنصارى، والعثمانيين، أثرهم الكبير في تعمير بجاية، وإيصالها إلى ما وصلت إليه من مجد علمي، وحضاري، في بلاد المغرب، نافست به كبريات الحواضر الإسلامية في المشرق والمغرب، وحتى الأندلس، بل إنها استمرت حتى بعد سقوط كبريات العواصم الإسلامية آنذاك.

الباب الأول

المعالم الدينية ببجاية ونواحيها

الفصل الأول
المساجد

- تعريف المسجد
- نشأة المساجد في العالم الإسلامي
- المساجد و ضواحيها
- الجوامع داخل بجاية
- الجوامع خارج بجاية
- المساجد داخل بجاية
- المساجد خارج بجاية
- الخلاصة

تعريف:

1- المسجد في اللغة:

عرفت كلمة مسجد نطقا متعددا حسب تعدد الأقاليم، وتبعا للهجات القبلية المتوارثة، فنطقت الكلمة (مسجد)، كما نطقت (مسيدا) بكسر السين وفتح الميم،[1] ولكن تحديد المفهوم اللغوي للكلمة من فعل (سجد) أي خضع وانحنى إلى الأرض، وسجد يسجد، سجودا، أي وضع جبهته على الأرض.[2]

أما ابن منظور،[3] يقول بأن فعل سجد، بمعنى خضع، ومنه سجود الصلاة، ولا خضوع أعظم منه، لذلك جاءت كلمة السجدة بكسر السين، وسورة السجدة بفتح السين والمكان الذي تؤدي فيه السجد، يطلق عليه كلمة مسجد ، ومنه الآية الكريمة: "يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا وهم داخرون".[*]

2- المسجد اصطلاحا:

أما من حيث الاصطلاح، فإن المكان الذي تؤدى فيه الصلاة فهو مسجدا، ويذكر طه الولي بأن كلمة مسجد استعملها العرب في الجاهلية، وفي الإسلام، خاصة في النصوص النبطية، والصفوية، وتعني كلمة معبد.[4]

أما من حيث المفهوم الشرعي للمصطلح، فهو كل موضع من الأرض، طبقا للحديث النبوي الشريف: "جعلت لي الأرض مسجدا".[5]

و اذا كان المسجد تقام فيه الصلوات الخمس فقط، فإن الجامع بالإضافة إلى الصلوات الخمس تقام فيه أيضا صلاة الجمعة و الأعياد، و التي لا يجوز أدائها إلا في المساجد الجامعة التي تجمع كل المصلين و لذلك أطلق عليها كلمة (المسجد الجامع).

1- الزركشي، **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، تحقيق الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي، القاهرة، 1385هـ، ص.27 أنظر أيضا: طه الولي، **المساجد في الإسلام**، ص.136.

2- محب الدين مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، تحقيق علي يسري، دار الفكر، بيروت 1994 كلمة (مسجد) .

3- جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنشاء والنشر ، ط18، رجب 1300هـ/1900، كلمة (سجد)، ص ص. 187-188-189.

*- سورة النحل، الآية 48.

4- طه الولي، مرجع سابق، ص137.

5- الزركشي، مصدر سابق، ص ص27-28.

3- المسجد عمارةً:

لابد أن نذكر بأن عمارة المسجد قد عرفت تطورا مذهلا منذ التخطيط الأول لمسجد الرسول (صلعم) الذي كان بسيطا في عمارته، وتخطيطه، وحتى في عناصره المعمارية، لأن المسلمين كانوا منشغلين بالفتوحات الإسلامية، ولكن مع تطور العمارة، أدخلت على المساجد عناصر معمارية جديدة أخذت فيما بعد أهمية كبرى كالمحراب، وبقربه المنبر، ومقصورة الخليفة، أو الإمام التي ظهرت فيما بعد، والمئذنة التي لم تكن معروفة في جامع الرسول (صلعم)، والقبة، والصحن، والميضأة. وكانت بيوت الصلاة تحمل سقوفها على عقود ترتكز على أعمدة ودعامات، ثم أدخلت عليه زخارف رائعة من كتابات، وزخارف نباتية، وهندسية، حتى اتخذ المسجد الصورة التي لا يمكن للعين أن تخطئها ، وبذلك اعتبر رمزا من رموز المدينة الإسلامية والقلب النابض لها.[1]

نشأة المساجد في العالم الإسلامي:

تمتاز عمارة المساجد في العالم الإسلامي بأصالة لا نظير لها، لأن المسجد فكرة وروح، فالفكرة هي التي وضعها الرسول (صلعم) عندما بنى مسجده الأول، وأما الروح، فهي روح الإسلام. فالرسول (صلعم) أنشأ مسجده في المدينة بوحي من الإسلام وحده، دون النظر إلى عمارة كنيسة، أو بيعة، لذلك جاء مسجده في منتهى البساطة يستجيب لكل متطلبات الجماعة الإسلامية، و هذه هي الأصالة بذاتها.[2]

ومسجد الرسول (صلعم)، ليس الأول من حيث التسلسل التاريخي، بل سبقه مسجد (قباء) الذي أنشأه سعد بن خيثمة بناءً على رأي الرسول،وترسيمه، لكن الأثريون يجهلون تماما الشكل التخطيطي لمسجد قباء، ولذلك فكل المساجد استوحت نظامها التخطيطي من النظام المديني المتمثل في جامع الرسول (صلعم) الذي تتجلى فيه وضوح وأصالة وتطابق تام مع روح الإسلام، فالصلاة لها دين واحد هو الدين الإسلامي.[3]

---

[1]- عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة**، ط1، بيروت، 1988،ص ص. 381-382، أنظر أيضا: حسين مؤنس المساجد، ص53، طه الولي، مرجع سابق. ص.191.

[2]- حسين مؤنس، **المساجد**، سلسلة عالم المعرفة، العدد 37، الكويت، يناير 1981، ص.55.

[3]- أحمد فكري، **المسجد الجامع بالقيروان**، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، القاهرة 1936، ص.50.

ومع استقرار الدولة الأموية وعاصمتها دمشق، صاحب قيام الدولة آنذاك حركة معمارية نشيطة نذكر منها الجامع الأموي بدمشق ذي الطراز الشامي ببلاطاته الموازية لجدار القبلة، والمسجد الأقصى، ومع قيام الدولة العباسية ببغداد انتشرت ظاهرة بناء المساجد، وتنوعت عناصرها المعمارية بتنوع الأقاليم التي أنشئت فيها حتى ظهر الطراز المعماري الأصيل للمسجد الذي لم يخرج عن التخطيط الأول لجامع الرسول (صلعم) في المدينة من حيث جوهره، ولكن تطورت العناصر المعمارية بتطور العمارة في حد ذاتها.

ففي مصر وحدها، نجد أشكالا من القباب، والمآذن، والمحاريب، والعقود، حسب الدويلات التي حكمت مصر في العصر الإسلامي، من الفاطميين، إلى الأيوبيين والإخشيديين والطولونيين وأخيرا المماليك والأتراك الذين ظهر في عهدهم طرازا معماريا جديدا من حيث التخطيط وهو المساجد ذات القبة المركزية،وهذا النظام استحدث للتقليل من عدد الأعمدة والدعامات الموجودة داخل بيت الصلاة، والتي تعيق نظر المصلين واستحداثها بنظام جديد من التغطية، وهو استعمال عنصر القبة التي ترتكز على أعمدة متباعدة فيما بينها، وهي تغطي أكبر مساحة ممكنة من بيت الصلاة[1].

أما في بلاد المغرب فنجد أقدم مسجد جامع أقيم هو جامع القيروان بتونس و الذي أعطى كل مؤثراته المعمارية و الفنية إلى مساجد المغرب و الأندلس، و التي نستطيع أن نلمحها في كل من المسجد الجامع بقلعة بني حماد بالجزائر، و مساجد الفترات أللاحقة كمساجد الموحدين على سبيل المثال، و لقد تحدث عن ذلك الكثير من المختصين في مجال الآثار الاسلامية منهم : أحمد فكري على سبيل المثال الذي أفرد كتابا خاصا بجامع القيروان، هذا بالإضافة الى الدكتور عبد العزيز سالم

وهذا التنوع المعماري، أدى إلى ظهور طرز معمارية خاصة، كالطراز الأموي والعباسي، والأيوبي، وغيره، ويعتبر في حد ذاته مكسبا وثراء للعمارة الإسلامية.[2]

وإن كان الحديث لا يتسع لتتبع مراحل تطور المسجد، منذ نشأته،إلى آخر صورة وصل إليها لاتساع الموضوع، ولكن يمكننا تتبعه في جامع الرسول (صلعم) منذ أن كان بسيطا ومحليا، وتقليديا في عمارته، إلى ما هو عليه الآن من مآذن، وقباب، ورخام وزخارف تعكس تطور الفن الإسلامي، والمراحل التي قطعها في تاريخه.

---

[1]- Baelhadj (M), **Cezayir de Merkezi Kubbeli Camiler**, Thèse Magistère. Istanbul 1991, p.12.

[2]- طه الولي، مرجع سابق، ص.391.

المساجد ببجاية وضواحيها:

لا نكاد نجد قرية من قرى حوض الصومام تخلو من المسجد، بل كانت هذه المنشأة المعمارية عنصرا ضروريا ضمن التخطيط العام للقرى آنذاك (أنظر الجدول). إن أهميتها في القرية تأتي في المرتبة الثانية بعد عنصر وفرة المياه، فإلى جانب السقايات يأتي المسجد ثم باقي المساكن التي تتكون منها القرية. ولقد سمحت لنا الزيارات الميدانية المتعددة لمختلف الأماكن من قرى حوض الصومام عن وجود هذه المنشأة، والتي عادة ما تحتل قلب القرية، وفي أحيان أخرى، يكون بجنبها ضريح مؤسس القرية وزاويته ليكون ضمن تجمع عمراني يشمل الوحدات المعمارية الثلاث، كما هو الحال في كل من "تامقرة" و "آمالو"، و "تينبدار" وغيرها كثير.

ولقد تعرفنا على نمطين من تخطيط المساجد ببجاية، وضواحيها، النمط الأول: يتمثل في المساجد الجامعة التي تنتمي إلى طراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات، والتي انتشرت في الحواضر الإسلامية الكبرى آنذاك، كالقيروان على سبيل المثال،وهذا النمط المعماري في بجاية، يمثله المسجد الجامع في قصبة بجاية، والذي يعود إلى العهد ألموحدي، والذي نجد فيه معظم المواصفات المعمارية لمساجد كبريات الحواضر الإسلامية، وهي مساجد جامعة بها محاريب، وأعمدة، وعقود، وقباب، وعثرنا في قرية "أمالو" أيضا على مدى تطور فن العمارة الإسلامية حتى خارج بجاية الحاضرة آنذاك وما يمثل هذا الكلام مسجدها الأثري القديم الذي يعود تاريخه إلى القرن 9هـ/15م. ونموذج آخر من هذا النوع في قلعة بني عباس التي دخلها عبد المؤمن في القرن 6هـ/12م ضمن قاعدة توسعه في بلاد المغرب.[(1)] وهذا حسب اللوحة التأسيسية الموجودة على ضريح الشيخ الحاج محمد المقراني (صورة 4). وهذا المسجد يكتسي أهمية كبيرة من الناحية الأثرية، إذ يمثل مرحلة من الاستمرارية في التأثير الفني لبعض المظاهر المعمارية الموحدية عليه، وهناك مسجد آخر ببجاية نظام تخطيطه فريد من نوعه، وهو مسجد سيدي عبد الحق الأزدي الإشبيلي دفين بجاية من القرن 6هـ/12م والذي هو عبارة عن قاعة مربعة بها محراب، استعملت قديما للتدريس والصلاة في نفس الوقت.

---

[1] - مزيان وشن، **مجانة عاصمة إمارة المقرانيين**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2005، ص.52.

أما خارج هذه الحواضر، فنجد طرازا معماريا آخر، يختلف اختلافا كليا عن الطراز الأول المذكور، وهذا النوع الجديد ينتمي إلى النمط الثاني، وهو طراز المساجد الريفية، والتي اتسمت بالوحدة المعمارية والأصالة في كل القرى والمداشر التي تم زيارتها، وكأن نفس الطراز يتكرر باستمرار. ومن خصائصه، وجود رواق أمامي مسقوف يتقدم جدار القبلة على جانبيه دكانتين للجلوس أمامهما مدخلي الجامع الجانبيان وفي هذا الرواق الأمامي يوجد محراب صغير يسمى بالعنزة، ويؤدي المدخل إلى بيت الصلاة البسيطة في عمارتها والمتكون من محراب، ومنبر على شكل درجات في بعض مساجدها، وبعض الطاقات، والحنايا الجدارية التي استعملت لوضع الكتب، ولوازم المسجد. أما عن التسقيف، فهي من جذوع أشجار البلوط، والصنوبر، ومواد البناء من الحجر والطين، والجبس. وعلى هذا الأساس قمنا بإحصاء عام للمساجد الأثرية المنتشرة في بعض المناطق من حوض الصومام التي مازالت قائمة لحد الآن (أنظر الجدول). وأخذنا حسب القيمة الأثرية، والتاريخية بعض العينات من هذه المسجد، وقمنا بدراستها دراسة أثرية للوقوف على مدى التطور المعماري الذي عرفته المنطقة آنذاك والخصوصيات العامة التي امتازت بها، وقسمناها من منظورنا إلى نمطين: النمط الأول خاص بالمساجد الجامعة التي أخذنا عينات منها: جامع القصبة ببجاية، وجامع أمالو العتيق، وجامع قلعة بني عباس العتيق، وجامع سيدي عبد الحق ببجاية نظرا لخصوصياته، بالإضافة إلى الحديث عن جامع ملالة الأثري الذي التقى فيه المهدي ابن تومرت، مع عبد المؤمن بن علي، والذي لم يتبق منه سوى محرابه الذي يكتسي أهمية كبيرة في الدراسات الأثرية الإسلامية بالجزائر، وفي تنميط المحاريب في المساجد الجزائرية، والذي تبدو عليه تأثيرات الفن الموحدي التي ميزت القرن 6هـ/12م.

ومن النمط الثاني الذي تميزه المساجد الريفية، أخذنا بعض العينات منها: جامع "تامقرة" القديم 9هـ/15م، وجامع "بوديوان" في حي "أقمونن" بقرية بوحمزة، ومسجد "بني خيار" في ضواحي بني معوش، ومسجد "أسحنون" بقلعة بني عباس، والجامع العتيق بصدوق العليا. هذا مع التطرق إلى الخصوصيات العامة لهذه المساجد، ومقارنتها بأخرى لم تؤخذ كعينات للدراسة، وذلك في بعض المظاهر المعمارية المتشابهة.

1 - الجوامع داخل بجاية :

أ- المسجد الجامع بقصبة بجاية:

قبل التطرق إلى عمارة المسجد، لابد من إزالة الإشكال التاريخي له، حيث يقع داخل قصبة بجاية، وحسب مطالعتنا الخاصة، فإن عمارة القصبات لم تكن موجودة في بلاد المغرب قبل مجيء الموحدين، ولذلك فهي تعتبر جهازا معماريا جديدا يعبر عن شعار التوحيد الذي طالما نادى به الموحدون، فقصبة تونس على سبيل المثال.[1] جاءت لتجسيد شعار الدولة الموحدية ونفوذها، وسلطة تونس على إفريقيا قاطبة، شأنها في ذلك شأن قصبة لوادايا بالرباط بالمغرب الأقصى. ولو حاولنا التساؤل عن أهم العناصر المعمارية التي تتكون منها القصبة لوجدنا من بينها المسجد الذي يحمل شعار الأمة الإسلامية، وهمزة وصل بين الإنسان وخالقه. أما بالنسبة للجامع موضوع البحث، فهو يقع في الجهة اليمنى لمدخل القصبة (شكل 7).

وهناك إشكال تاريخي يحوم حوله، ولكن استنادا إلى قول الغبريني،[2] يفترض أن المسجد الجامع بالقصبة، هو ذلك المسجد الأعظم الذي ذكر في مورد زحف الموارقة على مدينة بجاية، هذا إذا سلمنا جدلا بان القصبة شيدت في القرن 6هـ/12م بما فيها المسجد الجامع ليتحول فيما بعد إلى المسجد الأعظم في عهد الحفصيين افتراضيا. وهناك نص لابن خلدون أثناء وصوله إلى بجاية سنة 766هـ تلبية لاستدعائه من أميرها الحفصي أبو عبد ا محمد إذ يقول: "...قدمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك، غدوت إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة، لا أنفك عن ذلك..." [3].

وعن زحف علي بن غانية الميورقي،[4] فيذكر في النصوص التاريخية: "...تقدم إلى القصبة، فاحتلها من غير قتال، وركز علمه الأسود بها...ثم يمم المسجد الجامع

1- Daoulatli (A), **La Casbah de Tunis, Institut national d'archéologie et d'art**, p.08.

2- الغبريني، مصدر سابق، ص.140.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، تحقيق محمد تاوتي الطنجي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1951، ص.98.

4- نسبة إلى "مايورقا" الإسبانية، ه من بقايا المرابطين الذين رفضوا الاعتراف بالدولة الموحدية، وحاولوا إحياء دولة المرابطين.

والناس في صلاة الجمعة فأحاطهم بجنوده..."،[1] ولقد ذكر الغبريني مصطلح كلمة جاء القصبة في عدة مرات في مؤلفه حيث كان يتردد على الخطبة بجامع القصبة المحروسة.[2]

ولعل المتصفح لمختلف كتب التاريخ التي تحدثت عن المنطقة، يجد بأنها تجمع على أن القصبة كان بها مسجدا جامعا ذكر في مختلف الكتب، وعلى مر العصور الإسلامية، ولكنه عرف بعض التعديلات والزيادات في العصور الإسلامية الأخرى التي مرت بها بجاية. ففيه درس ودرس العلامة ابن خلدون. وفي العهد العثماني عرف بعض التجديدات في عهد مصطفى باشا 1212هـ/1797م، وأطلق عليه آنذاك الجامع الكبير.[3]

أما من الناحية المعمارية، فإن المسجد من الخارج يتكون من أربع واجهات (صورة 5). تتألف الواجهة الجنوبية الشرقية من مدخل معقود يتوسطها، ويتقدمه درجة (صورة 6) و(شكل 8). أما الواجهة الجنوبية الغربية (شكل 9) فتبدو على شكل أربع وحدات مدببة الشكل تتبع اتجاه البلاطات الموازية للجدار الجنوبي. وتتكون الوحدة الأولى من نافذة مستطيلة تعلوها ثلاث فتحات معقودة، أما الوحدة الثانية فتتمركز فيها نافذة مستطيلة أيضا، بينما تتألف من باب تعلوه نافذة صغيرة الحجم ذات الشكل المستطيل.

أما من حيث النظام التخطيطي الداخلي للمسجد، فيتخذ شكلا مستطيلا تقدر أبعاده بـ19,35م طولا، و16,54م عرضا، ومساحته قدرها 320,05م^2 (شكل 10). والمسجد في نمطه يختلف عن أنماط المساجد المعروفة بصحن أوسط تحيط به أروقة، وإذا سلمنا بأن الجدار الجنوبي هو جدار القبلة، فإن المسجد يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة عرض كل واحدة منها 3,10م، ما عدا البلاطة الوسطى المستعرضة فعرضها 3,76م، وهذه تحمل ثلاث قباب مثمنة الشكل، وأربع بلاطات موازية لجدار القبلة عرض كل واحدة منها 3,10م، ما عدا البلاطة الأخيرة فعرضها 3,50م، وحددت البلاطات بواسطة دعامات مربعة الشكل (شكل 11) تحمل عقودا منكسرة ومتجاوزة بالإضافة إلى عقود نصف دائرية (شكل 12).

---

[1]- عبد الرحمن الجيلالي، "زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية 580هـ/1184م". مجلة الأصالة، عدد19، 1974، ص.34.

[2]- الغبريني، مصدر سابق، ص.140.

[3]- Feraud (Ch), **Notes sur Bougie**…p.296.

أما عن أسلوب التغطية في المبنى، فيتألف المسجد من ثلاث قباب مثمنة الشكل تمتد على طول البلاطة الوسطى العمودية على جدار القبلة، أما عن بقية التسقيف، فيتخذ شكلا جمالونيا هرميا يتألف من عوارض ولوحات خشبية من الداخل تغطيه صفائح من القصدير من الخارج، وغطي سقف القباب بسقف مسنم أيضا.

أما جدران المسجد الداخلية، فتتخللها فتحات، ونوافذ، وحنيات، وأبواب.

إن أهم الملاحظات حول هذا المعلم الأثري أن عرضه أكبر من عمقه، ويشبه في شكله المساجد التي شيدت في المشرق، كالمسجد الأموي في دمشق الذي أسسه **الوليد بن عبد الملك** سنة 86هـ/705م، وجامع الأزهر 361هـ/972م، فهو توزيع يشبه المساجد التي ظهرت في بداية العصر الإسلامي. فالمسجد عبارة عن بيت صلاة في شكله ويختلف عن النظام المعروف القائم على توزيع الوحدات على صحن أوسط، ونلاحظ على المسجد الكثير من التأثيرات الفنية القادمة من القيروان كشكل التيجان مثلا (صورة 7)، وكذا التأثرات الحمادية القادمة من القلعة، لأن الكثير من مظاهر الفن والعمارة في العهد الحمادي نلمحها في بجاية عاصمة الحماديين الثانية، وهذا ما يفسر استمرار الفن الحمادي في بجاية.

وما يمكن ملاحظته أيضا في المسجد، خلوه من عنصر المحراب الذي يغلب على الضن أنه اندثر أو تعرض للتغيير و التشويه مع ما أصاب الجامع من تغييرات في عصور لاحقة كما سبق الذكر، لأن سمك الجدار الذي يقدر بـ 0,80م يمكننا من الحصول على حنية مجوفة تؤدي وظيفة المحراب وموقع هذا الأخير باتجاه القبلة يسمح لنا بالإدلاء بهذا الرأي، واعتباره الرأي الأرجح.

هذا وينعدم أيضا بالمسجد عنصر المئذنة، ولكن يفترض أن الانكسار الموجود في الواجهة الجنوبية الغربية (شكل 13) يمكن أن يكون مكانا مخصص للمئذنة ، وعليه يمكن لهذا المكان أن يشغل مئذنة مربعة المسقط على غرار المآذن المغربية. وتجدر الإشارة إلى خلو المسجد من مختلف الزخارف، مما صعب تحديد الأسلوب الفني الزخرفي الذي قام عليه المسجد، مما جعلنا نكتفي فقط بالجانب المعماري للمسجد دون التطرق للجانب الزخرفي المفقود، وهو في نظرنا غير كاف لإلقاء أضواء أكثر على هذا المعلم الأثري.

وفي الأخير يمكننا أن نقول استنادا إلى بعض الدلائل المعمارية، بان أصل المسجد، والقصبة موحدي، ثم تعرض لتغييرات عميقة في العهد الحفصي، خاصة في البلاطة الأخيرة، ثم بدخول الإسبان بجاية، تعرضت معظم مبانيها الإسلامية بما فيها القصبة، وجامعها للتخريب تنفيذا لوصية (إيزابيلا) الكاثوليكية، وهي تمسيح شمال إفريقيا مما جعل (بدرو-نافارو) يعيد تشييد القصبة الحالية بأبراجها. وبدخول العثمانيين، أدخلوا بعض التجديدات على المسجد تتجلى بوضوح في العقد على شكل مقبض القفة الذي لا نجده في العمارة المغربية قبل مجيء العثمانيين (شكل 14)، وانتشر في عمائر العثمانيين بالجزائر.

ب- جامع ملالة:

ملالة إحدى القرى لتابعة لإقليم ولاية بجاية، وتقع على بعد 07 كلم جنوب مقر الولاية، وهي تابعة حاليا لبلدية وادي غير، وتعتبر هذه القرية منعرجا حاسما في قيام الدولة الموحدية، حين التقى المهدي بن تومرت بعبد المؤمن بن علي بإحدى مساجدها. وكان قبل ذلك قد حل المهدي بن تومرت ببجاية، ونزل في مسجد الريحانة، ثم بدأ دعوته هناك في محاربة ما لا علاقة له بالإسلام من مظاهر اجتماعية وأخلاقية ،علما أن بجاية كانت آنذاك مدينة كبيرة، ومركزا حضاريا متألقا، فاقت القيروان، وتونس، لاسيما في عهد بني حماد، كما نالت من رقة حياة الأندلس وترفها قدراً كبيراً، وهذا ما جعله يبدأ دعوته من هناك[1]. ونظرا لتشدده، طلب منه حاكم بجاية آنذاك مغادرة المدينة ، فكان له ذلك واستقر بقرية ملالة، وأقام هناك مسجدا أصبح الطلبة يتوافدون عليه من كل جهة، لكن (امبروسيو هويثي ميراندا) يذكر على أن أبناء العزيز هم الذين شيدوا له مسجدا صغيرا بملالة توافد عليه الطلبة من جهات مختلفة[2].

---

[1]- أبو بكر الصنهاجي البيدق ، **كتاب أخبار المهدي ابن تومرت**، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس، 1928 ص.52. عن قيام دولة الموحدين أنظر: مراجع عقيلة الغناي، **قيام دولة الموحدين**، منشورات، جامعة قاريونس، بن غازي 1988 ص271، بورويبة وآخرون، **الجزائر في التاريخ**، ج3، العهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984 ص304، وصالح بن قربة، **عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب**، وزارة الثقافة والسياحة، 1985، ص.16.

[2]- امبروسيو هوثي ميراندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، ترجمة عبد الواحد اكمير، منشورات الزمن، ط1، الدار البيضاء. (المغرب)، 2004، ص45.

وكان مكانه المفضل للجلوس في رحبة قريبة من المسجد، تحت شجرة من شجر الخروب يتأمل ويفكر[1]. وهذه الشجرة ما زالت لحد اليوم، وبالقرب منها بئر تعرف باسم (بئر الخروبة) هي مزار للتبرك من قبل أهل القرية، وسكان القرى المجاورة لغاية اليوم.

وإن المسجد الذي أقامه كان يعرف عند عامة الناس، باسم جامع سيدي يحيى، ويغلب على الضن أنه سيدي يحيى أبي زكريا الزواوي[2] (المتوفي 611هـ) ولكن لم يتبق من ذلك الجامع سوى آثار محرابه (صورة 08)، وهي جوفة نصف دائرية يعلوها إطار من الزخارف يقال أنها حديثة. أما الزخارف الموجودة أعلى قبيبة المحراب فهي أصلية فيه و هي عبارة عن معينات متشابكة تتشابه مع زخارف المنشآت المعمارية الموحدية خاصة مآذنها كما هو الشأن في مئذنة جامع حسان بالرباط، ومئذنة جامع الكتبية بمراكش، ومئذنة لاجيرالدا بإشبيلية.[3]

أما عن مادة بناء المحراب، فيبدو من الخارج بارز عن مستوى الجدار، ومبني من مادة الآجر المنتظم. ومن الملاحظات أن هذا الجامع غير موجه إلى القبلة، بل موجه خطأ إلى الجهة الجنوبية. وخارج جدار القبلة، وأمام بروز المحراب، يوجد قبر، يقال أنه قبر سيدي يحيى أبي زكريا، غير أن الغبريني، والورثيلاني في رحلته يشير إلى أنه دفن ببجاية، ولذلك يسمى عند أهل المنطقة بسيدي يحيى أبي قبرين.

هدم المسجد القديم ، وأنشأ مكانه مسجدا جامعا جديدا، يشغل تقريبا نفس الأبعاد التي كان يشغلها الجامع الأصلي، ويسمى الجامع الحديث، بجامع ابن تومرت (صورة 09)، وهذا في الستينات من القرن الماضي. ومن المؤسف أننا لم نتمكن من الحصول، ولو على صورة فوتوغرافية للمسجد القديم.

1- عبد العزيز سالم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1982 ص.687.

2- الغبريني، مصدر سابق، ص.135.

3- Golvin (L), **Essai**… Tome 4, p.277, Voir aussi **, L’Art Hispano Mauresque** (Terrasse)

عن زخارف المآذن الزيانية والمرينية أنظر:

Bouruiba (R), **L’Art Religieux Musulman en Algérie**, P187.

Bouruiba (R), **Apport de l’Algérie à l’architecture Religieuse Arabo.islamique**, OPU, Alger 1987, p.286.

وخاف هذا الجامع بناية مستحدثة يقال أنها خلوة سيدي يحيى. ومن الآثار القديمة بملالة ضريح سيدي محمد المراكشي (هكذا يعرف عند أهل المنطقة)، وذلك في أعلى قمة مشرفة على قرية ملالة، وهو ضريح لشخصية يقال حسب الروايات الشفوية، أنها مقربة جدا من المهدي ابن تومرت، وعبد لمؤمن بن علي، واتخذ من هذا المكان لحراسة القرية من قدوم أي خطر قد يهدد حياة الشيخين. ومن الناحية المعمارية، فهو ضريح بدون قبة، ويتشابه كثيرا مع الأضرحة الموجودة في قرى حوض الصومام (صورة 10).

وخاف هذا الجامع أيضا مقبرة قديمة جدا،، وتحوي العديد من القبور.

2 - الجوامع خارج بجاية :

أ - الجامع العتيق بأمالو:

بني جامع "أمالو" في القرن 9هـ/15م، ويقع في وسط القرية بجنب الضريح، والزاوية الملحقة به. تبدو واجهة الجامع من الخارج على شكل صف من العقود يتقدمه رواق مسقوف وظيفته أداء الصلاة أوقات الحر و الصيف، و لوقاية المصلين من مياه الأمطار و البرد شتاء (صورة 11)، وأما السقف من الخارج، فهو من القرميد. ويعلو جدار الواجهة الشرقية الرئيسية للمبنى صف من أشكال هندسية زخرفية على شكل كوابل. ويبدو المحراب من الخارج بارزا عن جدار القبلة. وأمام مدخل الجامع دكانة تستعمل لجلوس المصلين أسفلها ثلاث حنايا، ويعلوها حنايا مدمجة بالجدار، يعلوها عقود نصف دائرية، ويقابلها بالجهة الأخرى دكانة مماثلة.

أما من الداخل، فيلي المدخل مباشرة بيت الصلاة الذي ينتمي إلى نمط المساجد ذات الأعمدة والدعامات (شكل 15) و (صورة 12). يرتكز سقف المسجد على أعمدة دائرية تعلوها تيجان بسيطة تنطلق من أعلاها أربعة عقود. والملاحظ في الجامع أن كل تاج يحمل أطراف عقود أربعة، مما جعل الجامع يبدو وكأنه غابة من الأعمدة والدعامات (صورة 13).

يتوسط جدار القبلة محراب بسيط نصف دائري، يعلو إطاره زخرفة هندسية بسيطة (صورة 14). وعقد المحراب مفصص مزخرف بزخارف هندسية عبارة عن دوائر ومثلثات مقلوبة وهي أصلية في الجامع، وأعلى المحراب نصف قبة مضلعة. ويتوسط

المحراب من الداخل فتحة على شكل مزاغل لإدخال الضوء والتهوية، ويكثر بجدار المحراب والمسجد ككل الحنايا المدمجة والمسطحة، ويغلب على الظن أنها تستعمل كخزائن جدارية لحفظ كتب المسجد.

ويوجد بالمسجد من الجهة الشمالية مدخل كان مخصصا لصلاة النساء في المناسبات، حيث كان يوضع ستار للفصل بينهن وبين الرجال، ويتكون المسجد من صفين من الأعمدة الموازية لجدار القبلة، حيث قسمت بيت الصلاة إلى ثلاثة أساكيب موازية وخمس بلاطات عمودية على جدار القبلة.

ومن العناصر الملفتة للنظر في المسجد نذكر الأعمدة والتيجان (صورة 15)، والمحراب، والعقود نصف دائرية (صورة 16). أما المنبر، فهو من الخشب، ولقد نقل في السنوات الأخيرة إلى بجاية حسب الروايات الشفوية.

وعموما يبدو الجامع في حالة جيدة من الحفظ، ونسجل فيه غياب عنصر المئذنة والقبة، وطريقة تسقيفه من الداخل عبارة عن عوارض خشبية محلية، أما من الخارج فينتمي إلى طراز السقوف الجملونية المائلة، باعتبار أن المنطقة تكثر فيها نسبة التساقط. ومن الملاحظات المعمارية، أن الجدار الغربي للجامع من الخارج، قد دعم بدعامات خارجية على شكل أكتاف، وذلك لتقوية المبنى، وهذه ظاهرة معمارية قديمة في العمارة المغربية ابتدعها المعمار لتدعيم مبانيه كما هو الحال في جامع القيروان بتونس.[1]

ب- المسجد الجامع بقلعة بني عباس:

تقع قلعة بني عباس في سلسلة جبال البيبان، شمال غرب مدينة برج بوعريريج وهي تابعة لولاية بجاية. أسس القلعة عبد الرحمن،([2]) في النصف الثاني من القرن 15م، وانتقل إليها السكان من جبال عياض بالحضنة، وذلك بعد خراب القلعة على يد عرب بنو هلال،[3] وهذا يوحي بأن القلعة كانت قائمة منذ عهد الحماديين، ثم أصبحت فيما بعد مملكة لبني العباس.

1- أحمد فكري، مرجع سابق. ص 70 .

2- يحيى بوعزيز، **ثورة عام 1871**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص.43.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر**... مج6، القسم الأول، لبنان 1968، ص ص 52-53-255-296.

وتحتل القلعة موقعا إستراتيجيا حيث بنيت على صخرة كبيرة، وبها مجموعة كبيرة من المباني، كالمساجد، والمساكن، وسور المدينة، وأبوابها، وأحيائها التي مازالت لحد الآن. غير أن أهم معلم فيها، هو مسجدها الجامع الذي يتوسط القرية، والذي يحمل اسم مسجد "أحمد مقران"، وهو السلطان الأول لإمارة بني العباس في القرن 9هـ /15 م، والذي وافته المنية سنة 1510م، وقبره موجود بداخل بيت صلاة المسجد المعروف في القلعة بمسجد (أحمد سحنون) والذي كان سابقا محل زيارة، وتقديس من بني العباس[1].

أما من الناحية المعمارية للمسجد، فيتخذ شكلا مستطيلا (شكل 16). يتم الدخول إلى بيت الصلاة عبر مدخلين في مؤخرة المسجد.و يتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وأربعة أخرى عمودية عليه، وصفان من الدعامات المستطيلة الشكل (صورة 17) وكل دعامة تحمل أربعة عقود ذات فصوص صغيرة (arc à lambrequin) (صورة 18) كالتي وجدت في مباني الموحدين، وعلى واجهة مآذنهم كالكتبية بمراكش، وحسان بالرباط، ولاجيرالدا بإشبيلية ومحاريبهم، كم هو الحال في جامع تنمل.[2]

وهذا النوع من العقود المفصصة المنكسرة، والمتجاوزة، نجدها في العقود الموازية لجدار القبلة و هي عقود ذات تقاليد مغربية و أندلسية كما هو معروف، و نجدها في جامع تنمل، و مراكش، وقد تكون من الظواهر الفنية المعمارية التي ورثوها عن العمارة الأندلسية، إذْ كانت موجودة في عهد الحكم المستنصر بن الناصر الأموي سنة 965هـ،[3] وقد تكون من آثار الموحدين بالقلعة، لأن عبد المؤمن دخل القلعة الحمادية بالمسيلة و استقروا بها بعد أن قتل من كان يحكم بها من بقايا بني حماد، و لعل الكثير من التحف الفنية الموحدية التي عثر عليها بقلعة بني حماد و المحفوظة بمتاحفنا دليل على ذالك. ولقد ساهم السكان في استقرار وانتعاش حضارة الموحدين إلى أن سقطت[4]،(شكل 17 و18)، وهذا ما يفسر باستمرار التأثيرات الفنية الموحدية حتى بعد سقوط دولتهم.

1- Marmol, **Le royaume de L'Abbès, in. Encyclopédie islamique**, T3. p.499.

2- Golvin (L), **Essai sur l'architecture religieuse musulmane**, T4, (l'Art Hispano-Mauresque), Editions Klincksieck 1979, p269, Voir aussi : Terrasse (H), **L'art Hispano Mauresque**.

3- محمد الطيب عقاب، **لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990 ص.25.

4- مزيان وشن، مرجع سابق، ص.52.

ويتوسط جدار القبلة محراب نصف دائري معقود بعقد منكسر يقوم على عمودين جانبيين من الرخام يعلوهما إطار. أما عن عقد المحراب، فهو عقد متعدد الفصوص الصغيرة (صورة 19)، ويعلو المحراب من الداخل نصف قبة بها زخارف على شكل محارة، وهذا النوع شائع الاستعمال في جامع القيروان، وحتى في الأندلس[1]. و موجود في جامع قسنطينة من العهد الحمادي.

ونجد أمام المحراب غرفة المنبر يتقدمها أيضا عمودان يعلوهما عقد شبيه بعقد المحراب، وتتخذ غرفة المنبر شكلاً مستطيلاً يدخل إليها منبر خشبي، به عجلات خشبية أيضا، وهذا ما يذكرنا بالمنابر المتحركة التي كانت موجودة في العهد المرابطي، كجامع تلمسان على سبيل المثال (صورة 20). ويعلو المنبر، والمحراب معا، شريط به فتحات صغيرة متناوبة على شكل صف، كما نجد فتحتان واحدة في المحراب و أخرى في المنبر وظيفتهما الاضاءة و التهوية و هما على شكل مزاغل. وفي ركن الجدار الجنوبي لحائط القبلة، باب المئذنة الذي يؤدي إلى أعلاها، وهي مئذنة دائرية المسقط، وبدنها أسطواني، وكذا جوسقها (صورة 21) وهذا النوع من المآذن غير معروف في الجزائر، في عصوره الأولى خاصة إذا سلمنا بأن الطراز الأصيل لمآذن المغرب الإسلامي، هو المآذن المربعة ، ويغلب على الظن بان هذا الشكل بالذات دخل بتأثير عثماني إلى الجزائر ونجد مثال هذا الشكل في زاوية "تينبدار" بسيدي عيش من القرن 10هـ/16م، وكذا في بعض مآذن الجزائر العاصمة من العهد العثماني[2].

وتجدر الإشارة إلى أن المسجد، رغم التجديدات، والترميمات التي أدخلت عليه، إلاّ أنه احتفظ بكثير من خصائصه المعمارية. وتتوزع على جدران المسجد من الداخل خزائن جدارية لوضع المصاحف. ومن الملاحظات التي لم نجد لها أثرا في المساجد الأخرى بالمنطقة، هو وجود رواق يلتصق بجدار مؤخرة المسجد، نجهل وظيفته، وبه سلم يؤدي إلى السدة الخاصة بصلاة النساء، وبهذا الرواق يوجد أيضا مدخل.

ومن الملاحظات المعمارية التي يمكن أن نسجلها في هذا الجامع، أنه يعلو المدخلان لبيت الصلاة عقدان مفصصان على كل مدخل (صورة 22)، وهي شبيهة

[1] - أنظر أحمد فكري، مرجع سابق، ص93.

[2] - عبد الكريم عزوق، **تطور المآذن بالجزائر**، دار زهراء الشرق للطباعة والنشر، القاهرة، 2006، ص.90.

بالموجودة في بيت الصلاة، وترتكزان على عمودين من الجص، ومن الداخل في بيت الصلاة، نجد عقدان مفصصان متراكبان الواحد تلو الآخر. أما من الخارج فسقف المسجد الجامع مائل ومن القرميد. وفي الأخير نشير إلى أن الجامع تحفة فنية، في هذه المنطقة الجبلية المعزولة، وما زالت تؤدى فيه الصلاة إلى يومنا هذا.

ج- الجامع العتيق بصدوق العلوي:

تقع دائرة صدوق على بعد حوالي 50 كلم جنوب شرق مدينة بجاية و على مقربة من واد الصومام و غير بعيدة عن دائرة أقبو و اغزر أمقران. و تضم صدوق قريتان، العليا وهي القديمة والأصلية والتي فيها آثار الشيخ الحداد وما قبله، أما صدوق السفلى، تأسست في العهد الفرنسي. ويقع الجامع موضوع الدراسة في قلب القرية العتيقة بصدوق العلوي وسط مساكن تقليدية قديمة وغير بعيدة عن دار الشيخ الحداد وخلوته.

يؤدي المدخل إلى صحن المسجد غير منتظم الأضلاع، وبه دكانة لجلوس المصلين، وفي أحد أركانه حنفية للماء، وعبر الصحن ندخل إلى بيت الصلاة من باب يتقدمها سقيفة مستطيلة (صورة 23). يتوسط جدار القبلة محراب نصف دائري مزخرف ببلاطات خزفية حديثة تحمل زخارف هندسية وآيات قرآنية، إلى جانب منبر خشبي مستحدث، على شكل كرسي مكون من ثلاث درجات. يقسم بيت الصلاة أربع أعمدة دائرية إلى رواقين موازيين لجدار القبلة، وإلى خمس بلاطات عمودية عليه (شكل 19).

يتخلل جدران المسجد فتحات مستطيلة، وأخرى معقودة، يبدو أنها تستخدم لوضع لوازم وكتب المسجد، ويتوزع على جدرانه نوافذ في مؤخرته، وأخرى في الجدارين الشمالي والجنوبي، وللمسجد مدخلان يقعان في الجهة الشرقية منه.

والملفت للانتباه في طريقة تسقيف المسجد، أنه يعلو الأعمدة الأربعة أوتاد خشبية كبيرة عمودية على جدار القبلة، ومدمجة في مؤخرة جدار القبلة، يعلوها طاقات معقودة بعقود حدوية ومفتوحة، وهذه الطريقة تتكرر فوق كل عمود من الأعمدة (صورة 24). وهذه الطريقة ربما استحدثت لرفع السقف إلى مستوى أعلى، أو قد يكون لغرض زخرفي، وهذه الطريقة نفسها، عثر عليها في جامع سيدي إبراهيم أعمار بقرية بوحمزة.

وسقف الجامع من الخارج بالقرميد المائل، ولقد تعرض إلى بعض التجديدات في

عصور لاحقة، لكنه لا يخرج من حيث طابعه العام، وتخطيطه عن المساجد الريفية التي ميزت المنطقة والتي تؤرخ بالقرن 9هـ/15م.

3 – المساجد داخل بجاية:

أ- مسجد سيدي عبد الحق ببجاية:

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ الفقيه الفاضل أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد ا بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الاشبيلي أحد علماء بجاية، والمعروف عند أهل بجاية بسيدي عبد الحق الذي خلّف عدة مؤلفات في الحديث، والأحكام، واللغة والشعر، خاصة في الزهد، وفي أمور الآخرة.

ولد في ربيع سنة 510هـ، ثم رحل إلى بجاية بعد سنة 550هـ، وتوفي سنة 582هـ[1]، وقبره خارج باب المرسى، أي خارج أسوار بجاية في سوق الخميس، حيث كان يدرس، وهذا حسب كل من الورثيلاني، والغبريني، وهو من القبور المزارة اليوم للتبرك بها، والتي خلدت بجاية اسمه بمسجد مازال إلى يومنا، وفيه أملى ديوانه، وخدم المدينة كثيرا من الناحية العلمية[2].

ولذلك فإن الأعمال المنجزة في المسجد كشفت عن وجود قبر حوله شريط من الكتابة على مادة الرخام، ضاعت ثلاث قطع منه، ولم يبق إلا واحدة محفوظة في الجامع ومحتواها: [...محمد وسلم تسليما كل نفس ذا...] وهي الآيات والتبركات التي كانت تكتب على شواهد القبور في تلك الفترة[3] (صورة 25). وهذا يجعلنا نؤكد وجود قبر سيدي عبد الحق في هذا المكان بالذات، وأنه دفن داخل المسجد الذي كان يدرس فيه، وهذا حسب ما يشير إليه الغبريني بأن تاريخ وفاته كان مكتوبا في رخامة عند قبره. وان بعض النصارى أخذ هذه الرخامة إلى بلاده، ولكن تشاءم بها، وأرجعها إلى مكانها الأصلي، ثم سرقت بعد ذلك، ولم تعد[4].

1- الغبريني، مصدر سابق، ص.75.

2- محمد الشريف واشق، "نظرة تاريخية حول الحركة الثقافية في مدينة بجاية"، مجلة الصومام، عدد خاص بملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية في 8-15 جويلية 1985، ص.28.

3- أنظر : عبد الحق معزوز، الكتابات الكوفية في الجزائر بين القرنين 2-8هـ/8-14م.

4- الغبريني، مصدر سابق، ص.75.

ومن الناحية المعمارية،المسجد عبارة عن مصلى حي كان يدرس فيه العالم البجائي سيدي عبد الحق، أما عن تخطيطه فإن المسجد مستطيل يمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي و يتكون من قاعتين: السفلى بها ثلاث مداخل (صورة 26)، اثنان منها من ناحية الشرق، وأخرى من ناحية الشمال، وبيت الصلاة صغير المساحة بها محراب عبارة عن حنية نصف دائرية، ومنبر قديم من الخشب (صورة 27)، وعلى يمين المحراب غرفة صغيرة الأبعاد، ربما تكون مقصورة الإمام، وهي في جهة القبلة (شكل 20). ومؤخرة بيت الصلاة، فيها حنايا مسطحة كبيرة، أما الجهة الجنوبية من بيت الصلاة، فأعلى الجدار صف من حنايا مسطحة، ومدمجة بالجدار استعملت الآن كخزائن لحفظ الكتب في المسجد، وهي قديمة أيضا (صورة 28).

أما عن أبواب المسجد، فهي من الخشب وقديمة جدا، يعلوها عقد نصف دائري أما مقصورة الإمام بها قبر سيدي عبد الحق، وبها مدخل خاص بالإمام من الخارج. وعبر سلم خارجي بقرب مدخل مقصورة الإمام، يتم الارتقاء إلى الطابق العلوي الذي يحتوي على قاعة مماثلة للسفلى، ولكن بدون محراب، ولا منبر، وبها فتحات للإضاءة والتهوية وبالموازاة مع هذه القاعة العليا، يوجد رواق به مدخل معقود يؤدي إليها. وللإشارة فإن السلم الرابط بين الطابقين مستحدث في الأربعينات من القرن الماضي، وكانت القاعة العليا قديما لها مدخل خاص، يؤدي مباشرة إلى الرواق المذكور، ومنه إلى القاعة، لكنه سد في فترات لاحقة، ومازالت آثاره ظاهرة للعيان.

أما عن ميضأة الجامع التي لا نجدها في معظم المساجد المدروسة، فهي قديمة جدا، وتقع خلف جدار مؤخرة الجامع، ولها مدخلها الخاص (صورة 29).

ومن الملاحظات حول هذا الجامع الذي يقع في قلب بجاية، أنه يخلو من عنصر المئذنة، والقبة، ووجود قاعتان متراكبتان، السفلى منها مسجد للصلاة، والعليا الآن عبارة عن سدة لصلاة النساء. وإن كانت السفلى معلومة الوظيفة، وهي مسجد، بالإضافة إلى قاعة لتدريس الطلبة، فإن العليا، نتسائل إن كانت في الأصل أيضا خاصة بالتدريس، أو لنوم الطلبة، أم كانت سدة في أصلها. وما يمكن تأكيده أن هذا الجامع يقع في حي الخميس بقلب مدينة بجاية كما ذكره المؤرخون، ومازال يؤدي وظيفته لحد الآن، وهي الصلاة وتحفيظ القرآن.

أما عن تسقيف المسجد من الخارج، فلقد تم رفع القاعة العليا بحوالي 80سم واستبدال القرميد التقليدي القديم، بقرميد حديث. أما من الداخل، فهي من ألواح خشبية، أما القاعة السفلى من الداخل، فسقفت بألواح خشبية مسطحة قد تكون أصلية في البناء.

4 - المساجد الريفية خارج مدينة بجاية:

أ- المسجد القديم بتامقرة:

تقع قرية تامقرة التي تشكل إحدى القرى الهامة من حيث المادة الأثرية في حوض الصومام على بعد 27 كلم من الناحية الجنوبية الشرقية لدائرة أقبو التي تتبع لها حاليا. أما عن مسجدها فيعد من أقدم المساجد في المنطقة،إذا يعود تاريخه إلى القرن 9هـ/15م، ويتوسط قلب القرية القديمة،بجوار ضريح سيدي يحيى العيدلي وزاويته. ومن الناحية المعمارية، يلاحظ على المسجد من حيث طابعه العام أنه يخلو من عنصر المئذنة والقبة (صورة 30)، ومن حيث المظهر الخارجي، فالواجهة الرئيسية للمسجد وهي الشرقية، عبارة عن مدخل تليه واجهة من أربعة عقود نصف دائرية، وكل عقدين يرتكزان على عمود بسيط (صورة 31)، ثم يليه مدخل من الجهة المقابلة يؤدي مباشرة إلى مقصورة الإمام (الشكل 21).

يتقدم المسجد رواق مسقوف به محراب، ويعتقد كثيرا أن هذا الرواق كانت تؤدى فيه الصلاة أيام الحر، أو أيام رمضان حين يكثر المصلون بالمسجد. ومن هذا الرواق يوجد مدخلان يؤديان إلى بيت الصلاة، الذي هو عبارة عن مخطط بسيط جدا في عمارته، وخال من أية زخارف فنية، أو معمارية، ما عدا بعض الحنايا الجدارية التي كانت تستعمل لحفظ ألواح القرآن، أو مصاحف، وكتب المسجد.

يتوسط جدار القبلة محراب حنيته نصف دائرية يتوسطها مزغل في الأعلى، وعلى جانبيه نافذتان متناظرتان لإدخال الضوء والتهوية (صورة 32). وفي جدار مؤخرة المسجد ثلاث حنايا مسطحة، يعلوها فتحة صغيرة لإدخال الضوء، وتسمح بمرور التيار الهوائي.

ومن الأشياء الملفتة في عمارة هذا المسجد، هي طريقة تسقيفه، وهي طريقة تقليدية معروفة في المنطقة، وفي الكثير من مساكنها، وهي عبارة عن عارضة وسطى أصلية في

البناء، وهي من خشب الصنوبر، يتخللها عوارض خشبية أخرى، ثم يوضع فوقها أوتاد خشبية، يوضع فوقها مادة التراب، ثم يوضع القرميد.

أما عن مواد بناء المسجد، فهي من الحجر والتراب، ويلبس بالجبس، أما عن تسقيفه من الخارج، فهو بالقرميد الحديث، لأن المسجد تعرض للقَنْبلة في العهد الاستعماري مما أثر على إعادة تسقيفه من الخارج.

ونسجل في هذا المبنى خلوه من العقود، والمنبر، إلى جانب خلوه من عنصري المئذنة والقبة، وعلى العموم فعمارته محلية تقليدية وبسيطة.

ب- مسجد بوديوان ببوحمزة:

يقع المسجد بحي إقمونن بقرية بوحمزة التي تبعد بحوالي 30كلم شمال شرق دائرة أقبو التي تتبع لها ، وحسب الروايات الشفوية لكبار المنطقة *، فإنه أقدم مسجد أقيم بالقرية، ويتوسط من حيث الموقع بنايات سكنية لمساكن تقليدية قديمة جدا حسب مظهرها العام ومواد بنائها.

ويؤرخ حسب الروايات الشفوية نقلا عن الأئمة و الشيوخ الدين تداولوا على امامة المسجد ما بين القرنين 6هـ/12م، إلى 7هـ/13م. ومن حيث المظهر الخارجي العام (صورة 33)، فهو يذكرنا لأول وهلة بمسجد تامقرة القديم. واجهته الرئيسية عبارة عن خمسة عقود نصف دائرية ترتكز على أعمدة مربعة بسيطة (صورة 34) يتقدم جدار المحراب، رواق مسقوف على جانبيه دكانتين لجلوس المصلين. وللمسجد مدخلين في كل جانب. أما حائط القبلة من الخارج به فتحات للإضاءة، والتهوية ولا يوجد بروز للمحراب من الخارج، والمسجد أعيد تسقيفه في عصور لاحقة، وهي من القرميد.

ومن الملاحظات المعمارية التي لا نجدها في مساجد أخرى، وجود الصحن في هذا المسجد ولكنه يتقدم جدار القبلة و الرواق الذي يليه، وهو صحن غير منتظم الأضلاع، وأعيد تجديده في عصور لاحقة. وكان الماء يجلب إليه من منابع مائية قريبة، ويوضع في خزانات للتوضأ واستعماله من قبل الطلبة الذين يتوافدون على المسجد للدراسة، علما أن هذه المنشأة المعمارية، كانت عبارة عن مسجد، وزاوية للتدريس أيضا.

أما من الداخل (شكل 22)، فيؤدي المدخل مباشرة إلى بيت الصلاة، وهي عبارة عن صفين من الأعمدة نصف دائرية متجاوزة، تسير بموازاة جدار القبلة، وهذه العقود ترتكز مباشرة على أعلى الأعمدة (صورة 35).

ويتوسط جدار القبلة محراب مسطح الحنية، وهذا النوع من المحاريب غير منتشر في العمارة المغربية، فالشائع في محاريب المغرب الإسلامي، المحاريب ذات الحنية نصف الدائرية، أو الحنية المضلعة[1]. ولنا أن نتسائل عن أصل هذا الشكل الهندسي للمحراب، لأن محاريب المغرب لم تخرج عن الشكل التقليدي المشترك بين محراب جامع القيروان، وجامع المهدية اللذان أثرا في الكثير من أشكال المحاريب في العمارة المغربية.[2]

ويعلو المحراب عقد نصف دائري به شريط من زخارف على شكل عقود صغيرة متناوبة، وهي زخرفة هندسية، أما إطار المحراب به زخارف هندسية، وعلى الجانب الأيمن للمدخل منبر عبارة عن حنية مسطحة في الجدار أمامها درجين، وهذا النوع من المنابر على شكل درجات، ميزة من مميزات المساجد الريفية ببجاية، وحتى في بعض المساجد الصحراوية، خاصة في منطقة الأغواط. [3]

ويعلو المحراب حنية جدارية مسطحة، ومما يلاحظ على الجامع كثرة الحنايا الجدارية المتعددة الأشكال، والأحجام، والتي كانت تستعمل لوضع الكتب ومستلزمات المسجد، بالإضافة إلى بعض الفتحات المنتشرة على أعلى جدران بيت الصلاة.

---

[1] - أنظر: -Bouruiba, **L’art Religieux Musul** ..,p.161.

- / / , **Apport de l’Algérie**…pp : 149-153.

* معلومة مستقاة من السيد عمراوي محند أكلي 88سنة امام مسجد بوحمزة.

[2] - سليمان مصطفى زبيس، "**المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامي**"، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس 18-29 ماي 1963، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، 1965، ص.553.

[3] - علي حملاوي، **نماذج من قصور منطقة الأغواط**، دراسة تاريخية- أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006، ص.214.

أنظر أيضا: علي حملاوي، "نماذج من منابر الجوامع العتيقة بالقصور الصحراوية"، حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 13 2003، ص ص. 71-77.

تسقيف الجامع أعيد، ولم يبق منه إلا العوارض الخشبية، خاصة العارضة الوسطى منها وبعض العوارض الأخرى.

المسجد يخلو من القبة، والمئذنة، ووجود منبر بسيط على خلاف مسجد تامقرة دلالة على أنه مسجد ويؤدي وظيفة جامع عند الضرورة و في نفس الوقت. أما عن مادة بنائه، فهي الحجر والتراب، ولبس الجدار بالتراب الأبيض الأملس و المنقى من الشوائب و المعروف عند أهل المنطقة باسم (أمليل)، ثم يطلى بالجبس، أما الأعمدة، والدعامات، فهي من الجبس الممزوج بالتراب والحجر وضع على شكل قوالب وهذه المواد البنائية محلية ما عدا الجبس فكان يجلب من تامقرة، ولذلك فإن عمارته محلية وبسيطة شأنها كباقي المنشآت الريفية في حوض الصومام.

والجامع الآن أغلق في التسعينات من القرن الماضي، ولم يعد يستعمل للصلاة رغم حالته الجيدة أثريا.

وبنفس القرية أيضا مسجد آخر، يحمل اسم سيدي إبراهيم أعمار، و هو أحد تلامذة سيدي يحيى العيدلي، من القرن 9هـ/15م دفين قرية تانساوث التي تبعد عن قرية بوحمزة ببضعة كيلومترات ناحية الشمال أين يوجد ضريحه هناك، وهذا المسجد يقع بحي إشكريذن، ويحمل مواصفات هذا المسجد الذي قمنا بدراسته (صورة 36)، وحتى بيت صلاته (الشكل 23) بأعمدتها، ومحرابها (صورة 37)، و (صورة 38)، غير أن الشيء الملفت للانتباه في مسجد سيدي إبراهيم أعمار ببوحمزة انه يوجد بالقرب من المسجد غرفتان متراكبتان، العليا منهما كانت تستعمل كبيت السبيل والسفلى كمربط للحيوانات.

ج- مسجد بني خيار (بني معوش):

تصنف قرية بني خيار ضمن القرى المهجورة عن آخرها، فلم يتبق منها إلا أطلال لمساكنها، وأسوارها (صورة 39)، كما بنيت في أعلى قمة جبل أشتوق، شأنها، شأن قرية ترونة ببني معوش، والتي لا تبعد عنها إلا ببضعة كيلومترات (صورة 40). وتبعد بني خيار عن مركز بلدية بني معوش بحوالي 07 كلم جنوب شرق، على مقربة من الحدود مع ولاية سطيف.

ومن مبانيها التي مازالت قائمة، ومحتفظة بأصولها المعمارية، مسجدها الذي يقع بالقرب من المدخل الشمالي للقرية، وموقعه في هذه النقطة يطرح تساؤلات، لأن معظم المساجد التي زرناها في المنطقة تقع في وسط القرى.

و قد يكون موقع المسجد بالقرب من مدخل القرية دليل على أنها كانت مركز عبور للقوافل التجارية و عابري السبيل حتى لا يتمكن الغريب عن القرية من الدخول إلى وسطها و ذلك حفاظا على حرمة القرية و ساكنيها. و من ناحية أخرى كان يلحق بالمسجد قاعات للتدريس عبارة عن مدارس قرآنية يفد إليها الطلاب من كل جهة و غير مقتصرة على أهل القرية فقط.

و قد تكون هذه الأسباب هي التي تحكمت في موقع المسجد في هذا المكان.

ومن الناحية المعمارية الأثرية، يبدو المسجد محافظا على عمارته ، فمن الخارج تبدو واجهته الرئيسية عبارة عن صف من الأعمدة مربعة المسقط، تحمل صفاً من العقود نصف دائرية متجاوزة (صورة 41). يؤدي المدخل إلى رواق أمامي على جانبيه مدخلان شمالي وجنوبي يؤديان بدورهما إلى رواق أمامي آخر مسقوف. وبالجهة الشمالية دكانة لجلوس المصلين يعلوها عقدان مفتوحان، أما بالجهة المقابلة غرفة صغيرة يرجح بأنها بنيت لتكون ميضأة يعلوها سدة، قد تستعمل لوضع حصائر المسجد وأثاثه، وفي هذه الظاهرة اختلاف للمساجد التي توجد في نهايات رواقها الأمامي المسقوف دكانتين متناظرتين لجلوس المصلين، ويتخلل هذا الرواق الأمامي المسقوف عنزة صغيرة مع نفس المحور مع المحراب مما يوحي بأن هذا الرواق قد يستعمل للصلاة في أوقات معينة.

سقف المسجد من الخارج بالقرميد، وينتمي إلى السقوف المائلة، لأن المنطقة باردة شتاءا، وحارة صيفا. ويبدو بروز المحراب من الخارج وبه فتحة صغيرة للإضاءة والتهوية (صورة 42).

ومن الجهة الشمالية والجنوبية، مدخلان يؤديان إلى بيت الصلاة الذي يتخذ شكلا مستطيلا (شكل 24) غير منتظم الأضلاع. والمسجد صغير، ويتوسط جدار القبلة فيه محراب عقده نصف دائري، به زخارف هندسية بسيطة (صورة 43)، على جانبيه درجتين تستعملان كمنبر، وهذا يوحي أيضا بأنه كان جامعا تؤدي فيه الصلوات الجامعة. يقسم بيت الصلاة ثلاث دعامات دائرية، واثنان جانبيتان مدمجتان مع الجدار وكلها تحمل

عقود نصف دائرية، تقسم بيت الصلاة إلى بلاطتين مستطيلتين على جدار القبلة وأربعة عمودية عليه (صورة 44).

جدران المسجد من الداخل يتخللها خزائن جدارية عبارة عن حنايا غائرة في الجدار، يعلوها عقد نصف دائري، هذا بالإضافة إلى بعض النوافذ المفتوحة لإدخال الضوء والتهوية. أما طريقة التسقيف من الداخل، فهي معمولة بعوارض خشبية من شجر الصنوبر، وهو شائع الاستعمال في المنطقة، وفي تسقيف المساجد الأخرى والمباني.

ومن المميزات العامة لهذا المسجد، والتي تنطبق على مميزات المساجد الريفية الأخرى، أن واجهته الرئيسية تتطابق مع واجهة مسجد تامقرة، وبوحمزة، ونفس الملاحظة يمكن أن تنطبق أيضا على شكله التخطيطي، كما أن المسجد يخلو من عنصر المئذنة والقبة، والمنبر عبارة عن درجتين، وهي ظاهرة انتشرت في المساجد الريفية والصحراوية في الجزائر كما سبق الذكر.

ومن الملاحظات العامة أن المساجد الريفية التي لم تكن تستعمل للتدريس، نجد ملتصق بها مدرسة قرآنية، كما هو الشأن في مسجد بني خيار الذي يحاذيه مدرسة قرآنية أطلالها قائمة لحد الآن، وتتكون من طابقين، يتم الصعود إلى الطابق الأعلى عن طريق سلم، ويجهل إن كان هذا الطابق مخصصا كمسكن للمدرس، أو لوظيفة التدريس أيضا.

ويوجد بقرب هذه القرية أربع مقابر قديمة جدا، تبدو قبورها مع نفس المستوى مع الأرض، وهذا ما يوحي بقدم القرية من الناحية التاريخية، إذ يعود تاريخها حسب الروايات الشفوية إلى حوالي 600 سنة.

وأسفل هذه القرية، توجد قرية أخرى اسمها القلعة، وهي محاطة بسور مازالت آثاره لحد الآن (صورة 45). وبالقرية مسجد مازال قائما، ولا تؤدى فيه الصلاة، وهو صورة طبق الأصل لجامع بني خيار.

د- مسجد أسحنون بقلعة بني عباس:

لا يخرج هذا المسجد في إطاره العام، عن نمط المساجد الريفية التي انتشرت في المنطقة ، ويبدو من خلال مخططه ، وأعمدته طابع الأصالة الذي ميز العمارة الريفية للمنطقة ، ويكتسي أهمية تاريخية وأثرية كبيرة، والمسجد لا يوجد به منبر، ويبدو انه مسجد حي فقط (الشكل 25)، ويحتل موقعا في المدينة غير بعيد عن المسجد الجامع. وللمسجد مدخلان في جدار القبلة (صورة 46).

يتقدم جدار القبلة سقيفة مغطاة كما في مثيلاتها في المساجد الريفية الأخرى، وتحمل كل دعامة أربعة عقود (صورة 47). يوجد ببيت الصلاة صفان من الأعمدة، بكل صف ثلاثة أعمدة دائرية المسقط، تقسمه إلى أربع بلاطات عمودية على جدار القبلة، وثلاثة موازية له. ويحتوي جدار القبلة على فتحات للإضاءة والتهوية، وفتحات صغيرة مدمجة بالجدار لوضع القناديل للإضاءة ليلا، بالإضافة إلى لوازم المسجد.

سقف المسجد من الخارج مائل، ومن القرميد القديم، أما من الداخل، فعبارة عن عوارض خشبية من الصنوبر أصلية في البناء (صورة 48)، لكن استعمال القصب في السقف مستحدث.

إن الظاهرة الجديدة في هذا المسجد بالمقارنة مع المساجد الريفية المدروسة، هو اختراق الأوتاد الخشبية للعقود في جهاته الأربعة، وهذا لتقوية المبنى وتدعيمه وتماسكه (صورة 49). ويعلو المدخلان الجانبيان صف من ثلاث فتحات مستطيلة للإضاءة والتهوية.

ومن علامات قدم المسجد، شكله التخطيطي، وعناصره المعمارية، بالإضافة إلى وجود مقبرة قديمة جدا من خلال شكل قبورها. وجدار المسجد من الخارج مدعم بدعامات على شكل أكتاف لتدعيم المبنى، لأن المكان الذي بني فيه عبارة عن منحدر (صورة 50) وهذه ظاهرة معمارية استعملت في العديد من الأبنية القديمة مثل جامع القيروان و القصر الزيري بأشير و جامع المنصورة بتلمسان.

الخلاصة:

يبدو من خلال استعراض هذه النماذج من المساجد الجامعة، والمساجد الريفية، أن المنطقة قد سجلت حضورها القوي في الحضارة العربية الإسلامية، من خلال مبانيها التي تتسم بالتطور المعماري أحيانا و بخصائص و مميزات تجعل منها موضوع يعبر عن مجتمع قروي ريفي بسيط يعيش حياة متقشفة بعيدا عن مظاهر الترف و روح الفخامة التي هي سمة من سمات حياة المدن، وبالمحافظة على الطراز المحلي التقليدي في تخطيط المساجد أحيانا أخرى.

وتكاد معظم مساجدهم تخلو من الزخرفة، وإن وجدت، فهي لا تتعدى بعض التشكيلات الهندسية كالمثلثات، والدوائر، وأشرطة ذات حبيبات، بالإضافة إلى المعينات المتشابكة، وبعض الخطوط المتعرجة (شكل 26). فالأشرطة ذات الحبيبات وجدت في الزخارف الجصية لسدراتة، كما كانت موجودة في الفن الأموي، والعباسي على حد سواء، حيث وجدت بأنقاض المدن العباسية كالرقة وسامراء، وهي عناصر معروفة في العالم الإسلامي.

وتكاد معظم هذه المساجد تخلو من العناصر المعمارية المألوفة في عمارة المساجد كالمآذن، والقباب، والمنابر، وتلك الزخارف الخطية لآيات قرآنية، وعبارات تبركية،ولكن رغم ذلك خلقت لنفسها طرازا معماريا أصيلا يتكرر في كل القرى، وأرياف حوض الصومام، شأنه في ذلك شأن المسكن التقليدي الذي يتكرر شكله التخطيطي في كل منطقة من مناطق حوض الصومام.

قائمة المساجد الأثرية ببجاية وضواحيها

الموقع	المعلم	الاسم	التاريخ	الملاحظة قائم - مهدم
بجاية	جامع (القصبة)	جامع القصبة	6هـ/12م	قائم، لا يؤدي وظيفته
بجاية	الجامع	جامع سيدي عبد الحق	6هـ/12م	قائم، تؤدي فيه الصلاة
ملالة	جامع	سيدي يحيى	6هـ/12م	تهدم ولم يبق منه إلاّ محرابه
آمالو	جامع	الجامع العتيق سيدي أحمد بن يحيى	9هـ/15م	قائم، لا يؤدي وظيفته
تامقرة	جامع	سيدي يحي العيدلي	9هـ/15م	قائم، يؤدي وظيفته
تامقرة	جامع	الجامع العتيق	9هـ/15م	قائم، يؤدي وظيفته
بوحمزة	جامع	جامع بوديمان	9هـ/15م	قائم، لا يؤدي وظيفته
بوحمزة	جامع	سيدي إبراهيم	9هـ/15م	قائم، يؤدي وظيفته
صدوق	جامع	الجامع العتيق (صدوق العليا)		قائم، يؤدي وظيفته
بني خيار	جامع	الجامع العتيق	9هـ/15م	قائم، لا يؤدي وظيفته
القلعة (بني معوش)	جامع	الجامع العتيق		قائم، لا يؤدي وظيفته
ترونة (بني معوش)	جامع	الجامع العتيق		قائم، لا يؤدي وظيفته
تاقنيث (إغيل)	جامع	الجامع العتيق		
بني سراج	جامع	الجامع العتيق	9هـ/15م	اندثر وبني مكانه جامعا

				جديدا
بلعيال	جامع	الجامع القديم	9هـ/15م	قائم، يؤدي وظيفته
تينبدار (سيدي عيش)	جامع	جامع سيدي موسى	10هـ/16م	تهدم ولم يبق له أثر إلا مئذنته
بني حلاسة	جامع	المسجد القديم		قائم، يؤدي وظيفته
أقمون	مسجد	المسجد القديم		قائم
قلعة بني عباس	جامع	الجامع الكبير (لوطة علي)	9هـ/15م	قائم، يؤدي وظيفته
قلعة بني عباس	جامع (حي مصلى)	مسجد أوسحنون (حي أقني)		قائم، لا يؤدي وظيفته
قلعة بني عباس	جامع (مصلى حي)	مسجد سيدي مرزوق (حي تازايرت)		أطلال، اندثر
قلعة بني عباس	جامع (مصلى حي)	مسجد أوسار (حي بوقطن)		قائم، ظرفي الاستعمال
قلعة بني عباس	جامع (مصلى حي)	جامع أعمر أبو جمعة (حي تيزي)	13هـ/19م	قائم، بداخله قبره
قلعة بني عباس	جامع (مصلى حي)	جامع أث قرابة (حي أث قرابة)		أعيد بناؤه في فترة الاستقلال بعد قنبلته
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	سيدي أحمد أو مفتاح (حي آيت عيسى)		قايم، ظرفي النشاط
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	سيدي الحبيب (حي بوقطن)		أطلال
قلعة بني عباس	جامع	سيدي محرز	(16-17م)	أطلال

	(مصلى)	(أسفل باب البرج)	(10/11هـ)	
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	سيدي سليمان		أطلال
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	جامع أوفلا		
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	جامع توزاغين		تهدم
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	جامع سيدي الموهوب (حي ابعرار)		قائم
قلعة بني عباس	جامع (مصلى)	جامع سيدي أمحمد (حي تابريط)		قائم
بني مليكش	جامع	الجامع العتيق (بني فضيلة)		قائم لا تؤدى فيه الصلاة

الفصل الثاني
الأضرحة

- تعريف الضريح
- نشأة الأضرحة في العالم الإسلامي
- أنواع الأضرحة
- المسميات التي أطلقت على الأضرحة
- الأضرحة ببجاية و نواحيها
- نماذج من الأضرحة ببجاية
- نماذج من الأضرحة خارج بجاية
- الخلاصة

تعريف الضريح:

1- لغة:

الضريح كلمة مشتقة من فعل (ضرح)، وهو بمعنى القبر حفره، أو شقه، ويقال للميت حفر له ضريحا، والجمع أضرحة، وهي المبنى الذي يقام على قبر الميت[1].

2- اصطلاحا:

أما عن الإصلاح العام لكلمة ضريح، فهو المكان الذي يدفن فيه ولي صالح، أو سلطان، أو شخصية، أو أي إنسان آخر له مكانة اجتماعية مرموقة تدعو إلى تخليد ذكراه[2].

3- عمارة:

الضريح هو الحجرة المشتملة على قبر، أو تربة تعلوها قبة، وقد ميز البعض بين القبر الذي هو حفرة الميت، وبين التربة التي هي بناء مقام فوق القبر، الذي أخذ في العصر الإسلامي أشكالا عديدة،كان منها البسيط الذي يتألف من كومة من الحصى، أو التراب بشاهد أحيانا أو بغير شاهد أحيانا أخرى، ومنها المبنى المرتفع الذي تفنن المعماريون فيه.[3]

والشكل العام للضريح، عبارة عن حجرة مغطاة بقبة، وبتحويل المسقط المربع إلى دائرة، عملت منطقة انتقال تطورت خلال العصور الإسلامية. أما عن القبة فتنوعت أشكالها من المشرق إلى المغرب، وقد تنوعت الأضرحة، فمنها البسيط المنفرد، والبناء المتكون من غرفة واحدة مقببة، ومنها الملحقة بمدرسة، أو بجامع، وقد يكون بالضريح محرابا، أو مصلى.[4]

1- ابن منظور المصري، **لسان العرب**، مج 11، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1955، ص526.

2- عبد الجواد توفيق، **تاريخ العمارة والفنون الإسلامية**، ج3، المطبعة الحديثة، القاهرة، 1972، ص74.

3- عاصم محمد رزق، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، القاهرة، 2000، (كلمة ضريح).

4- عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص256.

4 - نشأة الأضرحة في العالم الإسلامي:

لقد تعددت أساليب بناء القبور منذ فترة ما قبل التاريخ، حيث وجدت مدافن على شكل مسكن، وهي عبارة عن مناضد حجرية، تتكون من عدة غرف، وأشكال أخرى عبارة عن مغارات في الصخور، وفي العمارة المصرية، ظهرت عمارة الأهرامات والمصاطب، ونفس الفكرة ظهرت في حضارة وادي الرافدين، وفي العصر الإغريقي ظهرت عمارة المعابد، وفي العصر الروماني، ظهرت بعض أنواع من الأضرحة عبارة عن أقبية تحت الأرض أو ما يعرف بالكاتاكومبس أو الديماس في العمارة القديمة و ذلك نسبة الى أحد القديسين (سان سيباستيان) الملقب بكاتاكومبس[1]، ثم المقابر التذكارية المستديرة، ثم الأضرحة الهرمية.[(2)]

أما في العهد الإسلامي، فإن الثابت أثريا أن الأضرحة موجودة، وتزخر بها بلاد الإسلام مشرقا، ومغربا، وإن كانت مفقودة في صدر الإسلام، والعهد الأموي، فمن المحتمل أن ذلك راجع إلى حالة التقشف في حياة المجتمع، وقلة موارده خاصة في عهد الخلفاء الراشدين. مع العلم أنهم في هذه الفترة كانوا حديثي عهد بالإسلام، فخوفا من أن يؤثر ذلك على عقيدتهم، ويبعدهم عن عبادة ا باتخاذهم هذه القبور كمزارات يعظمونها ويلجأون إلى عبادتها[(3)].

أما عن العهد الأموي، فليس لنا أثرا باقيا يدل على بنائهم للأضرحة، فقد تكون أضرحتهم اندثرت، وخربت من قبل العباسيين بعد الاستيلاء على حكم الدولة الإسلامية أو أنهم لم يبنوا أصلا أضرحة لملوكهم وحكامهم.[(4)]

ولذلك فإن أقدم أثر لضريح في الإسلام، يعود إلى العهد العباسي، وأقيمت فوقه قبة ويرجع تاريخه إلى القرن 3هـ/9م، وذلك في قبة الصليبية في سامراء بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة، ويرجح أنه يضم رفاة الخليفة العباسي المنتصر المتوفي سنة

---

[1] عفيف بهنسي، تاريخ الفن و العمارة . المطبعة الجديدة دمشق 1976 1977 ص 213.

[2] - عبد الجواد توفيق، مرجع سابق، ص.32.

[3] - عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية**، دراسة أثرية ومعمارية وفنية، دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية جامعة الجزائر، 1999، ص ص 356-357.

[4] - نفسه، ص.357.

245هـ/862م أقامته له أمه اليونانية الأصل.[1] ثم يأتي ضريح إسماعيل السماني المبني عام 296هـ/907م في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي بالنجف، الذي بناه الحمدانيون 317هـ، ثم ضريح حمد بن موسى في مدينة قم بإيران عام 366هـ، ثم ضريح السبع بنات في الفسطاط بمصر سنة 400هـ.[2]

أما في بلاد المغرب، فقد وجدت مجموعة كبيرة من الأضرحة على قبور الأولياء، والعلماء، والمتصوفة والحكام، ولكن أغلب هذه الأضرحة مجهولة التأسيس.[3] في بعض الأحيان مجهولة حتى للأشخاص الذين دفنوا بها و اذا كان المرنيون و الأشراف السعديون في منطقة المغرب الاسلامي أكثر ما أقبل من الحكام المغاربة على الدفن في الأضرحة المبنية ، فإن المغربين الأوسط و الأدنى اقتصر في غالب الأحيان على بناء الأضرحة على قبور الصلحاء و الزهاد و المتصوفة و العلماء و هم خاصة الأمة الذين خدموها.

أما عن التصميم المعماري لهذه الأضرحة، فقد اتخذ الشكل التقليدي المعروف، وهو مربع فوقه قبة، وعلى واجهاته الأربع فتحات عبارة عن عقود، واستعمل هذا التخطيط لأول مرة في باليرمو بصقلية.[4]

وفي بعض الأضرحة الأخرى، يوجد صحن ذي بوائك تمتد أمام غرفة القبر، كما هو الحال في أضرحة بني مرين، وبني زيان بتلمسان، مثل ضريح سيدي أبي مدين، وضريح سيدي إبراهيم كأحسن مثال عن ذلك.

وقد عرفت الجزائر هذا النوع من العمائر، حيث انتشرت على كامل التراب الوطني، والملاحظ أنها تكثر كلما اتجهنا ناحية الغرب.

ولقد أسهم الجنرال (كوفي- CAUVET) في محاولة لدراسة الأضرحة في شمال إفريقيا في إفادتنا ببعض التفاصيل البسيطة حول الأضرحة، حيث أشار إلى كثرتها في شمال إفريقيا، وقال عنها بأنها بنايات جنائزية صغيرة، ومقببة، وذات أشكال متعددة،

---

[1]- Hoag (J-d), **L'Architecture Islamique**, Gallimard, Electa, Paris, 1982, p.26.

[2]- محمد ماهر سعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**،ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971، ص70.

[3]- Marçais (G), **L'Architecture musulmane d'occident, Arts et Métiers Graphiques**, Paris 1954, p.300.

[4]- Ibid, p.300.

ومحلية حسب كل منطقة، حيث أشار إلى أن بمنطقة وهران وحدها، أكثر من مائتي ضريح، أو قبة تحمل اسم سيدي عبد الرحمن الجيلاني.[1]

5 - أنواع الأضرحة:

لقد وضع الجنرال (كوفي- CAUVET) تقسيما للأضرحة على النحو التالي:

- أضرحة ذات قباب نصف كروية.
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة، إما مغطاة بسقف مسطح، أو بسقف يعلوه قرميد.
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرميد.
- أضرحة ذات قباب مخروطية.
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرافات، وهو تأثير مغربي أندلسي، بدأ انتشاره منذ بداية القرن 12م[2].

ورغم تنوع الأضرحة بالتقسيم الذي سبق ذكره، إلا أن النوع الشائع في الجزائر والأقدم، هو الأضرحة المربعة ذات قباب نصف كروية محمولة على منطقة انتقال مثمنة الشكل، وفي بعض الأحيان لا نجد منطقة انتقال، ويظهر لنا الضريح على شكل مربع توضع فوقه القبة مباشرة[3].

6 - المسميات التي أطلقت على الأضرحة:

أطلقت على البناء المدفني الإسلامي عدة تسميات، ومصطلحات تبعا لتطوره خلال العصور الإسلامية، وتعدد أشكالها في البلاد الإسلامية، واختلاف الأقطار العربية من المشرق إلى المغرب، ونذكر من هذه المسميات.

أ- الضريح:

ورد مصطلح الضريح في وثائق العصر المملوكي للدلالة على القبر كله بعمارته التي تعلو سطح الأرض، وفوقها قبة. والضريح في شكله المعروف هو ما دخل مع

1- Cauvet (C), **Les Marabouts, Petits monuments funéraires et votifs du Nord de l’Afrique**, In. Revue Africaine, Paris, 1923, pp. 22-23.

2- Cauvet (C), op.cit, p.23.

3- Marçais (G), op.cit, P.300.

الأتراك السلاجقة، عندما كانوا في آسيا على أنه بناء مقدس، وكان ذلك على صورتين: قبر على شكل برج، وقبر على شكل قبة[1].

ب- المشهد:

وهو لفظ يعني في اللغة مجمع الناس، ومحضرهم للشهادة مصداقا لقوله تعالى: "وشاهد ومشهود".[*] إشارة إلى أن النبي (صلعم) هو الشاهد، وإن يوم القيامة هو المشهود، يعني المكان موضع استشهاد الشهيد، أو الموضع الذي يشاهد فيه ولي من أولياء ا . وتتفق أقوال المؤرخين، من أن بعض المقابر، مثل قرافة القاهرة كانت تشتمل على العديد من مشاهد الرؤيا[2]. واصطلاحا، فإن المشهد يحمل مدلول ديني، هو المسجد المدفني الذي بني ليكون مدفنا لشخص يتمتع بمكانة روحية من آل البيت الشريف الطاهر ذكورا كانوا أم إناثا.

ولقد اقترن لفظ المشهد بالأضرحة العلوية، والفاطمية بشكل خاص، وهو ما يفسر انتشارها في كل من العراق ومصر. وغالبا ما اشتمل المشهد على صحن، وبه أيضا محاريب. ومن هذه المشاهد نذكر: مشهد الجيوشي 478هـ/1085م، ومشهد السيدة رقية 527هـ/1133م، ومشهد الإمام الحسين رضي اله عنه 549هـ/1544م، وغيرها.

ج- المقام:

من المحتمل أنه أخذ من قوله تعالى: "فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا".[*] وفي قوله تعالى: "إن المتقين في مقام آمنين"[**]. أي بمعنى موضع القيام.

ولقد اصطلح إطلاق كلمة المقام على المكان الذي فيه أثر، أو ضريح لأحد الأنبياء صلوات ا عليهم، أو الأولياء من أهل الصلاح، أو التقوى، تبعا لما ورد في القرآن الكريم من أن أمثال هؤلاء الرجال الأبرار يرقدون في مقام كريم في هذه الدنيا، انتظارا لما سيكونون فيه من مقام آمن في الآخرة. والمقام هو المكان الذي يتعبد فيه التماسا للبركة والتيمن بمكانه المدفون.

---

[1]- طه الولي، مرجع سابق، ص.126.

[*]- الآية 3، سورة البروج.

[2]- عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص.

[*]- الآية 97، سورة آل عمران.

[**]- الآية 51، سورة الدخان.

د- المزار:

وهو المكان الذي فيه قبر أحد العارفين، أو الصالحين،ويقصد في مواسم معينة، ويصلون فيه، اعتقادا منهم بأن صلاتهم بالقرب من ضريح هذه الشخصية المقدسة أكثر قبولا عند ا ، وأجزل للأجر والثواب، وقد لا يكون المزار قبرا، بل بناء تذكاريا يشير إلى عمل، أو حادثة تصل إلى بعض الشخصيات، وهو أشبه ما يكون في زماننا بالنصب التذكارية التي تقام على أسماء بعض العلماء، أو العظماء لتخليد مآثرهم بعد الوفاة.

ه- المربوط :

استعملت كلمة مربوط للدلالة على الضريح في المغرب العربي[1]، وربما لدفن شخصية دينية بها، كان يعرف بورعه وتقواه في الحياة الدنيا.

و- التربة :

ويطلق عليه أيضا مصطلح تربة، والمقصود به المبنى الضريحي الذي يقام على رمس الميت، واستعمل هذا المصطلح عند الأتراك[2]. أما عن تخطيطه فهو دائري مغطى بسقف مخروطي أو قبة. وينسب هذا الشكل إلى الأبراج الجنائزية.التي أدخلت إلى الأناضول، وفارس على يد الشعوب التركية التي كانت تقطن آسيا الوسطى، فجلبوا معهم تقاليدهم الجنائزية.[3]

ي- القبة:

تعتبر من العناصر المعمارية التي ارتبطت بالعمارة الدينية، واتخذت لتغطية سقوف المباني، والأضرحة، والمزارات، والمقام، والمشهد. والقبة تأتي في المقام الأول قبل الضريح من حيث الاستعمال، ولكونها اقترنت بالمكان الذي يدفن فيه، أطلق اسم الجزء

[1]- كمال الدين سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص.172.

[2]- صالح لمعي مصطفى، **القباب في العمارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت، ص.23.

[3]- Diez (Ernest), **L’Art de L’islam,** Petite bibliothèque, Payot, Paris, S.D, P.57.

(القبة) على شكل (الغرفة) المتضمنة لقبر الميت[1]. فقيل عنها القبة، حيث شاع استخدام هذا العنصر في تغطية هذا النوع من المباني، وبذلك شاع اسم الضريح في المشرق، والقبة في المغرب.[2]

7 - الأضرحة ببجاية ونواحيها:

إن دراسة الأضرحة ببجاية ونواحيها، يهدف إلى محاولة الوقوف على القيمة التاريخية والأثرية، و الاجتماعية للأضرحة، والمزارات بصفتها معالم حضارية. كما تهدف الدراسة أيضا إلى الكشف عن أهميتها المعمارية، والفنية، لبعض أصولها.

والحديث عن بجاية يدفعنا حتما إلى الحديث عن الأضرحة، وأوليائها الصالحين، وما تحمله هذه الأمكنة من معان، ورموز بالنسبة للمجتمع المحلي الذي يتوافد على زيارة هذه الأضرحة، التي كثر الحديث عن دورها في حماية المدينة. و هذه الفكرة التي وردت في مؤلفات الأوروبيين ، فكرة دخيلة غيبية لا أساس لها من الصح في وسط مجتمع و هي دافع لإسكاته و لو كان الأمر كذلك لما قامت ثورات ضد الاستعمار.

ونظرا لكثرة الأضرحة في مدينة بجاية، يذكر فيرو و لويس سلفاتور في كتابهما بأن المدينة كانت تسمى بمكة الصغيرة.

اندثر كثير من أضرحة بجاية ، ولا نعرف لها أثرا، ماعدا بعض الإشارات في ثنايا الكتب التاريخية التي تحدثت عن المدينة. كما يمكن أيضا أن نتساءل عن العدد الكبير، والحضور القوي لهذه الأضرحة في هذه المنطقة؟ ولماذا أبقى الاستعمار الفرنسي عليها عكس المساجد والقصور، وبقية المباني التي هدمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؟ و لعل السبب واضحا و يتجلى في رغبة المستعمر في تجهيل الأمة و غرس الأمية فيها باعتبار المسجد و الزاوية مركز إشعاع علمي و ثقافي و ديني عبر العصور الإسلامية، بينما شجع كل ما يقرب الأمة من الدروشة و البعد عن تعاليم الدين الإسلامي و بالتالي

---

[1] - لعرج عبد العزيز، مرجع سابق، ص.353.

[2] - سعاد ماهر، مرجع سابق، ص.46.

القضاء على لغة الأمة و كيانها و شخصيتها و هذا ما أفصح عنه المستعمر الفرنسي منذ سنواته الأولى لاحتلال الجزائر.[1]

المعروف أن أزهى عصر مرت به المدينة، هو العصر الإسلامي الذي ما تزال بعض آثاره شامخة متحدية الإهمال والنسيان، كما عرفت المدينة الكثير من العلماء والفقهاء طلبا للعلم و الموطن، والزهد ، حتى أن أحمد الغبريني أبو العباس أفرد مؤلفا لعلماء بجاية في القرن 7هـ/13م، حيث ترجم منه حوالي مائة من علماء وفقهاء بجاية خلال ذلك العهد و لمدة قرن من الزمن.

والملاحظ أيضا أن معظم الأضرحة التي نجدها قائمة في مدينة بجاية أو نواحيها تتواجد في أماكن مرتفعة، أي في أعلى الربوات والتلال، والهضاب، بحيث يمكن مشاهدتها في نقاط مختلفة من المدينة. ويبدو أن أصحاب هذه الأضرحة، قد اختاروا مواقعهم بعيدا عن صخب المدينة، وليتسنى لهم التعبد بعيدا عن الحياة الاجتماعية التي تتطلب المعاشرة والاختلاط، كما تعطي هذه الأضرحة هيبة كبيرة للمنطقة.

ومن أضرحةبجاية و ضواحيها التي كان لها دورا هاما في مسيرة منطقة بجاية الحضارية والثقافية، نذكر بعضها ومنها: ضريح سيدي معمر، وسيدي عبد الحق، وسيدي الصوفي وسيدي الخيضر، وسيدي محمد أمقران، وسيدي أبي علي، وسيدي والي، وسيدي عبد الرحمن الصباغ، وسيدي البتروني، وسيدي تواتي، وسيدي عيسى، وسيدي يحيى أبي زكريا، ومنها ما هو باق، ومنها ما تهدم. وخارج مدينة بجاية نذكر ضريح سيدي يحيى العيدلي بعرش بني عيدل، وضريح سيدي عبد الرحمن الوغليسي بعرش بني وغليس وضريح سيدي أحمد بن يحيى بآمالو بنواحي أقبو، وضريح محمد المقراني بعرش بني عباس، وهي أضرحة مازالت قائمة لحد الآن.

ويبدو أن الاستعمار الفرنسي قد وجد في هذه الأضرحة، والمزارات فرصة لترويج الأساطير والخرافات، مستغلا بذلك أمية وضعف المجتمع لإبعادهم عن المواقع الإستراتيجية، وعدم مهاجمتها لأن المجتمع كان ضعيفا و لا يحتكم على قيادة و زعامة رشيدة بإمكانها أن ترجع الأمور إلى مجراها في ذلك الظرف، هذا ونشير إلى أن العديد

---

[1] ايفون توران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة . المدارس و الممارسات الطبية و الدين. 1830 / 1880، دار القصبة للنشر الجزائر 2005 ص 126.

من هذه الأضرحة كان بقربها معاهد تدرس فيها مختلف العلوم، خاصة معهد سيدي تواتي، وسيدي محمد أمقران من العهد العثماني، كما أدت دورا كبيرا في محاربة المد الصليبي، والفكر الاستعماري الفرنسي، شأنها في ذلك شأن الزوايا التي كانت منتشرة في حوض الصومام لأن الدروس لم تقم بالأضرحة بل انتضمت في المساجد و الزوايا المشتملة على ضريح أو واقعة بجواره أو لصقه أو الضريح ملحق بها، سواء بني المسجد أو الزاوية بعد الضريح أو العكس مثلما هو الحال في سيدي عبد الرحمان في الجزائر، فالدروس كانت تقام بالمسجد الملحق بالضريح.

ونشير في الأخير، إلى أن معظم أحياء بجاية اليوم تحمل أسماء علمائها.

8 - نماذج من الأضرحة ببجاية:

نظرا للكم الهائل من الأضرحة التي تزخر بها المنطقة، والتي قمنا بإحصائها عبر تراب الولاية (أنظر الجدول)، قمنا باختيار نماذج معينة لثلاث أضرحة بمدينة بجاية نظرا للقيمة التاريخية، والأثرية التي تحتلها، وهي ضريح سيدي تواتي في أعالي المدينة وضريح سيدي محمد أمقران من العهد العثماني، وضريح سيدي عبد الرحمن الصباغ. وأخذنا كنماذج من الأضرحة الريفية، ضريح سيدي أحمد بن يحيى بأمالو، وضريح سيدي يحي العيدلي بتامقرة، وضريح سيدي عبد الرحمن الوغليسي بعرش بني وغليس في الريف البجائي، هذا مع ذكر مختصر لبقية الأضرحة الأخرى.

9 – الأضرحة داخل بجاية:

أ- ضريح سيدي تواتي:

يمثل الضريح جزءا من الزاوية التي وجدت في العهد الحمادي خلال القرن 5هـ/11م.[1] وكذلك اعتماد على الناقشة الكتابية التي عثر عليها بالضريح[2] (شكل 27) والمحفوظة بمتحف بجاية ومضمونها: "بسم ا الرحمن الرحيم، وصلى ا على محمد

[1] - إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، ص.192.

[2] - حول مضمون الكتابة وخصائصها انظر: عبد الحق معزوز، الكتابات الكوفية بالجزائر من القرنين 2 و8هـ/8-14م المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص.252.

وعلى آله وسلم تسليما، شهد أن لا إله إلا هو والملائكة، وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند ا الإسلام"[*].

وهذه الآية دليل على أن المكان كان عبارة عن معهد علمي في العهد الإسلامي، كما تذهب إلى ذلك معظم المصادر التاريخية، وتذكر بعض الخصائص الفنية للكتابة بتلك الموجودة في واجهة محراب الجامع الكبير بتلمسان، كما تتشابه مع كتابات بجاية الجنائزية التي تعود إلى العهد الحمادي، وكذلك كتابات جامع قسنطينة من نفس العهد[1].

ويقع الضريح في شمال غرب باب البحر، على هضبة مرتفعة تشرف على بجاية وساحلها، أسفل جبل قورايا. وتحيط به الأشجار، مما أعطاه منظرا متميزا وخاصا.

أما عن سيدي محمد تواتي، فهي شخصية دينية، كانت تحيا في عالم من التقشف والزهد، وإن كان تاريخه يكتنفه الغموض المطلق، ولم تتناوله كتب التاريخ، ولا نعرف عنه شيئا سوى ما ذكره (شارل فيرو) أنه من كبار شيوخ مدينة بجاية، وأنه عاش في عهد الناصر وابنه العزيز.[2] وهو الذي أسس الزاوية التي تحمل اسمه، والتي تحولت إلى معهد علمي عال أثناء حكم العزيز، حيث استقطبت علماء من الأندلس، وإفريقيا والمشرق.

وعن سيدي تواتي كان يحظى باحترام وتقدير الناصر، وابنه العزيز.[3] أما الورثيلاني في رحلته، فيرجع تاريخه إلى القرن 9هـ/15م، أي معاصر لسيدي يحي العيدلي.[4]

أما عن الضريح والزاوية، فيعتقد بان الناصر هو الذي انشأ معهد سيدي تواتي ليدرس فيه التعليم العالي، وكان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب يدرسون كل المواد بما في ذلك العلوم الفلكية.[5]

---

[*]- سورة آل عمران، الآية .18-19.

[1]- معزوز، مرجع سابق، ص.252.

[2]- Feraud (Ch), **Notes sur**…, p.463.

[3]- Ibid, p.463.

[4]- الورثيلاني، مصدر سابق، ص.27.

[5]- بورويبة رشيد، بجاية، سلسلة فن وثقافة، ص ص.56-57.

يتخذ الضريح شكلا مربعا طول ضلعه يصل إلى 3,51م، ويتربع على مساحة قدرها 12,32م². أما ارتفاعه، فيبلغ حوالي 3,25م، وللضريح أربع واجهات، يبلغ ارتفاع كل منها 2,90م، وجدرانه من الخارج ملساء، أما لونه فيبدو مستحدثا، مما يدل على العناية به من طرف الزوار (صورة 51) (شكل 28). تقع الواجهة الرئيسية التي يتخللها المدخل جهة الشرق (صورة 52). ويبلغ عرض المدخل 0,71م، وارتفاعه 1,88م يتَوجه عقد مدبب، عرضه 70سم، وارتفاعه 1,15م، كما توجد على الواجهة الرئيسية زخرفة على شكل نجمة وهلال (شكل 29). وبجوار المدخل توجد نافذتان إحداهما مسدودة، والأخرى مفتوحة، ويعلو كل نافذة عقد مدبب، وفي الواجهة الشمالية للضريح، توجد أيضا فتحتان يعلوهما عقد مدبب، وذلك للإضاءة، والسماح بمرور التيار الهوائي.

ويعلو سطح الضريح في كل ركن من أركانه شرافة متدرجة (صورة 53). ويتوسط سطح الضريح قبة مركزية ملساء تذكرنا بقباب الأضرحة المنتشرة في بلاد المغرب. أما عن المدخل، فالضريح بسيط في عمارته، فالمدخل يؤدي إلى غرفة مربعة أبعادها 3,31م ويوجد على يمين المدخل تابوت الولي الصالح سيدي تواتي، والمصنوع من الخشب استعملت فيه تقنية الخرط والتعشيق، وتكسوه عدة إزارات، ويحتمل جدا بان هذا التابوت من عصر قريب، ويستبعد أن يكون من العهد الحمادي أي في أواخر القرن 5هـ/11م (صورة 54). يتخلل جدران الضريح فتحات استعملت للإضاءة والتهوية، ونرجح بان معظمها أصليا في البناء، لكن الضريح تعرض إلى بعض الترميمات بمواد حديثة في الوقت الحالي. وكل هذه الفتحات تساهم في تلطيف الجو داخل الضريح، وفي الواجهة الشرقية أين توجد فتحات نصفها مفتوح، ونصفها العلوي مسدود، يعلوها عقد منبسط، كما توجد في الواجهة الجنوبية فتحة على شكل خزانة جدارية تستعمل لوضع حاجيات الضريح، كالمصاحف، والكتب الدينية والشموع.

أما بالنسبة للقبة، فهي ترتكز على مربع انتقل فيه إلى المثمن عن طريق حنايا ركنية مجوفة، وبسيطة، ويرتكز على المثمن الغطاء نصف الكروي للقبة، وهو بسيط أملس من الداخل، لا تحتوي لا على زخارف، ولا كتابات.

أما عن العناصر المعمارية في الضريح، فلابد من الإشارة في البداية، إلى أن الضريح بسيط جدا في عمارته، ولذلك لا نجد فيه تعدد العناصر المعمارية، فكل ما نجده هو عنصر القبة والعقود.

لقد أصبحت القبة شائعة الاستعمال على الأضرحة والزوايا في المغرب الإسلامي خاصة عند التونسيين الذين يعتبرونها من ملحقات الزوايا، إذ لا يمكنهم تصور قبة إن لم يكن تحتها ضريح ولي صالح(1).

أما القبة المستعملة في ضريح سيدي تواتي، فهي القبة نصف الكروية الملساء وبسيطة في عمارتها، ولا تحتوي على زخارف، أما الحنايا الركنية فيها، فهي على هيئة مثلثات مقلوبة الرأس نحو الأسفل، وهذا لتحويل مسقط القبة من مربع إلى مثمن.

أما عن العقود، فهي ناقصة جدا في الضريح، لأن السقف يعتمد على الأعمدة في رفعه، فكل ما نجده في الواجهة الرئيسية، هو وجود ثلاثة عقود مدببة، وهذا النوع من العقود انتشر في العمارة الإسلامية في جميع الأقطار، ونجد أمثلة له في الجزائر، في كل من المسجد الجامع بتقرت، ومسجد صالح باي بعنابة.

ب- ضريح سيدي عبد الرحمن الصباغ (9 هـ/ 15م) :

يقع الضريح في أعالي مرتفعات بجاية، غير بعيد عن جامع سيدي والي، أحد الأولياء الصالحين ببجاية. أما عن سيدي عبد الرحمن بالصباغ، فكان يعرف عند أهالي المدينة، باسم سيدي عبد الرحمن بولبيلة، نسبة إلى صخرة كبيرة بجنب الضريح منحوتة بدقة كبيرة تستعمل لتخزين المياه، وسيدي عبد الرحمن الصباغ هو الذي شرح الوغليسية لسيدي عبد الرحمن الوغليسي، وقد شرح البردة أيضا، وقد قام برثاء ابن مرزوق التلمساني عند موته بقصيدة عظيمة، وشهد له أيضا بالعلم الظاهر، والباطن، وأن له كرامات عديدة، وشهد له أيضا بذلك بحر الولاية والعلم سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي ا عنه. وقد ذكر الورثيلاني في رحلته بان تآليفه تنبئ عنه، وكلامه يدل عليه، فهو من أهل الشأن والتصريف، وهو من علماء القرن التاسع هجري(2)(*).

1- زبيس سليمان، القباب التونسية في تطورها، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1959، ص.06.

2- الورثيلاني، مصدر سابق، ص ص.8-27.

*- سيدي عبد الرحمن الصباغ خريج زاوية تامقرة من القرن 9هـ/15م. انظر محمد نسيب؛ زوايا العلم والقرآن ص.169.

أما من الناحية المعمارية للضريح، فهو يبدو من الخارج بسيط في عمارته، إذ يتجلى في شكل غرفة صغيرة مغطاة بالقرميد، وسقفه مائل، وذلك لتصريف مياه الأمطار حتى لا تؤدي إلى تآكل السقف (صورة 55)(**). وواجهاته الأربع الخارجية بسيطة وملساء، ما عدا الواجهة الشرقية يظهر فيها من الخارج بروز كبير على شكل محراب هذا بالإضافة إلى بعض الفتحات الصغيرة على واجهة الضريح، وذلك لإدخال الضوء والتهوية.

أما من الداخل، فباب الضريح من الخشب، وتفتح إلى الداخل، وذات مصراع واحد ويبدو أنها حديثة. أما غرفة الضريح فتقترب من الشكل المربع غير منتظم الأضلاع تحتوي جدرانه الداخلية على فتحات منها المفتوحة، وقد سبق الحديث عن وظيفتها، ومنها المسدودة التي تستعمل لوضع أدوات الضريح، كالشموع، والكتب وغيرها. وسقف الضريح من الداخل بمادة الخشب. والتابوت الذي يقع بمحاذاة الجدار الشرقي أيضا من الخشب، ومغطى بقماش. وهنا لابد من الإشارة بأن القبر موجود تحت أرضية الغرفة وأحيط بسياج خشبي. وبالضريح كانت مجموعة من القبور ذات شواهد مكتوبة بخط مغربي، لكنها تحطمت مع مرور الوقت، وهذا حسب الروايات الشفوية المتداولة لدى كبار المنطقة والذين توارثوها أبًا عن جد، وفي حال صحة هذه الروايات فإن ضياع هذه الشواهد المكتوبة يعتبر حلقة مفقودة في تاريخ بجاية الإسلامي.

أما عن نمط تبليط الضريح، فهو حديث كما تشير إلى ذلك الروايات المتداولة في المنطقة.

ومن الملاحظات العامة حول الضريح، أننا نجد بجنبه آثار مباني من الآجر نجهل وظائفها، واستعملت فيها التقنية المعروفة في البناء لدى الحماديين، والموحدين، ومن الملاحظات أيضا أن الضريح بسيط في تخطيطه، ولا يوجد فيه أي تعقيد (شكل 30)، ولا يوجد من العناصر المعمارية شيء يذكر، فلا القبة المعروفة في عامة الأضرحة، ولا العقود والأعمدة التي تعمل على رفع السقف، ما عدا بعض الفتحات الداخلية (شكل 31). وهنا نطرح سؤالا مفاده: هل كان للضريح قبة ثم تحطمت، أم بني أصلا بالصورة التي

**- بعد المعاينة الأولى للضريح كان السقف قائما، وفي الزيارة الثانية لأخذ صورة عنه، وجد السقف قد تهدم والضريح قد تعرض للتخريب.

نراها عليه اليوم؟، ولعل تلك الآثار الباقية حول الضريح دليل على أن المكان كان عامرا بالسكان، وربما يكون مقر إقامة سيدي عبد الرحمن الصباغ، فهو الموضع الذي اتخذه لنفسه كمكان منعزل عن المدينة إلى أن وافته المنية فدفن هناك.

ج- ضريح سيدي محمد أمقران (9 هـ/ 15م) :

يقع ضريح سيدي محمد أمقران في هضبة مرتفعة خارج باب اللوز، ولا يبعد كثيرا عن ضريح سيدي تواتي، ويقع في وسط غابة من الأشجار، وبجانبه مقبرة كبيرة، ويظهر من أعلى الهضبة وكأنه حارس للمدينة.

أما بالنسبة للشخصية صاحبة الضريح، فيرجع تاريخها إلى العصر العثماني وبالضبط بعد تحرير بجاية من الإسبان، ودخول صالح رايس لها سنة 1555م، حيث حاولوا ربط علاقات مع عدة شخصيات دينية معروفة في البلاد بنفوذها، وتأثيرها، ومن بينها شخصية سيدي محمد أمقران الذي كان له تأثير في المناطق الواقعة بين بجاية وجيجل.

ينتسب سيدي محمد أمقران إلى عائلة المقرانيين بقلعة بني عباس ولقد تربى بقرية (إمعدان) في قبيلة بني مسعود، وكان له يحضى باحترام كبير من قبيلته كما كانت له مكانة اجتماعية و دينية بين سكان هذه القرية. ولما دخل العثمانيون بجاية خصه حكامهم باحترام خاص، ومنحوه امتيازات تليق بمكانته، ثم طلبوا منه الانتقال إلى بجاية تاركا زاويته التي أسسها في بني مسعود بقرية (إمعدان).[1]

ومن الناحية المعمارية، يأخذ الضريح شكلا مربعا رغم ما لحق به من زيادات خاصة في تسقيف الجزء الأمامي منه (شكل 32). وتتراوح أضلاعه ما بين 3,60م×3,80م، وبذلك فهو يتربع على مساحة قدرها 13,69م^2، ويبلغ ارتفاعه نحو 4,20م، ومازال الضريح في حالة جيدة من الحفظ.

يتقدم الضريح مدخل يعلوه عقد نصف دائري محمول على عمودين يزينهما تاجان بسيطان باللون الأخضر الفاتح، وهو لون كثير الاستعمال لدى العثمانيين (صورة 56). أما من الداخل، فالضريح يحتوي على صحن مركزي تحيط به مجموعة من القبور، كما يحيط بالضريح غرفتان تحتويان على قبور يحتمل أن يكون أصحابها من أقارب سيدي

[1]- Feraud (Ch), **Histoire de Bougie**…., Pp.278-281.

محمد أمقران. ويلي الضريح رواق مسقوف بالقرميد يحتوي على قبور مستطيلة مغطاة ببلاطات خزفية.

أما عن غرفة الضريح من الداخل فهي مبلطة ببلاطات خزفية ذات لون أحمر داكن، وتوجد أربع حنايا ركنية تحمل بواسطتها القبة الملساء، وهي شبيهة بقبة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة من الفترة العثمانية (صورة 57). وتوجد بالقبة أربع فتحات لكنها سدت وبقيت واحدة فقط لتساعد على دخول الهواء والنور. أما التابوت فيتوسط قاعة الضريح (صورة 58) وشكله مستطيل، ومن الخشب، يحتوي على زخرفة نفذت بطريقة التعشيق والخرط، وفي أركان التابوت أربع أعمدة من النحاس، كل واحد منها تحمل كرة صغيرة يعلوه هلال في وسطه نجمة، وهو الشعار الذي انتشر كثيرا في العهد العثماني. وهذه الظاهرة موجودة أيضا على الواجهة الرئيسية للضريح (شكل 33). كما أن التابوت محلى بإزارات ثمينة تحمل زخارف نباتية منفذة بخيط الذهب والفضة.

ومن العناصر المعمارية الجديرة بالملاحظة في هذا الضريح، نسجل القبة ذات النوع نصف الدائري المستعملة بكثرة في العمارة العثمانية بالجزائر. أما العقود فهي ذات شكل نصف دائري، وهي موضوعة مباشرة على الأعمدة، وعددها قليل جدا، أما عن التيجان، فيوجد اثنان فقط يكتنفان مدخل الباب الرئيسي، ويحملان عقدا نصف دائري.

10 – الأضرحة خارج بجاية :

أ- ضريح سيدي أحمد بن يحي بآمالو:

يرجع نسب الولي الصالح سيدي أحمد بن يحي حسب وثيقة محفوظة بالزاوية، إلى علي بن أبي طالب كرم ا وجهه، وإلى فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود رسول ا سيدنا ومولانا محمد المرسل للعالمين رحمة (صلعم). وسيدي أحمد بن يحي من تلاميذ الإمام المشهور ابن غازي كما يذكر الورثيلاني، وانه من أهل القرن 9هـ/15م[1]، وله كرامات عديدة، ودفن بقرية آمالو بالقرب من أقبو، وضريحه موجود هناك، إلى جانب بعض ممن دفنوا معه، وهو مزار ليومنا هذا، ويحظى بزيارات يومية من مختلف المناطق، والقرى

[1]- الورثيلاني، مصدر سابق، ص.34.

بحوض الصومام، وكذلك زيارة من دفنوا معه فإنهم من الصلحاء والشرفاء، كما يذكر الورثيلاني.[1]

يقع الضريح وسط تجمع عمراني كبير يشمل الزاوية، والمسجد ثم الضريح.

أما من الناحية المعمارية، فإن الطابع العام للضريح، يذكرنا بالأضرحة المغربية والأندلسية، خاصة الموجودة منها بتلمسان، والمغرب الأقصى، وذلك من خلال أسلوب التغطية من الخارج، إذ هي عبارة عن سقف من القرميد المائل على شكل هرم، أما واجهاته، فهي عبارة عن حنايا مسطحة يعلوها عقود ترتكز على أعمدة مسطحة، ويعلو العقود أسفل القرميد، شريط هندسي زخرفي يدور على واجهات الضريح عبارة عن شكل مطرقة، أو حرف T اللاتيني، وذلك بالتناوب (صورة 59).

أما عن موقع الضريح، فهو في ربوة مرتفعة قليلا تشرف على سهل حوض الصومام. وبالضريح أشغال الترميم.

أما من الداخل، فإن المدخل يتقدمه سقيفة مغطاة، واجهاتها عبارة عن ثلاثة عقود نصف دائرية ترتكز على عمودين، وعلى يمين المدخل ثلاثة قبور لأحفاد الشيخ سيدي أحمد بن يحي. يعلو المدخل عقد مدبب صغير على شكل حدوة الفرس، وإطار الباب كله مزخرف بشريط من الزليج. يؤدي الباب الخشبي للضريح إلى قاعة تقريبا مربعة المسقط ولكن غير منتظم الأضلاع (شكل 34). وواجهات القاعة الداخلية مزخرفة على شكل حنايا مسطحة داخلة في الجدار يعلوها عقود نصف دائرية، وترتكز على أعمدة مسطحة وهذا الشكل الزخرفي يتكرر في كل واجهات الضريح، وعلى مستوى معين من الأرض هناك أشبه ما يكون بدكانات تدور على جدار الضريح تستعمل لجلوس الزوار، وكذا لإشعال الشموع. ويتوسط الضريح قبر الولي الصالح سيدي أحمد بن يحي وابنه.

أما الشيء الملفت في عمارة الضريح، فهو أسلوب التغطية الذي هو عبارة عن قبة بسيطة، ومضلعة تشع من مركزها تعريقات منحنية (صورة 60) تذكرنا بقباب جامع القيروان التي تتقدم المحراب. ولقد تم الانتقال من المربع إلى المثمن عن طريق حنايا ركنية عبارة عن مثلثات مقلوبة الرأس (صورة 61).

---

[1] - الورثيلاني، مصدر سابق، ص.34.

وبالقبة بعض التشققات، والتصدعات على مستوى باطنها الداخلي. أما التابوت فهو من الخشب، ويرتكز على أرضية مبلطة بالزليج.

ومن العناصر المعمارية الملفتة للنظر في عمارة الضريح هي: القبة، العقود نصف الدائرية، والمثلثات الكروية للانتقال من المربع إلى المثمن، والأعمدة المسطحة، ولا توجد بالضريح فتحات للإضاءة أو التهوية.

ب- ضريح سيدي يحي العيدلي بتامقرة:

ينسب الضريح إلى الولي الصالح الشيخ سيدي يحي العيدلي جد عرش بني عيدل ويؤرخ بالقرن 9هـ/15م. وسيدي يحي العيدلي له ضريح، وزاوية، وجامع في آن واحد أي ان الضريح يقع وسط تجمع عمراني، شأنه شأن ضريح سيدي أحمد بن يحي بآمالو وضريح سيدي موسى بتينبدار بأعالي سيدي عيش.

أما عن شخصية صاحب الضريح، فهو عالم جليل من أعلام المنطقة، وشيخ مشهور بين شيوخ زمانه، تخرج على يده الكثير من العلماء بزاويته، نذكر منهم الشيخ سيدي أحمد بن يحي دفين آمالو، ولقد شهد بقطبانيته الشيخ سيدي عبد الرحمن الصباغ شارح الوغليسية، وكذا البردة،كما شهد له بذلك الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، بأن فتواه لا ترد من بجاية إلى توزر.[1] كما أن الشيخ زروق صاحب الطريقة الصوفية المعروفة تخرج على يد سيدي يحي العيدلي، واشتغل مدرسا بزاويته هناك، وألف بعضا من مؤلفاته بزاوية تامقرة، فقد ذكر الشيح سيدي يحي العيدلي، وعظّمه غاية التعظيم، بحيث أخذ عنه العلم الباطن.[2] ولقد ذكر الورثيلاني بأنه زار قبر الشيخ ووقف عليه.

أما عن الضريح من الناحية المعمارية، فيقع في قرية تامقرة[*]. ويبدو من الخارج على شكل مربع تخلو واجهاته من الزخارف (صورة 62) ما عدا الواجهة الرئيسية التي تحتوي على بعض الفتحات. أما أعلى الجدار فعبارة عن إفريز بارز يدور على الواجهات الأربعة، يعلوها فتحات مستطيلة، ومعقودة بعقود نصف دائرية، وهذا على شكل صفوف. أما عن سقف المسجد من الخارج، فمغطى بالقرميد على شكل هرم، وهذا يذكرنا بضريح

1- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخاف برجال السلف، القسم الأول، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982 ص.595.

2- نفسه، ص.596.

*- تامقرة: إحدى القرى التابعة لدائرة أقبو، وتبعد عنها بحوالي 27 كلم من الناحية الشرقية.

سيدي أحمد بن يحي بآمالو، وإن كان سقف الضريح قد تعرض إلى التشويه في العهد الاستعماري، مما تطلب إعادة تسقيفه بقرميد حديث.

أما من الداخل، فيؤدي المدخل إلى قاعة الضريح المربعة تقريبا (شكل 35)، ويعلو باب المدخل عقد صغير نصف دائري، أما التابوت، فلا يتوسط القاعة. وفي الواجهة المقابلة للمدخل حنيتان مسطحتان مدمجتان مع الجدار، يفصلهما دعامة مربعة، يرتكز عليها عقدان نصف دائريان، أما الواجهة اليمنى، واليسرى، فيتخللهما حنيتان متناظرتان.

والملاحظ على عمارة الضريح احتواءه على حنايا أخرى صغيرة على ارتفاع معين من الجدار، ربما كانت مخصصة لوضع مستلزمات الضريح من شموع، وأشياء أخرى وكل الحنايا في الضريح يوجد أسفلها ما يشبه دكانة مخصصة لجلوس الزوار، ووضع مستلزمات الضريح. يعلو سقف الضريح قبة مضلعة كالتي وجدت في ضريح سيدي أحمد بن يحي بأمالو، أما مناطق تحويل المربع إلى المثمن، فهي عبارة عن حنايا ركنية على شكل مثلثات كروية (صورة 63).

أما عن التبليط، فالأرضية عملت بزليج حديث، ورغم كل الخصوصيات التي اتصف بها الضريح فيبدو أنه محتفظ بكثير من أصوله المعمارية الأولى.

ج- ضريح سيدي عبد الرحمن الوغليسي:

يعتبر سيدي عبد الرحمن الوغليسي شيخ عرش بني وغليس، وإليه ينسب العرش بكامله، وهو شيخ فاضل، وعالم من أعلام بجاية ومفتيها، توفي سنة 786هـ/1384م، ومن مخلفاته العلمية، المقدمة المشهورة، وبعض الفتاوى، ولقد أخذ عنه الكثير من العلماء، كأبي القاسم بن محمد المشدالي فقيه بجاية. ويعتبر الوغليسي عمدة زمانه، وشيخ الجماعة في بجاية، وتلامذته علماء أجلاء مشهورون، ومؤلفاته كثيرة منها: الجامعة في الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك وتسمى "الوغليسية".[1]

تلقى الوغليسي العلم في مدينة بجاية التي كانت مزدهرة آنذاك اقتصاديا، وثقافيا ويؤمها العلماء ويتنافس على الاستقرار بها كبار التجار، والفضلاء، ولقد أشار شعيب أبي مدين دفين تلمسان، وهو يخاطب طلبته ومريديه: "عليكم بسكنى بجاية، فإنها معِينة على

[1]- الحفناوي، مرجع سابق، ص.72.

الحلال".[1] ومما يدل على مكانة الرجل ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" حين رحل إلى بجاية أواخر القرن 8هـ/14م، فلقي بها الأئمة المقتدى بهم في العلم أصحاب سيدي عبد الرحمن الوغليسي بكثرة فحضر مجالسهم.[2]

توفي الوغليسي ببلاده،وقبره معروف يزار، وذلك أواخر القرن 8هـ/14م، في مكان يعرف اليوم (تالة نتاقوث) جنوب بجاية في أعلى ربوة تشرف على وادي الصومام وببضع الكيلومترات عن أعالي سيدي عيش.

ومن الناحية المعمارية للضريح، يتقدم واجهته بسطتين على جانبي المدخل الذي يؤدي إلى رواق مسقوف (صورة 64)، على جانبي المدخل ثلاث فتحات، ومن الرواق المسقوف مدخل آخر يؤدي إلى قاعة الضريح، وهي مستطيلة الشكل (شكل 36) يفتح فيها محراب، أما التابوت، فيقع بالقرب من المحراب، ويتخلل القاعة بعض الفتحات لوضع الشموع، ويوجد فوق القبر لوحة رخامية تشير إلى تاريخ وفاة سيدي عبد الرحمن الوغليسي (صورة 65)، كما تشير الكتابة أيضا إلى مكانته العلمية، والمؤلفات التي خلفها كما تذكر بأنه توفي بقريته "تالة نتاقوث" وبتربته المشهورة سنة 786هـ/1383م.

ويبدو من خلال الشكل العام للضريح، أنه عرف بعض التجديدات في عصور لاحقة، لكنه احتفظ بشكله التخطيطي العام منذ القدم، وبطرازه المعماري الأول، كما تشير إلى ذلك الروايات الشفوية للمنطقة، حيث كانت أعمال التجديد فيه سنة 1996م.

يخلو الضريح من عنصر القبة، بل سقف بسقف من القرميد المائل. وغير بعيد عن الضريح غرفة صغيرة وقديمة جدا، فيها قناة من الماء أرضية، يطفو الماء على سطحها وكانت المكان الذي يتوضأ فيه سيدي عبد الرحمن الوغليسي، ومازالت قائمة لحد الآن (صورة 66)، كما يلاحظ بالقرب من الضريح مقبرة قديمة جدا من خلال قبورها التي اتخذت نفس المستوى مع الأرض. وغير بعيد عن ضريح سيدي عبد الرحمن الوغليسي يوجد ضريح آخر لسيدي يحي شريف أحد أولياء المنطقة، وهو يؤرخ حسب شاهد قبره من القرن 9هـ/15م (صورة 67).

1- محمد الشريف قاهر، "عبد الرحمن الوغليسي"، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995، ص.550.

2- نفسه، ص.550.

الخلاصة:

بعد عملية جرد عامة للأضرحة المنتشرة في بجاية ونواحيها، منها الباقية، ومنها المندثرة، وبعد أخذ عينات من أضرحة بجاية الباقية، وعينات أخرى في الريف البجائي يتضح لنا بعض الخصوصيات العامة للأضرحة في المنطقة، ومنها أن السكان المحليين واعترافا منهم بفضل علمائهم، والمكانة المرموقة التي حضيوا بها في حياتهم، ونظير الخدمات التي قدموها للمجتمع، لجأ السكان وبإمكانياتهم البسيطة في فن البناء، وبمواد بنائية محلية قوامها الطين، والحجر، والجص، وجذوع الأشجار، من إنشاء مبان تخليدا لأرواحهم هي الآن مزار يتبركون به، حيث أصبحت من العادات المتأصلة في المجتمع البجائي ونواحيه، كما تعبر عن ثقافة اجتماعية راسخة لديهم، كما أن أهل القرى اليوم يتباهون بانتمائهم إلى هؤلاء الأولياء، مما أدى إلى ظهور أعراش في المنطقة كعرش بني عيدل نسبة إلى سيدي يحي العيدلي، وعرش وبني وغليس نسبة إلى سيدي عبد الرحمن الوغليسي، وعرش بني مليكش أين يوجد ضريح سيدي الموفق، وعرش بني عباس، نسبة إلى قلعة بني عباس.

ومن الناحية المعمارية، ورغم ما تكتسيه من قيمة أثرية، إلا أن شكلها التخطيطي بسيط، وتكاد تخلو من العناصر المعمارية، كما أن معظمها ينتابه مشكل التأريخ ما عدا تلك التي تحدث عنها الوثيلاني في رحلته، أو تلك التي أشار إليها الغبريني، ولكن تتشابه في طابعها العام، خاصة أسلوب تغطيتها وهذا ربما قد يدفعنا إلى القول بأنها بنيت كلها في فترة زمنية متقاربة. كما أن بعض الأضرحة تحتوي فعلا على قبور، وأخرى أضرحة رمزية فقط، كما هو الحال بالنسبة لضريح سيدي أبي علي المسيلي ببجاية[1] (صورة 68)، وقبره موجود ضمن أربعة قبور أمام الضريح، ولكن لم يعرف أيها لسيدي أبي علي، فأقيم له ضريح رمزي للتبرك. وكذا ضريح يحي أبي زكريا[2] من القرن 6هـ/12م الذي يوجد بجامع ملالة، وله ضريح ببجاية في الميناء النفطي يحمل اسمه، ولهذا سمي بسيدي يحي أبي قبرين (صورة 69).

[1]- هو أبي علي المسيلي، عاش في القرن 6هـ/12م، ولي القضاء ببجاية، وله مؤلفات عديدة. أنظر: الغبريني، عنوان الدراية. الجزائر، 1970. ص ص.66-69 -. والورثيلاني، الرحلة، ص.26.

[2]- عن صاحب الضريح أنظر الغبريني، ص.135. والورثيلاني، الرحلة، ص ص.24-25.

ومن الناحية المعمارية، هناك أضرحة طابعها العام من الخارج تبدو في شكل قبة تغطي الضريح كما هو الشأن في ضريح سيدي تواتي، وسيدي محمد أمقران، وسيدي يحي أبي زكريا وكلها موجودة بعاصمة الولاية بجاية. وأخرى من الخارج مغطاة بالقرميد على غرار ضريح سيدي يحي العيدلي، وسيدي أحمد بن يحي، وكل الأضرحة المنتشرة في الريف البجائي والتي جاءت على شاكلة هذه الأضرحة.

أما عن العناصر المعمارية، فتكاد تنعدم، ما عدا بعض العقود، والأعمدة، والقباب. وعامة ما تميز أضرحة بجاية ونواحيها هي البساطة في تخطيطها، و عمارتها، وزخرفتها التي تكاد تنعدم، وبناءها بمواد محلية بسيطة جلبت من المنطقة وبتقنية محلية أيضا.

قائمة الأضرحة الأثرية ببجاية وضواحيها:

الموقع	المعلم	الاسم	التاريخ	الملاحظة قائم- مهدم
أمالو	ضريح	سيدي أحمد بن يحي	9هـ/15م	قائم
تامقرة	ضريح	سيدي يحيى العيدلي	9هـ/15م	قائم
بوحمزة	ضريح	سيدي يحي أمزال		قائم
بوحمزة	ضريح	سيدي أحمد أقاوا		قائم
تانساوث	ضريح	سيدي إبراهيم بن عمار	9هـ/15م	قائم
تالة نتاغوت (سيدي عيش)	ضريح	سيدي عبد الرحمن الوغليسي	8هـ/14م	قائم (جدد)
ثالة نتاغوت	ضريح	سيدي يحي شريف	9هـ/15م	قائم
تينبدار	ضريح	سيدي موسى	10هـ/16م	قائم
تيفرة	ضريح	سيدي موسى أويذير	10هـ/16م	قائم
لعزيب سيدي صادق	ضريح	سيدي الصادق	10هـ/16م	قائم
بني فضيلة (بني مليكش)	ضريح	سيدي الموفق		قائم
بني سراج	ضريح	سيدي جعفر (ابن سيدي محند)		قائم
بني سراج	ضريح	سيد محند سراج	9هـ/15م	قائم
بلعيال	ضريح	سيدي محند أمقران		قائم
بلعيال	ضريح	سيدي عزوز		قائم
بلعيال	ضريح	جدي أوثغربيت		قائم
بلعيال	ضريح	سي محند السعيد		قائم

ملالة	ضريح	سيدي أحمد المراكشي	6هـ/12م	قائم
ملالة	ضريح	سيدي بودرهم		قائم
بجاية	ضريح	سيدي تواتي	5هـ/11م حسب فيرو 9هـ/15م حسب الورثلاني	قائم
بجاية	ضريح	سيدي عبد الرحمن الصباغ	9هـ/15م	أطلال، بعدما كان سنة 2000م
بجاية	ضريح	سيدي محمد أمقران	10هـ/16م	قائم (في حالة جيدة من الحفظ)
بجاية	ضريح	سيدي أبي علي المسيلي	6هـ/12م	ضريح رمزي
بجاية	ضريح	سيدي يحي أبي زكريا	6هـ/12م	قائم
بجاية	قبر	سيدي عبد الحق الإشبيلي	6هـ/12م	قبره داخل الجامع الذي يحمل اسمه
بجاية	ضريح	سيدي عيسى		جدد وهو قائم
بجاية	ضريح	سيدي الصوفي		قائم

الفصل الثالث:

الزوايا

- تعريف الزاوية
- نشأة الزوايا و تطورها
- الزوايا في حوض الصومام نظرة عامة
- الحركة الثقافية و العلمية ببجاية و نواحيها
- دور الزوايا في الجزائر
- نماذج من الزوايا بحوض الصومام
- الخلاصة

تعريف الزاوية:

1- لغة:

الزاوية لغة مشتقة من فعل (زوى) الشيء يزويه (زيّاً)، أي جمعه وقبضه، وفي الحديث النبوي الشريف :"زويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها. " وانزوت الجلدة في النار، أي اجتمعت وتقبضت.[1]

والزاوية في البيت ركنه، وجمعها زوايا، وتزوى، وانزوى، أي صار فيها.[2] فهي ركنه الذي يجمع فيه بين قطرين، ويضم منه ناحيتين، ومنه زوى الشيء، جمعه أو اختاره، وزوى الكلام،هيأ في نفسه، وانزوى القوم إلى بعضهم البعض، تضامنوا، ومنه كذلك زيا الشيء نحاه، واعتزل، وانفرد، وصار في زاوية.[3]

2- اصطلاحا:

أما اصطلاحا، فتعني كلمة زاوية ذلك البناء الصغير الذي يشبه المسجد من عيث وجود محراب م تؤدى فيها الصلاة أحيانا ، ولكن يختلف عن المسجد الجامع، والذي له دور تعبدي باعتبارها مكان للعبادة، حيث جمعت بين الوظيفة التعليمية التربوية، والدينية، وإيواء الواردين، وإطعامهم من المحتاجين وعابري السبيل، و بذلك أخذت مفهوما أنها مكانا للتعبد، ومدرسة دينية، ودارا مجانية للإطعام .[4]

3- عمارة:

ومن حيث المصطلح المعماري والأثري لكلمة الزاوية، فهي الناحية في المسجد يجلس عندها أحد الشيوخ، عند إلقاء دروسه على طلبته، كما كان يفعل الإمام الشافعي.[5]

وبعد انتشار التدريس في غير المساجد، وبعد بداية المدارس التي تخصصت في تدريس علوم الدين على مذهب واحد، أو أكثر، اصطلح الناس على إطلاق اسم زاوية على هذه الأبنية التعليمية، كما اصطلحوا على تسمية من يلازم الحضور بالدرس فيها، باسم

1- الرازي، تار الصحاح، ط1، دار الفكر، ب وت، لبنان، 2001، ص.124.

2- الف وزي آبادي، القاموس ا يط، ط7، ب وت، لبنان، 2003، ص.1292.

3- سي فضيل م ، الزوايا ب ا اضي وا اضر، رسالة ماجستر ، قسم الاجتماع، جامعة ا زائر، 2004/2005. ص.128. أنظر: مد نيسب، زوايا العلم والقرآن ا زائر، ص.27.

4- مد نسيب، نفسه، ص27، أنظر أيضا: م سي فضيل، مرجع سابق، ص14.

5- عاصم مد رزق، مرجع سابق، ص.128.

(الزاوي) أو (الزواوي)[*] نسبة الى قبيلة زواوة البربرية التي كانت ضاربة ببجاية و نواحيها و التي كثرت به الزوايا في المنطقة و لذلك أطلق مجازا مصطلح كلمة زواوي على كل من يلازم الحضور للدرس في تلك الزوايا من أهل القبيلة ، وهي نوع من الأبنية الدينية لا مئذنة لها، ولا منبر[1]، وتضم ميضأة وغالبا ضريح مؤسسها، أو أحد رجال ا الصالحين، وبها قاعة تقام فيها الصلوات الخمس ماعدا الصلوات الجامعة، ولها مخطط يقترب من المدرسة منه إلى المسجد، وقد ألحقت بالزاوية عدة غرف، وقاعات خاصة لتأمين خدمات الزاوية[2] كسكن الطلبة و الغرباء و الواردين على الزاوية ، ولكن ابتداء من القرن 6هـ/12م ظهر نوع جديد من الزوايا التي ارتبطت بالطرق الصوفية عرفت باسم (الخانقاه)[3]، وكانت عمارتها آنذاك تتكون من ثلاثة أقسام، منها القبة التي يجتمع تحتها أهل الطريقة التي تنتمي إليها الزاوية، وكان يطلق على أرباب الطرق الصوفية عادة اسم الفقراء[4].

وعموما، ومهما تعددت المفاهيم التي أطلقت على الزاوية، سواء أكانت ركنا للبناء[5]، أو كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي[6]، فإن عمارتها قد جمعت بين هندسة المسجد والمنزل، فهي صغيرة، وقليلة النوافذ، وخالية من الزخرفة، والجمال المعماري، لذلك فشكلها العام يوحي بالعزلة، والتقشف، والهدوء، ووظيفتها تتطلب بأن تكون هناك غرف لتحفيظ القرآن، وأخرى لترتيله، وأخرى لنوم شيخ الزاوية، والطلبة وحتى المنتسبين والزوار، والمسافرين[1]، كما كانت تنفق بسخاء على إطعام المحتاجين[2].

وبذلك استحقت الزاوية بان تكون مكانا للعبادة، ومأوى، ومدرسة في آن واحد.

---

* - ومنه عرف سكان منطقة القبائل باسم (الزواوة) نسبة إ قبيلة الزواوة و الى كثرة الزوايا ا نطقة وترددهم عليها ع التاريخ.

1- عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص.211.

2- نفسه، ص،211.

3- عاصم مد رزق، مرجع سابق، ص.128.

4- طه الو ، ا ساجد الإسلام، ص.91.

5- ابن منظور، لسان العرب، ج20، ا ؤسسة ا صرية العامة للتأليف والتر ة، د.ت، ص.292.

6- Paul (Odinot), « Rôle politique des confréries religieuses et zaouïas au Maroc, In, Société de géographie et d’archéologie de la province d’Oran, 1878, T.51, 1980, pp.37-38.

1- سعد ا أبو القاسم، تاريخ ا زائر الثقا ، ص.269. أنظر أيضا: صباح بعارسية، حركة التصوف ا زائر خلال القرن 10هـ/16م، رسالة ماجست التاريخ ا ديث، جامعة ا زائر، 2006/2005، ص.76.

2- مد ابن مرزوق التلمسا ، ا سند الصحيح ا سن مآثر و اسن مولانا أ ا سن، تقد مد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ا زائر، 1981، ص.413.

4- نشأة الزوايا وتطورها:

ارتبطت الزاوية بوظيفة التدريس، ولذلك هناك تداخل واضح من حيث الوظيفة بين المسجد والزاوية، ويصعب علينا تحديد دقيق لتاريخ ظهور الزوايا، لأن المسجد في بداية الأمر كان يأخذ على عاتقه وظيفة التدريس الذي كان لصيقا بالمسجد، ومرتبطا بالدين والعقيدة، كما أدت المساجد دورا هاما في تطور العلوم عند المسلمين،وازدهار الحياة الثقافية، والفكرية عندهم.[1] ثم مع تطور الحياة الإسلامية في شتى الميادين، بدأت تظهر بنايات جديدة لكل منها دورها الخاص في الحياة الاجتماعية الإسلامية، كالكتاتيب، ودور القرآن، ثم الزوايا، والمعاهد الإسلامية وصولا إلى ظهور المدرسة، وهذه المنشآت المعمارية لم تكن موجودة قبل الإسلام، فأول إشارة إلى الكتاتيب كانت بالمدينة المنورة في عهد الرسول (صلعم)، إذ كان القادمون ينزلون بدار القراء (الكتاتيب)[2]، ولذلك فهي بهذا الشكل تعتبر واحدة من المعاهد العلمية الأولى في الإسلام، وكان مستقلا عن دار القرآن، ويأتي إليه الصبيان للتعلم، وكانت هذه المنشآت محدودة في صدر الإسلام لكن سرعان ما بدأت في الانتشار في القرن 2هـ/8م، وبقيت تزاول نشاطها حتى بعد ظهور المدارس. ويأتي بعدها دور القرآن التي لم تكن موجودة في العهد الإسلامي الأول لعدم اكتمال نزول القرآن الكريم، ولكن بعد اكتمال جمعه في عهد عثمان بن عفان، ظهر للوجود، ويغلب على الضن أنها ظهرت في الربع الأخير من القرن 1هـ/7م، وكانت دور القرآن خارج المساجد، ويقبل عليها الصبيان للتعلم، لكن رغم ذلك، فإن بعض المعلمين قد اتخذوا لأنفسهم زوايا في بعض المساجد، وغرف ملتصقة بها لتعليم الصبيان[1] ويلي دور القرآن، بعض دور العلم والحكمة التي أنشأها المسلمون في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي، والتي اعتبرت من المراكز العلمية المهمة للبحث العلمي والترجمة، والتي كان لها دورا كبيرا في نشر الثقافة الإسلامية، والمعرفة.

1- عبد العزيز لعرج ، ا با ا رينية... ص.295.

2- كامل صدر، العمارة العربية الإسلامية، الإسكندرية، 1995، ص.14.

1- نفسه، ص.15.

ويذكر ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد المشرق تعرفه على العديد من الزوايا، وما رآه فيها من عادات، ومراسيم الحياة اليومية [1].

ولقد تعددت الألفاظ التي أطلقت عليها من إقليم لآخر، فمنها كلمة (خانقاه)، وهي كلمة فارسية معناها بيت، وقيل أصلها (خونقاه)، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك[2].وقد ظهرت في العمارة الإسلامية في حدود 400هـ لتخلي الصوفية فيها لعبادة ا ، وكانت قبلها الأربطة التي مارس فيها الجند التصوف الحقيقي، وكلمة خانقاه ظهرت في القرن 4هـ/10م في خراسان عندما بنيت خانقاه المسونيين، ثم انتقلت من إيران إلى سوريا والعراق ومصر، عندما أنشأ السلاجقة في دمشق بعضا منها في أواخر القرن 5هـ/ 11م[3]،حتى وان كانت تقاليدها بعيدة عن منهج العلم، والعلماء، وصار دورها سلبيا.

وحل محل الخانقاه المملوكية، التكية، ويرجح أنها مأخوذة من فعل (اتكأ) بمعنى (استند)، وفي ذلك أن المتربعين فيها يستندون في أمر إقامتهم، ومعاشهم على ما ينفق عليهم من الأوقاف المحبوسة من قبل أهل البر والإحسان[4].

والتكية عبارة عن مسجد صغير محاط بغرف الدراويش، وهذا النظام الجديد يشبه إلى حد ما (الخانقاه)، التي ظهرت في العصر الأيوبي، ولذلك فالتكية ليست إلا الاسم التركي للخانقاه، وهي عبارة عن إقامة للدراويش من أرباب الصوفية الذين كرسوا حياتهم للتعبد، والزهد والتقشف، حيث يشرف على التكية شيخ يعتني بأمور مريديها.[5]

وتظهر فيما بعد المدرسة في الربع الثالث من القرن 4هـ/10م، حيث ظهرت أول مدرسة في الإسلام في نيسابور، فسميت بالمدرسة البيهقية.[1] ويعتبر ظهور المدرسة استجابة لتحديات مختلفة واجهت الأمة الإسلامية مما جعلها تأخذ طابعا معماريا معينا وتأخذ على عاتقها وظيفة واضحة. وجاءت المدرسة كنتيجة لتطور مر عبر مراحل معينة منها عملية التعليم التي كانت تمارس في المسجد، ثم ظهرت مؤسسات تجمع بين المسجد

1- ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ط2، مطبعة التقدم، القاهرة، ص.20.
2- نفسه، ص.89.
3- عاصم مد رزق، مرجع سابق، ص.99.
4- طه الو ، مرجع سابق، ص.90.
5- عاصم مد رزق، مرجع سابق، ص.130.
1- تقي الدين أ د بن علي ا قريزي، كتاب ا واعظ والاعتبار بذكر ا طط والآثار، ج3، طبعة بولاق، د.ت، ص ص 313- 314، دار التحرير للطباعة والنشر.

والخان، تستخدم للتدريس، وإيواء الطلبة الأجانب، و هذه الأخيرة هي المدرسة بصريح العبارة.[1]

أما في بلاد المغرب، فالأمر مختلف عن ذلك، حيث نجد ورود كلمة (زاوية) عند الغبريني في ترجمة لأبي زكريا يحي الزواوي، مما يبين بأن الزاوية كانت موجودة في حياته، أي قبل سنة 611هـ، ولذلك فمن الراجح أن يكون حدوثها أواخر القرن 6هـ/12م في شمال إفريقيا بعد ظهورها في المشرق، والتي يعود أصلها إلى الرباط الذي كان معروفا في شمال إفريقيا منذ القرن 1هـ/7م.[2]

فالرباط الذي أسسه عبد ا بن ياسين أيام الدولة المرابطية، كان دوره تربية الجند، تربية دينية وعسكرية، لذلك نجد أن العمارة التي غلبت على تلك الأربطة تبدو عسكرية بحتة، كما هو الشأن في رباطي سوسة والمنستير بتونس، ولذالك فالرباط مركز حربي، وثقافي معا، حربي حسب بناءه الذي يشبه القلعة المحصنة، وثقافي حسب تعليم المقيمين المرابطين للثقافة الإسلامية، والمعارف الدينية، ولذلك حسب المفهوم أيضا نجد بأن هناك تداخلا واضحا من حيث الوظيفة بين الأربطة، والزوايا، وهذا ما يذهب إليه "جورج مارسيه" في أن الزوايا عبارة عن أربطة فقدت وظيفتها العسكرية.[3] وإن كنا نميل كثيرا إلى هذا الرأي، لأن فكرة إقامة الزوايا في الجزائر خاصة الزوايا الريفية منها، تنطبق عليها هذه الفكرة، نظرا للدور الذي أدته في نشر الدين، والتعليم، وباعتبارها أيضا معاقل تخرج منها المجاهدون في سبيل تحرير الوطن.

فالزوايا عادة ما ترتبط باسم مؤسسيها، فعندما تتعدى سمعتهم المكان الذي يتواجدون فيه، يقصدهم الناس من كل مكان، ويقيمون حولهم حتى يكبر المكان، ويصبح عامرا.[*] أو قرية، ويقيمون بها زوايا للعبادة، وبعد وفاتهم يقوم أبنائهم وأحفادهم،والمعجبون ببناء ضريح تعلوه قبة، يصبح مع مر الزمن مزارا يحضى بتقدير القوم لهم، وذلك عرفانا بما قدموه في حياتهم، ويعتبرونه جدهم المقدس الذي تنتمي إليه

1- عبد العزيز لعرج ، مرجع سابق، ص.300.

2- الغ ي ؛ عنوان الدراية. ص.50.

3- Marçais (G), Archit. Musul d'occi. P.284.

*- ور ا من هذا أطلق مصطلح (ءمرث) على الزاوية بلاد القبائل.

كل القرية، والقرى المجاورة لها.[1] وإذا كانت الخانقاوات في المشرق يقصدها الصوفية والدراويش للمدائح، وغيرها فإن الزوايا في الجزائر خاصة تلك المعروفة بزوايا العلم والقرآن كما يسميها "محمد نسيب"، ليس لها تشابها لا مع الخانقاه، أو التكية المشرقيتين.[2]

وانطلاقا من هذا الرأي، وفي حالة صحته يمكن إرجاع الفضل إلى المرابطين عند تأسيسهم للزوايا أحياءا بأموالهم الخاصة، ثم أمواتا بعد دفنهم في قبة، فتسمى زاوية.

وكانت الزوايا في بداية الأمر تنتشر بصورة محدودة في المدن، ثم ما لبثت أن انتشرت بصورة واسعة في الأرياف، والبوادي، حتى أصبحت ميزة للحياة الصحراوية والجبلية.

ولقد أدت الظروف السياسية، والاجتماعية لبلاد الجزائر آنذاك دورا في ظهور بعض الزوايا بالقرب من مواقع الأعداء، مما تطلب تكوين طلبة جنود، وعلماء في نفس الوقت، كما هو الحال في زوايا بلاد القبائل، وحوض الصومام على وجه الخصوص منها: زاوية تامقرة وزاوية آمالو وزاوية الشيخ الحداد بصدوق. كما كان أيضا لسقوط الأندلس، والاحتلال الاسباني لبعض مدن الجزائر كبجاية على سبيل المثال، والفراغ الإداري الذي عرفته البلاد في العهد العثماني، أثر كبير في تقبل السكان لأي حركة روحية إسلامية، وهذا أدى بدوره إلى انتشار الزوايا لإحياء الوظيفة الحربية للأربطة القديمة في الجزائر.[3]

ومع مرور الوقت، كان لتردي الأوضاع الثقافية في الجزائر خلال القرن 10هـ/16م، حيث تفشى الجهل في الناس، وجعلهم يقدسون كل ما له علاقة بالمرابط مثل عقبه، و رفاته، وزاويته وحتى الأشجار والأحجار المحيطة بضريحه.

أما عن المدارس في بلاد المغرب، فيذكر ابن أبي زرع، على أن المدارس بدأت بالظهور في بلاد المغرب أثناء العهد الموحدي، وبالضبط في فترة حكم الخليفة أبو يعقوب يوسف المنصور 580-595هـ/1184-1199م، حيث يذكر عنه: "...وحصّن البلاد،

1- صباح بعلرسية ، مرجع سابق، ص.79، أنظر أيضا: م سي فضيل ، مرجع سابق، ص.58.

2- Bel (K), Caractères et développement de l’islam en berbèrie, et plus spécialement en Algérie, In. Histoire de l’Algérie, Bibliothèque nationale, Alger, 1931. p.140.

3- ا هدي بوعبد ، "الرباط والفداء وهران والقبائل الك ى"، لة الأصالة، عدد.13، السنة 3، مطبعة البعث قسنطينة 1973، ص.21.

وضبط الثغور، وبنى المساجد، والمدارس في بلاد المغرب وإفريقية والأندلس..."[1] غير أن هناك اختلافا واضحا بين المؤرخين في تحديد تاريخ دقيق لظهور المدارس في بلاد المغرب، فمنهم من يرى أنها ظهرت في العهد الحفصي، بينما آخرون يرون أن تاريخها يرجع إلى عهد المرابطين، ومنهم "عبد الهادي التازي" الذي يستند في رأيه على ما تبقى من أطلال مدرسة الصابرين، أما الأستاذ "احمد تريكي" فيشير إلى وجود مدرسة في العهد المرابطي، هي المدرسة اليوسفية بأحواض الأمير المرابطي "علي بن يوسف بن تاشفين" في بداية القرن 5هـ/11م.[2]

ومهما تضاربت الآراء حول ظهورها، يرى الأستاذ "لعرج عبد العزيز" بأنها وصلت إلى المغرب من المشرق الإسلامي بعد سقوط الدولة الموحدية، وبتأثير من مصر نظرا لدورها الحضاري على منطقة المغرب، ونظرا لطبيعة العلاقات الطيبة التي تربط البلاط الحفصي، بالبلاط المملوكي في عهد "أبي زكريا" نفسه.[3]

وتحتفظ كتب التاريخ والآثار، بقائمة لمدارس المغرب الإسلامي، سواء في العهد الزياني، أو المريني، أو الحفصي مثل: المدرسة الشماعية والمدرسة التوفيقية والخلدونية في العهد الحفصي[4]، ومدرسة الصفارين في العهد المريني بفاس، بالإضافة إلى مدرسة فاس الجديد، ومدرسة دار المخزن، ومدرسة الصهريج وكلها بفاس. وفي المغرب الأوسط توجد مدرسة العباد، ومدرسة سيدي الحلوي من العهد المريني. وبالنسبة للعهد الزياني وجدت المدرسة التاشفينية، و اليعقوبية الزيانية، ثم اقترن في هذا العهد مصطلح مدرسة بزاوية (المدرسة الزاوية)[1] ليبقى التداخل بين المسجد والرباط، والزاوية و المدرسة متداخلا حتى بعد مرور مدة من الزمن من ظهور الزاوية، وهذا التداخل قد يرجع إلى اتصال الزاوية بكل الوحدات المعمارية المذكورة من حيث الوظيفة، حتى وإن

1- علي بن عبد ا ابن أ زرع، الأنيس ا طرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار ا نصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص.154. انظر أيضا: عبد العزيز لعرج، "ا دارس الإسلامية دواعي نشأ ا وظروف تطورها وانتشارها"، القسم الأول، دراسات إنسانية، جامعة ا زائر، كلية العلوم الإنسانية العدد الأول، 2001 ص ص.112-124.

2- عن تضارب الآراء حول ظهور ا دارس، أنظر: عبد العزيز لعرج، ا با ا رينية... ص.307- 308.

3- لعرج، مرجع سابق، ص.308.

4- Marçais ; L'Architecture musul d'occi, p.199.

1- ابن مر الشريف ا لي ، البستان ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان ا طبوعات ا امعية، ا زائر 1986، ص.25، وما تلاها.

اختلفت معها في بعض التفاصيل المعمارية، والمخطط، ولذلك فالرباط أقدمها تاريخيا، ثم تليه الزاوية التي تطورت، ثم تأتي المدرسة بمفهومها الشامل فيما بعد.

5 - الزوايا في حوض الصومام (نظرة عامة):

كانت بجاية في العصر الإسلامي عاصمة للثقافة والعلم والفكر، حيث يقصدها محبي العلم،والتعلم من كل حدب وصوب، خاصة تلك القرى الموجودة بحوض الصومام التي كان يعاني أهلها الجهل والأمية، ولكن بعد الاحتلال الإسباني للمدينة، وتخريبهم لها ولمعاهد العلم بها، وما تلاه من دخول العثمانيين، وانكماش الحركة الثقافية بالمدينة، دفع بعلمائها للبحث عن مراكز جديدة يواصلون فيها نشر رسالتهم العلمية، فلم يجدوا أحسن من حوض الصومام، وقمم جباله التي لم يتمكن الإسبان من دخولها، كما أن الأتراك قد أعطوا أهمية لمدينة بجاية أكثر من قراها، وكان لهؤلاء العلماء اكبر الأثر في ظهور ما يسمى في منطقة القبائل بمصطلح (ثمعمرث) أي الزاوية، وهي معاهد للعلم و القرآن وحفظه، ودراسة العلوم، فتأسست زوايا في بني عيدل، وبني وغليس، وبني مليكش، وبني عباس، وبني يعلي وغيرها.[1] وبذلك لم يمض نصف قرن حتى شهدت جبال و وهاد بلاد القبائل ثلة من قلاع المعرفة والدين، والزهد قائمة على الورع والتقوى، والمستوى الجماهيري على يد أمثال "سيدي يحي العيدلي"، وزاوية سيدي الموفق ببني مليكش وزاوية سيدي موسى بتينبدار.[2]

ولقد استقبل سكان هذه القرى هؤلاء العلماء،وحظيوا بعناية فائقة، وكل تقدير واحترام من قبل السكان، فلجأ "سيدي يحي العيدلي" إلى تأسيس زاويته بـ تامقرة،كما تأسست زاوية شلاطة، وزوايا بني وغليس، وزاوية سيدي أحمد بن يحي بآمالو وغيرها كثير، وبذلك انتقل الإشعاع الفكري الذي كان ببجاية إلى كل قرى حوض الصومام عبر هذه الزوايا حتى وصل عددها في نهاية القرن 19م إلى العشرات من الزوايا، تخرج منها علماء ومثقفون كان لهم الفضل الأكبر في المحافظة على الإسلام بهذه المنطقة، ونذكر منهم سيدي عبد الرحمن الثعالبي أحد تلامذة مدينة بجاية، وسيدي تواتي الذي اشتغلت زاويته ما يفوق الأربعة قرون، وقبلهم سيدي أحمد بن إدريس الذي كان أستاذا للعلامة

1- مد نسيب، مرجع سابق، ص.31.

2- أ د ساحي، أعلام من زواوة (إقواون)، ج1، طباعة الثورة الإفريقية، د.ت، ص.32.

عبد الرحمن ابن خلدون، وسيدي عبد الرحمن الوغليسي أستاذ سيدي يحي العيدلي، وهذا الأخير الذي كان أستاذا لسيدي عبد الرحمن الصباغ، وسيدي أحمد زروق أحد أقطاب الطريقة الشاذلية في التصوف، والذي هو خريج زاوية تامقرة.[1]

وبذلك فإن هذه الزوايا قد حلت محل بجاية التي أصبحت في العهد العثماني تؤدي دورا ثانويا لا غير، لأنها في العهد العثماني قد فقدت العوامل التي تستطيع أن تصل بها خط ماضيها المزدهر، بمستقبلها.

ولقد أدت الزوايا في الريف دورا أكثر مما أدته زوايا المدن ، ويتجلى في التعليم الديني وتنوير المجتمع، كما كانت تشتمل بيتا للصلاة (مسجد)، وضريحا، ومبيتا للطلبة الداخليين، كما اشتهرت بعض الزوايا، والخلوات الريفية حتى أصبحت محجة للزوار والطلبة.[2]

والخلوات عبارة عن مغارات خاصة بالمتصوفة و الطرقية بعيدة عن أنظار المجتمع يتجه إليها المريد بعد إجازة معلمه وبركته الإلهية، ليبث ما أمره ا به للعالم من الرحمة الإنسانية، لذلك يتوجه للعزلة مدة طويلة حسب الظروف متفرغا للصلاة، والزهد عن الملذات حتى يكتشفه الناس، ويحترمون خلوته، ثم يتقربون منه، ويرون فيه النشوة والروحانية حتى يقوى إيمان العامة فيه، ويلحون عليه أن يدعو لهم.[3] ومعظم الخلوات في حوض الصومام مازالت قائمة لحد الآن، منها خلوة سيدي يحي العيدلي بالقرب من حمامه (صورة 70)، وخلوة سيدي إبراهيم بن عمار بأعالي قرية تيغرمين، وخلوة الشيخ الحداد بصدوق العلوي (صورة 71)

ولقد سمحت لنا الدراسة الميدانية التي قمنا بها في قرى حوض الصومام، من الوقوف على أن كل المساجد كانت تقوم بوظيفة تدريس القرآن، بالإضافة إلى الكتاتيب أو ما يعرف بالمدارس القرآنية، وتقع بالقرب من المساجد، وفي أغلب الأحيان ملتصقة بها كما

1- مد شريف واشق، "نظرة تار ية حول ا ركة الثقافية مدينة اية"، لة أصداء الصومام، اية من 1985/07/08، اية، عدد خاص لملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، اية من 08 إ 1985/07/15، ص.28.

2- سعد ا أبو القاسم، مرجع سابق، ص.267.

3- صباح بعارسية ، مرجع سابق، ص.79.

هو الحال في جامع قرية بني سراج[*] (صورة 72). كما قمنا بإحصاء عام لمعظم الزوايا (أنظر الجدول)، ثم قمنا باختيار عينات منها للدراسة.

ولكن نشير بان الكثير من الزوايا قد تعرض للهدم والقنبلة والسطو على مكتباتها وحرمان الناس من الدراسة بها في العهد الفرنسي، حيث أغلقت بعضها وحرم أبنائها من تلقي العلوم الدينية.[1]

وفي الأخير، نشير إلى أن بجاية قد صدرت للعالم الإسلامي علماء أجلاء من معاهدها وزواياها، منهم من توجه إلى دمشق وتونس ومصر والسعودية والمغرب وغيرها، كما أن مؤلفاتهم العلمية متواجدة الآن في المكتبات المشرقية كالأزهر، والمدينة المنورة، وتتخذ كمصادر أساسية في التدريس، في حين تحظى هذه الأخيرة بالجهل التام عند أبناء الجزائر.

6 - الحركة الثقافية والعلمية ببجاية ونواحيها:

احتلت بجاية مكانة مرموقة في المجال العلمي، والثقافي من بين مدن شمال إفريقيا وفي وقت كانت حركة الثقافة والعلم في الجزائر تنحصر في ثلاثة حواضر هي: تلمسان في الغرب، وقسنطينة في الشرق، وبجاية في الوسط، حيث كانت تمثل المركز الأساسي في البلاد، مما جعلها بحق مركز إشعاع علمي، وفكري، في بلاد الجزائر، وهذا ما جعلها تكون قبلة لطالبي العلم والمعرفة، ويعود الفضل إلى الدولة الحمادية التي تمثل مرحلة التحضر والانفتاح، حيث ساعدت على ذلك الأسباب الاقتصادية والاجتماعية الراقية آنذاك، مما جعلها لا تختلف عن الحواضر العربية الإسلامية كبغداد وقرطبة والقاهرة والقيروان وغيرها.[2] وبذلك قد عاشت بجاية مدة لا تقل عن أربعة قرون، في رخاء وازدهار حضاري، حتى قيل عنها بأنها عروس الساحل الفتان، وعاصمة الأمراء، ومهبط وحي الشعراء، ولقبت أيضا بلؤلؤة المغرب، حيث بلغ تعداد سكانها في ذلك الوقت

---

*- هذه ا درسة تلقى ا فكر ا زائري مولود قاسم نايت بلقاسم ر ه ا حروفه الأو .

1- أجرون ش. ر، ا تمع ا زائري الإيديولوجية الكولونيالية، تر ة وتقد وتعليق د/ مد العر ولد خليفة منشورات ثالة، ا زائر 2004، ص.40.

2- عبد ا ميد خالدي، "ا ياة التعليمية ببجاية ا مادية"، لة الثقافة، تصدرها وزارة الاتصال والثقافة، ا زائر، العدد 2 1999، ص.143.

24000 عائلة، وفيها واحد وعشرون حيا، واثنان وسبعون مسجدا، وعددا من المدارس حتى ضاهت مدن الأندلس ومصر وبغداد.[1]

ولقد ساعد انتقال العلماء والأدباء من العاصمة الأولى القلعة بالمسيلة في تطور ورقي عاصمتهم الثانية منذ أن حل بها "الناصر بن علناس" الحمادي، ثم صارت بجاية دار هجرة العلماء، والمحدثين، والأدباء من الأندلس وغيرها، واستوطنوها، وازدهرت الحركة الفكرية بها وصارت آهلة بالسكان،وازدهرت بها العلوم الدينية واللغوية والرياضية والطب والصناعات. فحكام الدولة الحمادية كانوا من رجال الفكر والثقافة يجتمع في قصورهم أشهر رجال الفكر والعلم الديني والدنيوي، فالمنصور مثلا كان كاتبا وشاعرا، في حين كان "العزيز" معجبا بالمناقشات، وشغوفا بمجالس البحث والمناظرة.[2] ولقد توافد على بجاية حتى المسيحيين، ومنهم (ليوناردو بيزا) الرياضي المشهور الذي دوخ الكنيسة وعلمائها، وكذلك قصور ملوك أوروبا، بالعلم الذي أخذه من بجاية.

ولقد كان ببجاية مدارس عديدة منها: جامعة سيدي تواتي التي كان يتواجد بها ثلاثة آلاف طالب، منهم خمسمائة طالبة.[3] وخلال فترة حكم العزيز، كان يلقي الدروس بها علماء من إسبانيا، وإفريقيا، والمشرق العربي الإسلامي.[4]

ولقد أدت هذه الحركة العلمية النشيطة، إلى ظهور حركة التأليف في الفقه والنحو والتاريخ والحساب، ولقد قام الإسبان بالاستيلاء على حمولة تقدر بإثني عشر سفينة من الكتب القيمة التي كانت ببجاية ومدارسها ومساجدها، لكنها غرقت حسب ما يقال كلها في البحر.[5]

ولقد حفلت كتب التاريخ بأسماء العديد من العلماء الذين تخرجوا من بجاية.[1] وأغلبهم عرف بلقب الزواوي، أو البجاوي، كما جاء إليها علماء الأندلس[2]، مثل عبد الحق الإشبيلي، دفين مدينة بجاية، وأبي مدين شعيب دفين تلمسان، ومن علماء القرن

1- ا هدي بوعبد ، " اية قبلة العلماء"، لة أصداء الصومام، جويلية 1985، ص.22.

2- Keddache (Mahfoud), L'Algérie médiévale, SNED, Alger 1992, p.91.

3- ا هدي بوعبد ، مرجع سابق، ص.23.

4- عبد ا ميد خالدي، مرجع سابق، ص. 149.

5- ا هدي بوعبد ، مرجع سابق، ص.23.

1- انظر: عادل نويهض، معجم أعلام ا زائر من صدر الإسلام حـ العصر ا اضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بـ وت 1980، ص.32 حـ 40.

2- سعد ا أبو القاسم، مرجع سابق، ص.35.

6هـ/12م، نذكر أبو علي المسيلي دفين بجاية، وعمارة الشريف وابنته عائشة وغيرهم كثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم، حتى أن الغبريني أفرد لهم كتابا خاصا بهم.(1)

كما جمعت أيضا بجاية بعض أقطاب التصوف مثل سيدي أبي مدين، ومحي الدين بن عربي، وابن سعيد سبعين.(2) ولقد أثر علماء بني حماد على العلماء الموحدين الذين ورثوا الدولة الحمادية التي كانت في أوج تألقها الحضاري، ولذلك فإن العلماء الذين ظهروا في الجزائر في القرن 6هـ/12م كانوا تلامذة للحضارة الحمادية.(3) ولعل كل العلماء الذين تحدث عنهم الغبريني في مصنفه عن علماء بجاية، ما هم في حقيقة الأمر إلا امتدادا ثقافيا للحماديين، ودليل على النهضة العلمية الناصعة، التي رعاها الحماديون في بجاية. وكان لكل مسجد ببجاية مدرسة قرآنية لتعلم الصبيان، مكتبة تابعة له تحوي كتبا من أقطار بعيدة إلى بجاية والمغرب الأوسط عموما.(4) فالمسجد كان المؤسسة التعليمية الأولى في بجاية، كما هو الشأن في العالم الإسلامي ككل، وكان لبعض العلماء مساجد خاصة، مثل مسجد الفقيه "أبو زكريا الزواوي" الذي كان يجلس فيه، و كان يدرس به الشيخ "أبي مدين شعيب"، ويقع في حومة اللؤلؤة، أي قصر اللؤلؤة ببجاية(5)، وكذلك مسجد القصبة الذي كان يدرس به العلامة ابن خلدون. ومما يدل على الرقي الحضاري الكبير في بجاية هو أن المرأة كان لها الحق في التعلم عكس مرحلة القلعة، كما هو الشأن في معهد سيدي تواتي الذي ألقت فيه طالبة محاضرة دامت ثلاث ساعات حول بروج الشمس أمام مجموعة من العلماء الأجانب، وهذا يدل على أن المرأة الجزائرية ببجاية ساهمت إلى جانب الرجل في نقل العلم وتلقينه حتى خارج حدود الجزائر آنذاك.

وتشير كتب التاريخ إلى أن علماء بجاية،كانوا يدرسون تقريبا نفس تلك العلوم التي كانت تدرس في المشرق من خلال كتب وصلتهم، ونظر فيها أهل المغرب، ودرسوها وزادوا عليها، ونقحوها حسبما كان يبدو لهم، نظرا لآرائهم، وما يتلائم مع بيئتهم ومذهبهم، واتجاههم السياسي، وذوقهم الحضاري، وأضافوا بعض العلوم التي لم تكن في

1- الغ ي ، مصدر سابق.

2- طال عمار، "ا ياة العقلية اية، الفلسفة والكلام والتصوف"، الأصالة، عدد 19، ص.153.

3- خالدي، مرجع سابق، ص.145.

4- رشيد بورويبة ، اية، سلسلة فن وثقافة، ص ص. 30-33.

5- الغ ي ، مصدرسابق، ص.59.

القلعة كاللغة، والأدب والحساب والطب وعلم الفلك، وحتى الفلسفة[1]، ولذلك أصبحت بجاية من العواصم الثقافية والعلمية، جذبت كلا من النصارى واليهود لطلب العلم، وتخرج منها العالم الإيطالي (ليوناردو ديفانشي) الذي تعلم بها الحساب، والجبر والهندسة، وكان أهل (بيزا Pizza) ينزلون بها لتعلم صناعة الشمع بمصانعها، ثم نقلوها إلى أوروبا، ولا يزال اسم الشمع (بوجي) هو اسم بجاية في الوقت الحالي.

ولقد ارتحل إليها "ابن حمديس الصقلي"، وغيره من الأدباء، والعلماء الذين غصت بهم بجاية التي تميزت عن العواصم الأخرى بكونها كانت عاصمة سياسية وثقافية، تستمد منها المعالم الفكرية إلى الحواضر الأخرى.

وفي القرن 9هـ/15م، تذكرنا المصادر التاريخية بعض الأسماء لعلماء، وأدباء بجاية منهم "أبو الفضل محمد المشدالي" الذي اعتبر أوحد زمانه، وعلامة عصره، وهو من مواليد بجاية، ونشأ في بيت علم وصلاح، معروف بإنجابه العلماء مثل "ناصر الدين المشدالي"، واخيه "محمد بن محمد المشدالي".

إن المجال لا يتسع لذكر كل العلماء الذين عاشوا ببجاية، ولكن محاولة منا لإعطاء أضواء مختصرة فقط عن الناحية العلمية،والثقافية للمنطقة ككل. وخير ما ينطق بحق عن دور المدينة العلمي هو أن العلامة "عبد الرحمن ابن خلدون" درس بها على يد الشيخ "أحمد ابن إدريس"، ثم صار مدرسا بمساجدها، وكذلك الوصف الذي ذكره "أبو عبد ا الشريف التلمساني"،احد كبار مشايخ ابن خلدون،حيث قال: "دخلت بجاية فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها،كالماء الذي ينبع من حيطانها".[2] كما ذكرها أيضا طالب ثالث، وهو "عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي" دفين الجزائر المتوفى حوالي 875هـ: "...ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية، فدخلتها عام إثنان وثمانمائة فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في عملهم، ودينهم، وورعهم، أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، وأصحاب الشيخ أبي العباس بن إدريس، وهم يومئذ متوافرون، أهل ورع ووقوف..."[1]

1- رشيد مصطفاوي، " اية عهد ا مادي "، لة الأصالة، العدد 1، ص.89.

2- ا هدي بوعبد ، "ا ياة الفكرية ببجاية عهد الدولة ا فصية والتركية، وآثارها"، الأصالة، عدد 19، ص.141.

1- ا هدي بوعبد ، مرجع سابق، ص.141.

وإن كانت هذه الحركة العلمية قد استمرت منذ العهد الحمادي، إلى الحفصي، فإن العهد العثماني ببجاية يعتبر مرحلة عقم ثقافي، وانكماش حضاري يلاحظ على مستوى الإنتاج العلمي الفكري المفقود خلال هذه الفترة، مما جعل مجد المدينة الحضاري ينمحي جيلا بعد جيل، دون أن تترك أي اثر يذكر خلالها، وذلك بسبب الوحشية الإسبانية والتقتيل الجماعي لسكانها[1].فضلا عن تحول المدينة من عاصمة دولة إلى مدينة ثانوية.

وهذا ما جعل العلماء ينتقلون إلى القرى المجاورة لتأسيس زوايا هناك تواصل دورها العلمي، حيث أصبحت ميزة قرى حوض الصومام التي انتشرت فيها الزوايا بكثرة (أنظر الجدول الخاص بالزوايا).

ونذكر من زواياها : زاوية سيدي يحي العيدلي الذي تخرج منها الشيخ سيدي أحمد زروق البرنسي الفاسي، والذي كون مدرسة بقرى بجاية، وكان صاحب مذهب انتشر بكثرة في المنطقة، فألف كتاب بعنوان: (قواعد التصوف)، ثم (أصول الطريقة) و (عيوب النفس)، كما ألف كتبا قيمة في الحديث والتفسير والفقه[2]، ومن نفس العصر أيضا نذكر الشيخ "سيدي يحي العيدلي"، و "سعيد العلمي"، و "سيدي عبد الرحمن الصباغ"، وغيرهم كثير.

وما يمكن أن نختم به هذا الكلام، أن الزوايا التي تأسست في الريف البجائي، قد ساعدت في الحفاظ والتمسك بالدين الإسلامي، حيث سارع علماء المنطقة إلى تأسيس الزوايا والمساجد والكتاتيب القرآنية في كل قرى، وأعراش المنطقة تقريبا. فمنطقة القبائل، وحوض الصومام على وجه الخصوص، موضوع الدراسة والبحث قد أنجب العديد من العلماء الذين ساهموا مساهمة علمية لا نظير لها في قيام الحضارة الإسلامية بأرض الجزائر، ورغم خصوصياتها الجغرافية الوعرة، باعتبارها مناطق جبلية، إلا أن لها أهمية خاصة في تاريخ الجزائر، بعلمائها الذين تجاوزت شهرتهم حدود الجزائر وبلدان المغرب الإسلامي، وتركوا بصماتهم واضحة في الجوانب الفكرية، والثقافية والحياة العلمية، والأدبية، والاجتماعية، والاقتصادية للحضارة الإسلامية[1].

1- Feraud (Ch), **Histoire des villes**…p.275.

2- ا هدي بوعبد ، "ا ياة الفكرية ببجاية"، الأصالة، عدد 19، ص.143.

1- مد نسيب، مرجع سابق ، ص.66.

7 - دور الزوايا في الجزائر:

أدت الزوايا في الجزائر عامة، وحوض الصومام على وجه الخصوص دورا بارزا في تاريخ الجزائر الثقافي، حيث كانت معاقل للأحرار، ورباطات جنود ا ، نذروا حياتهم للعلم، والدين والقرآن،كما اعتبرت محاضن علماء الدين، ورباطات للمجاهدين، فيها تدربوا، وفيها تعلموا، ومنها تخرجوا لمحاربة الجهل، والأمية والاستعمار، والمحافظة على كتاب ا [1]، ثم أصبحت فيما بعد ظاهرة من المظاهر العمرانية الإسلامية عبر العصور المتتالية، وذلك راجع للدور الذي أدته في تاريخ الحضارة الإسلامية والذي يمكن حصره باختصار فيمايلي:

- عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشره بصورة مكثفة عبر الأجيال المتعاقبة.
- احتضنت اللغة العربية ونشرتها بشكل واسع، ومكثف، كما فتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة وأنفقت عليهم بسخاء، وكان ذلك شكلا من أشكال محاربة الأمية والجهل.
- عملت على نشر رسالة الإسلام في الأقاليم التي لم يصل إليها، خاصة في المناطق الصحراوية النائية.
- عملت على إنهاء الخلافات، والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات، وذلك بفضل مركز شيوخها ومقدميها،كما توصلت إلى تخفيف حدة القبلية بين العروش المتعادية[2].
- اعتبرت حتى الآن بمثابة مخازن، ودواوين للكتب، والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وهذا بفضل اهتمام الشيوخ بالعلم، والنسخ، والنقل، والتأليف.
- اعتبرت رباطات منها انطلق الجاهدون في سبيل تحرير الجزائر، فالشيخ الحداد[*] قد استطاع أن يعد جيشا كبيرا من مجاهدي الزاوية الرحمانية بصدوق، وتعبئة القرى المجاورة للوقوف في وجه الاستعمار، وهذا ما يبين الدور الجهادي للزوايا. ومازالت زوايا قرى حوض الصومام تحتفظ بقائمة أسماء المجاهدين الذين حملوا

1- مد نسيب، مرجع سابق، ص.30.

2- مد قنانش، **آفاق مغاربية، ا س ة الوطنية وأحداث 8 ماي 1945**، منشورات دحلب، د.ت، ص.36. أنظر أيضا: - ي بوعزيز، "أوضاع ا ؤسسات الدينية با زائر خلال القرن 19 و 20م"، لة الثقافة، العدد 63، 1981، ص.18.

*- ا ه ا قيقي مد امزيان بن علي، و ي با داد نسبة إ جده، وكانوا معروف رفة ا دادة.

السلاح ضد الاستعمار الفرنسي، وسقطوا في ميدان الشرف[1]. ولذلك نجد بأن المستعمر قد أعطى الزوايا دراسة مستفيضة، قصد محاربتها، ومحو آثارها في كل الجوانب الفكرية، والسياسية والجهادية، واستحدث بدلها مدارس لأبناء المسلمين قصد تحويل نظرتهم عن الزوايا، والتي لم تلق تجاوبا من قبل السكان المحليين[2].

8 - نماذج من الزوايا بحوض الصومام:

فيما تعلق بمدينة بجاية الحاضرة فإن التدريس بها كان منتشرا في المساجد و المصليات و في بعض الزوايا كزاوية سيدي تواتي و سيدي محمد أمقران و لالة فاطمة، و نظرا لانعدام الأدلة المادية عنها رغم أن كتب التاريخ حافلة بذكر أسماء العلماء الذين نزلوا ببجاية و درسوا بها ، و بعضهم تلقى تعليمه في مساجدها و زواياها ، لكن المستعمر قد قضى على كل معالمها بينما في حوض الصومام فقد تعددت ، ومعظمها زوايا للعلم والقرآن، لكن أثناء ثورة التحرير هناك من الزوايا ما اندثر، ولم يبق إلا أطلاله ظاهرة، ومنها ما محي كلية، ولم يبق له أثر، وهناك من الزوايا ما توقفت عن التدريس أثناء الثورة، أو تعرضت للتخريب، لتعود ثانية لمزاولة دورها الوظيفي بعد الاستقلال (أنظر الجدول الخاص بالزوايا). كما أن البعض الآخر من الزوايا بنيت في العصر الحديث، ولكنها تحمل اساميها القديمة، ولذلك قمنا باختيار عينات لثلاث زوايا في حوض الصومام، منها زاوية سيدي أحمد بن يحي بآمالو، من القرن 9هـ/15م، وزاوية سيدي يحي العيدلي القديمة من نفس القرن، ثم زاوية تينبدار، وهي عبارة عن معهد علمي للتدريس من القرن 10هـ/16م، وتقع في عرش بني وغليس.

1- ي بوعزيز، **وصايا الشيخ ا داد ومذكرات ابنه سي عزيز**، ا ؤسسة الوطنية للكتاب، ا زائر 1989، ص.141. عن دور الزوايا انظر أيضا: مد علي دبوز، **ضة ا زائر ا ديثة وثورتا ا باركة**، ج1، ط1، ا طبعة التعاونية، 1965، ص ص43-45.

2- Yvoune (Tourin), **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale**, Ecole médecine- religion, 1830-1870, année 1978, p.165.

أ- زاوية سيدي أحمد بن يحي:

تقع الزاوية في منطقة بني عيدل ببلدية آمالو، شرق وادي الصومام، ومساحتها حوالي 100م^2، تأسست في القرن 9هـ/15م، من قبل الشيخ "أحمد بن يحي" تلميذ الإمام "ابن غازي" المشهور في المغرب الإسلامي. وتعتبر الزاوية مركز إشعاع علمي للحضارة الإسلامية بمنطقة حوض الصومام، والشرق، والوسط الجزائري عامة. تخرج منها آلاف الطلبة من حاملي كتاب ا ، والتفقه في العلوم الإسلامية ، والعربية عبر تاريخها.

نظام الدراسة في الزاوية داخليا، والمعروف بنظام السفارة المؤلفة من 12 عضوا وكان للزاوية نظامها الداخلي الخاص، كما كانت لها أملاك خاصة تتكون من عقارات فلاحية، وعقارات سكنية ومعصرة للزيت، ومداخيل أخرى من تبرعات المحسنين، وقطاع الشؤون الدينية للدولة. ولقد درس سيدي "احمد بن يحي" في نفس الزاوية، ثم صار مدرسا بها، هذا بالإضافة إلى القاضي سحنون.

أما من الناحية المعمارية، فتبدو من الخارج بسيطة في عمارتها، وخالية من مظاهر الزخرفة والتأنق المعماري (صورة73)، واجهاتها خالية من الزخارف ماعدا الرئيسية منها وهي الواجهة الشرقية التي يتوسطها المدخل، فيعلوها عقد نصف دائري، وعلى جانبيه دكانتين لجلوس الطلبة (شكل 37 أ). أما سقفها من الخارج، فهو من القرميد التقليدي ومائل نظرا لطبيعة المنطقة ومناخها. أما عن مواد بنائها فهي من الحجر، والطين، وبعض الأوتاد الخشبية المدمجة لتقوية المبنى.

أما بالنسبة لمخططها المعماري، فهو في غاية البساطة، إذ يلي المدخل الذي تقدر أبعاده بـ 1,37م عرضا، وارتفاعه محدود، يليه مباشرة رواق على جانبيه أيضا دكانتين داخليتين مخصصتين لجلوس الطلبة للدراسة والعلم أوقات البرد، ويتراوح طول الدكانة الواحدة حوالي 2,85م، ويؤدي الرواق إلى باب ثانية، أقل عرضا من المدخل الرئيسي حيث يتراوح عرضها 1م تؤدي عبر رواق صغير لا يتعدى طوله 58سم إلى قاعة صغيرة شبه مربعة، يتوسطها دعامة مربعة، وهذه القاعة تستعمل للتدريس، وكمصلى أيضا أوقات الصلاة، وأبعادها تقدر بـ 4,74م×4,98م و هي خالية من عنصر المحراب .

وينفتح في القاعة من الجهة الشمالية باب عرضه 1م، ويؤدي إلى غرفة ثانية تعرف بغرفة شيخ الزاوية، وتتخذ شكلا مستطيلا أبعادها 5,40م×2,85م. . وكان للزاوية غرف خاصة تستعمل كمراقد للطلبة، وهي عبارة عن غرف لم يبق منها أثر (صورة 74).

والزاوية بهذا الشكل التخطيطي، تبدو في منتهى البساطة بما في ذلك مواد بنائها المحلية المتوفرة بالمنطقة، لكن رغم ذلك كانت منارة للعلم والقرآن بالمنطقة، كما يتبين أيضا إلى حد ما النمط التقليدي للزوايا الريفية بحوض الصومام.

وللإشارة، فإن الزاوية تقع وسط تجمع معماري إلى جانب المسجد والضريح، وهي ظاهرة معروفة في الريف البجائي[1].

ب- زاوية سيدي يحي العيدلي:

تقع الزاوية في عرش بني عيدل، وتنسب لمؤسسها سيدي يحي العيدلي، وهو عالم جليل من أعلام حوض الصومام، والمتوفي سنة 882هـ، والذي تخرج على يد علماء بجاية التي كانت آنذاك تعج بفطاحل العلماء[2]. وتقع أيضا بالقرب من تجمع معماري يشمل المسجد والضريح، شأنها شأن زاوية سيدي أحمد بن يحي بآمالو، ويعود تأسيسها إلى القرن 9هـ/15م، وتوجد بقرية تامقرة.

ومن أشهر الطلبة المتخرجين بها: الشيخ أحمد زروق البرنسي، والذي درس بها فيما بعد، ومن طلابها أيضا نذكر "سيدي عبد الرحمن الصباغ" دفين بجاية، وصاحب شرح الوغليسية في الفقه، وشرح البردة للبوصيري بأمر من شيخه سيدي يحي العيدلي، ومن طلابه أيضا "سيدي أحمد بن يحي" مؤسس زاوية بآمالو، ومنهم الشيخ "سيدي بهلول بن عاصم"[*] الذي زوجه بنته، الشيخ سيدي إبراهيم بن عمار[**] دفين تانساوث، ومنهم سيدي "أحمد بن عبد الرحمن " جد العائلة عائلة المقرانيين[1].

1- سعد ا أبو القاسم، مرجع سابق، ص.262.

2- مد نسيب، مرجع سابق، ص.169.

*- عن تر ة الشيخ بلول بن عاصم، أنظر، ا فناوي، مرجع سابق، ص.110.

**- عن تر ة سيدي إبراهيم بن عمار، أنظر، ا فناوي، مرجع سابق، ص.22.

1- مد نسيب، مرجع سابق، ص.169.

وقد تعرضت الزاوية للهدم أوائل العهد الفرنسي، وأعيد بناؤها بعد ذلك، ثم هدمت ثانية خلال ثورة 1871م، وبقيت معطلة إلى غاية 1937، ثم جدد بناؤها حتى بلغ عدد الطلاب بها سنة 1955 أكثر من ثلاثمائة طالب.

وفي سنة 1956، كانت مركزا للمجاهدين، حيث التحق كل طلابها بالمجاهدين فاستشهد أكثرهم حيث قدمت الزاوية أكثر من مائة شهيد، مما دفع بالمستعمر إلى إلحاق أضرار بها، وبقيت على تلك الحال، إلى أن بنيت زاوية جديدة مكانها في العصر الحديث[1].

وزاوية سيدي يحي العيدلي، كانت تقوم بتحفيظ القرآن للصغار، والعلوم الدينية، والأدبية للكبار، وقد تخرج من الزاوية "سعيد بن أحمد المقري" (ولد في 928هـ/1522م) والذي أخذ الخرقة من شيخ الزاوية[2].

أما من الناحية المعمارية ، فتبدو الزاوية من حيث طابعها العام المعماري، بسيطة من الخارج، وبنيت بمواد محلية من الحجارة والتراب، ثم تلبس الجدران بالجبس، ونظام تغطيتها هي أسقف مائلة من القرميد التقليدي المعروف بالمنطقة (صورة 75)، ولذلك فهي تعد من أقدم الزوايا بمنطقة حوض الصومام.

ومن حيث التخطيط المعماري لها (شكل 37 ب)، فهي عبارة عن فناء مركزي تتوزع حوله غرف من الناحيتين الشرقية والغربية، من الناحية الغربية للفناء يوجد مدخل الزاوية الذي يوجد على يساره مباشرة غرفة صغيرة أبعادها 3م×2م تقريبا، ينفتح مدخلها على الصحن، وكانت في القديم تعرف بغرفة شيخ الزاوية، وعلى جانبها غرفة أخرى كبيرة من حيث المقاسات، حيث تقدر بحوالي 7م×4,50م، وكانت في القديم غرفة للتدريس، وفي ركنها الشمالي مكان مخصص ربما استعمل للطبخ، حيث توجد به فتحة صغيرة على شكل مدخل تؤدي إلى رواق مستطيل وضيق، ويقابل هذه الوحدات المعمارية الموجودة في الجهة الغربية للزاوية ثلاث غرف مربعة ومفصولة عن بعضها البعض، وأبعادها تقدر بـ 4×4م، كانت تستخدم قديما كمراقد لنوم الطلبة، ويلتصق بهذه

1- مد نسيب، مرجع سابق، ص.17.

2- ي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة با زائر ا روسة**، جزءان، دار الغرب الإسلامي، ب وت، ج1، 1995، ص ص.42-43، ص.165.

الغرف من الناحية الجنوبية، مقابلة لمدخل الزاوية، غرفة صغيرة مربعة، أبعادها 2×2م، ويغلب على الظن أنها كانت بيتا للخلاء.

وللإشارة، فإن جزء من جدار الزاوية الخارجي، والواقع في الجهة الجنوبية بمحاذاة المدخل قد تهدم، وأعيد بناءه لاحقا، وبنفس المواد البنائية المستعملة في باقي الأماكن الأخرى من الزاوية، حتى أضفى عليها نوعا من التجانس مع الجزء الأصلي القديم بها.

وتظهر على الزاوية آثار بعض التشققات، والتصدعات على الجدران، إضافة إلى سقوط جزء من سقف احد الغرف التي كانت مخصصة كمراقد للطلبة، وهذا جراء الزلزال الذي ضرب المنطقة عدة مرات آخره سنة 2002م، لكن على العموم، فزاوية سيدي يحي العيدلي القديمة بتامقرة مازالت قائمة تتحدى الزمن، وتشهد على تاريخ وحضارة المنطقة.

ج- زاوية سيدي موسى (تينبدار):

تقع الزاوية في قرية تينبدار بأعالي سيدي عيش، أسسها سيدي موسى في أواخر القرن 10هـ/16م[1]. وسيدي موسى احد العلماء الذين يعود أصلهم إلى المرابطين، وقدم إلى المنطقة من بجاية أين تلقى تعليمه. وكانت الزاوية محلا يقصده الطلبة من كل جهة خاصة من الشرق الجزائري، ولقد بلغ بها عدد الطلبة في بعض السنوات ما بين 150 إلى 200 طالب، ولقد مارست وظيفتها كزاوية متخصصة في تعليم القرآن، وعلوم الفقه خاصة فقه سيدي خليل، وابن عشير، وذلك منذ تأسيسها إلى أن حل العهد الاستعماري حيث تحولت إلى ثكنة عسكرية، ولكن سرعان ما استرجعت وظيفتها بعد الاستقلال مباشرة، كما نشير أيضا أنها كانت قاعدة للمجاهدين في ثورة 1871م التي قادها المقراني ضد المستعمر الفرنسي[2].

1- مد نسيب، مرجع سابق، ص.23.
2- نفسه، ص.224.

ولقد ضاعت العديد من المؤلفات، والمخطوطات من الزاوية، شأنها في ذلك كباقي الزوايا الريفية في حوض الصومام التي فقدت إرثها العلمي على يد الاستعمار الفرنسي[1].

أما من الناحية المعمارية، للزاوية (شكل 38)، فهي عبارة عن معهد علمي كبير ويشتمل على العديد من الملاحق على عكس الزاويتين السابقتين. يتم الدخول إلى الزاوية عن طريق مدخل يؤدي إلى رواق مسقوف، يعلو المدخل في الطابق العلوي قاعة كبيرة كانت تستعمل للتدريس، وفيها محراب غير موجه بدقة للقبلة، وهي في الوقت الحالي مسجدا للصلاة، بعد تهدم المسجد الأصلي للزاوية، وعلى امتداد رواق المدخل، نصل إلى سلم نصعد منه إلى مستوى أعلى ليقابلنا على اليمين مطبخ الزاوية (صورة 76) الذي يتوسطه حفرة الطبخ والمعروفة في اللهجة المحلية بمصطلح (الكانون)، وفيه أيضا دكانة كبيرة، توضع عليها لوازم المطبخ، هذا بالإضافة إلى حجرة ملساء قديمة جدا يتم طبخ الرغيف عليها، وهي أصلية في الزاوية (صورة 77). وغير بعيد عن المطبخ يوجد ضريح سيدي موسى داخل غرفة مربعة يتوسطها تابوت، وهي بسيطة في عمارتها، وفيها أماكن لوضع الشموع، وأما سقفها من الخارج بالقرميد، ومائل ليسمح بتسرب مياه الأمطار، كون المنطقة باردة شتاءً، وممطرة (صورة 78). وأمام الضريح ساحة صغيرة نوعا ما، ويقابل مدخل الضريح دكانة لجلوس الطلبة، وزوار الضريح، ومن أمام الدكانة سلم ينزل إلى مستوى منخفض، أين توجد قاعة أخرى للتدريس، يقابلها قاعة أخرى كبيرة المساحة، تتخذ شكل مسجد، ولها محرابان تستعمل أيضا للتدريس (صورة 79)، وبين هذه القاعة والضريح رواق يفصل بينهما، وبين مراقد الطلبة (صورة 80)، وخلف الضريح مكان مخصص لغسل الألواح القرآنية للطلبة، وهذا المكان ملتصق بمئذنة الجامع الذي اندثر، ولم يبق له أثر، وذلك لبناء مسجد جديد، وبالقرب منه مئذنة الجامع (صورة81)، وتعد الوحيدة من حيث التواجد في كل المساجد الريفية، والزوايا التي زرناها بحوض الصومام حيث تخلو من هذا العنصر المعماري، ما عدا في جامع زاوية تينبدار، و أخرى في المسجد الجامع بقلعة بني عباس، التي جاءت صورة طبق الأصل لها، والتي يبدو أن

1- معلومات مستقاة عن شيخ الزاوية حاليا.

التأثير جاء مباشرة من قلعة بني عباس. ووجود المئذنة في هذه الزاوية دليل على أن المنطقة كانت عامرة بالسكان، وكذا الزاوية.

ومن حيث الشكل المعماري للمئذنة، فهي تتخذ شكلا دائري المسقط، وأسطوانية البدن إلى مستوى الشرفة التي يقف عليها المؤذن للنداء إلى الصلاة، ثم يبدأ الجوسق الذي يتخذ شكلا مثمنا، وهذا النوع من المآذن حسب معلوماتنا دخل الجزائر في العهد العثماني[1]، لأن المآذن المغربية المعروفة في الجزائر ذات القاعدة المربعة على شكل مئذنة جامع قلعة بني حماد التي مارست تأثيرا واضحا على معظم المآذن المغربية، والتي استوحت أيضا شكلها العام من مئذنة جامع القيروان سادس مئذنة في العالم الإسلامي وأقدمها على وجه الإطلاق[2]. كما أن الشكل العام لمئذنة زاوية جامع تينبدار يذكرنا بطابعه العام بمئذنة جامع الجيش بقلعة الداي بالجزائر العاصمة، ومئذنة جامع الداي بقصبة الجزائر من حيث مظهرها العام. كما أن للمئذنة مدخلا يؤدي إلى الأعلى ويدور حول نواة مركزية مصمتة، وطول المئذنة من قاعدتها إلى قمتها لا يتعدى 18م على الأكثر.

ومن الملاحظات المعمارية حول هذا المجمع المعماري الكبير، ظاهرة تعدد قاعات التدريس، مما يدل على كثرة توافد الطلبة عليها، ووجود المئذنة أيضا دليل على كبر القرية آنذاك وكثرة المترددين عليها، وعلى المسجد.

1- عبد الكر عزوق، **تطور ا آذن...**، ص.90.

2- عبد الكر عزوق، "تأث مئذنة قلعة ب اد على بعض ا آذن ا غرب والأندلس"، لة الدراسات الأثرية، معهد الآثار، عدد.3، سنة 1995، ص31.

الخلاصة:

بعد استعراضنا للزوايا الريفية بحوض الصومام من حيث نشأتها ودورها وعلمائها وحتى عمارتها، يتجلى لنا واضحا بأن هذه الأبنية البسيطة في مخططاتها، ومواد بنائها المحلية، توحي بمدى تقدم فن العمارة التقليدية في حوض الصومام، والتي مازال بعضها قائما لحد الآن، يشهد على العمق الحضاري الإسلامي المتأصل لدى السكان منذ أن دخل الإسلام أرض الجزائر، واحتضان أهلها له، ثم العمل على نشره، والمحافظة عليه من خلال المؤسسات الدينية والعلمية، حيث أصبحت الزوايا منارات للعلم والتعلم. وهذا بعد أن فر المرابطون بدينهم وعلمهم، من بجاية الحاضرة بعد دخول الإسبان إليها،واستقرارهم في قمم الجبال، والمناطق النائية، وذلك حفاظا على كتاب ا ، وحماية لغة الأمة، وصون عقيدتها، ودفاعا عن ذاتيتها، وإثبات وجودها، حتى تحولت قمم الجبال فيما بعد إلى مناطق عامرة بالسكان، حتى أطلق عليها البعض كلمة جبال النور، نسبة إلى نور القرآن الذي كان ينبعث من زواياها، ثم أصبحت عند الحاجة معاقل للأحرار، وربطات جنود ا ، سخروا حياتهم لخدمة الدين والقرآن، سلاحهم العلم والكتاب والكلمة، ولذلك جمعت بين وظيفة الرباط الأصلية كمؤسسة عسكرية، وزاوية كمؤسسة دينية، وهذا ما تشهد عليه الكثير من الزوايا، خاصة أثناء ثورة الشيخ الحداد والمقراني، ثم ثورة التحرير الكبرى.

وفي الأخير يمكن القول بأن هذه الزوايا كانت مؤسسات اجتماعية، وسياسية واقتصادية وثقافية، وتربوية ودينية، وحتى عسكرية، حتى قيل عنها بأنها "أصغر من دولة وأكبر من حزب".

أما عن شكلها المعماري فهي بسيطة في عمارتها و مخططاتها و حتى مواد بنائها، و هي محلية و تقليدية ، و هي عموما عبارة عن حجرات لتلقي التدريس إذ يلتف الطلبة حول عالم مشهور، كما يوحي بعضها بتقدم فن العمارة من خلال وجود عناصر متطورة كالمئذنة و المحراب كما في زاوية تينبدار ، و بعضها الآخر خالية من هذين العنصريين، فلا العقود و لا القباب و لا المنابر موجودة بها ، و كان لهذه الزوايا نظامها الداخلي الخاص الذي يلتزم به الطلبة.

قائمة الزوايا الأثرية ببجاية وضواحيها:

الموقع	المعلم	الاسم	التاريخ	الملاحظة قائم- مهدم
تامقرة	زاوية	سيدي يحي العيدلي	9هـ/15م	قائمة كأطلال وبنيت مثيلتها بنفس الناحية في الفترة الحديثة.
آمالو	زاوية	سيدي احمد أويحي	9هـ/15م	أغلقت سنة 1954 وأعيد فتحها بعد الاستقلال.
مسيسنة	زاوية	سيدي سعيد	9هـ/15م	توقفت من 1956 إلى 1963 أقيمت بجنبها زاوية جديدة يزاول فيها التعليم.
سيدي عيش	زاوية	سيدي يحي أوموسى	6هـ - 7هـ/ 12-13م	أغلقت في 1954 واستأنفت نشاطها بعد الاستقلال.
تينبدار سيدي عيش	زاوية	سيدي موسى	10هـ/16م	توقفت أثناء حرب التحرير وكانت قاعدة للمجاهدين 1871، قائمة يزاول فيها التدريس.
سوق أوفلا (سيدي عيش)	زاوية	أحمد زروق	9هـ/15م	أغلقت أثناء حرب التحرير.
بني مليكش	زاوية	سيدي الموفق		
شميني سيدي عيش	زاوية	الحاج حساين	8هـ/14م	أغلقت سنة 1954، قائمة تزاول التعليم.
تيفرة (أكفادو)	زاوية	سيدي موسى أويذير	10هـ/16م	انطلقت منها كتائب المجاهدين في ثورة 1871م وأغلقت سنة 1956م بسبب حرب التحرير.
تغراست (سيدي عيش)	زاوية	بن سحنون	13هـ/19م	توقفت عن نشاطها الديني.

آقبو	زاوية	سيدي أحمد اولحضير		اندثرت.
شلاطة (آقبو)	زاوية	سيدي بن علي بن شريف	13هـ/19م	توقفت عن نشاطها في بداية ثورة التحرير، أطلال.
أكفادو	زاوية	سيدي أحمد أوحداد	10هـ/16م	أغلقت سنة 1954.
أكفادو	زاوية	سيدي محند أورزاق		قائم، لا تزال تمارس نشاطها الديني.
إغرم (آقبو)	زاوية	أوبوداود	9هـ/15م	توقفت أثناء حرب التحرير، اندثرت.
بوجليل	زاوية	أبو القاسم الحسيني البوجليلي	11هـ/17م	اندثرت.
حنديس (إغيل علي)	زاوية	حنديس		توقفت سنة 1956 بسبب حرب التحرير.
سمعون أميزور	زاوية	سيدي سعيد إزناقن	9هـ/15م	أغلقت سنة 1956 أثناء حرب التحرير.
صدوق العليا	زاوية	الشيخ الحداد	13هـ/19م	منها انطلقت ثورة 1871 واستطاع أن يجند 15000 مجاهدا في يوم واحد خربها الاستعمار واندثرت.

الباب الثاني

المعالم المدنية ببجاية ونواحيها

الفصل الأول:
المعالم السكنية

- القصور
- التفسير التاريخي لإنشاء القصور الحمادية
- القصور الحمادية ببجاية
- المساكن الحضرية ببجاية
- المساكن الريفية بحوض الصومام
- ملاحظات عامة
- الخلاصة

المعالم السكنية:

لم يتبق من آثار بجاية المدنية الشيء الكثير و أن القائمة الاحصائية لمعالمها أثناء دخول الاستعمار الفرنسي لها ، ما هو الا قليل من كثير من المعالم و المباني التي كانت تزخر بها المدينة من قصور ، و رياض ، و مساكن ، و مرافق مدنية للحياة العامة، غير أن أهم هذه المباني كاملة قصورها التي أشاد بها الكثير من المؤرخين و الشعراء ، و فيما يلي حديث مختصر عنها.

1- القصور:

لا نستطيع أن نتحدث عن المعالم السكنية بمنطقة بجاية، دون الحديث عن قصورها التي أشاد بها المؤرخون والرحالة والشعراء، خاصة ما يعود منها إلى العهد الحمادي والتي يجمع الكثير حولها بأنها من عجائب ما رأت عين الإنسان في مجال العمارة المدنية وإن كانت هذه القصور قد اندثرت ولم يعد لها أثر اليوم، إلا أن هناك عدة تساؤلات تطرح حولها سواء ما تعلق بقصور الحماديين في القلعة أو في بجاية.

2- التفسير التاريخي لإنشاء القصور الحمادية:

تعددت قصور الحماديين بين القلعة وبجاية، حتى صارت من المظاهر المعمارية المدنية الجديرة بدراسة الباحثين والمؤرخين، حيث لا تخلو الدراسات التي تناولت الحضارة الحمادية بالحديث عن قصورها، وإن كانت معظم النصوص التاريخية قد تطرقت إليها من حيث أوصافها، دون التطرق إلى تاريخ الإنشاء والمؤسس، وترتيب بناء هذه القصور، ماعدا محاولات الأستاذ "جولفان" (Golvin) في دراساته حول الحماديين.(1)

و إن كان الوصول إلى معلومات من هذا النوع تتطلب دراسات عميقة مفردة للقصور الحمادية من حيث جوانبها التاريخية، وتتبع مراحل تأسيسها وترتيبها، والأصل في إنشائها.

1- Golvin (L), **Recherches archéologiques à la Kalaa des Banu- Hammad**, Paris, 1965, p.290.

تعتبر سنة 400هـ/1009م، تاريخ إتمام تعمير قلعة بني حماد ، واستقلال حماد بمملكته، نقطة هامة في مجال الدراسات الأثرية، لنتساءل إن كان حماد فعلا قد خلّف منجزات في مجال دور الإمارة، والقصور خلال مرحلة تأسيسه للدولة الحمادية؟

يذكر ابن خلدون: "... اختط حماد مدينة القلعة... وتم بناؤها وتمصيرها على راس المائة الرابعة، وشيد من بنيانها وأسوارها، واستكثر فيها من المساجد، والفنادق فاستبحرت في العمارة، واتسعت في التمدن..."[1]

ويتضح من كلام "ابن خلدون"، بان المؤرخ قد نسب عدة إنجازات معمارية إلى حماد، وإن كان لم يحدد صراحة انه قام ببناء القصور، حتى ولو تم إدراجه تحت عبارة (شيد من بنيانها).

أما "جولفان"، فيفترض بصيغة الجزم بناء حماد لقصره في الجنة الشمالية من المدينة، ولكن تعذر عليه تحديد أي من هذه القصور يمكن أن يكون من إنشاء مؤسس المدينة.[2]

أما العصور التي تلي حماد، وهي عهد "القائد بن حماد"، و "محسن بن القائد" و"بلكين بن محمد"، فلا نجد في نص "ابن خلدون"، ما يشير إلى بناء القصور في عهدهم بل اعتبرت فترة تراجع في المجال المعماري، حتى يأتي عهد "المنصور ين الناصر" 481هـ/1089م. وإذا أخذنا بهذا الرأي نقول انه لم يبن في قلعة بني حماد، ولو قصرا واحدا ما بين سنتي 398هـ-1007م/481هـ-1082م، أي مدة ثلاثة وثمانين سنة، أي في فترة تداول فيها على الدولة الحمادية خمسة أمراء.

ولنا أن نشير هنا، بأن دخول عرب بنو هلال لمدينة القيروان سنة 449هـ/1057م كان له أكبر الأثر في ازدهار قلعة بني حماد، وتطورها ورقيها، وذلك بتسجيل هجرة جماعية من القيروان إلى القلعة الحمادية، وما جلبته من خيرات جديدة في شتى أنواع المعارف والحرف، من مهندسين وبنائين ونحاتين ونقاشين و...، وقد يكون لهؤلاء جميعا بصماتهم الواضحة في إنشاء القصور. هذه الهجرة التي لم تكن في عهد الأمراء الأوائل فإننا نجد في عهد "بلكين بن محمد"، من الشروط والإمكانات ما يغري

[1]- ابن خلدون، مصدر سابق، ص.221.

[2]- Golvin (L), op.cit, p.28.

بالبناء، وخاصة بالنظر إلى ما سبق ذكره من توفر اليد العاملة الراقية، التي ستنتقل فيما بعد إلى بجاية بعد خراب قلعة بني حماد، وسيكون لها اكبر الأثر في تخليد وتشييد القصور بعاصمة الحماديين الثانية.

إن عدم تسجيل أي ذكر للقصور في فترة هؤلاء الحكام، قد يجعل فرضية الأستاذ "جولفان" قوية بوجود قصور كانت موجودة في عهد حماد،واكتفى بها الأمراء اللاحقون.

أما عهد "الناصر بن علناس" الذي يمتد تاريخ حكمه ما بين سنتي 454-481هـ/1062-1089م، والذي أسست في عهده مدينة بجاية 460هـ/1067م. ويذكر "ابن خلدون"[1]، أن الناصر افتتح هذا الجبل، واختط به المدينة وسماها الناصرية... وهي بجاية... وبنى بها قصر اللؤلؤة...، وما نعلم عن الناصر أنه بعد استقراره ببجاية، قام ببناء قصر بلارة بقلعة بني حماد[2]، ويذكر إسماعيل العربي[3] قصرا ثالثا لهذا الحاكم يعرف بقصر بلارة ببجاية أيضا، أما ابن حماد، فينسب للمنصور بناء قصر العروسين بقلعة بني حماد.[4]

أما عهد المنصور بن الناصر، حسب "ابن خلدون"، فإنه قام بتجديد قصور بجاية وبنى كلا من قصر المنار، والكوكب، والسلام بقلعة بني حماد، وبناء قصر اللؤلؤة وقصر أميمون ببجاية، خاصة إذا علمنا أن المنصور تولى الخلافة في القلعة، ثم انتقل إلى بجاية سنة 483هـ/1090م، وما يؤكد ذلك نصا لابن خلدون: "...وقام بالأمر من بعده ابنه المنصور ابن الناصر، ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين... فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دارا لملكه، وجدد قصورها، وشيد جامعها، وكان المنصور مولعا بالبناء، وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض، والبساتين، وبنى في القلعة قصر الملك، والمنار، والكوكب

---

[1]- ابن خلدون، مصدر سابق، ص.226.

[2]- نزلت بهذا القصر الأميرة بلارة ابنة تميم ابن المعز ملك المهدية بعد زواجها من الناصر بن علناس في سنة 470هـ/1077م. أنظر عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، الجزائر، 1983، ص.282.

[3]- إسماعيل العربي، **دولة بني حماد**... الجزائر، 1980، ص.172.

[4]- عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص.296، ولقد ورد في قصيدة ابن حماد أسماء: قصر الخلافة، وقصر حماد، وقد يقصد بالأول قصر البحر، والثاني قصر المنار، وهذا قد يؤكد فرضية الأستاذ "جولفان" ببناء حماد لقصره الخاص.

وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون."[1] غير ان الجنرال (دوبيلي- DEBEYLIE) يرى أنه من الصعب أن يتمكن المنصور من بناء أربعة قصور في هذه المدة[2]، ولهذا يمكن أن يكون قد قام بعمليات ترميم وتزيين لما وجوده، وتزيين لما وجدوه قائما من القصور التي شيدها سابقوه، لكن "إسماعيل العربي" يؤكد إمكانية انجازه لهذه القصور.[3] خاصة في وقت ازدهر فيه الفن المعماري ازدهارا كبيرا لا نظير له في تاريخ الدولة الحمادية، لكن الأرجح عقلا دون المبالغة في الأحداث أن تكون هذه المنجزات تخلد للمنصور خلال السنوات السبعة عشر التي حكم فيها، وهو الرأي الذي يميل إليه الأستاذ "جولفان".[4]

أما عن قصور بجاية، فلا غرابة أن تنسب إلى المنصور مع إشرافه على بعض التجديدات، حسب نص "ابن خلدون" السابق.

وبعد عهد المنصور بن الناصر، نجد أن النصوص التاريخية تخلو من ذكر أحداث القصور، او تجديدها من قبل الحماديين، خاصة بعد وفاة المنصور سنة 489هـ/1185م لكن من خلال ما تبقى من قصور حمادية في القلعة استطعنا أن نقف على بعض خصوصياتها منها أن المواقع التي أقيمت عليها تتميز بالعلو والإشراف، كونها تقع في مواقع عالية تشرف على أحياء المدينة، كما هو الحال بالنسبة لقصري البحر (صورة 82) وقصر المنار (صورة 83)، مما يوحي بأن هناك أولوية أعطيت لموقع القصر على حساب طريقة بناءه في منحدر، مما جعل المعمار يلجا إلى البناء على شكل تدرجي، وهذا ما يلاحظ أيضا في قصري البحر والسلام. كما احتلت أيضا هذه القصور أماكن فسيحة وعلى أطراف المدينة بعيدة عن مركزها، حتى تترك مكانا للتوسع بالنسبة للأحياء والقصور، كما يلاحظ أيضا أن قصور القلعة جاءت محصنة تحددها أسوار خارجية عالية، ومدعمة تتخللها أبراج، وممرات المراقبة، كما أن المركبات المعمارية التي يحتوي

---

[1]- ابن خلدون، مصدر سابق، ص.227.

[2]- Debeylie, op.cit, pp.21-22.

[3]- إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص.172.

[4]- Golvin (L), **Notes sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Kalaa des Banu Hammad**, in, mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman, T II, Alger 1957, pp.75-93.

عليها القصر، تتميز بالاستقلالية في وظائفها و وحداتها، مما جعلها أشبه بمدينة تتعدد فيها الأحياء.

ولقد امتازت واجهات القصور الحمادية بالقلعة، بارتفاع شاهق، واحتوت قاعاتها على مداخل منكسرة، وهي ميزة تتكرر من قصر لآخر، وبالتالي ليس بغريب أن تكون القصور الحمادية قد حملت نفس الخصائص المعمارية، خصوصا بأنها كانت تحتل مواقع عالية في المدينة بحيث تشرف على الأحياء ككل.

3- القصور الحمادية ببجاية:

خلف الحماديون في كل من عاصمتهم الأولى القلعة، والعاصمة الثانية بجاية مجموعة من القصور، بقيت آثار بعضها في قلعة بني حماد، غير أن التواجد الإسباني[*] في بجاية لم يترك قصرا واحدا من قصورهم في هذه المدينة، مع العلم أنه عندما احتل الإسبان بجاية، كانت قصورها الثلاثة (اللؤلؤة والنجمة وأميمون) قائمة[1]، واندثار قصورها يجعل دراستها من الناحية الأثرية المعمارية أمرا يتعذر علينا، وذلك لمعرفة نظام تخطيطها، ومقارنتها بتلك الموجودة في القلعة، غير أن نصوص المؤرخين، وقصائد الشعراء أفادتنا ببعض الأوصاف التي لا يرقى إليها طموح الباحث في مجال الآثار للدراسة، ويذكر "ابن خلدون"[2] عن قصور بجاية أن أمراء بني حماد اقاموا في هذه المدينة قصورا تأنقوا في تخطيطها وتشييدها، وتزيينها إلى درجة أن وصف احدها بأنه كان من أعجب قصور الدنيا.

ويذكر الأثري الجزائري الأستاذ "بورويبة"[3] قائمة المصادر التاريخية، والوثائق المكتوبة التي تطرقت لموضوع القصور الحمادية في بجاية منها: ابن خلدون، صاحب كتاب الاستبصار، الحسن الوزان، ابن حمديس، البجاوي، ومن خلالها ذكر الدارسون بان الحماديين قد خلّفوا في بجاية ثلاثة قصور هي: قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون، وقصر الكوكب، وإن كان ميدانيا يقابلها انعدام الأدلة المادية لها، وهذا ما يتحمله التواجد الإسباني

---

[*] - حدث ذلك بعد استيلاء الإسبان على المدينة سنة 1509م بقيادة بدرونافارو.

[1]- Louis Salvator de Habsbourg, **Bougie la perle de l'Afrique du nord**, traduction de Viviane Jambert, France, 1999, p.57.

[2]- ابن خلدون، **العبر**...، ص.227.

[3]- رشيد بورويبة، **الدولة الحمادية** ...، ص.245.

في بجاية المسؤولية التاريخية في هذه الحلقة المفقودة في تاريخ المدينة وحضارتها في العصر الإسلامي، وهذا وصف موجز لقصورها (صورة 84 و 85).

أ - قصر اللؤلؤة:

يبدو من خلال حديث النميري عن قصر اللؤلؤة أن ابو عنان صعد برج اللؤلؤة الذي هو المنار المهتدى بنوره و رباط الجهاد الذي كسر صورة الأعداء بسوره ، و أن هذا البرج يشرف على البحر، و يفهم من هذا الوصف بأن القصر كان متوجا بأبراج للدفاع و الحراسة عنه، كما يتضح أيضا أنه كان ما يزال قائما في وقته[1] و تعتبر القصيدتان الشعريتان اللتان نظمهما "ابن حمديس [2]، في وصف قصر اللؤلؤة من أهم الوثائق المكتوبة التي تذكر بعض مواصفات هذا القصر، استخلصناها فيمايلي:

كان القصر يمتاز بالعلو واللمعان، وهو ما أشير إليه في البيتين الآتيين:

1- ابن الحاج النميري ، مصدر سابق. ص 267.

2- بورويبة ، ص. 246. وهو بدوره نقلا عن ابن حمديس.

وكأنـــه من درة شفافـــة تغشـــى العيون بشـــدة اللمعان
لا يرقى الراقي إلى شـــرفاته إلا بمعـــراج مـــن اللحضـــان

ويفهم أيضا أن القصر كانت تكسوه صفائح معدنية، كالرصاص الذي غالبا، ما تغطى به القباب، والسطوح في المناطق الممطرة.

وكانت أبواب القصر مخرمة ومصفحة بالذهب، ومسمرة بمسامير كبيرة، وكان يستعان في طرق هذه الأبواب بمدقات على شكل رؤوس اسود أفواهها مفتوحة، ومهيأة لاستقبال مدقات على شكل حلقات، وغالبا ما يكون هذا النوع من التجهيز من معدن النحاس، وهذا ما نستخلصه من قول ابن حمديس:

مصفح الأبـــواب تبرا نظـــــروا بالنفـــس فـــوق شكوله تنظيـــرا
تبـــدو مساميـــر النظار كما علت تلـــك النهـــود من الحسان صدورا
عضـــت على حلقاتهـــن ضراغم فغـــرت بها أفواهـــها تكسيـــرا
فكأنها لبـــدت لتصهـــر عندهـــا من لـــم يكـــن بدخوله مأمـــورا

وكانت مساحات القصر مكسوة بالرخام، وتركت بعض المساحات على طبيعتها وهذا ربما يذكرنا بساحة المجموعة الغربية لقصر المنار، ويذكر ابن حمديس:

بمرخم الساحـــات تحســب أنـــه فـــرش البها وتوشـــح الكـــافورا
ومحصب بالـــدر تحسب تربـــة مسكا تضـــوع نشـــره وعبيـــرا

ولقد زين سقف القصر بمناظر طبيعية، ومناظر للصيد، والتي تذكرنا بزخارف قصير عمرة ببادية الأردن، وكذا سقف كنيسة (بلاتين Chapelle Palatine) بإيطاليا هذا بالإضافة إلى زخارف كتابية منفذة على اللازورد، وهو ما تدل عليه هذه الأبيات:

وإذا نظـــرت إلى غـــرائب سقـــفه أبصـــرت روضـــا في السماء نظيرا
وعجبـــت مـــن خطاف عسجده التي حامـــت تبني مـــن ذراه وكـــورا
وضعت به صناعه أقلامـــها فأرتـــك كـــل طريدة تصويـــرا
وكأنـــما للشمـــس فيه ليقـــة فشقـــوا بها التزويق والتشجيـــرا

وكأنـــما الـــلازورد مخـــــــــرم   بالخـــــط في ورق الســماء سطـورا

وكان هذا القصر يشتمل على بساتين، ورياض بديعة، بها أنواع من الزهور والأشجار، كشجر النارنج، وفي هذه الرياض يسمع خرير المياه الجارية على الشاذروات والمتدفقة في الأحواض من أفواه الحيوانات الممثلة، والتي نجد من بينها الأسود في وضعيات مختلفة، والطيور والزرافة، وحتى الحيات والحيتان، وهو ما تذكره صراحة الأبيات التالية:

وبديعة الثمرات تعـــبر نحوهـــا   عينـــــاي بحـــر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعــــت إلـــــى   سحر يؤثر في النهى تأثيرا
وضراغم سكـــنت عرين رئاســـة   تركـــــــت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النظــــار جسومـــها   وأذاب في أفــــــواهها البلـــورا
أســـد كأن سكونها متحـــــــرك   في النفـــــس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنمـــــــــــا   وقعــت عـلى أدبـــــارها لتثورا
ومن كـــل واقعة تـرى منقارهـــا   مـــاء كسلســال اللـــــجين نميرا
خـــرس تعد من الفصاح فـإن شـدت   جعلـــت تغـــرد بالمياه صفيـــرا
وتريك في الصهريج موضـــع قطرها   فـــوق الزبرجـــد لؤلـــؤا منثورا
في جنـــة غنـــا فردوسيـــــة   محفـــــوفة بالــــروح والريحان
وتوقدت بالخـــمر مـــــن نارنجـها   كأنـــــما خلقــــــت مـــن النيران
وكأنهن كرات تـــبر أحـــــــــمر   جعلت صوالجـــــــها من القضبان
والماء منه سبائك من فضــــــــــة   ذابت علــــى دوحـــات شاذروان
قس الطيور الخاشعــــات بلاغـــة   وفصاحــــة مـــن منطـــق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمــــت   بخريــــــر مــــــاء دائم الهملان
أوفت على حـــوض لـــها فكأنـــها   منــــها إلى العـــجب العجاب رواني
وزرافة في الجـــوف من أنبوبـــها   مـــاء يريــــك الجري في الطيران

مركوزة كالرمح حيـــث ترى لـــه من طعنة الحلــــــق انعطاف سنان
وكأنما ترمـــي السمـــاء ببنـــدق مستنبـــط مـــن لؤلـــؤ وجمان
وكأنما الحيـــات مـــن أفواهـــها يطرحـــن أنفسهـــن من العذران
وكأنما الحيتان إذا لم تخشــــــها أخذت من المنصور عقد أمــــــان

هذا ونشير إلى أن هذا القصر كان ملحقا به مسجد تطرق الشاعر "إبن حمديس" إلى وصف محرابه، وقبابه قائلا:

.... كأنما المحراب من غمدان
فسماوه في سمكها علوية وقبابه فلكية البنــــيان

ولعل هذه القصيدة تعكس صورة صادقة لما كانت تزدان به قصور بجاية من فخامة، وأناقة، ودقة في البنيان، وروعة في الزخارف، والتي تعكس مدى التطور الذي وصل إليه الفن الحمادي في بجاية بالمقارنة مع القلعة. ونحن نعتقد في غياب تخطيط معماري لقصور بجاية، أنها كانت أكثر تطورا من الناحية الفنية الجمالية من قصور قلعة بني حماد بالمسيلة (شكل 39 و 40).

ولقد ذكر "دوبيلي" نقلا عن "البجاوي"[1]، أن قصر اللؤلؤة شرع البناء فيه خلال عهد الناصر بن علناس، أما تمامه فقد تأخر إلى سنة 494هـ/1100م، أي بعد وفاة الناصر، وأواخر عهد ابنه المنصور، الذي ألحق بالقصر مسجدا يدخل إليه من اثني عشر بابا، ومكون من طابقين، وتعلوه قبة كبيرة ترتكز على اثنان وثلاثون عمودا، ويعد من أروع المساجد آنذاك بعمارته، وزخارفه، وإن لم يبق له أثر اليوم.

[1]- Debeylie, **La kalaa**…, pp.102-104.

ب- قصر الكوكب:

ليس لدينا من المعلومات الخاصة بهذا القصر الشيء الكثير الذي قد يلقي أضواء ساطعة عليه ماعدا ما ذكره الأستاذ "بورويبة" نقلا عن مخطوط البجاوي أن: "المنصور بنى القصر الذي يوجد فيه عرشه، وهو معروف بقصر الكوكب، وهذا القصر من أجمل قصور العالم، فهو بناء عال مزين بتصاوير مرسومة بحجر الرنج، ونبات اسمه الرجق يدقان معا، ويزينون الجدران بهما بعد دقهما،ن ويلمع هذا القصر مثل أشعة الشمس، وله تسعة أبواب ذات مصراعين من الخشب المنقوش، لا يفتح إلا إذا دفعه عدة رجال أقوياء"[1].

ويذكر "فيرو Feraud" بأن هذا القصر كان يشغل مكان برج موسى الذي أسسه الإسباني "بدرونافارو"[2].

ج- قصر أميمون:

لم يبق من هذا القصر غير بقايا سور بحي أميمون حاليا له انكسار على شكل برج، يعتقد كثيرا انه كان تابعا لقصر أميمون (صورة 86)، أما عن المعلومات الإضافية عن ذلك أكثر مما ذكرناه من قبل أثناء حديثنا عن القصور الحمادية، فلا نجد إلا النص الذي نقله الأستاذ "بورويبة" عن "حسن الوزان": "من جهة الجبل نرى حصنا صغيرا محاطا بأسوار، ومزين بالفسيفساء، والخشب المنقوش".[3]

وهذا الوصف يسمح لنا بالقول بأن ما تبقى في حي أميمون قد يكون بقايا السور المحيط بالقصر سابقا، مع العلم أن حي أميمون يقع أسفل جبل قورايا، وبالقرب من ضريح سيدي تواتي.

1- بورويبة، **الدولة الحمادية**...، ص ص. 245-246.

2- Feraud (Ch), **Histoire des villes**…, Constantine 1869.

3- بورويبة، مرجع سابق، ص.246.

4- المساكن الحضرية بمدينة بجاية:

كانت شوارع بجاية في العهد الإسلامي، وأحيائها ضيقة، وملتوية ترتفع فيها المساكن،ويدخل الضوء إلى أحيائها عبر المسافات القليلة التي تفصل بين مساكنها وكانت أحياؤها غير مبلطة.

ولقد عرفت المدينة نوعا من الخراب خلال العهد العثماني، والذي لم تحتفظ المدينة فيه إلا بستة أحياء من أحياء المدينة هي: حي باب البحر، أقليم، كرمان، سيدي عبد الهادي، قاع الزنقة، وحومة الشيخ، واحتفظت جزئيا بثلاثة أحياء هي: عزيب بكشي، باب المرقوم، وباب اللوز(1).

وعلى غرار المساكن الريفية التقليدية التي كانت منتشرة في مختلف قرى حوض الصومام، حوت مدينة بجاية مجموعة من الأحياء التي كانت بها مساكن متطورة في عمارتها وتخطيطها بالمقارنة مع المساكن الريفية، ولكون ما تبقى من هذه المساكن مشغول في الوقت الحالي، وتوجد في أحياء بجاية القديمة، فإنه تعذر علينا أخذ نماذج قائمة بذاتها للتعرف على مخططاتها، وهذا ما جعلنا نعتمد على المخططات التي أنجزتها الباحثة عبد الرحيم نعيمة عن مساكن المدينة(2)، والتي أخذت عينات من أحياء بجاية السفلى، وهي قديمة جدا، وأخرى في أعالي بجاية، وفي الأحياء التي أعيد بناؤها وترميمها سنة1900م.

فمباني بجاية السفلى، كانت موجودة قبل دخول الفرنسيين بكثير، ومن الأمثلة التي تطرقت إليها الباحثة دراسة المسكن رقم 22 في حي سيدي الخيضر في بجاية السفلى.

عمارة المسكن:

المسكن صغير في مساحته، وتقدر أبعاده بـ 5,50م×8م، ويتكون من طابق ارضي وأخر علوي (شكل 41)، يؤدي مدخل الباب المنخفض إلى سقيفة منكسرة، تؤدي بدورها إلى فناء البيت الذي يحتوي على غرفتين، أحدهما تستعمل كمطبخ، أما بيوت الخلاء، فتوجد مباشرة بعد السقيفة على الجهة اليمنى، و وجود السقيفة المنكسرة في هذا

1 – Naïma abderrahim, op.cit, p.69.
2 –Ibid,p.218.

المسكن ميزة لها تفسيرها الاجتماعي المرتبط بحرمة الأسرة و البيت التي أقرها الإسلام.

وفي الزاوية الشمالية للفناء، يوجد سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، أين نجد غرفتين ندخلهما عن طريق رواق يشرف على فناء البيت، وتتخذ هاتان الغرفتان شكلا مستطيلا،وتحتل كل واحدة جهة من الفناء، ولهما فتحات تفتح على الفناء، لكن أحد الغرفتين بها فتحات أيضا نحو الخارج ويغطي المسكن من الخارج بالقرميد التقليدي.

وصف المسكن رقم 02 في درب سيدي الخيضر: (شكل42)

يقع المسكن في مساحة محصورة، ولا يفتح على الخارج إلا بباب صغيرة علوها حوالي 1م، ويتكون من طابقين، ومغطى من الخارج بالقرميد.

الطابق الأول: يؤدي مدخل الباب الذي هو على شكل عقد، إلى سقيفة ممتدة تنتهي عند بيت الخلاء، ومن السقيفة نصل إلى فناء مستطيل تتوزع حوله أربع غرف، وفي نهاية الجهة الجنوبية، يوجد سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، وتحت السلم جهز المكان ليؤدي وظيفة المطبخ، وتضاء كل هذه الملاحق عن طريق نوافذ مفتوحة على الفناء.

الطابق الثاني: يؤدي السلم إلى رواق يمتد من الجهة الجنوبية، والغربية، والشرقية والشمالية للمسكن على مدار الفناء، ومن الرواق نستطيع الدخول إلى أربع غرف والغرفة الخامسة فوق السقيفة ومزودة بسلم صغير في نهاية الرواق في الجهة الغربية وكل هذه الغرف، تحتوي على نوافذ تفتح على الرواق، وعلى الفناء الداخلي.

ولقد سمحت لنا الدراسة الميدانية في مدينة بجاية بإجراء تحريات في حي خمس عيون (حومة أشرشور حاليا)، في أعالي مدينة بجاية على مقربة من باب قورايا من ملاحظة مجموعة هائلة من الأحياء القديمة جدا بأزقتها، ودروبها الضيقة، والتي تحوي مجموعة من المساكن التي تبدو من خلال مادة بنائها من الخارج أنها قديمة جدا، وهي مادة الآجر بطرقة مسطحة وقائمة في بعض الأحيان، وهي التقنية التي استعملت بكثرة في أبنية بجاية القديمة الباقية.

لم نتمكن من التعرف على مخططها الداخلي، ولكن يبدو أنها أكثر تطورا من مساكن الريف، خاصة في مداخلها الخارجية التي تعلوها عقود(صورة 87)، ودروبها المغطاة (صورة 88).

كما يبدو أيضا من خلال بعض المساكن من الخارج أن بعضها كان يحتوي على طابق علوي فيه على الأقل غرفة أو أكثر.

ولقد أوردت الباحثة السابقة بعض الملاحظات على أن مساكن بجاية لم تكن تتخذ شكلا موحدا إنما المساحة التي تحتلها هي التي تحدد الشكل العام للمسكن ومساحته الإجمالية، وأن بعضها يحتوي على حديقة داخلية متصلة به، وأن نوافذ المسكن تفتح على الحديقة كما هو الحال في أحد مساكن حي سيدي الخيضر، وأن هذه البيوت منها ما يحتوي على بئر داخلية تكون في أحد أركان فناء البيت.

ومن الملاحظات أيضا أن غالبية المساكن القديمة، والباقية بحي باب اللوز ببجاية والتي كانت ضمن النسيج العمراني القديم للمدينة، لا تحتوي على أسطح، وإنما مسقفة مباشرة بالقرميد وعن الزخرفة تكاد تنعدم في المساكن الحضرية ببجاية[1].

ومن الملاحظات أيضا، أن معظم المساكن الحضرية تتكون من طابقين، ومنها ما تفتح نوافذه إلى الداخل والأخرى على الشارع، أما عن غرف المسكن، فشكلها أيضا يحدده الحيز العام الذي يشغله المسكن، فمنها المربعة، والمستطيلة، وغير منتظمة الأضلاع، ومنها ما أخذت شكل (لام وسطي L)و هي ميزة أيضا في تخطيط حجرات المساكن ، كما هو الحال في أحد مساكن حي خمس عيون.

5- المساكن الريفية:

أ- لمحة عن المسكن الريفي بحوض الصومام:

لقد مر المسكن التقليدي الريفي في شمال إفريقيا بتطور، صاحبه التطور الحضاري الذي عاشته المنطقة عبر العصور القديمة، وذلك بفعل تلاقي حضارات مختلفة، وتفاعلها وتطابقها.[1]

1 - Naïma abderrahim, op.cit, p.220.

فإنسان المنطقة بدأ يتفاعل مع الطبيعة محاولا التكيف مع البيئة، لذلك كان من الواجب عليه إنشاء مسكن يساعده على تحرير كمية الحرارة اللازمة حتى يتوازن اجتماعيا.[2]

ولذلك نجد بأن عمارة المساكن التقليدية قد اختلفت في تخطيطها المعماري من منطقة لأخرى، ومن حضارة لأخرى، وذلك راجع إلى الظروف المناخية، والعوامل الجغرافية، وحتى الطبوغرافية التي لها أثر كبير في تحديد نوعية المكان الذي تبنى عليه هذه المساكن، بالإضافة إلى تخطيطها حتى تستجيب لتلك المتطلبات.

فالقرى في منطقة القبائل، وفي حوض الصومام على وجه التدقيق، قد أخذت مواقع مرتفعة، حيث بنيت معظم القرى في المنطقة في أماكن عالية، إن لم أقل في قمم الجبال وهذه ظاهرة موجودة منذ القديم، وذلك قصد حماية أنفسهم من الكوارث الطبيعة كالفيضانات من جهة، ولغرض الاحتماء من العدو من جهة أخرى، والحنين إلى المناطق الجبلية التي ألفوها منذ زمن بعيد.[3]

إن دراسة المسكن التقليدي بالجزائر تكتسي أهمية كبيرة في الدراسات الأثرية لأنها تصور لنا طبيعة التطور الفكري للإنسان الجزائري سواء من الناحية الاجتماعية، أو النفسية، أو الاقتصادية، فعمارة المسكن وما يشمله من ملاحق، يعتبر الفضاء الذي يعيش فيه الإنسان، فهو فعل ثقافي راق، وشكل من أشكال التعبير الكامل من مختلف الجوانب.

والمسكن الريفي بحوض الصومام لم ينل حقه من الدراسات العلمية لإماطة اللثام عن كثير من الجوانب التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع المحلي، ولذلك فدراسة المسكن الريفي في هذه المنطقة يحتل قيمة أثرية، وتاريخية كبيرة، إن الحيز الذي تشغله القرية وإمكانية توسعه، هو الذي يحدد شكل المنازل في استغلال واقتصاد الفضاء، وضرورياته الوظيفية، مع الاحتفاظ بطبيعة الحال على حرمة البيت، والمبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية.

---

[1]- محمد البشير شنيتي، "تطور المسكن الريفي في شمال إفريقيا"، مجلة كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، العدد1، 2001 ص.13.

[2]- Pierre Deffontaine, **L'homme et sa maison, Géographie humaine**, Collimard 1972, p.12.

[3]- Ramon (B), et Ali (S), **Habitat traditionnel et structure familiales en Kabylie**, Mémoire du CRAPE, T XXIII, Alger 1974, p.17.

فالبناء كان يبني وفق فكر معين في تصميم،، وتخطيط المسكن، وبالتالي كان يراعى في ذلك الكثير من المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية لدى السكان، كالعادات والتقاليد المتعارف عليها، كأن تكون المساكن موزعة على الأحياء حسب العائلات، وصلة القرابة الموجودة بينها، وإن تكون مساكنها مقابلة لجهة الشرق حتى تدخلها الشمس.(1)

إن المساكن التقليدية المنتشرة في حوض الصومام، والتي تم زيارتها في مختلف القرى، ودراسة البعض منها، تفتح عموما على فناء داخلي مركزي يعرف في اللهجة المحلية بمصطلح (أمراح)، حيث يستطيع العديد من أفراد العائلة الواحدة الإقامة فيه وتتوزع غرفهم حول الفناء، ونجد عادة في المسكن أن المدخل يؤدي إلى غرفة مشتركة تعرف بمصطلح (أقنز، أو ثقاعت، أو تغرغرث)، وهذه التسمية تختلف من قرية لأخرى. وفي أحد واجهات الغرف بناء من الحجر عادة ما يكون مزخرفا ببعض الحنايا لأغراض وظيفية ويعرف بمصطلح (لكدر) الذي توضع فوقه جرار كبيرة من الفخار تستعمل لحفظ الغلال وتعرف بمصطلح (إكوفان).(2) (شكل 43 و 44)، ويكون أمامه الموقد الخاص بالطبخ والمعروف في المصطلح المحلي بـ (الكانون)، ويقابله في الجهة الأخرى أداينين وهي غرفة سفلى عن مستوى أرض المسكن، توضع فيها الحيوانات، ويعلوها غرفة صغيرة تعرف بـ (تاعريشت)، ويقابل مدخل المسكن جداربه أوتاد خشبية مدمجة بالجدار يعرف بـ (تاركنت أزطا)، أي جهة النسج أين كانت المرأة تقوم بعملية النسج المختلفة داخل البيت، ويقابلها ما يعرف بـ (تاركنت نطلام)، أي الجهة المظلمة، وهي خاصة بالنوم لأن الضوء لا يصلها بقوة.

وبهذا المظهر العام للمسكن التقليدي الريفي بحوض الصومام، نستطيع القول أن المنطقة لها نماذج تكاد تكون فريدة من نوعها، من حيث التخطيط والعمارة، وحتى البساطة التي تعود إلى أقدم الأزمنة، مما يوحي بأن للجزائر رصيدا ثقافيا متنوعا من حيث التراث المادي، والذي أعطي مع مرور الوقت جانبا من الهوية إلى سكان المنطقة

---

[1]- Bourdieu (P), **La maison Kabyle ou le monde renversé**, p.4, Voir aussi : Jaques Stamboul, Les cités de la grande Kabylie, Alger 1950, Sakina Missoum, La maison berbère au village de Ait Lahcen.
[2]- Moreau (J-B), **Les grandes symboles méditerranéens dans la poterie Algérienne**, SNED, Alger, p.161.

حيث يظهر المسكن في كثير من النماذج، بشكل منظم وموحد ومعبر عن التقاليد، والقيم المحلية المتمثلة في الحياء، والحجبة التي تميز أساسا المعيشة الريفية، والجبلية للسكان.(1)

ب - أقسام وملاحق المسكن الريفي: (شكل 45).

يتكون المسكن الريفي التقليدي من أقسام معينة تحتوي على بعض الملاحق، ونذكر من هذه الأقسام مايلي:

- القسم الأول عبارة عن (أقنز) وهو فضاء خاص بساكني البيت، وممارسة نشاطهم اليومي من أكل ونوم (شكل 45 أ)، وهو عبارة عن غرفة مستطيلة تحتل مساحة ثلثي مخطط المستطيل، وتكون الأرضية مغطاة بالجص المدمج بالجير، تقوم النساء بتمليسه بنفس تقنية تمليس الفخار، وعادة ما يكون الملاط مدمج بالتربة، يضاف لها التبن وفضلات البقر، ويمثل (أقنز) الجانب العلوي من البيت باتجاه معاكس لأداينين، وهذا استجابة لعوامل جغرافية، وضروريات تقنية كتصريف المياه، لأن المساكن مبنية عادة على أماكن مرتفعة.

- أما القسم الثاني، فيطلق عليه (أداينين) وهو مصطلح معروف في كل بلاد القبائل، وهو المكان المخصص لوضع الحيوانات (شكل 45 ب)، ويكون في مستوى منخفض بالنسبة لمستوى المسكن، ويكون مبلطا ببلاطات سميكة، ويشغل حيزا كبيرا من المخطط العام للمسكن، ويعتبر رمزا من رموز الغنى.

أما القسم الآخر، فيسمى (تاعريشت) (شكل 45 ج)، وهذا القسم يخصص عموما لوضع ما يحفظ في البيت من مأكولات وأغطية، وحتى بعض المجففات كالطماطم والتين وغيرها، وفي بعض الأحيان تستعمل للنوم عند الحاجة، وتاعريشت موجودة مباشرة فوق أداينين، وتشغل تقريبا نفس أبعاد هذا الأخير ماعدا في الارتفاع، فهي أقل انخفاضا منها وفيها بعض الفتحات الصغيرة للإضاءة والتهوية.

والملاحظ ان هناك مدخل مشترك يفصل بين أقنز، وادانينين (شكل 46).

ومن الملحقات الخاصة بالمسكن التقليدي نذكر:

---

[1]- Akli (Mechtoub), « Environnement social et habitation en milieu villageois le cas de : Taourirt Mokran en Kabylie », in, revue insaniyat revue Algérienne d'anthropologie et des sciences sociales N°14-15 Mai- Décembre 2001, Vol.2 et 3, p.28.

- الكانون: ويقع في بعض أركان المسكن المقابلة لأداينين، وهو عبارة عن حفرة دائرية تقدر أبعادها تقريبا بين 15سم، وقطرها 20سم، ويطلق عليها اسم الكانون، ويمكن أن نجده في أي مكان بالبيت، ولكن عادة ما يكون قرب المكان المخصص للطبخ، ويمكن أن نجد اثنين:

واحد خاص بالطبخ، والآخر للتدفئة، ويحيط بحفرة الكانون ثلاث حجارة توضع عليها أدوات الطبخ.

- أعريش: يتواجد فوق الكانون، وعلى روافد خشبية مثبتة بالجدار، يوضع حصير كبير توضع فيه أشياء لتجفف خلال فصل الشتاء، ويكون عادة بارتفاع قامة الرجل، وحتى نصل إليه لابد من الصعود على (أسرير) (شكل 47).

- أسرير: عبارة عن مقعد ملتصق بواجهة الجدار غير المقابلة لضوء المدخل، يستعمل للنوم، ويوجد تحته مكان مخصص لوضع بعض لوازم البيت.

- تدكانت: تفصل أداينين عن اقنز، وتبنى عادة من طرف البناء من بقايا الحجارة الخاصة ببناء الجدران، وتمتد من جهة الباب على شكل درجة، يطلق عليها أيضا مصطلح (تصدارث)، أو أدبدر في بعض القرى بحوض الصومام، وتسمح بالاتصال بتاعريشت وفوق تدكانت، توضع أيضا الجرار الكبيرة (إكوفان) لحفظ الغلال. وتدكانت يمكن أيضا أن نجدها كمقاعد موجودة تحت السقيفة ولا يتعدى عرضها 50سم.

- لكدر: يكون في الجهة المقابلة لأداينين بالقرب من الكانون، ويكون عبارة عن دكانة تحتها فتحات غائرة تستغل في وضع لوازم الطبخ.

- الباب: وهو المدخل الرئيسي للمسكن، وقناة الاتصال الوحيدة بين العالم الخارجي والداخلي، ويكون خاصا بدخول الناس، والحيوانات معا، ويطلق عليه الباب الشرقي، يليه مباشرة بالوعة لتصريف المياه، وتبقى الباب مفتوحة طول النهار، وهي الفترة الوحيدة التي يدخل فيها الضوء ويخرج الدخان، ومعظم أبواب المساكن التقليدية بحوض الصومام من الخشب الموجود في المنطقة (صورة 89)، وتغلق بطريقة تقليدية بسيطة (شكل 48) ويعلو المداخل عادة فتحة صغيرة لإدخال الضوء والتهوية.

- **السقف:** سقف معظم المساكن مغطى من الخارج بالقرميد موضوعة على التراب وأوتاد خشبية (شكل 49 و 50)، منها العارضة الوسطى، على جانبيها عوارض أقل حجما منها، يعلوها أوتاد خشبية(*).

ج - دراسة نموذجية لبعض المساكن التقليدية:

من خلال الزيارات المتعددة لمختلف القرى المنتشرة في حوض الصومام، والوقوف على عدة نماذج مختلفة من المساكن لقرى عديدة، حيث أصبحت السمة الغالبة لعمارة وعمران القرى في المنطقة، وكونها تتسم بالوحدة من حيث التخطيط والملاحق، ومواد وتقنيات البناء، والتي تتكرر في أكثر من نموذج، وهي عمارة محلية تقليدية، من خلالها يتمكن الإنسان من فهم المغزى من تخطيط المساكن التقليدية بتلك الطريقة، كما أن المسكن له علاقة مباشرة أيضا بالواقع الاجتماعي للمجتمع المحلي ولذلك اخترنا نماذج مأخوذة من قريتين تعدان من أقدم القرى في حوض الصومام، الأولى هي قرية ترونة ببني معوش، والأخرى هي قرية أسرافيل بنواحي أمالو، حيث مازالتا تحتفظان بالعديد من النماذج القائمة، ولذلك رأينا بأن نعرف بالقريتين قبل دراسة النماذج المختارة.

د - نبذة عن قرية ترونة ببني معوش:

تقع قرية ترونة بأعالي بني معوش، واسمها البربري (أثرونن) (Outhrounen) وتعد من أقدم قرى حوض الصومام، وتصنف ضمن القرى المهجورة، بعد أن أخليت من ساكنيها لتصبح موقعا أثريا هاما يدفع بالكثير من الفضوليين لزيارتها، واكتشاف أسرارها(1).

وتحتل القرية موقعا بالقرب من أعلى قمة جبل (أشتوق -Achtug)، (صورة 90) والتي ترتفع إلى حوالي 1389م، وتنتسب إلى سيدي علي أشتوق، ويقال في المعتقدات المحلية عن هذه الشخصية التقية أنها كانت رمز التسامح، والشجاعة، والإيمان، فهو من

*- العارضة الوسطى: تعرف في المصطلح المحلي بـ (أجقو ألماس)، أما الأوتاد فتعرف بمصطلح (ثسارة).

1 – Alem (Arezki), "Trouna, invitation à l'évasion", in, Journal Kabylie Estivale, du 24/08/2003 ,p.07.

أولياء ا الصالحين، ولذلك كان الناس يقصدون هذه القمة لإقامة الولائم، والتصدق على السكان حتى يحميهم ذلك من المكاره، والسوء[2].

ومن قمة أشتوق حيث تنتصب قرية ترونة، يمكن الاشراف على معظم قرى حوض الصومام وتقريبا تشرف القرية على حوالي عشرين قرية أخرى من قرى حوض الصومام[3] ورغم الموقع الاستراتيجي الذي تحتله القرية، فقد أخليت من ساكنيها على اثر الزلزال الذي ضرب المنطقة سنة 2002، و أثر على أكثر المساكن فحولها إلى أطلال و ركام لم يعد من السهل معها اعادة تعميرها ، فتركها السكان على حالها مما جعل منها بوضعها الحالي مخبرا حقيقيا للتعرف على تقنيات و مواد البناء و طرق تنظيمها في قرى و أرياف حوض الصومام.

ومن الناحية المعمارية تذكر المصادر الشفوية بالمنطقة بأن للقرية بابان: باب سفلي، وباب علوي، كما أنها كانت محاطة بسور، مما يوحي بأنها كانت عبارة عن قلعة صغيرة ذات غرض دفاعي وهذه ظاهرة عمرانية قديمة جدا تعود إلى العصر الإسلامي الأول، أو حتى قبله.

ومن المظاهر المعمارية التي مازالت موجودة بالقرية، هي انكسار زوايا الأسوار والجدران حتى تسمح بمرور الحيوانات المحملة دون أن تعترض سبيلها، ومن الملاحظات أيضا، موقع المسجد الذي يتوسط قلب القرية، ويغلب على الظن حسب الروايات الشفوية أنه أول ما بني في القرية وهذا على غرار المدن الإسلامية الأولى في مختلف أقطار العالم الإسلامي، والتي يعد المسجد الجامع القلب النابض لها، وهذا دليل على أن سكان المنطقة قد ذابوا في الثقافة الإسلامية بمجرد دخول الإسلام أرض الجزائر، ويتضح ذلك في كثير من المظاهر في مجال العمارة والعمران، كعدم تقابل أبواب المساكن، وأزقة القرية الضيقة، ووجود فناء مركزي للمسكن تفتح عليه غرف المسكن، ووجود غرف خارجية عن البيت لها سلم خارجي، وهي مخصصة للضيوف الذين يقصدون رب البيت، كما أن كل عائلة تسكن في حي خاص بها.

---

2 – Alem (Arezki), "Beni.Maouch ", Tatiaft, un rite vivace,in , journal Kabylie, du 20 mai 2003,p.10.

3 – Alem (Arezki), "Achtug ,aventure et rêverie", in, Journal Kabylie, du 1er septembre 2003 , p.06.

ويوجد بالقرية مقرا خاصا بكبار القرية يعرف بمصطلح (تاجماعث)، وهو مكان مخصص للتجمعات العامة، وحل مشاكل القرية، وساكنيها.

و لعل مميزات هذه القرية من الشروط التي يجب أن تتوفر في تخطيط المدن و التي روعيت في كثير من المدن الإسلامية[1].

إن وجود مثل هذه الظواهر العمرانية من طرقات و أزقة في هذه القرى الجبلية النائية هو أثر من آثار عمران المدن ، بحيث تجاورت المساكن، و تلاصقت ، و أمتدت الطرقات و الشوارع بينها ، بحيث خضعت لقواعد و قوانين تراعى في المدن و الأمصار المكتظة عمرانا و عمارة.

النموذج الأول:

يقع المسكن موضوع الدراسة بقرية (ترونة)، وهو متواضع وبسيط في عمارته واجهته الرئيسة تقابل الناحية الشرقية من القرية، يؤدي المدخل الرئيسي للمسكن الذي تقدر أبعاده بـ 1,43م عرضا و1,80م ارتفاعاً إلى فناء مكشوف غير منتظم الأضلاع وهو ما يعرف في العمارة الإسلامية بمصطلح الصحن، والذي ميز معظم البيوت التقليدية في حوض الصومام، والصحن يعتبر قلب الدار، وحوله تتوزع الوحدات السكنية، ويعتبر معالجة معمارية، تحجب عن الساكن كل عوامل الطبيعة الخارجية، وتترك له التمتع المطلق بالسماء، وهي العنصر الطبيعي الوحيد الذي لا يشوبه قسوة ولا حدة[2].

وعلى هذا الأساس يكون الصحن صلة وصل مع بقية الناس، بل مع الفضاء أيضا لانفتاحه عليه[3]، ويقابل فناء البيت، المسكن الذي تفتح في واجهته الرئيسة المدخل الرئيسي للبيت والذي يعلوه ساكف من الخشب، وتفتح على جانبيه فتحتين: واحدة مربعة يعلوها لوح خشبي، والأخرى على الجهة اليمنى للمدخل مستطيلة الشكل، وكلاهما يستعمل لإدخال الضوء، والتهوية، والشمس للمسكن (صورة 91)، وبموازاة جدار المدخل، هناك

---

1 محمد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية. سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأداب ، الكويت. 1988 ص ص 95 – 135.

2 - توفيق أ د عبد ا واد، **تاريخ العمارة والفنون الإسلامية**، ج3، القاهرة، 1970، ص. 190. العربية، ص.29.

3 - أندريه ر ون، العواصم العربية، ص.29.

مدخل صغير يؤدي إلى غرفة أخرى يعتقد أنها غرفة خاصة بالضيوف وتعرف بمصطلح (ثغرفت).

يتقدم المدخل عتبة الباب المعروفة في اللهجة المحلية بمصطلح (أمنار)، وعلى يساره يوجد مدخل يؤدي إلى أداينين، ويتوج جدرانه عدة فتحات تسمح بإدخال الضوء والتهوية، وعلى جانبي أداينين، توجد دكانتان(*) تستعملان لتقديم الأكل للحيوانات، يعلوها سقف من جذوع الأشجار المدمج بالطين.

ويلي المدخل مباشرة غرفة تعرف بـ(أقنز) أو (تقاعت) أو (تغرعرث) عند أهل المنطقة وهي عبارة عن غرفة متوسطة المساحة، يتخلل جدرانها عدة فتحات لوضع لوازم البيت، وفي أحد أركانه يوجد (الكانون)، وفي وسط الغرفة فتحتان عميقتان جدرانهما مملطة، وملبسة بالجير، ويعتقد أن وظيفتها هي تخزين الغلال من قمح، وشعير وغيرها (الشكل 51) ،وعلى يمينها دكانة مرتفعة، أو ما يعرف أيضا في بعض المناطق بحوض الصومام بمصطلح (أدبدر) عن مستوى الأرضية، أسفلها فتحة عميقة، وهذه الدكانة يعلوها فتحة كبيرة تسمح بدخول شخص وتؤدي مباشرة إلى تاعريشث، وهي الغرفة التي تعلو أداينين (صورة 92 و 93)، ويعلو الدكانة فتحة كبيرة مستطيلة، يليها مباشرة فتحة في نهاية هذا الجدار، ويغلب على الظن أنهما تستعملان لتقديم الأكل للحيوانات، ومراقبتهما دون الدخول إلى أداينين، هذا ويقدر الارتفاع الكلي 3,20 م.

النموذج الثاني: (شكل 52)

يقع المسكن موضوع الدراسة في حي آخر من أحياء قرية ترونة القديمة، والمسكن في حالة متدهورة نوعا ما، لكنه مازال محتفظاً بأصوله المعمارية الموجودة في كل مسكن تقليدي من مساكن المنطقة، حيث يؤدي المدخل المشترك إلى أقنز وأداينين مع بعض ولقد تهدم أعلى الباب ولم يبق له أثر(صورة 94)، والغرفة الرئيسة في المسكن متوسطة الأبعاد.

ومن الجهة الغربية من الغرفة المقابلة لأداينين، يوجد صفان متراكبان على شكل حنايا موضوعة في الجدار لوضع حاجيات البيت، وأخذت في نفس الوقت جانبا زخرفيا

*- وتعرف ا اصطلح ا لي بـ ذاود، ومفرده (ا ذود).

وفي الجهة اليسرى من الجدار، توجد بقايا الكانون، والحنايا، وعددها ثلاثة مدمجة مع الجدار، يعلوها دكانة أخرى جهة مكان الطبخ، وتسمى في المصطلح المحلي بكلمة(لكدر) الوسطى منها يعلوها عقد نصف دائري، أما الجانبيتان فعقودهما مسطحة، وتتكون كل واحدة من الحنايا من طابقين متراكبين، ويتخلل واجهاتها فتحات دائرية على شكل قنوات من الفخار(شكل53).

وزخرفة الواجهة بهذه الطريقة تتكرر في العديد من المساكن التي تم زيارتها بالمنطقة، وتتخلل جدران الغرفة حنيات أخرى مدمجة بالجدار، هذا بالإضافة إلى فتحات أخرى دائرية الشكل ومغلقة، وكلها لوضع لوازم البيت.

كما يلاحظ أيضا على مستوى جدران الغرفة، وجود بعض النتوءات لأوتاد خشبية وهذا أيضا لوظيفة مزدوجة منها استعمالها أثناء النسج، أو تعليق الأواني والغرابيل فيما عدا ذلك، ويلي المدخل من الجهة اليسرى، مدخل عريض يؤدي إلى غرفة الحيوانات (أداينين)، وأمام المدخل دكانة، أو ما يعرف بأدبدر، وهي مستطيلة، وأسفلها فـ ـ ـ ـتحات (شكل 54)، وكلها لتخزين لوازم البيت، وفي بعض الأحيان يوضع فيها الدجاج خاصة أثناء الوضع.

ويعلو هذه الدكانة لوحة بارزة تستعمل كدرج يرتقي إليه الصاعد عبر مدخل يسمح بدخول شخص إلى تاعريشث، وبها أيضا بعض الفتحات المربعة، والمستطيلة، وتسمح بدخول الضوء والتهوية، والشمس إلى أرجاء المسكن.

أما أداينين فعبارة عن غرفة بسيطة تتصل في الجهة اليمنى منها بتقاعت عن طريق فتحة كبيرة مستطيلة تسمح بتقديم الأكل للحيوانات، وهذا النظام الزخرفي البسيط للواجهة التي تحتلها تاعريشث، وأداينين يتكرر في العديد من المساكن بالقرية (شكل55 و56).

هـ - نبذة عن قرية إسرافيل* :

لم نجد لا في المصادر التاريخية، ولا المراجع، وحتى في الروايات الشفوية أصلا وتفسيراً دقيقا لهذه التسمية، ولكنها من القرى التابعة لبلدية آمالو، وتبعد عنها بحوالي7كلم وتقع بالقرب من (ثادارت أوادة)، والقرية حاليا مهجورة تماما من ساكنيها، وتقع في أعلى قمة من القرية، ويصعب الارتقاء إليها من جميع الجهات، وتبدو من بعيد، وكأنها قلعة في قمة الجبل ذات طابع دفاعي بالدرجة الأولى (صورة 95)، وحسب الروايات الشفوية، فإن القرية هجرت عن آخرها سنة 1955، بعدما لجأ الاستعمار الفرنسي إلى قنبلتها، وهي مازالت لحد الآن محتفظة بكثير من خصائصها المعمارية، والعمرانية الأصلية للقرى بحوض الصومام على وجه الخصوص.

ومازالت في القرية آثار الشارع الرئيسي في الوسط، والذي توجد به مكان (تاجماعث)، كما يوجد بها آثار معصرة للزيتون، وآثار طاحونة تقليدية على ضفاف الواد كانت تشتغل بالماء أما بالناحية الشرقية للقرية، فتوجد المقبرة، وغدير كبير لجمع المياه لشرب الحيوانات والاستعمالات اليومية كالبناء مثلا، ويعرف عند أهل القرية باسم (أقلميم).

والقرية لا تختلف عن الأولى من حيث القيمة التاريخية، والأثرية التي تحتلها حيث تعتبر متحفا حقيقيا على الهواء الطلق لفن العمارة التقليدية، وفن منطقة حوض الصومام.

و - نظرة عن مساكن إسرافيل:

تتخذ المساكن في هذه القرية نظاما واحدا على غرار تلك الموجودة في قرية ترونة، أو مناطق أخرى، وهذا يدل على أن هناك وحدة فنية في تخطيط المساكن، وهذا مرتبط أساسا بالحياة الاجتماعية الواحدة في كل المناطق بحوض الصومام، وكذا تطابق العادات والتقاليد، والقيم الواحدة عند كافة الناس، والتي لها أكبر الأثر في تخطيط المسكن وبناءه، وإن جاءت المساكن بسيطة في تخطيطها، فهذا دلالة واضحة على بساطة المعيشة

* - يمكن أن تكون الكلمة منحذرة من النبات الشوكي القصير المعروف بالكتامية باسم أسرف أو أسراف و هي ايضا لهجة بربرية.

التي كان يحياها سكان القرى و الأرياف بعيدا عن تعقدها في المدن و الأمصار التي تكثر فيها المنتوجات و تزداد معها المطالب ، تقاعت، وأداينين، وتاعريشث هي السمات العامة الغالبة على المسكن في هذه القرية، ولكن لفت انتباهنا وجود مادة الطوب بكثرة في البناء، كما أن معظم المساكن تحتوي على (تاعرفث)، ولها سلم خارجي (صورة 96)، ونفس الملاحظة بقرية ترونة وإن كانت قليلة نوعا ما بالمقارنة مع أسرافيل.

وكذلك من الملاحظات عن مساكن هذه القرية أنها تحتوي على مدخلين: مدخل خارجي يؤدي إلى الفناء، والثاني من الفناء يؤدي إلى وسط الدار، ويتراوح عرض المداخل تقريبا 1,30 م، ولقد أكثر البناء في مساكن هذه القرية من استعمال الحجارة المسطحة، كما استعمل في بعض الأحيان جدار مضعف، ومزدوج (double cloison) وقد يكون لغرض تقوية المسكن.

ومن المظاهر المعمارية الجديدة التي لا نجدها في النماذج الأولى بترونة، استعمال البناء أعلى السور الخارجي حجارة مسطحة يوضع فوقها طبقة من الطين، وذلك لغرض حماية السور من مياه الأمطار(صورة 97).

أما عن الخشب المستعمل في التسقيف، فهو من الصنوبر الذي يكثر تواجده بالمنطقة.

ملاحظـــات عـــامة:

سمحت لنا الزيارات التي قمنا بها إلى مختلف القرى المتناثرة في حوض الصومام ومعاينة آثار المساكن القديمة التي بقيت، بالوقوف على عدة ملاحظات واستنتاجات يمكن حصرها فيما يلي:

- كان يراعي في اختيار موقع القرى، وتخطيط المساكن نقاط معينة نذكر منها:

1- **البعد الأمني:** باعتبار معظم القرى تقع في قمم الجبال (ترونة، إسرافيل، بني خيار، تغرمين، تينبدار، صدوق) وغيرها كثير.

2- **البعد الصحي:** كل المساكن تتجه إلى الناحية الشرقية حتى تتمكن أشعة الشمس من دخولها.

3- **البعد الثقافي:** جاء تخطيط المساكن معبرا عن القيم الاجتماعية، والتقاليد المتعارف عليها والتي تميز النمط المعيشي للسكان في كل القرى.

- معظم المساكن تنم عن وحدة وأصالة في التخطيط (شكل57).
- تتشابه في مواد البناء المستعملة، وهي مواد محلية مأخوذة من المنطقة وهي عبارة عن طين وحجر.
- الملاحق الموجودة في المسكن الواحد تتكرر في المساكن الأخرى في كل القرى (صورة 98 و 99).
- المساكن لها تقريبا نفس المساحة والمقاسات.
- المساكن بسيطة جدا في عمارتها، وهي تعكس المستوى المعيشي البسيط لإنسان المنطقة.
- المساكن لها حرمتها الخاصة، وذلك ما يتضح من خلال التخطيط.
- تكيف الإنسان المحلي مع الطبيعة بصورة إيجابية بابتكاره لبعض التقنيات في فن البناء تتجلى في تسقيف المساكن، حيث عمد إلى استعمال ثلاثة عوارض خشبية أوسطها يسمى العارضة الوسطى (*) ، تعترضها عوارض أقل حجما منها من الخشب(**) يوضع فوقها فروع وأغصان شجر الزيتون (أزبوج) مع القصب، ثم يعلوها طبقة من التراب (الطين)، ويغطى الكل بالقرميد، ولهذه التقنية فائدة كبيرة حيث تعمل على الاحتفاظ بالحرارة داخل البيت، وطرد البرودة شتاءً، وطرد الحرارة صيفا ، والاحتفاظ بالبرودة داخل البيت صيفاً، كما يعتبر أيضا عازلاً لصوت أهل البيت عن الخارج.
- بالنسبة لتلبيس الجدران، فهي عبارة عن طبقة سميكة من طين، يعلوها طبقة من الجص، والتبن الممزوج بفضلات البقر (صورة 100).
- ومن التقنيات المستعملة أيضا، نجد في الغرفة الخاصة بالحيوانات (أداينين)، أنه تعلوه عارضة خشبية سميكة يعلوها صفان متراكبان من القرميد تتخللهما فتحات، ثم

*- تعرف في المصطلح المحلي أجقو أ اسّ (بفتح اللام، وشد الس)

**- تسمى ا صطلح ا لي (ثسارة) بشد الس .

ابتداء من الصف الثالث تبدأ الحجارة الصغيرة (صورة 101)، و (شكل 58)، وهذا كله لتدعيم المبنى ورفع الثقل و توزيعه.

- أدمجت بجدران الغرف عوارض خشبية في جميع الجهات، بالإضافة إلى الحجارة والملاط.
- تحتوي جدران المساكن على جرار صغيرة مدمجة بالجدار تستعمل لحفظ المأكولات، وأن الجدار مبني على شكل صفوف منتظمة من الحجارة بدءا بأساس البيت الذي بني بحجارة كبيرة، يليه أخرى أقل حجما منها، وفي شكل صفوف ويستمر هذا النظام حتى أعلى الجدار(صورة 102).
- المساكن قريبة من بعضها البعض إلى درجة أنها تلتصق معا و لا يفصل جدرانها سوى بضع سنتمترات لتسمح بتسرب مياه الأمطار من السقف إلى قناة أرضية تنقل الماء إلى خارج القرية (صورة 103).
- وقصد حجب الأسرة عن الغرباء، تم المعمار من استخدام عنصر (تاغرفت)، أو ما يسمى عند البعض (دار الضيوف)، ولها سلم خارجي خاص بدخول الغرباء الأجانب عن البيت، ولاتصل بداخله، كما أنها تكون في مستوى أعلى من مستوى الغرف الأخرى.
- ولكون المنطقة جبلية، وترتفع بها نسبة التساقط في فصل الشتاء، لجأ المعمار إلى فكرة تغطية أعلى الجدران بحجارة مسطحة، يعلوها طبقة من الطين، حتى لا تتصدع الأسوار، وتتساقط.

الخلاصـــة:

بالرغم من الموقع الاستراتيجي الوعر للقرى بمنطقة حوض الصومام، من حيث طبوغرافية الموقع، أو الظروف المناخية القاسية، إلا أن إنسان المنطقة استطاع أن يجد لنفسه أنجع السبل للتكيف مع تلك الصعوبات، ويبني قراه في قمم الجبال وفق معارفه الخاصة والبسيطة، وبتقنياته الدقيقة في فن البناء، وأنجز مساكن تستجيب لحاجياته وحاجات أسرته، وهي مازالت قائمة لحد الآن تتحدى الزمن، وتشهد على عبقرية فذة في مواجهة الطبيعة، كما تعتبر أيضا تراثا معمارياً أصيلاً، يضاف إلى رصيد التراث المتنوع الذي اكتسبه الإنسان الجزائري عبر حقب التاريخ، ففي هذه المساكن تتجسد هويته وأصالته وتاريخه، كما تتجسد العادات والتقاليد التي ورثها عن أسلافه في فن البناء.

فبساطة مساكنه دليل على بساطة النمط المعيشي له، وجنوحه للسلم، وارتباطه بالأرض الأم التي منها يعيش، ومنها استخرج مواد بنائه، وبواسطتها بنى مساكنه الخالية من الزخرفة، إذ لم يكن يفكر في زخرفة واجهات مساكنه، فالزخرفة الوحيدة التي كان يفكر فيها، هي تلك التي كان يتطلبها الهيكل العام للبناء، وكان يعتمد على حاستي النظر والمراس في ضبط مخططاته، ومتانة الهيكل بالقياس إلى ثقل السقف، ومقاومته لتسرب الماء، ومتانة الجدران.

كما نلاحظ أيضا بأن التصميم العام للمسكن منكفئ على نفسه نحو الداخل، وذلك لتحقيق مبدأ الخصوصية للسكان، في ممارسة حياتهم العائلية، وهذا يتلاءم والحياة الدينية والاجتماعية للمجتمع المحلي بصفة خاصة، والإسلامي بصفة عامة.

وبهذه الخصوصيات، استطاع المسكن التقليدي الريفي أن يعبر عن القيم، والبعد الروحي الوطني. إن وحدة التخطيط و العناصر تعبير عن الوحدة الثقافية و المستوى المعيشي الواحد، فالمسكن تعبير عن طبيعة حياة الإنسان و نشاطاته و يتجلى ذلك في تقسيم الكتلة المعمارية الواحدة الى قسمين: قسم لمعيشة و حرمة الأسرة ، و قسم للحيوانات باعتبارها مصدر أساسي لحياة و معيشة الأسرة.

الفصل الثاني

مرافق الحياة العامة

- معاصر الزيتون التقليدية
- السقايات.
- الآبار.
- الحمامات (حمام سيدي يحي العيدلي).
- طاحونة مائية.

1- معاصر الزيتون التقليدية:

يحتفظ المغرب الإسلامي منذ القديم بأدلة مادية تبين المكانة التي حضي بها كلا من القمح، والزيتون الذي عرف تطورا كبيرا في زراعته، وذلك بسبب الطلب المتزايد عليه والاستعمالات المتعددة التي عرفها، فأصبح له أهمية كبيرة سواء في الحياة الاقتصادية الاجتماعية، أو السياسية على حد سواء، سواء تعلق الأمر بشمال إفريقيا، أو في الإمبراطورية الرومانية، وقد يكون هذا من أهم العوامل التي شجعت على التوغل الروماني في أراضي إفريقيا غربا، وجنوبا لتوسع مجال زراعة الزيتون، ووضع قوانين تحفيزية لاستصلاح الأراضي، وخير دليل على ذلك، ما تحتفظ به بعض مناطق الريف الجزائري من أثار المعاصر، وكذا بعض المدن وهي دليل على النشاط الكثيف الذي عرفته هذه الزارعة [(1)].

ولعل موضوع معاصر الزيتون التقليدية بالجزائر خاصة في العهد الإسلامي، له علاقة مباشرة بالمجال الزراعي، والاقتصادي، والسياسي، والصناعي الذي ورثه سكان المنطقة بدافع الحاجة عن أسلافهم عبر العصور، وإن كان مثل هذه المواضيع لم تحض بالدراسة العلمية الأثرية سابقا، وهذا ما قد يفتح الباب مستقبلا للاهتمام بالآثار الريفية في مختلف مناطق الوطن، خاصة إذا علمنا بأن الكثير من هذه المعاصر التقليدية قد اندثرت، ولم يبق إلا آثارها المتناثرة هنا وهناك، وإن كان العثور على معصرة قائمة بذاتها وفق المقاييس، والمواصفات القديمة في حوض الصومام نادرا جدا، وذلك راجع للاستغناء عنها واستبدالها بأخرى حديثة[(*)].

إن زراعة الزيتون، هي الزراعة الأكثر انتشار في منطقة القبائل، وفي الشمال الإفريقي، ولهذه الشجرة تاريخ خاص يعود إلى عهود موغلة في القدم فالفينيقيون كانوا

1- ويزة بلعر ، معاصر مادور،دراسة أثرية، رسالة ماجست ، معهد الآثار، جامعة ا زائر، 2006/2005، ص.1.

أنظر أيضا حول ا وضوع : - Camps Fabrer , L'olivier et son importance économique dans L'Afrique Antique. Dans. CIHEA . options Méditerranéennes .n° 24.

- Camps Fabrer,L'olivier et L'huile dans L'Afrique Romaine, imprimerie officielle, Alger, 1953, p.17.

- مد البش (شني)، التغ ات الاقتصادية والاجتماعية ا غرب أثناء الاحتلال الروما ، ا زائر،1984، ص ص.91-97.

*- من خلال التحريات الأثرية ال قمنا با تلف قرى وأرياف حوض الصومام، تعذر علينا العثور على معصرة تقليدية ماعدا واحدة فقط من ا شب عرش بـ مليكش.

يتاجرون بالزيوت بين مختلف مناطق الحوضين الشرقي و الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، كما تعتبر شجرة الزيتون من الأشجار المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى:

"ا نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي ا لنوره من يشاء ويضرب ا الأمثل للناس وا بكل شيء عليم ..."[1]، (صدق ا العظيم)، كما أقسم ا أيضا بقوله: " والتين والزيتون وطور سنين ..." [2].

كما أن للزيت فوائد كثيرة، فقد يستعمل للأكل[3]، وقد يستعمل للعلاج، كما يستعمل أيضا للإضاءة وإشعال المصابيح[4]، ولقد حث الرسول (صلعم) على تناول الزيت في قوله:" إئتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة". [5]

والزيت مفيد لجسم الإنسان إذ يتكون من العناصر التالية: الكربون 71,12 والأكسجين 45، 9، والهيدروجين 13، 36، كما أن قاعدتها من حيث المارغرين تصل إلى 28%، و 72 % من المادة الدهنية، بالإضافة إلى المادة الصفراء الملونة وعطر خاص بها إلى جانب نسبة من المادة الآزوتية[6].

و يمر الزيتون بعدة عمليات تقنية و عملية يتحول من خلالها من طبيعته الأصلية الى مادة سائلة إما شفافة أو خضراء معتمة أو أصفر ذهبي و هي مادة الزيت المستخلصة حسب طبيعة الزيتون.

1- سورة النور، الآية 35.

2- سورة الت ، الآية 95.

3- ص ي القبا ، الغذاء لا الدواء، دار العلم للملاي ، ط1، 1965، ص.269.

4- تفظ ا تاحف ا زائرية بكث من مصابيح الإضاءة ال تعود إ العهد الروما والبيزنطي والإسلامي.

5 - حديث شريف، ابن ماجه 3319 و عبد الرزاق ا صنف 19568، وا اكم (122/4)وصححه ووافقه الذه و صححه الألبا .

6- Cutance (A), L’olivier histoire botanique, Région, Culture,production, usages,commerce, industrie, etc... edit, J.Rothschild, paris,1887,P.302.

أنظر أيضا عن فوائد الزيت ومكوناته: أ د قدامة، قاموس الغذاء والتداوي بالنباتات (موسوعة غذائية صحية عامة) ط3دار النفائس، 1983، ص. 265.

- أ د مصطفى متو ، ا وسوعة الشاملة الطب البديل، دار ابن ا وزي، القاهرة، 2005، ص. 365.

- حليمي عبد القادر علي، الفضائل ا زرية الأعشاب الطبية، ج1، ا ؤسسة الوطنية للفنون ا طبعية، ا زائر 1996، ص. 388.

أ- أنواع معاصر الزيتون بالمنطقة:

لابد من الإشارة إلى أن معاصر الزيتون بالمنطقة أنواع، منها المعاصر الأولى التقليدية، والبدائية جدا بالمنطقة والتي لا نجد لها اثر اليوم، بسبب التطور الحاصل في الحياة الاجتماعية، وهي عبارة عن أحواض تبنى بمادة الحجر أو الطوب حسب توفر المادة، ويوضع أسفل الحوض فتحة لتسرب الماء والشوائب، تملأ الأحواض بالزيتون،وتغطى بحصير، ثم تتم عملية الدك، والسحق بالأرجل، وقد تستغرق هذه العملية أياما حتى يسحق الزيتون بالكامل، ويحصلون على الزيت.

أما النوع الثاني من المعاصر بالمنطقة، فكان يدار بالقوة العضلية للإنسان، أو عن طريق استعمال حيوانات الجر كالأحمرة، والأحصنة، أو الثيران، وهذا بعد بناء حوض للسحق من مادة الحجر أو الخشب، ويثبت بداخله مساحق من مادة الحجر، تدار داخل الحوض بالطريقة التي سبق ذكرها لتحويل حبات الزيتون إلى عجينة توضع في القفاف ثم تحول إلى منصة العاصرات قصد عصرها والحصول على الزيت، وقد نجد الكثير من المساحيق المترامية هنا وهناك، وكذلك بعض الأحواض القائمة، والمهدمة في مناطق عديدة من قرى حوض الصومام، وعلى شكل أطلال.

أما النوع الثالث من المعاصر، فهو ذي مواصفات النوع الثاني، ولكن أدخلت عليه بعض التعديلات الحديثة فأصبحت المساحق تدار داخل حوض السحق بواسطة محرك يشتغل بالكهرباء، وإن منصات العصر كانت من مادة الخشب، قد أصبحت من الحديد(*) (صورة 104) .

*- معظم منصات العصر من مادة ا ديد، وتؤرخ بالسنوات الأو للتواجد الفرنسي، وذلك حسب التواريخ ا وجودة عليها، كالسنوات 1840- 1845- 1854 وغ ها.

ب- عناصر المعصرة ووظيفتها:

تتكون المعصرة من عناصر ثابتة كالأحواض، وأخرى متحركة كالمساحق بالإضافة إلى منصة العاصرات وعملية العصر، وفيها مكان المعصر بأشكاله، وذلك حسب عدد القنوات المحفورة عليه، إلى جانب مقاساته، وحجم القفاف التي تناسبه، إضافة إلى قنوات تصريف الزيت التي تؤدي إلى مكان التعبئة(الأحواض) بأنواعها، ودورها.

وتمر صناعة الزيتون بثلاث مراحل أساسية، تبدأ الأولى فيها بدخول الزيتون للمعصرة حيث يبدأ بسحق الثمار وتحويلها لعجينة[*] تكون لديها قابلية لاستخلاص زيتها بعملية عصرها ثم تصنيفها لنتحصل على مادة ذات جودة بعد تخليصها من الشوائب وتتطلب هذه العملية المرور من أحواض السحق إلى المساحق، فالقسم الثابت من المعصرة عبارة عن حوض دائري الشكل بمركزه قسم ناتئ من الحجارة يحمل فجوة لاستقبال المتحرك والذي هو عبارة عن أوتاد محورية ومساحق[1]، وأحواض السحق نوعان : منها المصنوعة من مادة الحجر، وهي قديمة جدا[**]، ومنها المصنوعة من مادة الخشب.

وهنا لابد أن نتطرق لكل عنصر من عناصر المعصرة ودوره:

- **الأحواض:** تعتبر المكان الذي يحتوي على كمية الزيتون الموجهة للسحق، وللعجينة التي ستعصر بعد ذلك، ولمنعها من التسرب خارجاً.
- **النتوء المركزي:** عبارة عن كتلة حجرية (حسب المادة)، تتوسط الأحواض، وتكون منحوتة، يكون أحد أقسامها مغروسا في الأرض، والقسم الآخر بارزا للأعلى وبمركزها فجوة مربعة، أو مستطيلة، وظيفتها استقبال القطعة الخشبية لمحور دوران المساحق.
- **المساحق:** من ضمن الأقسام المتحركة في المعصرة، وهي عبارة عن كتلة حجرية مختلفة الأشكال منحوتة بطريقة تسهل عملية دورانها حول محورها، وذلك بمجرد

---

*- العجينة تسترجع وتستعمل إما للتدفئة [illegible]رقها شتاءً، أو [illegible]لط مع العلف وتقدم للحيوانات للأكل، وهذه الطريقة مستعملة [illegible] بلاد القبائل، وح[illegible] [illegible] إسبانيا حاليا.

1- ويزة بلعر[illegible] ، مرجع سابق، ص. 79.

**- ا[illegible]ساحق ال[illegible] عثرنا عليها كلها من مادة ا[illegible]جر تقريبا .

دفعها،من خلال مقابض تهيأ عند فجوات منحوتة في مركزها وعلى طرفيها، وتعمل على تحويل لحمة حبة الزيتون، وفصلها عن النواة، وبثقلها تحول الثمار إلى عجينة[***] لتسهل عملية استخلاص الزيت. و تكون المساحق مستديرة إن كانت من النوع الذي تدفعه الحيوانات ، و شبه إهليلجية إن كانت من النوع الذي يستخدم بالأيدي.

- **الوتد المحوري:** عبارة عن قطعة خشبية تدمج في الفجوة المركزية للأحواض بشكل عمودي وثُبِتَت إليها قطعة أخرى أفقيا لتخترق مسحاق، أو اثنان في المركز بطريقة تسهل دورانها حول نفسها والحوض معا[1]، وهناك ملاحظة هامة يمكن الإشارة إليها، وهي أن فضاء الدوران لابد أن يكون عريضا، حتى يسهل مهمة الحركة ودون أي إعاقة كانت، وهذا ما يجعل عملية السحق مريحة، ولا تسبب إرهاقا للعمال، الذين قد يخلفهم الحيوان في جر الوتد الأفقي الذي يحرك المساحق، وفي حال ضيق هذا الفضاء، فهي تكتفي بقوة العمال لا غير.

ومن التقنيات المستعملة في سحق الزيتون الغني بالزيت، والفقير من حيث الماء، هو سحقه كثيرا للتحصل على العجينة الزيتية، وإذا كان غنيا بالماء يجب أن يسحق قليلا حتى لا تكون العجينة سائلة، وبالتالي تنفذ من خلال عيون القفاف.

إن كمية الماء التي تضاف للزيتون في العام العادي، هي تقريبا نفس الكمية من الزيتون الذي سيسحق، على سبيل المثال: 100لتر من الماء لـ 100 كلغ من الزيتون أما في سنوات الجفاف يجب أن تكون كمية الماء أكبر من كمية الزيتون الذي سيسحق 160 لتر مقابل 100 كلغ، أما إذا كانت الثمار غنية بالمادة الدهنية، فإن كمية الماء ستنقص بثلاث مرات، أي ما يعادل 30 لتر مقابل 100كلغ من الزيتون[2].

وهناك من يعتقد بأن التسخين الناتج أثناء العملية جد مفيد، لأنه في هذه الحالة،تكون كمية الزيت المستخلصة من العجينة أكثر بكثير.

***- وهي خليط من اللباب والنواة ا لهشمة.

1- ويزة بلعر ، مرجع سابق، ص. 87.

2- نفسه، ص. 93.

ج- عملية العصر:

توضع عجينة الزيتون في قفاف مسطحة مستديرة يتخللها صفيحة خشبية (قرص)، أو حديدية تسمى بالقرص الزيتي، تعمل على ضمان توزيع الضغط على كامل مساحة القفاف وتبدأ القفاف في الانخفاض بمجرد إحداثها للضغط.

ولابد أن تكون العاصرات مائلة قليلا بدرجة 2% إلى 5% من عرضها لتسهيل عملية صرف الزيت نحو الأحواض من خلال القنوات، وحتى لا تفيض على الجوانب أثناء عملية العصر، أما الوتد المحوري الذي يعرف بالعتلة، فهو يتحرك عمودياً ويضغط على كومة القفاف التي يتسرب منها الزيت، ويزداد الضغط كلما ازدادت درجة انخفاض القفاف.

وبعد عملية العصر، يرسو كل من الماء، والزيت في الحوض، لترسو الشوائب والماء إلى الأسفل لكونها ثقيلة، بينما الزيت خفيفة تطفو على السطح، ثم تنساب إلى حوض آخر من خلال قناة تفصل الحوضين، ثم توضع في الجرار الخاصة بحفظ الزيت، وأسفل الحوض تنزع سدة تسرب المياه والشوائب إلى القناة الخاصة بالمياه القذرة.

د- وصف لمعصرة زيتون تقليدية ببني مليكش:

تقع المعصرة في قرية بني فضيلة (آث فضيلة) التابعة لعرش بني مليكش[*]، وهي معروضة في الطبيعة في مكانها الأصلي، بعد أن توقفت عن الاشتغال بحلول المعاصر الحديثة مكان التقليدية القديمة.

ومن الناحية التاريخية، والأثرية، تعتبر المعصرة هامة جدا للدراسة،كما تعد تقريبا نموذجا فريدا للمعاصر التي عثرنا عليها، وهي مصنوعة من مادة خشب الزيتون وتقليدية إلى درجة كبيرة، كانت تشتغل في الأصل بقوة دفع الحصان، ولم يتبق منها غير أطلال (بقايا) حوض السحق، ومسحاق واحد فقط (صورة 105)، وتعد أيضا من المعاصر ذات المسحاق الواحد[**].

*- ا معصرة ملك للسيد قورسيف مالك بالوراثة عن أجداده.

**- هناك معاصر ذات مسحاق ، وأخرى ذات مسحاق واحد، وقد تكون خاصة بالعائلة فقط وليست عمومية.

أما الحوض، فهو مبني من مادة الحجر، وملبس من الداخل، وفيه دعامة مركزية وأخرى أفقية يثبت فيها المسحاق بعد وضع الزيتون بداخله، وكان المسحاق يحرك بقوة دفع الحصان، لأنه ثقيل ومن مادة الحجر، وكان صاحب المعصرة يتابع شخصيا عملية السحق، ويدفع الزيتون بيده في كل مرة إلى المسحاق (صورة 106)، وبعد أن يتحول إلى عجينة، يوضع في قفاف، ويحول إلى مكان العصر (العاصرة).

أما الملحق الثاني من المعصرة، والذي مازال قائما، وهو في حالة جيدة من الحفظ هو مكان العصر المصنوع من عوارض خشبية لأشجار الزيتون، وتتكون من عارضتين قائمتين تستند عليهما عارضة أفقية خشبية في وسطها فتحة تثبت فيها الدعامة المركزية ذات الشكل اللولبي، والمعروفة بالعتلة، التي تنتهي في أسفلها بنتوء فيه فتحات، يتم تدويره إلى أعلى، والأسفل عن طريق وتد خشبي قصد الضغط على القفاف التي توضع على لوحة خشبية مسطحة، وكل هذه العملية يدوية، وعند العصر يتسرب الزيت من القفاف إلى الحوض الخشبي الأول، ومنه عبر فتحة صغيرة إلى حوض خشبي ثان، أقل حجما من الأول، وعبر فتحة صغيرة من هذا الحوض إلى قناة خشبية صغيرة، والتي تعتبر آخر مرحلة، أين يستقبل الزيت في أواني، ثم ينقل إلى أدوات الحفظ، وهي الجرار الكبيرة (شكل 59) و(صورة 107 و 108).

وتعتبر المعصرة من حيث التسلسل التاريخي طرازا ثانيا بعد المعاصر الأولى التي كانت تتم عملية سحق الزيتون، وعصره بالأرجل.

كما توجد أيضا بالمنطقة بعض المعاصر التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة فأحواض سحقها تقليدية، من الحجر، تدار فيه المساحق بقوة دفع الحصان، أما مكان العصر فهو من الحديد(*) (صورة 109)، وأخرى كل عناصرها من الحديد، من حوض السحق إلى العاصرة، ماعدا المساحق فهي من مادة الحجر، ولكنها تشتغل بمحرك كهربائي(**) (صورة110).

* كما هو ا ال معصرة السيد أيت هلال بقرية تاوريرت بأعا آمالو، دائرة صدوق.

**معصرة السيد جادة بلقاسم بقرية تيغرم بأعا أمالو، ويعود تار ها إ أكثر من قرن من الزمن.

ويمكن أن نجد في الحي الواحد معصرة واحدة خاصة بعائلة معينة كما هو الحال في قرية تينبدار بسيدي عيش، وأخرى لعامة الناس، ولكن الغالب لكثرة الإنتاج بالمنطقة، أن لكل عائلة معصرتها الخاصة بها.

2- **السقايات:**

عرفت الحضارات القديمة تمركزها بالقرب من منابع المياه، حيث تعتبر هذه الأخيرة مركز جذب للإنسان، مصداقا لقوله تعالى:" ... وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا تعقلون..." [*]، فالماء أساس الحياة، فهو أقدم ظهورا من المدن والتجمعات السكنية بدليل أن العديد من المدن والقرى أخذت أسماء عيونها وآبارها وسقاياتها.

وعلى عكس ما يعرف في العمارة المشرقية عن السبيل الذي هو عبارة عن مشرب يقام في الأماكن العامة والأحياء، وأركان المساجد، والمدارس، والخانقاوات والمقابر، أو بالقرب منها[1]، والتي نشأت لأول مرة في العصر الأيوبي، ثم عرفت انتشارا مذهلا في العهد المملوكي، ومهما اختلف طراز بناء السبيل، وأشكاله، فإن تكوينه المعماري واحد، وهو تكوين يخدم وظيفة من حيث خزن المياه وإعدادها للتسبيل، ثم تقديمها للناس و عرفت الأسبلة في العهد الأيوبي ثم المملوكي و نذكر منها السبيل الذي أنشأه السلطان منصور قلاوون[**]، أما المماليك الجراكسة، فاهتموا كثيرا بإنشاء الأسبلة، غير أن العثمانيين، وبعد سنة 1517م، أكثروا من إنشاء الأسبلة حتى أصبحت بنايات مستقلة بذاتها، ومن أمثلتها سبيل خسرو باشا 942هـ/1535م، وسبيل يوسف الكردي، وسبيل أميرمحمد1140هـ/1650م، ولقد أحصى علماء الحملة الفرنسية على مصر245 سبيلا[2].

---

* سورة الأنبياء، الآية. 30.

1– عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص. 218.

** كان قائما بشارع سوق ا ؤيد، وجدد عام 1171هـ/1757م، ولا أثر له الآن.

2 - مد صلاح الدين، الأسبلة نشأت للمرة الأو العصر الأيو ، لكن الاهتمام با ي ز إلا مع ا ماليك، جريدة ا ياة العربية، 16 نوفم 1990، العدد 10150، ص. 13.

إن السقايات في الجزائر أماكن طبيعية، عبارة عن منبع مائي يقصده الناس للتزود بالماء(***)، ثم مع مرور الوقت أدخلت عليه بعض التعديلات، كبناء ضلة أمامه تقيهم من الأمطار شتاءً، ومن حر الشمس في فصل الصيف.

وفي العهد الفرنسي لجأ المستعمر إلى بناء هذه السقايات بالإسمنت، وجعل لها أحواض يصب فيها الماء، ومن خلال دراستنا الميدانية بالمنطقة، قمنا بإحصاء ثلاثة أنواع من السقايات:

الأولى منها خاصة بشرب الحيوانات فقط خاصة في الفترة الصباحية، أو في المساء بعد الرجوع من الرعي (صورة 111)، والثانية منها خاصة بالتزود بالماء الصالح للشرب، والاستعمال اليومي(صورة 112) و(صورة 113و 114)، والنوع الثالث هو السقايات الخاصة بغسل الملابس و لوازم البيت، والاستحمام بالنسبة للرجال خاصة في فصل الصيف.

كما أن للسقايات بحوض الصومام نظام خاص بها، يعبر عن تجذر الصفات والأخلاق الإسلامية لدى سكان المنطقة، خاصة ما تعلق بها بعدم الاختلاط، بحيث حددت مواقيت خاصة للنساء، وأخرى للرجال لتفادي الاختلاط، فالنظام المعمول به، أن تكون الفترة الصباحية إلى غاية منتصف النهار خاصة بالنساء فقط للتزود بالماء، ومن الظهر حتى وقت العصر، تكون خاصة بالرجال، وبين العصر والمغرب تقبل النسوة على التزود بالماء الذي يستعمل خلال الليل، وهكذا...، ويحضى المجتمع المحلي بإتباع هذه المواقيت، واحترامها حرصا على حرمة التقاليد، والقيم الاجتماعية المتعارف عليها.

ولقد أحصينا على الطريق الرابط بين أقبو وتامقرة، انتشار العديد من السقايات على حافة الطريق أما ببجاية فكان يوجد حيا بأكمله يحمل اسم خمسة عيون(*)، وهو حي قديم جداً، وكان يمسى بعدد السقايات الخمس التي كانت به، وإن كانت اليوم قد اندثرت،ولم يبق فيها أثر، ماعدا ما احتفظت به الصور القديمة خلال القرن 19م (صورة 115)، وهذا ما يدل على وفرة المياه بالمدينة، وكثرة سقاياتها التي يتزود منها السكان بالماء، وكانت عبارة عن ماء يتدفق من أعلى الجبل فيصب في حوض مائي أما

*** يعرف عند السكان ا لمي بمصطلح (تالة).

*- ويعرف حاليا ي أشرشور وتع الكلمة الأخ ة اللهجة ا لمية، التدفق أي ا ياه ا تدفقة وفق معناها اللغة العربية.

الفائض منه، فكان يستغل عبر قنوات لسقي البساتين المجاورة، وهذه الظاهرة منتشرة بكثرة في قرى حوض الصومام، وذلك لاسترجاع المياه الضائعة، واستعمالها لأغراض فلاحية.

وبهذا الشكل العام للسقايات ببجاية وضواحيها، تتجلى البساطة المتناهية في أشكالها وعمارتها على عكس السقايات المشرقية التي هي عبارة عن دولاب، أو آلة يتم تركيبها فوق فوهة بئر. لرفع الماء بواسطة الدواب ثم تفرغه في حوض خاص متصل بقناة، أو بمجرى مائي يسير الماء من خلاله إلى الموضع المراد سقايته، أو توصيل الماء إليه[1]، وكانت هذه السقايات تتوسط القرية، وأحيانا أخرى نجدها بمحاذاة التجمعات السكنية.

3- الآبـــار:

الآبار جمع مفرده بئر، وهي مكان يجلب منه الناس الماء، لاستعمالاتهم اليومية وبقي في بجاية و نواحيها بعض الآبار التي تعود للعصر الإسلامي نذكر منها:

أ- **بئر السلام:**

وهي بئر من العهد الحمادي، كان زوار مدينة بجاية يتوضئون منها قبل دخولهم المدينة، إذ كانت تعلوها هالة من القداسة والتبجيل بعلمائها، وأوليائها، وهذه البئر تقع على مدخل المدينة من الناحية الغربية (صورة 116)، ويشير الورثيلاني إلى أنها المكان الذي كان يلتقي فيه الناس وذلك في قوله: " فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة ..."[2]، ومن الناحية المعمارية، فإن البئر يعلوها قبة صغيرة ترتكز على أعمدة، ترتكز بدورها على فوهة البئر، ومازالت البئر في حالة جيدة من الناحية الأثرية إلى يومنا هذا، وفوهة البئر مبلطة بحجارة ملساء شبيهة بالرخام عليها آثار الحبال من كثرة جلب المياه، وتبدو البئر مبنية من الداخل بالحجارة.

وللملاحظة فإن المنطقة التي تقع فيها هذه البئر عند مدخل المدينة، تعرف حاليا بمنطقة بئر السلام، ولقد سمحت لنا الزيارات المتعددة للمدينة من اكتشاف آبار أخرى قد

1– عاصم مد رزق، مرجع سابق، ص. 137.

2– الورثيلا ، مصدر سابق، ص. 18.

تعود للعهد الحمادي، تقع داخل السور في أعلى الجبل، ومغطاة بالحشائش، ومن المحتمل أنها استعملت لشرب الخيول.

ب- آبار ملالة:

أما في منطقة ملالة، مكان التقاء المهدي بن تومرت، بعبد المؤمن بن علي، فما زال بها لحد الآن بئران، أحدهما يسمى (بئر الخروبة) خارج المسجد، وهي بئر بسيطة لا ترقى في عمارتها وشكلها العام إلى بئر السلام ببجاية (صورة 117)، وبئر أخرى ثانية تقع خاف المسجد تسمى (بئر الأسد) شكلها مشابها للبئر الأولى، ولكن بني حولها غرفة صغيرة، هي اليوم مزارا للتوضأ والاستحمام من مائها، وللتبرك بها، ويقال بأن البئران قديمتان جدا، وقد تعودان إلى عهد عبد المؤمن وبن تومرت (صورة 118).

ج- بئر بوديمان:

يذكر الورثيلاني[1] أن "بديمان" ولي صالح، وضريحه يزار دائما، وأن من ذهب إليه تقضى حاجته، وأن فيه رجال الغيب، وبعض الصالحين يقولون ذلك حق وصدق وحسب الراويات الشفوية، استناداً إلى مخطوط كان محفوظا في المسجد بخط يد الشيخ فإن الاسم الحقيقي هو: **الشيخ العربي بوديوان** الذي أتى من المشرق الإسلامي، وهو عالم في الدين، ومن المتصوفة، ومسجده أول مسجد في المنطقة، بالإضافة إلى زاويته التي لم يتبق منها إلا القليل، وحسب المخطوط، فهو يؤرخ بالقرن 5هـ/ 11م[*].

والمنطقة التي يتواجد بها البئر عبارة عن أطلال لمباني قديمة جدا منها المسجد والزاوية، وبعض الملحقات يحيط بها سور، وخارج السور مقبرة، تبدو من خلال قبورها،وشواهدها أنها قديمة جدا، أي معاصرة لتاريخ بناء المسجد، وهذه الآثار تدل على أنها كانت تجمعا عمرانيا قديما إلى جانبه أشجار الخروب، والزيتون، واللوز وهي الزراعة الدائمة لأهل المنطقة.

1– الورثيلا ، مصدر سابق، ص. 35.

* معلومة من الشيخ عمراوي ند أكلي 88 سنة أحد شيوخ قرية بو زة، وإن ا خطوط فقد أربعينات القرن ا اضي من قبل السلطات الاستعمارية.

أما عن البئر موضوع الدراسة فهي من شكل خاص، فمن خلال عمارتها، فهي قديمة جداً، يتم النزول إليها عن طريق أربع درجات، ثم توجد باب البئر التي يعلوها عقد نصف دائري من الآجر، أما البئر من الداخل، فهي مستطيلة، وعريضة، وعميقة نوعا ما، وهي مغطاة من الخارج على شكل قبو نصف برميلي، ويظهر من خلال تقنية بنائها بالآجر المتعامد، والأفقي المدمج بالحجارة المسطحة أنه قريب الشبه من خلال مادة البناء، وتقنياتها بالعمارة الحمادية بالقلعة، أو بمنشـ ـآت بجايـة في العهـ ـد الإسلامي (صورة 119) و(شكل 60).

والبئر بشكلها العام، تبدو وكأنها حوض مائي مبني تجلب منه المياه لاستعمالها كما أن طريقة تغطية البئر من الداخل هي السقف نصف البرميلي، أما السقف من الخارج، فقد غطاه التراب والحشائش، وشكله العام يذكرنا بحمام سيدي يحي العيدلي.

4- حمام سيدي يحي العيدلي:

لابد في البداية من أن نبدأ كلامنا بنبذة مختصرة عن الحمامات في العهد الإسلامي، والتي تعتبر من منشآت المدينة الإسلامية، والمرتبطة أصلا بالطهارة، وهي أحدى الصفات المتأصلة بعمق في الإسلام، ولذاك لا نجد تقريبا مدينة إسلامية تخلو من الحمام الذي كان يقام بالقرب من المساجد، فالأندلس لوحدها يكاد عدد الحمامات يقارب عدد المساجد [1].

وأدى الحمام عبر التاريخ الإسلامي دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية، حيث اعتبر مركزا للاجتماعات المرحة، ومجالس الأنس، واللهو، والغناء، يجتمع فيه الشعراء للمساجلات الشعرية، وتجد النساء فرصة للتسرية عنهن[2].

وتعطي المصادر التاريخية أرقاما مذهلة عن انتشار الحمامات في العالم الإسلامي فأهل دمشق على سبيل المثال كانوا يتفننون في إنجاز حماماتهم، حتى جعلوها آية في الجمال فرصعوا جدرانها بالقاشاني وأرضها بالرخام، وكان الناس يرتادون هذه الحمامات

1– عبد العزيز سا ، قرطبة حاضرة ا لافة الأندلس، ج 2، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ب وت، 1972، ص. 24.

2 - فؤاد س الدين،" ا مامات التقليدية الإسلام، من معا ا دن الإسلامية للطهارة والنظافة والارتياح"، جريدة ا ياة العربية اليومية، العدد 10188، 24/ ديسم / 1990، ص. 13.

ليمضوا وقتا هنيئا في الاغتسال، وفي تناول الطعام، والاستشفاء من بعض الأمراض، وهذا ما يفسر المثل الدمشقي القديم : " نعيم الدنيا الحمام" [3].

وتعتبر الحمامات الأموية نموذجا حيا لجميع الحمامات الإسلامية من حيث أقسامه وغرفه، وعملية التنظيف فيه، ومن حيث التخطيط العام للحمام الإسلامي، فهو يتكون من رحبة واسعة تكون مركزاً لحفظ الملابس قبل الدخول مباشرة للاغتسال، وبعد خلع الملابس في الغرفة الأولى من الحمام، يمر بغرفة ثانية تكون أكثر حرارة من الأولى وأقل من الثالثة التي هي محل الاغتسال، ويكون عادة على شكل ردهة واسعة عليها قبة فيها نوافذ زجاجية صغيرة،ومستديرة للنور، وحول هذه الردهة مخادع، وفي كل مخدع حوض من الرخام فيه أنبوبان للماء الحار والبارد، وإلى جانب هذه الأحواض، هناك حوض كبير في داخل هذا البيت، وهو الذي ينزل فيه المستحم فيغطس جسمه كله فيه.

والحمامات في العهد الإسلامي كانت على نوعين: خاصة وعامة، فالأولى يمتلكها التجار، والوزراء، والقادة، والقضاة في بيوتهم، والعامة فكانت على صنفين من حيث النوعية، حمامات للرجال، وأخرى للنساء[1].

أما بالنسبة لحمام سيدي يحي العيدلي موضوع الدراسة، فيختلف عن الحمامات السابقة الذكر، فهو حمام لأحد أولياء ا الصالحين، الذين عاشوا بالمنطقة، يقصده الزوار للتبرك، والاستحمام، والتداوي من شتى الأمراض، ويعود تاريخ الحمام إلى زمن سيدي يحي العيدلي أي القرن 9هـ/15م، عندما كان مختليا في خلوته أعلى الجبل، وتروي الروايات الشفوية بالمنطقة،وحتى في وسائل الإعلام الوطنية بأن الشيخ سيدي يحي العيدلي أقام في مغارته مدة سبع سنوات، وكان ينزل يوميا من مغارته بأعلى الجبل إلى أسفل الوادي للتوضأ خاصة وقت الفجر وفي فصل الشتاء، ومن كرم ا أن نزل ذات مرة، فوجد ماءً دافئاً ينبثق من وسط صخرة، مما جعله يبني فوقها حماماً بسيطاً ومتواضعاً على ضفاف الوادي[*].

3– فؤاد س الدين ، مرجع سابق ، ص.13.

1– فؤاد س الدين، مرجع سابق، ص.13.

* للشيخ سيدي ي العيد عدة كرامات، أنظر الورثيلا ، **الرحلة**، ص ص .9-10.

يقع حمام سيدي يحي العدلي على الطريق الرابط بين أقبو وتامقرة، ويبعد عن مدينة أقبو بحوالي 07كلم، ويحتل الحمام موقعا في منطقة جبلية على ضفاف وادي الصومام (صورة 120).

الشكل الخارجي للحمام عبارة عن غرفة واحدة مغطية بقبو كبير نصف برميلي ويوجد في واجهته الرئيسة المدخل، ونافذة صغيرة، ويحيط بالحمام ملحق عمراني من مساكن تقليدية قديمة تستعمل كمبيت للزائرين.(صورة 121)

ومن حيث الشكل التخطيطي الداخلي للحمام، فهو عبارة عن قسمين: الأول مكان مخصص لنزع الملابس، وفيه دكانة صغيرة تستعمل لجلوس المستحمين للراحة بعد الاستحمام والذي يتسع لعدد قليل من المستحمين، أرضيته عبارة عن صخرة كبيرة ينبع منها الماء، وعلى مستوى معين من الارتفاع هناك فتحة لتفريغ مياه الحمام إلى الوادي مباشرة، ويفصل القسم الأول والثاني من الحمام عن بعضهما البعض فتحات يتخللها عقدان محمولان على عمودين من الحجر، يتم الدخول إلى الحوض المائي للحمام من أسفل العقود (شكل61).

القسمان مغطيان من الداخل بقبوين نصف برميلين، أما من الخارج، فالسقف كله مغطى بقبو نصف برميلي، وإلى جانب الحمام، هناك حوض مائي آخر مكشوف يسمى بحمام الأمراض الجلدية، يخرج الماء فيه من باطن الأرض، وهو موجود منذ القديم (صورة 122).

وحسب الدراسات التي أجريت على درجة حرارة المياه، فهي تقدر بـ 47°مئوية(*) ويتوافد الناس من كل جهة للتبرك بالاستحمام في حمام سيدي يحي العيدلي، خاصة المصابين بالأمراض الجلدية، والروماتيزم، وبعض الأمراض التي استعصى على الطب الحديث مداواتها كالسحر والجن وغيرها، ويسهر على تنظيم الحمام متطوعين من ذوي البر والإحسان من سكان المنطقة.

* - معلومة مستقاة من السيد ا شرف على ا مام اعتمادا على نتائج تحليلية لمصالح المياه ببجاية.

5- وصف لطاحونة مائية:

كانت الطاحونات المائية تنتشر قديما بكثرة على ضفاف وادي الصومام، والآن لم يبق إلا أطلالها المتناثرة على ضفاف الوادي، مما جعل الحصول على نموذج حي للدراسة أمراً في غاية الصعوبة، ولكن سمحت لنا التحريات التي قمنا بها من العثور على نموذج فريد مازال قائما، ويشتغل بنفس الطريقة التي كانت عليها الطاحونات القديمة وتقع هذه الطاحونة على ضفاف وادي بوسلام الفاصل بين ولايتي سطيف وبجاية(*) وهي تستعمل لرحي الحبوب، و الشعير، والقمح، والفول، وذلك لعامة الشعب، ولقد أقيمت على نفس نمط الطاحونات القديمة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من 250 سنة، والشائعة في منطقة القبائل، وهي محلية وتقليدية في بنائها وتجهيزاتها، وتتكون من غرفتين متراكبتين، الغرفة العليا كبيرة، ومبنية على هضبة صخرية كبيرة، أما السفلى فهي أقل منها حجماً وعلواً.

تشتغل الطاحونة بالماء الذي يجلب إليها عن طريق إقامة ساقية خارجية يجلب منها الماء وتقع في منحدر شديد، وهذا لضمان القوة، ووفرة المياه، الذي يمر مباشرة إلى الغرفة السفلى أين تثبت العجلة، ويقوم الماء بتحريكها،ومنه ينساب إلى الوادي.

الغرفة السفلى توجد بها عجلة مصنوعة من خشب البلوط تثبت في دعامة مركزية تخرج من الغرفة السفلى، وتثبت في العجلة الحجرية الموجودة في الغرفة العليا، وبها نتوء مركزي تدور بدوران العجلة المائية، فتقوم هذه العجلة الحجرية بسحق الحبوب التي تصب في النتوء المركزي عبر دلو قمعي الشكل، وبعملية السحق تتحول الحبوب إلى دقيق ترميه عجلة السحق الحجرية إلى الحوض بطريقة تلقائية، ثم يجمع عن طريق إناء صغير، ويوضع في أكياس.

الطاحونة مزودة بنظام لتوقيف العجلة الخشبية عن الدوران، وذلك عن طريق لوحة خشبية تصل بين الغرفة العليا، والعجلة، فعند دفعها إلى الأمام تتوقف العجلة عن الدوران وبذلك الطاحونة معاً عن الاشتغال، ويحدث العكس عند جذب اللوحة الخشبية لتتحرك العجلة بكل حرية ودون عائق، كما أن الطاحونة مزودة بنظام التحكم في دوران

*- الطاحونة ملك للسيد برا ي ند البشـ بالوراثة عن أجداده، وعمرها اوز القرن ونصف القرن من الزمن، وتقع بالقرب من قرية لعزيب سيدي الصادق.

العجلة بالسرعة، أو البطء، وذلك حسب نوعية الدقيق المرغوب فيه، وذلك عن طريق قضيب حديدي مثبت في الدعامة الخشبية المحورية، فعند جذبها إلى أقصى حد ترتفع عجلة السحق الحجرية قليلا، وبذلك تدور بسرعة، وتكون نوعية الدقيق رفيعة، وعند تشغيلها بطريقة عادية تدور العجلة بسرعة متوسطة، ويكون الدقيق ذي نوعية عادية وهذا حسب طلب الزبون (صورة123) والشكل (شكل 62).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطاحونة تشتغل فقط في فصل الشتاء حيث يكثر تساقط الأمطار، وتتوقف في باقي الفصول على إثر جفاف الوادي، وقلة الأمطار.

ولقد أشار حليمي عبد القادر إلى أن الكثير من هذه الطاحونات المائية كانت ملكا للداي، ومنتشرة بكثرة في الجزائر العاصمة خلال العهد العثماني[11] و لقد أشار ابن فضل ا العمري في وصفه لمدينة بجاية : " ...و كان بالمدينة جوامع و مساجد و حمامات و طواحين و أسواق و ديارات ."[2]. و يفهم من هذا الوصف بأن الطاحونات كانت منتشرة بكثرة في بجاية في ذلك الوقت ، و لكن اندثرت و لم يبقى لها أثر

1– حليمي عبد القادر، **مدينة ا زائر تطورها ونشأتنا قبل 1830**، ا طبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الطبعة الأو ا زائر،1982،ص241.

(2) ابن فضل ا العمري (أحمد بن يحيى) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر. تحقيق و تعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد. الطبعة الأولى 1409 هـ / 1988. ص 87.

الخلاصة:

يبدو من خلال استعراض مرافق الحياة العامة في بجاية و نواحيها من معاصر للزيتون التي اتسمت بالبدائية و البساطة في أشكالها و إن كانت قد عرفت تطورا عبر العصور ، و تبين مدى اهتمام السكان بها لارتباطها بزراعة الزيتون و هي الزراعة المعاشية لدى السكان ، إلى السقايات و هي منابع مائية طبيعية خالية من أي تعديلات و التي كانت السبب في نشأة تلك المداشر و القرى و المدن ، و بعض الأبار المستعملة للتزود بالمياه و التي مازالت قائمة لحد الآن بطريقتها البنائية المتطورة كما في بئر السلام ببجاية ، و أخرى تقليدية بسيطة كما في الأبار الأخرى التي تم دراستها و أما عن الحمامات ، فيبين حمام سيدي يحيى العيدلي المدروس طريقة البناء و تقسيم الحمام الى الحوض المائي للإستحمام و مساحة صغيرة إلى جنبها مخصصة لنزع الملابس ، و طريقة تغطيته ، و إن كانت السمة الغالبة عليه هي البساطة في تخطيطه و مواد بنائه.

أما عن الطاحونة المائية موضوع الدراسة ، فرغم بدائيتها إلا أنها تبين عبقرية إنسان المنطقة في التكيف مع الطبيعة و مواجهتها و ذلك باسترجاع مواد من الطبيعة كالخشب و الحجارة و تحويلها إلى أداة تخدم المجتمع من خلال عملية رحي الحبوب المختلفة من قمح و شعير و فول ، و هي زراعة أهل المنطقة المعتمد عليها في حياتهم اليومية.

الباب الثالث

المعالم العسكرية ببجاية ونواحيها

الفصل الأول

الاستحكامات العسكرية ببجاية

- الاستحكامات العسكرية ببجاية
- تعريف الاستحكامات العسكرية
- أسوار بجاية
- أبواب بجاية
- حصن القصبة
- حصن سيدي عبد القادر
- برج موسى
- حصن قورايا

تعريف الاستحكامات العسكرية:

يقصد بالاستحكامات العسكرية، تلك الاستحكامات التي أنشأت لغرض دفاعي بالدرجة الأولى بمختلف أنواعها، ومنها: المحارس والأبراج، والقلاع والمناظر، والمنارات والأسوار والخنادق والأربطة والحصون والقصبات التي تجمع سكن السلطان مع إدارته ودواوينه، ولها جانب دفاعي بحيث تحاط عادة بالأسوار لعزل الحاكم عن رعيته. وقد لجأ الحكام في العهد الإسلامي إلى تحصين جميع النقاط التي تتحكم في مداخل المدن والموانئ وبنوا الحصون والقلاع على المرتفعات المشرفة على المدينة وتتخذ كصمام أمان.

إن المنشآت العسكرية لها صلة قوية بالعقيدة الإسلامية من حيث الحفاظ على الروح و المال، أي حماية الرعية و الممتلكات و هذا ما استدعى اقامة منشآت تؤدي هذه الوظيفة، فالإسلام يقدس حياة الفرد وحياة الجماعة، وإزهاق الروح في الإسلام حرام مطلق مما استوجب على المسلمين العمل على حماية هذه الأرواح للأفراد والجماعات، وهذا لا يتم إلا بإقامة منشآت هذا من جهة، ومن أجل الحماية من الغزوات الخارجية من جهة أخرى. و تختلف الاستحكامات العسكرية تبعا لاختلاف الوظائف المنوطة بكل نوع منها كالحراسة و المراقبة و الاستطلاع و الاستشعار عن بعد و المرابطة.

ولقد بنى المسلمون سلسلة من المنشآت العسكرية من أقصى الشمال الغربي للشام إلى أبعد نقطة على شريط المحيط الأطلسي غربا ، وتشير المصادر التاريخية مثل "ابن حوقل"[(1)] و "الإدريسي"[(2)] و "البكري"[(3)] لذلك، وانه يمكن معرفة تحركات العدو في ليلة واحدة من عكة بفلسطين إلى سبتة وطنجة بأقصى بلاد المغرب غربا .

ومن ضمن الوسائل التي يتم فيها الاستشعار بقدوم العدو، إشعال النيران ليلا، وإثارة الدخان أو الحمام أو المرايا العاكسة نهارا. وقد كانت هذه المنارات والمحارس مبنية بطريقة يمكنها من متبعة ما يعطيه البرج أو المنارة من معلومات.

1- ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، **صورة الأرض**، القسم الأول، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1967،

2- الإدريسي أبو عبد ا الشريف، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق صححه ونشره هونري بيرس، الجزائر، 1957،

3- البكري أبو عبيد ا بن عبد العزيز، **المسالك والممالك**، حققه وقدم له أدريان فان لبيفن وأندري فيري، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، 1992،

أما من الناحية الطبوغرافية، يتدرج الحوض الغربي عن الشرقي تدريجيا بطريقة تسمح ببناء المنارات التي تكون سلسلة متتالية.

والواقع أن هذه المباني كلها موجودة في السواحل وفي المدن في فترات متتالية من العصر الإسلامي.

ومع مطلع القرن 3هـ/9م أصبح المسلمون سادة البحر إثر حملة "أسد بن الفراة" أولى الحملات التي مكنت المسلمين من النيل من الأعداء سنة 212هـ/827م وجاء على إثرها بناء دار لصناعة السفن في عهد "حسان بن النعمان" الذي أدرك ما تشكله القواعد البحرية البيزنطية جنوب إيطاليا في صقلية و جزر كورسيكا و سردينيا من خطر على السواحل المغربية و ذلك لما كانت تقوم به من ضربات مفاجئة تؤدي إلى هلاك الأرواح و تهدم المدن و القرى و هذا ما أدى بالمسلمين ببناء دار لصناعة السفن بتونس معتمدين على الخبرة التقنية و الصناعية التي كانت لدى أقباط مصر. و في القرن 3هـ/9م أي في العهد الأغلبي بلغت البحرية الإسلامية في المغرب مستوى عاليا في قدراتها و إمكانياتها في الدفاع و الهجوم فقام الأغالبة بحملة بحرية قادها قاضي القيروان و مفتيها أسد بن الفرات سنة 212هـ/827م و بعد التمكن على البيزنطيين أصبح البحر الأبيض المتوسط حوضا إسلاميا من شرقه إلى غربه.

وما زال المغرب الأوسط (الجزائر) محتفظا ببعض النماذج حول وجود العمارة العسكرية، ممثلة في قلعة بني حماد ذات الصبغة العسكرية وموانئ الجزائر كهنين وبني صاف والغزوات، وتلمسان في العهد المرابطي، وأغادير وما كان يحيطها من أسوار وأبراج مازالت آثارها لحد الآن، وبجاية التي احتفظت ببعض النماذج التي سنعرضها لاحقا بدراسة تفصيلية.

وما تجدر الإشارة إليه أن المصادر التاريخية كابن حوقل و الإدريسي و البكري و غيرها تذكر لنا الكثير، لكن معظمها اندثر مع عدم الاستقرار الذي عرفه المغرب الإسلامي لأنها كانت العمارة المستهدفة بالدرجة الأولى.

إن دراسة المعالم العسكرية تعني دراسة تقنية وأساليب الحرب، وتطور السلاح الذي يقابله تطور في المنشآت العسكرية بمختلف أنواعها من حيث تخطيطها المعماري

وعناصرها ومواد البناء المستعملة فيها. ولقد شهد المغرب الإسلامي تطورا على درجة كبيرة من الأهمية مما يدل على الصراع والهجوم الذي تعرض له في جميع فتراته، ما اندثر من تلك المنشآت تحتفظ بذكره ووصفه بطون كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين وما هو قائم يمكننا من خلاله تتبع ذاك التطور.

و تتفق المنشآت العسكرية من حيث بناءها مع مواد البناء و مع الأساليب العسكرية من حيث الدفاع و الهجوم ، كما تتفق مع تطور الأسلحة و قدراتها و إمكانيتاها في التأثير عليها

1- أسوار بجاية:

يعتبر السور عاملا أساسيا في المدن الإسلامية، و هذا بعد خوف الحكام عن أمنهم، بعد الانتفاضات التي عقبت الفتوح الإسلامية، و هذا ما جعلهم يشيدون الأسوار حول المدن التي كانوا يشرفون عليها و انطلاقا من أهمية تحصين المدينة يعتبر الصور من المعايير الحضارية التي تميز المدن ، و أعتبر الإسلام بناء الأسوار و الأبراج و القلاع و الحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس و المال و العرض و هي من مقاصد الإسلام و يتعلق بالدفاع عن حرمات المسلمين، و لذلك وقفت عليها الأحباس لترميمها و تقويتها ، و حكم الفقهاء بالتزام العامة في المشاركة في بنائها ، و نظمت هذه الأحكام كل ما يتعلق بالأسوار سواء كانت مستقلة أو كانت تشكل أجزاء من حوائط البيوت و عمارتها[1]. و كان لهذه الأسوار أبواب تحمل أسماء الجهات الأربع، أو أسماء أمكنة، أو اسماء أشخاص، أو أسماء حرف، أو ورشات عمل، أو أسماء حدائق و أشجار كما سبق الذكر، و كانت بعض هذه الأسوار مزودة بشرافات في أعلاها، و بأماكن خاصة للدفاع، و هذه التحصينات كلها دليل كاف عن حرمة المدينة الإسلامية.[2]

و بجاية من المدن التي ما زالت تحتفظ بأسوارها التي تعود للفترة الحمادية الأولى 1067م، عندما أصبحت المدينة عاصمة ثانية للدولة الحمادية، إذ كان الغرض منه حمايتها ببناء سور جديد خلافا للسور الروماني القديم.و لقد استقدم الناصر آلاف

1- عبد الستار عثمان، مرجع سابق . ص 135.

2 بورويبة، أسوار المدن.......ص..39.

العمال الذين أتموا بناء السور في بضعة أشهر، و كان متوجا بأبراج و التي ما زالت آثارها ناحية البحر (صورة 124) و هذا السور بني بطريقة تدريجية من القمة إلى الأسفل، و لكنه يختفي أسفل جبل قورايا في الصخور شديدة الانحدار.[3]

و عن مساره، يعتقد الأستاذ بويحياوي بأنه قد أخذ نفس مسار السور الروماني القديم، بل احتواه في الكثير من الأحيان، و زاد عنه في الناحية العليا للمدينة، و بذلك يتحدد الفضاء العمراني الحمادي بصورة أوسع و أشمل.[4]

يصعد السور متدرجا مع الجبل في شكل مثلث ضخم حتى يقتحم صخور قورايا الوعرة، من مكان يبلغ ارتفاعه 660م عن مستوى البحر. و يمتد السور الذي يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم في خط يساير تعرج الشاطئ و يحيط بالمدينة من جهة البحر (صورة 125).

أما من الناحية الغربية، فالسور تبدوا آثاره في المنحدر السفلي لسيدي محند أمقران إلى غاية البحر مرورا بالقصبة الموحدية إلى غاية الميناء الروماني القديم. و من سيدي محند أمقران يصعد باتجاه جبل قورايا (صورة 126).

أما في الجهة الموازية للبحر، فهناك سور مواز به ابراج يربط بين السورين النازلين من قمة قورايا إلى غاية البحر، و يمتد السور على مسافة 5400م، و يختلف ارتفاعه من موقع لأخر حسب طبوغرافية الموقع و ارتفاعه، و يتراوح سمك جدران السور في بعض المناطق من 90سم إلى 2م، و في أماكن أخرى ما زالت محتفظة بشكلها الأصلي، يصل ما بين 1,70م و 2,50م.[1] أما عن ارتفاعه، فمن الصعب تقديره نظرا لتحطم معظم الأسوار، و لكن تقديرنا العام له في أكثر من مكان أنه يصل ما بين 4م و 6م ارتفاعا. و كانت تعلو السور شرافات (صورة 127)، و يتوج أعلاه ممشى الحرس. و كان السور قديما متوج بابراج مستطيلة القاعدة يتراوح أبعادها من 4م طولا إلى 3م عرضا، و علوها يصل إلى 6م. و يذكر بورويبة بأن هذه الأبراج كانت تبعد عن بعضها البعض مسافة تقدر ب25م و تتخذ أشكالا مستطيلة، و تبرز هذه

3 Bourouiba ;Architecture militaire….p.80.

4 بويحياوي، مرجع سابق، ص.255.

1 Bourouiba opcit.p.80.

الأبراج عن مستوى السور[2] و هذه الظاهرة موجودة في العمارة المغربية منذ العصر الإسلامي.فسور المهدية البحري كان مزودا بمائة برج، و السور البري بستة أبراج اتخذت أشكالا معينة منها المربعة و المستطيلة و المستديرة و المضلعة.[3] و كانت هذه الأبراج مزودة بوسائل الاتصال كالمرايا العاكسة التي كانت في برج شوف الرياض، و التي كانت موزعة على باقي الأبراج الأخرى في مختلف الجهات، و التي يمكن بواسطتها الإبلاغ الفوري بقدوم الخطر على كل أطراف المدينة.أما في الليل فكانت الإشارات تتم بواسطة أشعال النيران بطريقة متقنة، و هي من الطرق الإعلامية الدفاعية السائدة كثيرا في العصر الإسلامي، و على هذا الأساس نجد بأن الأبراج أطلق عليها مصطلح منارات و ذلك للوظيفة المنوطة بها و هي إشعال النيران، كما كانت تحتوي أيضا على مزاغل موزعة على جهاتها.

و أسوار بجاية كما يذكر دوبيلي.[4] مبنية بالحجر و الدبش و الآجر في تعاقب مع طبقة الملاط و غير سميكة، و في بعض الأبراج كانت طبقة الآجر تتراوح 4سم سمكا تتناوب مع طبقة من الدبش و التي يقدر سمكها بحوالي 20سم، و هذا الدبش عبارة عن دقائق الآجر المغطى بطبقة من الجير و الإسمنت حيث تختلط الحجارة المنحوتة مع الآجر.

إن وجود السور في مختلف المناطق المحيطة بالمدينة دليل على أن الحماديين قد اهتموا بالجانب الدفاعي قبل غيره، فكان تحديد الفضاء العمراني و تأمينه هو الأساس في مدينة بجاية.

إن موقع بجاية الجبلي هو الذي حدد الشكل العام للسور الذي ساير الموقع من قمته إلى أسفله، و هذا ربما يتشابه مع السور الحمادي بالقلعة بالمسيلة الذي يشبه فخذ خروف كما يسميه بورويبة، و هو يحاذي سهل وادي فرج، و يصعد إلى جبل تقربوست، ثم ينزل متبعا خط القمة في اتجاه جبل قرين، ثم يتجه نحو الشرق متعديا الوادي، و ملتويا فيما بعد نحو الجنوب الشرقي متبعا وادي فاضل أحد روافد وادي

---

2 Bourouiba opcit, P 80.

3 بورويبة، أسوار المدن......ص.42.

4 Debeylie ;Opcit.p.106.

فرج. و هذا يبين مدى مقدرة الحماديين في إتباع تقنيات تتماشى و الموقع المنحدر، و هي إتباع نظام البناء التدرجي و هذا لإيجاد نقاط تكسير الثقل في السور كلما نزل من الأعلى إلى الأسفل خاصة بعلوها الشاهق الذي يحمل ثقلا معينا يستوجب على المعمار كيفية التعامل معه، و إن كنا لا نعرف الشيء الكثير عن ارتفاع أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط باعتبارها العمارة المستهدفة بالدرجة الأولى قبل اقتحام المدينة، و لذلك نجد معظم الأسوار قد تحطمت ناحيتها العليا، كما أن هناك بعض الأسوار مكونة من جدار واحد، وأخرى من جدارين مثل أسوار بغداد و الرقة و اشبيلية و المهدية و طرابلس و فاس الجديد و هنين و غيرها.[1]

إن ما تبقى من أسوار بجاية يتطلب جهدا كبيرا لإعادة تصور ما ضاع منها، و ذلك لتحديد الإطار العام للمدينة، و كيفية توزع الأبراج على واجهاتها، بالإضافة إلى الأبواب التي تفتح عليها، هذا مع التطرق لبعض تقنيات البناء و المواد المستعملة في بناء السور، بالإضافة إلى علوه و سمكه، و في حال توفر كل هذه المعطيات، فإنها تضفي على الدراسة جانبا هاما من جوانب العمارة الدفاعية بالمغرب الأوسط، والتقنيات الدفاعية المستعملة في تلك الفترة، و مقارنتها في أماكن أخرى من العالم الإسلامي.

2- أبواب بجاية في العهد الإسلامي:

تعتبر الأبواب ظاهرة معمارية ارتبطت بأسوار المدن الإسلامية، منذ العهود الإسلامية الأولى، و اتخذت جانبا معماريا اتسم بالقوة و الحصانة. و تعتبر الأبواب وسيلة الاتصال بين العالم الخارجي و داخل المدينة. و كان للأوضاع السياسية و الاقتصادية أثر كبير في تحصين المدن الإسلامية، و تدعيمها بأسوار و أبواب و أبراج و ذلك لتوفير الراحة و الطمأنينة و الأمن للسكان، و انطلاقا من هذا الغرض أصبحت الأبواب من خصائص المنشآت العسكرية، ثم زادت الحاجة إليها، و تعددت أشكالها، و انتشرت في معظم المدن الإسلامية.

1 بورويبة، أسوار المدن....ص.41.

و قد ساهمت الأبواب في تسهيل تحديد المدن، كما أدت دورا هاما في عالم الفن لما احتوته من مواد صناعية كالحديد و الفولاذ، و مزخرفة بأنواع ثمينة كالذهب و الفضة و النحاس.و قد عرفت الأبواب عدة تسميات إما نسبة إلى مهندسها، أو إلى اسم حاكم المدينة، أو المدينة نفسها، أو إلى اسم القبائل التي تسكنها، أو اسم الحرف الاقتصادية، أو حتى بعض الحدائق و البساتين التي كانت تقع بالقرب من الباب.

أما عن أبواب مدينة بجاية في العهد الإسلامي، و التي كانت منتشرة على السور الخارجي للمدينة، فلقد احتفظت كتب التاريخ بذكرها عامة، غير أن ما تبقى منها هما بابان فقط، باب البحر، و باب البنود و كلاهما في العهد الحمادي، و كانت وسيلة الاتصال بالعالم الخارجي تتم عن طريق هذه الأبواب و نذكر منها:

1- باب البحر: و هي الباب الوحيدة التي ما زالت قائمة ليومنا هذا، و التي صمدت في وجه الحروب و الزمن، و كانت السفن تمر تحت قبوها للدخول إلى المدينة.
2- باب أمسيون: تقع في السور الشرقي للمدينة، و في منتصف الطريق المؤدي إلى سيدي يحي فوق المستشفى العسكري.
3- باب المرسى: تقع في منطقة بريجة السفلى، و تعرف هذه الباب أيضا باسم باب السادات، و كانت تقع في الطريق المؤدي من برج سيدي عبد القادر إلى ميناء سيدي يحي. و يذكر إبن الحاج النميري أنه خرج من هذه الباب قاصدا زيارة ضريح سيدي يحيى أبي زكريا الزواوي و صلى العصر بمسجده المبارك، ثم قصد باب أمسيون و توغل منه في دروب المدينة و أزقتها ، و هذا ما يشير علانية إلى أن هذا الباب كان ما زال قائما في العهد المريني [1]
4- باب البنود: و تعرف حاليا باسم باب الفوقة، و تقع في الجهة الشمالية الغربية للمدينة، و أنها كانت تفتح على الجهة الداخلية للبلاد.
5- باب اللوز: و هي الباب التي دخل منها علي بنو غانية المدينة و استولى على القصبة، و تقع في المرتفع الذي يعرف بجبل خليفة، و تقع في الجهة الغربية.

---

1 - النميري، مصدر سابق. ص267.

6- باب المرقوم: و هي التي تعرف بباب البر، و تقع فوق قبة سيدي محمد أمقران، مع المحور المؤدي إلى برج موسى.

7- باب دار الصناعة: اندثر الباب عندما استولى الاسبان على المدينة، و أعادوا بناء القصبة، و كانت تتخذ مكانا لباب القصبة الذي كان يفتح على حدائق المدينة و بساتينها و يمكن أن تكون باب القصبة التي تحدث عنها دوبيلي.

و هناك أسماء أبواب أخرى جاء ذكرها في كتب التاريخ، و لكن يتعذر على الباحث تحديدها، و ذلك راجع لنقص الإشارات إلى مواقعها و منها: باب إيلان و باب الدباغين، و باب الجديد، و باب الباطنة، و كذلك باب الرواح.[2]

و نعتقد بأن عدد أبواب مدينة بجاية لا يمكن أن يتعدى السبعة أبواب، لكن أساميها عرفت تغييرات من فترة لأخرى، غير أن أقدم بابان مازالا قائمان لحد اليوم هما: باب البحر، و باب البنود اللذان نوليهما جزءا من التفصيل.

أ - باب البحر:

لقد كان البحر من ضمن الأبواب السبعة التي تتخلل الأسوار المحيطة بمدينة بجاية أثناء العهد الحمادي، و أطلق عليها هذا الاسم كونها مدخلا رئيسيا للسفن القادمة من البحر إلى المرسى الداخلي للمدينة (صورة 128).بنيت الباب في عهد السلطان الناصر بن علناس حوالي 1070م في نفس الوقت الذي بنيت فيه الأبواب الأخرى للمدينة.

ففي القديم كانت السفن تحط رحالها داخل المرسى الصغير للمدينة مارة تحت قوس باب البحر المنكسرة التي لا تزال في حالة جيدة إلى يومنا هذا، و لقد شهدت الهجوم الفرنسي على المدينة في سبتمبر 1833م بقيادة الجينرال (ترزل Trezel)، و كان الفرنسيون يطلقون عليها اسم (باب سرازين- Porte de Sarazine)، و كان متصلا بالسور الجنوبي للمدينة، و يقع في منتصفه، أما الآن فهو منفصل تماما عن السور. و لقد أعطى موقعه هذا منظرا جماليا للشاطئ.

2 Naima Abderrahim ;opcit.p.96.

و من الناحية المعمارية، فالباب محصورة بين السورين الجنوبي و الشمالي، و تقدر أبعاده ب7,60م عرضا، و 11,90م ارتفاعا، أما عمقه فيقدر ب 4.30م ، و هو قائم على دعامتين حجريتين يبلغ سمك كل واحدة 1.10م و ارتفاعها 2,60م، و مبنية بالدبش و الآجر. و تتكون واجهة الباب من عقد منكسر يساعد في تشكيل القبوة الداخلية للباب، و هذا العقد مكون من آجر مسطح و مملوء و موضوع على شكل صفوف أفقية إلى غاية ارتفاع 1,50م تقريبا، ثم يليه عقد آخر لتشكيل القبو الداخلي.

كان يتقدم باب البحر برجان مربعان بارزان عن مستوى الجدار، ما زالت آثارهما بارزة لحد الآن، و لقد استعملا لتشديد الرقابة عن الباب، ثم لإعطاء الباب القوة أكثر بتدعيمهما له، أما الفتحة الخاصة بمرور البواخر، فيوجد انكسار في أحد جوانبها ليسمح بدخول البواخر دون اعتراض سبيلها أثناء الدوران (شكل 63). و يعلو أعلى الباب قديما طريق للمراقبة الدورية فوق القوس الذي يعلو الباب مباشرة.[1] و كانت هذه الباب بعلاقة مباشرة مع برج شوف الرياض الذي شيد في مرتفع استراتيجي و الذي يشرف على ثلاثة أبواب رئيسية يقوم بحراستها هي: باب البنود، و باب البحر، و باب المرسى.[2]

لقد روعي في عمارة باب البحر كثير من الجوانب المعمارية لتأدية الغرض الدفاعي الذي من أجله أقيم الباب، فجولفان على سبيل المثال يرى بأن العقد المنكسر الذي يعلو الباب يتكون من قطع آجر مسطحة، و مملوءة و موضوعة بشكل أفقي إلى ارتفاع 1,50م، ثم فيما بعد يتحول إلى عقود متداخلة لتشكل القبوة الداخلية للباب التي ترتكز على قائمين بارزين عن مستوى العقد.[3]

1 بورويبة ، أسوار المدن....ص45.

2 خلاصي، مرجع سابق، ص.305.

3 Golvin ; Le maghreb central….p.193.

ب - باب البنود:

تقع في الجهة الشمالية الغربية، و تعتبر المدخل الرئيسي للمدينة و التي تؤدي إلى مقر السلطان حين استقبال وفوده القادمين أثناء الاستعرضات، أو أيام وصول القوافل، و أيضا لحضور بعض المراسم و الحفلات.

تعتبر بابا معماريا يحيط بها من الجانبين برجان الأول خماسي الأضلاع و هو أصيل في البناء، و الثاني مربع القاعدة أضيف في العهد الفرنسي، لكن شكله الأصلي كان على غرار البرج الأول، و هذان البرجان بارزان عن مستوى الجدار، و يقومان بدور حماية مدخل الباب و الممر الذي يليه(صورة 129).

و تتكون الباب من طبقة متناوبة من الدبش، و الحجر، و يعلو البرجان أماكن لرمي القذائف من الآجر المسطح الذي يعلو الجدار بمقدار 2م.أما الباب فتتكون من عقد نصف دائري مبني من الحجر يعلوه جدار سميك عبارة عن صفوف من الدبش المرصف و المنتظم يتناوب مع الحجر المسطح، و يعلو الباب ممشى الحرس الذي يسمح باتصال البرجين مع بقية السور.و تعرض الباب في الفترة الفرنسية إلى بعض التغييرات حيث فتحت باب جديدة إلى جانب القديمة، أما أحد البرجين المضلعين اندثر و عوض بآخر مربع (شكل64).[1]

و لعل من أهم المظاهر المعمارية الملفتة للنظر في عمارة البابين المدروسين اكتنافهما لبرجين على الجانب، و هذه ظاهرة قديمة لها وظيفتها و منافعها في العمارة الدفاعية، فالأبراج أنواع: منها المربعة المألوفة في العمارة العسكرية ببلاد المغرب، و منها التي تتخذ شكل نصف الدائرة، أو ثلاث أرباع الدائرة، و تكون مدمجة ضمن جدار السور، و تستعمل للحراسة، و منها ما يستعمل للإشعار بقدوم الخطر.[2]

أما عن الأبراج الأسطوانية المدمجة مع السور، فهي ظاهرة معمارية قديمة وجدت في قصر الحير الشرقي الذي شيد من قبل الخليفة هشام في 110ه / 729م في العهد الأموي. أما في العهد العباسي تتجلى في بناء مدينة بغداد من قبل المنصور في 145-147ه/5-762م حيث يظهر نظام جديد من البوابات ذات المداخل المنكسرة، أو ما

1 Naima Abderrahim ;Opcit.p.98.
2 Colin (GS) ; « Burj ».in.Encyclopedie de l’islam .Tome1.Paris.1975.p.1355

يعرف في العمارة العباسية بمصطلح (الباشورة)، على عكس العهد الأموي الذي كانت بواباته مستقيمة[1] و هذا النموذج للبوابات المنكسرة قد استعمل في الأبواب الأربعة التي تتوج السور الخارجي لمدينة بغداد، و منها مثال باب خراسان الذي تعلوه قبة من الآجر، و يذكر (كريزول Creswell) بأن نظام الأبواب ذات المداخل المنكسرة نظام عرف في تحصينات العهد البيزنطي بشمال إفريقيا، و هذا النظام يتكرر في العهد الفاطمي في باب زويلة بالقاهرة و التي أسسها بدر الجمالي بجعله كسر في الباب حتى يعيق قوة هجوم الجيوش.[2]

و لعل المتأمل في العمارة الإسلامية عبر العصور، يجد بأن أبواب المدن الإسلامية محصنة، و خير مثال عن ذلك باب قصر الأخيضر في نهاية القرن 2ه/8م الذي يعتبر نموذجا رائعا للأبواب الدفاعية في المدن الإسلامية بالقبو الذي يعلو مدخل الباب، و يحيط به من الجانبين برجان على شكل ثلاث أرباع الدائرة، و خلف قبو المدخل، يوجد عقد آخر.ويعلو مدخل الباب غرفة صغيرة للحراسة.(أنظر الصور:130-131-132).

و نعتقد في رأينا بأن أبواب مدينة بجاية تكون قد تأثرت بالأبواب الفاطمية سواء في المهدية أو في القاهرة و ذلك من حيث شكلها، أو طابعها العام المعماري، بل هي استمرار للعمارة الفاطمية. و ما دامت أبواب قلعة بني حماد قد اندثرت و لم يبق لها أثر يسمح لنا بمقارنتها بتلك التي بقيت في بجاية و لذلك استدلينا بهذا الطرح. أما بالنسبة للأبراج ذات ثلاث أرباع الدائرة الموجودة في باب البنود، فهناك دلائل عنها في بلاد المغرب،منها برج خلف الفتى في رباط سوسة الذي يبدو في رأينا أن يكون قد تأثر بتلك الأبراج الموجودة في العمارة الأموية و العباسية، و يغلب على الضن أن الفاطميين قد اقتبسوا شكل هذا البرج من رباط سوسة، ثم أثروا به على العمارة الحمادية و ما تلاها، حيث يبدوا هذا الشكل فيما بعد في باب القرمدين بتلمسان، و في أحد أبراج المشور بتلمسان أيضا في العهد الزياني، فالحضارة الإنسانية استمرار و تواصل، و تاثر و تأثير.

---

1 Golvin (L) ; « Note sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du Nord ». in Annales de l'institut d'etudes orientales.Tome XVI.Année 1859.

2 Creswell(KAC) ; « Bab ».in.Encyclopedie de l'Islam.Tome1.1975.p.854.

إن ما تبقى و ما اندثر من أبواب بجاية يسمح لنا بالتعرف على طبوغرافية المدينة، و شكلها العام، أما أسامي الأبواب تبين لنا التشابه القائم بين مثيلاتها من مدن أخرى بالجزائر.ففي بجاية و تلمسان كان هناك باب يسمى باب الجديد، و كذلك في طبنة و القاهرة و الجزائر.

أما عن شكلها المعماري، فيوحي لنا بتقدم فن القتال عند المسلمين، فباب الفتوح و باب زويلة بالقاهرة على سبيل المثال تحتوي على أبراج مستطيلة و مستديرة على السطح و هي أكثر فعالية من الناحية الدفاعية، و قد وضعت مرامي النبال بطريقة بارعة، و هي متقدمة جدا بما يسمح لها الاستغناء عن شرفة خارجية لوقوف الرجال، و من خلال الثقوب الموجودة تحت قوس الرمي.

3- حصن القصبة:

يذكر "حسن الوزان"[1] على أن الإسبان بعد دخولهم بجاية قاموا بتحصين قلعة قديمة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة، ولعل المقصود منها قصبة بجاية اليوم، لكن هناك بعض المعالم الدالة على أن القصبة كانت موجودة قبل العهد الموحدي ببجاية وهو تاريخ دخولها من طرف "عبد المؤمن" سنة 547هـ/1152م.

ويغلب على الظن أن عمارة القصبات قد ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي منذ العهد الموحدي، أما قبله فليس لنا من النصوص التاريخية ما يذكر هذه القصبات، وقد تكون قصبة بجاية حيا حماديا ضمن الأحياء الواحد والعشرون التي ذكرها المؤرخون، ثم بقدوم الحملة الموحدية تحولت إلى قصبة وهي مقر الحكم لدى الموحدين، ثم أصبحت فيما بعد مقرا للدولة الحفصية أين كان يتم فيها تقليد وتنصيب الأمراء وتتويجهم بوشائح الحكم بها[2].

1- حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة أحميدة عبد الرحمن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 51.

2- نفسه ، ص20.

أما في العهد المريني فيذكر إبن الحاج النميري بأن أبي عنان دخل القصبة و دخل قصرها الذي هو مقر اقامة الحاكم أو السلطان رفقة حاشيته ، و وقف على الرياض الجديدة التي أنشأها الأمير أبو زكريا إبن السلطان المعظم أبي يحيى بعد وصوله بجاية[2]

إن دار الصناعة الحمادية كان مقرها بالقصبة، ولنا أن نتساءل إن كان يحميها أبراج أو حصن صغير أم أن القصبة التي كانت في تلك الفترة في نطاق ضيق، ثم توسعت فيما بعد لتشمل منشآت معمارية أخرى خاصة في العهد الموحدي.

أما من حيث الموقع فهي تشرف على البحر من جهة، ومحمية من ناحية البر من جهة أخرى، كما أنها محمية من جهة البحر عن طريق حصن البحر المعروف ببرج سيدي عبد القادر، كما أنها أيضا محمية عن طريق الأبراج المنتشرة عبر السور، وكانت هذه الأبراج تتخذ اماكن مرتفعة من المدينة. والواقع أن مدينة بجاية محمية طبيعيا بسلسلة الجبال والتلال المحيطة بها، ومن جهة واد الصومام الذي يعتبر عائقا يصعب اجتيازه[1]

تعتبر قصبة بجاية من الحصون الأكثر أهمية في المدينة وذلك من حيث موقعها على هضبة مرتفعة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، ومن حيث المساحة التي تشغلها، إذ أن شكلها العام عبارة عن مستطيل تقدر أبعاده بـ 155م طولا و70م عرضا[2].

ولقد طرحت إشكالات حول تأريخها كما سبق الذكر، فـ"دوبيلي" مثلا يرجعها إلى العهد الإسباني، اما الآخرون فيرجعونها إلى عهد الموحدين[3]، وإن كنا نميل كثيرا إلى الطرح الثاني لأن الصور القديمة التي تعود إلى فترة استيلاء الإسبان على بجاية توضح وجود هذه المنشأة داخل الأسوار الحمادية بابراجها التي يحتمل أنها تعود إلى الفترة الموحدية.

ولقد عرفت القصبة بعض التغييرات في عصور لاحقة، لكن الجهة الأصلية منها هي تلك الواقعة في الجهة اليسرى، وفي الجنوب الغربي للسور نظرا للتجانس الكبير

---

[2] - النميري، مصدر سابق. ص 268

[1]- Louis Salvator, op.cit, p65.
[2]- Naima Abderrahim, op.cit, p65.
[3]- Brunschving (R), **La berberie orientale sous les Hafsides de l'origine a la fin de XI siècle**, TI et II, maisonneuve, Paris, 1940-1947, p379.

فيما بينها. اما الجهة المقابلة للبحر فعرفت بعض التغييرات وذلك بمواد بنائية مسترجعة تعود إلى مختلف العهود التي عرفتها المدينة، وذلك بتعرضها لضربات المدفعية.

وللقصبة بابان: واحدة رئيسية تؤدي إلى المدينة، والأخرى ثانوية تؤدي إلى السهول المحيطة بها[1].

تعرضت القصبة للهدم سنة 1510م عندما اقتحم "بيدرو نافارو" بجاية بجيش قوامه 15000 رجل أمام العدد القليل من السكان الذي كان يقدر آنذاك بحوالي 8000 ساكن، ثم وضع حاميات عسكرية في الحصون القائمة لحراسة المدينة[2]، وكان يعرف حصن القصبة باسم (Le grand château). وفي العهد العثماني حاصر "صالح رايس" مدينة بجاية سنة 1555م، واتخذ من القصبة مقرا له أين كان يقيم (دون ألفونسو بيرالت Don Alfonse Peralte) مع بقية الجيوش. وبعد 1555م رممت الأسوار ودعمت الواجهة الأمامية، أما ممشى الحرس الذي كان يعلو أسوار القصبة فقد تهدم، ويتخلل الأسوار المتبقية من القصبة فتحات للرمي على شكل مزاغل حدد سمكها بـ 1,20م، وهي مبنية بالحجارة من الأسفل وبالآجر وبطبقة من الملاط بالقسم الأعلى، أما سمك الجدار في بعض الأماكن فقد حدد بحوالي 5م، أما في الجهة الجنوبية يبدو جدار التحصين بسيطا جدا نظرا لعلو المكان واستحالة الوصول إلى الأعلى، إذ يصل الارتفاع حوالي 50م عن مستوى سطح البحر، ويمتد من الشرق إلى الغرب في شكل تعرجات.

ولقد بينت بعض التنقيبات الأثرية التي أجريت على القصبة على وجود بعض الآبار والخزانات التي تتوزع على جميع مرافق وأقسام القصبة، والتي كانت تتزود منها بالماء وتشير المراجع إلى أن بها خمس خزانات تتسع لمائتي ألف لتر من الماء[3].

كانت المباني في القصبة تتوزع من الشرق إلى الغرب وفي نطاق تدرجي (شكل 65)، (صورة 133)، وتتكون القصبة من القاعدة الجنوبية الشرقية (صورة 134) والمقابلة للبحر، وكانت قديما تحمي دار الصناعة، ومن آثار هذه الواجهة برج مربع الشكل في الجهة الشمالية الشرقية (صورة 135). ويعتقد الأستاذ "خلاصي" على أنه يعود

---

[1]- Naima Abderrahim, op.cit, p103.

[2]- علي خلاصي، **التنظيمات والمنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2004، ج1، ص308.

[3]- Louis Salvator, op.cit, p 65.

إلى الفترة الحمادية[1]، ويبدو في الجدار الشرقي آثار غرفة للمراقبة بها فتحات التسديد ولم يبق منها إلا ممشى الحرس وبعض الشرافات والمزاغل.

أما عن مواد البناء بالقصبة، فهي مبنية على حجر أساس كبير على شكل مداميك رومانية قديمة وأسوارها مزودة بأبراج وحصون، وتعتبر نموذجا حيا للعمارة الدفاعية في مدينة بجاية، إذ كانت تشكل مع القلاع الأخرى نقطة اتصال دقيق لمراقبة المدينة من أي عدوان خارجي خاصة في تلك الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار، هذا ويعلو المدخل كتابة تشير إلى تاريخ بنائها (صورة 136).

4- حصن سيدي عبد القادر:

يعرف الحصن أيضا باسم "حصن البحر"، وأعيد بناءه من طرف الإسبان ويعود تاريخه إلى العهد الحمادي والحفصي، حيث كان برجا للمراقبة آنذاك، ويقع في الحدود الجنوبية الشرقية للمدينة، ويسمح له موقعه الجغرافي بمراقبة الساحل المشرف على شاطئ سيدي يحي، والطريق المؤدية إلى القصبة.

يقع الحصن على قمة هضبة صخرية ويتخذ شكلا يقترب من المستطيل (شكل 66) وتقابل واجهته الجنوبية جهة البحر مشكلة عرض المستطيل، أما الضلعان المستطيلان فيتجهان جهة الشمال ويسمحان بمراقبة فعالة على الجهة الغربية ناحية شاطئ سيدي يحي. أما الجهة الشمالية من الحصن فتتخذ شكلا منحنيا يسمح بمراقبة واسعة ناحية الجبال المقابلة.

تضرب جدران الحصن في البحر، وهي من مادة الحجارة الكبيرة، وأحيانا من الحجارة المتقنة القطع من مختلف الأحجام (صورة 137). تقدر مقاسات الحصن بحوالي 56م طولا و18م عرضا[2]، ويتكون من طابق أرضي به أربع غرف تحوي الواحدة منها حوالي خمسين رجلا، وعلى مساحة مسطحة علوية ناحية حدود المستطيل المقابل للجبال ناحية الشمال، وهذه المساحة العلوية بها شرافات وهي مخصصة للخيالة، ويتخللها أربعة عشر فتحة موزعة على مختلف الجهات من الحصن، هذا بالإضافة إلى طابق تحت

[1]- علي خلاصي، مرجع سابق، ص306.

[2]- Naima Abderrahim, op.cit, p110.

الأرض (صورة 138)، توجد فيه مخازن مغطاة بأقبية وضيقة وعلى مستويات مختلفة وتتصل فيما بينها بواسطة ممرات وسلالم. أما واجهات الحصن من الخارج فهي مسطحة وخالية من الفتحات نحو الخارج. كان الحصن في القديم بموقعه الإستراتيجي يحمي قصر اللؤلؤة في العصر الحمادي، ثم اختاره الإسبان لغلق جدار التحصين، وكان يمتاز بتشييده على مسطحات تنحدر من الغرب إلى الشرق، وفتحت بجدار التحصين فتحات للقناصة تسمح بعرقلة رجال الحملة من نزول البر أو الاقتراب من المرسى[1].

وحصن سيدي عبد القادر بشكله هذا يختلف كليا عن حصن القصبة وحصن برج موسى من حيث الشكل والتخطيط. أما عن مواد بناءه فهي الحجارة المصقولة، ثم ألصقت ببعضها البعض بطريقة فوضوية، ويغلب على الظن ان تكون هذه الحجارة مجلوبة من مبان رومانية قديمة بالمنطقة، كما كان يحتوي على خزانات للمياه[2].

ولقد تعرض الحصن لبعض الاهتزازات الناجمة عن الزلزال الذي ضرب المدينة في شهر أوت من سنة 1856م[3].

5- برج موسى:

يعتبر من أحسن الحصون التي مازالت محافظة على شكلها المعماري، والتي مازالت قائمة لحد الآن، ولقد أضيفت له بنايات في سطحه العلوي تعود للحقبة الفرنسية.

بني برج موسى على أنقاض قصر النجم الذي كان "المنصور" قد شيده ويعتبر ضمن القلاع الهامة في بجاية (صورة 139)، ولقد احتل موقعا إستراتيجيا يشرف من خلاله على الميناء من جهة، وعلى القصبة وبرج سيدي عبد القادر من جهة أخرى، ولقد بني بطريقة جد محكمة، ويتخذ شكله العام مربعا على جانبيه إضافات على شكل جناحين من ناحية الشرق والغرب (شكل 67).

أما عن الموقع الذي احتله برج موسى فقد سحر كل الدويلات التي تعاقبت على حكم بجاية من الرومان إلى الفرنسيين، مما جعله يؤدي دورا بارزا في تاريخ المدينة. ففي

---

[1]- خلاصي، مرجع سابق، ص313.

[2]- Feraud (Ch), Notes sur Bougie…, p51.

[3]- Louis Salvator, op.cit, p81.

العهد الروماني كانت المنطقة محمية بنقطتين حراسيتين تعرفان فيما بعد ببرج موسى وبريجة. أما في العهد الحمادي فنتج عن التطور المعماري الراقي لمدينة بجاية، بناء مجموعة من القصور ومن بينها قصر النجمة الذي يشغل مكانه اليوم برج موسى الذي كان يعرف في العهد الإسباني باسم (Le fort imprerial)، وذلك بأمر من "شارلكان Charles quint" سنة 1548م[1].

أما في العهد العثماني فكان البرج مسرحا لحروب ضارية مع الإسبان، حيث تمكن سبعة من رجال المدينة المتصوفة باستعمالهم السلالم لاقتحام البرج ولكن ماتوا في عين المكان، ومع مرور الوقت تم فتح البرج والاستيلاء عليه بعد اقتحامه وإبادة من فيه من الإسبان، واعترافا بشجاعتهم بنى لهم "صالح رايس" أضرحة[2]. وإلى وقت قريب كان المكان محل زيارة وتقديس من أهالي المدينة. وبعد الاستيلاء أعاد العثمانيون بناءه واستعملوه كحصن دفاعي عن المدينة.

ويتكون البرج من طابق أرضي يتكون من ثلاث أقبية كبيرة علوها 9م وعرضها 6م، اما الطابق الأول فيتكون من قاعة كبيرة بها عشر فتحات للإضاءة والتهوية تتوزع على جدرانها، بينما الطابق الثاني وهو المستوى الوسطي، فلقد أضيف إلى أصل البناء غرف بالجهة الجنوبية تغطي سقف المدخل والقبو الذي يكونه، هذا بالإضافة إلى بعض الزيادات بطريقة انسجمت مع البناء ليصبح في العهد الفرنسي يعرف باسم (حصن برال Le fort Barrale).

أما الطابق الثالث فلا يختلف عن سابقه في جزئه الجنوبي، حيث نجد خمس غرف مماثلة لغرف الطابق الثاني. ويوجد بهذا الطابق عدة فتحات تسمح بمراقبة المدينة والفحص والأحواز الشمالية[3]، وتحاط من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية بسور صغير سمكه حوالي 40سم وعلوه حوالي 1,50م.

1- Naima Abderrahim, op.cit, p107.
2- Feraud (Ch), Notes sur Bougie…, p49.
3- خلاصي، مرجع سابق، ص314.

تتميز جدران الحصن بسمكها الكبير خاصة الشمالية منها والمقابلة لجبل قوراية والتي يصل سمكها على 6م. أما الجدران الداخلية والخارجية فبنيت من مادة الآجر وبها فتحات على شكل كواة ومزاغل، ويتم الاتصال بين المستويين عن طريق سلم داخلي.

6 - حصن قورايا:

ومن الحصون الهامة التي لا يستطيع الباحث عن مدينة بجاية أن يمر عليها دون أن تلفت انتباهه هي حصن "قوراية" (صورة 140)، التي أثارت جدلا كبيرا من قبل الباحثين عن الشخصية التي ينسب إليها الحصن، هل هي أسطورة أم خيال؟ وأن حصنها يقع في أعلى نقطة من جبل قوراية المشرف على المدينة، وهو موقع إستراتيجي بالغ الأهمية من حيث المراقبة. لكن الدراسات التي يقوم بها حاليا الباحث الجزائري "مالك آيت حمودة" بالمدرسة الوطنية العليا للهندسة بباريس ستميط اللثام عن كثير من الحقائق حول هذا اللغز[1].

وباكتشافه لمخطوط حول المدينة من إعداد (Le Mercier) تضمن موقع "قوراية" قبل وصول الفرنسيين إليه على أن ضمن الملحقات المعمارية به ضريح "لالة قوراية" كما تعرف، وهو على شكل قبة في أعلاها هلال، كما أنه لم يكن بوسع الإسبان بناء هذا الحصن، نظرا للمدة القصيرة التي قضوها في بجاية، وانشغالهم بالحرب مع الأهالي آنذاك، وارجع بناء حصن قوراية إلى الفرنسيين سنة 1833م، وهذا ما جعلهم يهدمون الضريح ويردمون القبة ويمنعون الأهالي من التوجه إلى هذا المكان لزيارته خاصة ما وصل إلى الفرنسيين من أن قوراية تعاونت مع الأخوين "خير الدين وعروج" بدعوتها المسلمين إلى الجهاد ضد الإسبان، التي لم تمر سنوات طويلة من طرد المسلمين من الأندلس وسقوط غرناطة 1492م، وإن كان هذا الكلام صحيحا فإن "لالة قوراية" ستصبح بطلة تاريخية حقيقية بعد أن ظل إسمها مرتبطا بالأساطير لعدة قرون من الزمن، كما يتبين أيضا فشل الفرنسيين في محوها من الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة الذين

---

[1] - ع ر، "قوراية امرأة حقيقية، وليست أسطورة خيالية"، جريدة الخبر اليومية، الجزائر 6 جانفي 2007، ص14.

مازالوا يتوافدون اليوم إلى هذا المكان ويزحفون إلى قمة الجبل للتبرك بها، وهي العادة التي يحتفظ بها السكان إلى اليوم.

إن الأبحاث التي يقوم بها الباحث الجزائري المذكور حول هذا الموضوع بفرنسا يكون قد أزاح الأسطورة وفتح حقل البحث للدارسين للعمل من أجل رفع ستار النسيان، عن هذه البطلة التاريخية التي يمكن أن تصنف ضمن بطلات الكفاح الوطني من أجل الاستقلال، ومن هنا يبدأ البحث الجدي بعيدا عن الروايات والخرافات، وهي امرأة حقيقية متصوفة اتخذت مأوى لها بقمة الجبل وابتعدت عن كل ملذات وشهوات الحياة الدنيوية، وتفرغت لعبادة ا دون توقف، شأنها في ذلك شأن علماء بجاية التي مازالت أضرحتهم ماثلة لحد الآن في أعلى الربوات من المدينة.

لقد خلّف الحماديون مجموعة من الحصون والقلاع على الطريق الرابط بين بجاية وقلعة بني حماد والتي ذكرها الأثري الجزائري الأستاذ "بورويبة"[1] اعتمادا على مؤرخين أمثال "الإدريسي" ولكنها اندثرت ولا أثر لها اليوم، إلا في كتب المؤرخين والدارسين للعمارة العسكرية في المغرب الأوسط[2].

---

[1] - بورويبة وهو بدوره عن الإدريسي، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، مطبعة بيرس، الجزائر، 1957، ص ص 64-65.

[2] - عن قائمة هذه الحصون انظر:

- Bourouiba, **L’architecture militaire de l’Algérie**, p85.

الفصل الثاني

الاستحكامات العسكرية خارج بجاية

- حصن تمززدكت.
- قلعة بني عباس.

1- قلعة تمززدكت:

تمززدكت حصن زياني يبعد حوالي 25 كلم عن بجاية وتابع لبلدية القصر على بعد 2كلم شرق المدينة، ويوجد على الضفة اليسرى لنهر الصومام وبني من طرف السلطان الزياني أبو تاشفين عند حصاره لبجاية مرتين وذلك سنة 720هـ/1320م[1]، وهذا بعد أن أدرك بأن حصن بكر الذي بناه لا يتسع للعدد الكبير من الجنود التي حضرها لمحاصرة بجاية، مما دفعه إلى التفكير في مكان آخر أكثر ملائمة من حيث الاتساع والقرب من بجاية، فوقع اختياره على الموقع الذي يعرف بسوق الخميس في حوض الصومام، والتي جمع لها العمال بمساعدة الجنود، ولقد أتم بنائها في ظرف أربعين يوما[2].

وفي هذا الشأن يذكر "يحي ابن خلدون"[3] على انه في سنة أربع وعشرين أمر السلطان "أبو تاشفين" قواده بالنهوض لحصار بجاية، وفي سنة ست وعشرين عاد "موسى بن علي بالجيوش" إلى وادي بجاية قادما من قسنطينة بعد أن أفسد بقطرها الزرع والضرع،واختط مدينة "تمززدكت" وقسم مسافاتها على الجيش فبنوها في مدة أربعين يوما، وأوطنها ثلاثة آلاف ومائتي فارس، وأمر السلطان بحمل الزرع إليها من جميع البلاد الشرقية، فشحنت مخازنها أقواتا نامية، وهناك اشتد الحصار على بجاية وأهلها، وفي سنة ثلاث وثلاثين هدمها السلطان أبو الحسن وعاد إلى مغربه.

ولقد تعددت الوقائع بين بني حفص والزيانيين إلى أن كان النصر فيها للزيانيين في 729هـ/1328م، فأقاموا تخليدا لهذا النصر قصر "بكر" أو مدينة "تاقريدت"[*] التي بناها القائد موسى بن علي بأمر من السلطان "أبي تاشفين" في مدة أربعين يوما، مما أجبر "أبي يحي أبو بكر الثاني الحفصي" إلى الذهاب إلى مدينة "بونة" جريحا[4].

1- عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص161.

2 - Bourouiba (R), **L’architecture militaire de l’Algérie médiévale**, OPU, Alger, 1983, p109.

3- أبي زكريا يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج1، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص217.

*- هكذا ورد في نص عبد الرحمن الجيلالي، ولكن يغلب على الظن أنها مدينة "تاقريت" المعروفة بهذا الاسم اليوم، والتي تبعد عنها ببضعة كيلومترات.

4- عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص161.

ولقد سمحت لنا الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى هذه القلعة من الوقوف على عدة ملاحظات وحقائق: فمن حيث الطابع العام لأسوارها التي بقيت أطلالا قائمة (صورة 141) تتشابه إلى درجة كبيرة مع أسوار مدينة تلمسان والمنصورة (صورة 142)، إن لم نقل صورة طبق الأصل لها، كما تتشابه أيضا مع أسوار الآثار المكتشفة مؤخرا في منطقة "قرقرة "بالعامرة" ولاية عين الدفلى (صورة 143)، والتي يحتمل أن تكون قلعة من قلاع الزيانيين أقيمت كمراكز تحصينية لطريقهم من تلمسان نحو الشرق الجزائري، وذلك لتأمين خط الرجعة عبر هذه القلاع، وفي حالة صحة هذه الفرضية يمكننا القول بان هناك طرازا معماريا واحدا موحدا يميز الدولة آنذاك، فبمجرد ظهوره في منطقة ما سرعان ما ينتشر في كل الأقاليم التي يتم فتحها من قبل الدولة صاحبة الطراز ويعطي طابعا معماريا خاصا ومميزا لتلك الدولة، وهذا ما يفسر التواصل والاستمرار والتداخل الحضاري في البلد الواحد.

أما من حيث أسوار القلعة فقدرنا ما تبقى منها بحوالي 5م (صورة 144)، ولكن يبدو أن العلو المرجح لها يتراوح من 6 إلى 7م كما يذكر "بورويبة"[(1)].

أما عن سمك الجدران فقد تآكل الكثير من سمك ما تبقى مع مرور الزمن، ولقد قدرناه في أكثر من نقطة من السور بـ 1,02م، لكن السمك الأصلي له قد يتجاوز هذا التقدير بكثير، فقد يصل حتى متر ونصف أو أكثر لأن المكان أصلا بني ليكون قلعة عسكرية.

ولقد لاحظنا بأن أساس جدران القلعة غير عميقة تتراوح ما بين 80سم إلى 1م وهذا ربما يفسر السرعة الفائقة في إنجاز هذا الحصن آنذاك، كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ، وأسس الجدران مبنية بالحجارة، أما الناحية العليا بالتراب المدكوك كما هو الحال في حصون "تنس" و "تنمل"[(2)]. أما عن جدران الحصن من الداخل فكانت ملبسة بالجص مع بعض الأخشاب المدمجة في السور.

1- بورويبة رشيد، "أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط"، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص41.

2- نفسه، ص41.

يبدو حصن تمززدكت من خلال ملامحه العامة حصن مؤقت أقيم خصيصا للاستيلاء على بجاية و هذا ما يفسر السرعة في إنجازه، ومن الملاحظات أن داخل الأسوار عبارة عن مساحة واسعة مسطحة خالية من الأبنية، ولذلك فخلال أيام الحرث يتم العثور على بقايا قطع من الفخار والقرميد مما يدل على أن هناك أبنية كانت بداخله، فمن المتعارف عليه في عمارة الحصون أن تتوفر فيها غرف للجند ومصلى لهم، بالإضافة إلى المكان المخصص للطبخ، لكن كل شيء اندثر ما عدا الأسوار الخارجية وبعض الأبراج المربعة. (صورة 145)

ومن الملاحظات الأثرية في أعلى السور أن هناك بقايا ممشى الحرس الذي كان يربط بين أبراج القلعة، وهذا السور مطوق بطريق للحراسة الدورية يعلوه أيضا جدار ارتفاعه 1م (صورة 146)، كما يذكر ذلك الأستاذ "بورويبة"[1]، ولكن لا أثر له اليوم ويذكر أيضا أن السور كان مسبوقا بخندق لا أثر له اليوم أيضا، لكن ما لاحظناه بأن سور قلعة تمززدكت يتقدمه سور أمامي استعمل خصيصا لتكسير الهجمات عـ ـلى القلـ ـعة (صورة 147). و هذا النوع من الحواجز أو الفواصل أو الستائر تتقدم عادة المداخل و نقاط الضعف الإنشائية في الأسوار، و ذلك بغرض اقامة عراقيل لتقدم العدو و إمكانية اصابته قبل الوصول إلى الأبواب و إعاقة حركة جنده.

أما عن داخل القلعة فمن خلال ما تبقى من أسوار حاولنا إعادة تصور لمخطط القلعة العام، والمرجح أن يكون بها مدخلا أو اثنان على الأكثر لأن تعدد المداخل في القلعة يعتبر نقاط ضعف في العمارة العسكرية وخطأ في التقدير الدفاعي ويمنح الفرصة للعدو من اقتحامها من هذه الفتحات، كما أن ما تبقى بها من أبراج مستطيلة وعددها اثنان في الواجهة الأمامية للحصن، وبقايا أثار برج في الركن الجنوبي للحصن، جعلنا نفترض بأن قلعة تمززدكت كانت متوجة بأبراج في أركانها، وعملا بمبدأ التماثل والتناظر التي هي سمة من سمات العمارة والفن الإسلامي افترضنا بأن يكون السور المقابل للسور الأمامي يحتوي على برجين مربعا الشكل كما يمكن أن يكون الضلعان الجانبيان بدورهما مزودان ببرج في كل سور على الأقل وهذا ما يسمح بمراقبة فعالة وناجعة من مختلف

1- بورويبة، أسوار المدن...، ص.41.

الجهات المحيطة بالحصن لتدعيم الأسوار نفسها، وعلى هذه الأساسيات تم تصورنا الافتراضي للإطار العام لحصن تمززدكت (شكل 68).

وفي واجهة السور الرئيسية فتحة كبيرة يجهل إن كانت بقايا لباب أم أنها فتحة ناتجة عن ضربات المنجنيق. ولابد أن نشير إلى أن الموقع العام للقلعة يحتل سهلا منبسطا يحيط به الوادي من جوانبه و هي طريقة دفاعية أيضا، ولقد عثر به على بعض الآثار الرومانية القديمة لدعامات من الغرانيت والحجر المصقول وبقايا لمعصرة زيتون رومانية، مما يرجح على أن الرومان قد استعملوا هذا المكان قبل مجيء المسلمين، كما أن الموقع لا يبعد عن مدينة "تيكلات" الرومانية إلا بحوالي 3 كلم على أكثر تقدير، ومازالت أطلال المدينة قائمة لحد الآن.

ومن خلال استعراض عام لأهم الحصون والقلاع التي تنتشر في بجاية ومازالت آثارها قائمة لحد الآن يتبين لنا أهمية الخطط المنتهجة آنذاك لتوفير الأمن والأمان للمدينة، وعن المراحل التي مرت بها في العصر الإسلامي، كما توحي أيضا بتطور فن العمارة لاسيما في مجالها الدفاعي من حيث التخطيط والتقنية وطريقة الاتصال بين الحصون والقلاع والتي من دون شك أيضا رافقها تطور في استعمال السلاح الدفاعي آنذاك.

2- قلعة بني عباس:

نجد خارج مدينة بجاية أن كل القرى المنتشرة في حوض الصومام تتخذ أماكن مرتفعة في قمم الجبال كما هو الشأن في قرية "ترونة" ببني معوش، وقرية "أسرافيل" بالقرب منها، وكذلك قرية "الجابية بني خيار" وغيرها كثير، والتي يصعب الارتقاء إليها وكان بعضها محاط بسور تفتح عليه مجموعة من الأبواب، غير أن أهم قلعة أدت دورا بارزا في تاريخ المنطقة هي قلعة بني عباس، التي تقع ضمن سلسلة جبال البيبان، والتي تحتل موقعا إستراتيجيا بالغ الأهمية (صورة 148)، إذ يتشكل من هضبة على ارتفاع 1050م على مستوى سطح البحر وجبلها "تقربوست" على ارتفاع 1297م، وتحدها من

جهاتها الثلاث أودية عميقة يتراوح عمقها بين 500 و 600م، ويصلها بالجهة الرابعة شريط ضيق يتصل بالجبال المحيطة بها وتحده مرتفعات شديدة الانحدار[1](شكل 69) (صورة 149)، ويبدو أن المدينة قد أخذت اسمها من "العباس بن عبد العزيز"[2].

ويعود تاريخ المنطقة إلى العهد الحمادي حيث كانت حلقة وصل بين القلعة وبجاية وانتقل السكان إليها من جبل عياض بالحضنة كما يذكر "ابن خلدون" وذلك بعد خراب قلعة بني حماد على يد أفاريق العرب الهلاليين فاستقروا في بداية الأمر بقرية "الشواريخ" قرب "موقة" ثم اتجهوا فيما بعد إلى الشمال ناحية جبل تقربوست، ثم إلى "أزرو القلعة"[3]، حيث بنيت المدينة على صخرة كبيرة وتشتمل على الكثير من الأحياء والمصليات والمساكن.

وكانت القوافل تجوب المسالك الرابطة بين القلعة وبجاية عبر أراضي إقليم "مجانة" الحالي، ثم مع ظهور الدولة الموحدية، احتل "عبد المؤمن" واستمر زحفا على أرض منطقة بجاية متجها نحو القلعة بالمسيلة. وبعد سقوط الموحدين ظهرت إمارة المقرانيين بقلعة بني عباس التي ورثت في الحقيقة ملك بني حماد، والتي يمتد نفوذها إلى مناطق عديدة. وأدت إمارة المقرانيين أدوارا سياسية واقتصادية مشرفة في التاريخ السياسي والعسكري والحضاري لبلاد الجزائر[4].

وتلتقي روايات المؤرخين حول نسب المقرانيين الذي يرجع إلى شرفاء المغرب الأقصى ومن الأدارسة بالضبط[5]، غير أن من المؤرخين من يرى أن أصلهم مرتبط بالأمراء الحفصيين الذين حكموا قسنطينة وهاجر آخر أمرائهم وهو "عبد العزيز" إلى قلعة بني عباس بمرتفعات البيبان[6]، غير أن هذا الرأي يعتريه كثير من الملابسات، لأن المتصفح لكتب التاريخ يجد بأن قلعة بني عباس كانت قائمة منذ عهد الأمير "عبد الرحمن"

1- جمال صديق، "قلعة بني عياس"، محاضرة ألقيت بمناسبة الذكرى الخمسمائة لتأسيس مدينة قلعة بني عباس"، الجمعية الثقافية نادي المقراني، قلعة بني عباس، بجاية.

2- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1832م**، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص33.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، مج6، ص ص 52- 53- 255- 296.

4- صالح عباد، مرجع سابق، ص33.

5- مزيان وشن، مرجع سابق، ص52.

6- Feraud (Ch), Histoire des villes…, 1872 , p194.

انظر أيضا: الورثيلاني، الرحلة، ص 36.

الذي وضع نواتها الأولى وتوفي عام 1500م[1]، ثم في عهد الأمير "سيدي أحمد بن عبد الرحمن الزواوي" خلال القرن 9هـ/15م أقام بها قصبة لحكمه، وعاصمة حصينة في موقع إستراتيجي متميز لا يصلها العدو إلا بشق الأنفس، وأسس بها زاوية للتعليم وتدريس القرآن الكريم وكان لها فضل كبير على الجهات المجاورة مدة ثلاثة قرون من الزمن، أي منذ دخول الإسبان إلى بجاية حتى نهاية عهد العثمانيين أي في الفترة الممتدة من القرنين 16م إلى القرن 18م،حيث كانت معظم معاهد العلم منتشرة في قراها وذلك بعد أن تراجع الدور الحضاري والعلمي والفكري لبجاية بعد سقوطها في يد الإسبان ثم في يد الأتراك في مرحلة لاحقة[2].

ومن الناحية الأثرية تكتسي المدينة أهمية كبيرة كقلعة دفاعية محصنة طبيعيا بحكم موقعها الإستراتيجي من جهة وبعد إضافة تحصينات إضافية كالسور والأبواب التي بقيت آثارها لحد الآن (شكل 70).

وكانت المدينة محاطة بسور تفتح عليه أربعة أبواب هي: باب أعجي في الجنوب وباب الجبل في الشرق، وباب البرج في الشمال نسبة إلى برج مراقبة في المدينة (صورة 150)، وباب العسة في الغرب، غير أن الباب الأول لم يبق منه إلا آثار السور، وباب الجبل في أعلى قمة من المدينة اندثر ولم يبق له أثر، اما باب البرج فمازالت آثار المدخل أي الممر فقط بدون الباب الخشبي، بينما باب العسة اندثر تماما.

هذا من حيث الإطار العام لقلعة بني عباس من الناحيتين التاريخية والأثرية والتي لم تنل حظها من الدراسات والبحث الأثري المعمق، رغم أن ما بقي من أحيائها ومساجدها ومصلياتها ومساكنها يتطلب دراسات متعددة ومن مختلف الجوانب لعلها تميط اللثام عن كثير من الحقائق التاريخية والأثرية لهذه المدينة القلعة التي لا يمكن أن ننكر دورها الإيجابي في مسيرة تاريخ الجزائر وحضارتها.

1- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص211.

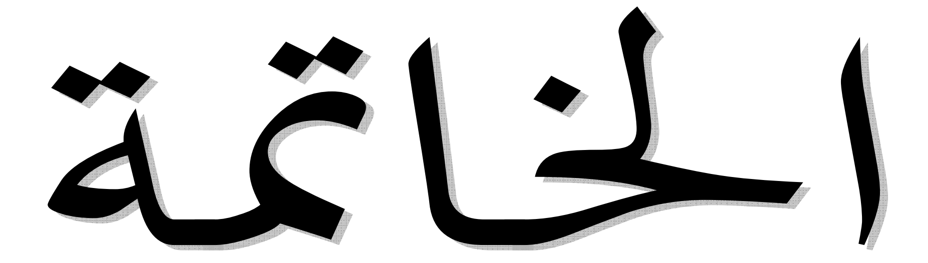
2- مزيان وشن، مرجع سابق، ص66.

الخلاصة:

يتضح من خلال استعراض نماذج من الاستحكامات العسكرية ببجاية و نواحيها، من أسوار و أبواب و قلاع و حصون و أبراج بأن المدينة إضافة إلى تحصينها الطبيعي ، فهي محصنة أيضا بوسائل دفاعية مستحدثة يصعب اختراقها و دخول المدينة خاصة في أوج قوتها و تألقها الحضاري، و من جهة أخرى توحي هذه الاستحكامات بمدى تقدم العمارة العسكرية في المغرب الأوسط من حيث تخطيطها و مواد بنائها و إستراتيجية إقامتها.

إن الشروط التي يجب أن تتوفر في مدينة من المدن الإسلامية قد روعيت إلى أبعد الحدود من حيث توفرها و بإتقان في مدينة بجاية و نواحيها بدءا باختيار الموقع الذي يشترط بأن يكون حصينا بطبيعته كأن يكون على هضبة وعرة من الجبل ، أو باستدارة بحر أو نهر مما يجعل النيل منها أمرا صعب المنال . و كل هذه العوامل المجتمعة جعلت من بجاية و قراها الريفية قلاعا محصنة يسهل الدفاع عنها.

و تكشف الآثار الدفاعية التي ما تزال قائمة في بجاية على تطور الأساليب الدفاعية و الهجومية و ألات الحصار المستخدمة في مختلف العصور الإسلامية التي مرت بها بجاية.



خاتمة:

من خلال دراسة المعالم الأثرية الإسلامية التي تبقت بمدينة بجاية و نواحيها، يتبين لنا الدور الفعال الذي أدته هذه المدينة في المدى الزمني و كثافة البناء و التعمير و المكانة التي حظيت بها المنطقة في ضل الإسلام و مدى التطور الذي عرفته في تاريخ و حضارة الجزائر في العصر الإسلامي ، لأن ما تبقى من معالمها مرآة تعكس مدى التطور الذي وصلت إليه في مجال العمارة و العمران و الذي هو في حقيقة الأمر ناتج عن فكر جديد لسكان المنطقة في بناء الحضارة الإنسانية، جاء به الفاتحون، و هذا الفكر يحثهم و يدفعهم إلى التطور و التحضر في جميع الميادين، و لعل مدينة بجاية و منطقتها ما هي إلا نتاج لهذا. حيث أصبحت مركزا حضاريا ازدهر و صدر الكثير من التأثيرات الفنية و المعمارية و العلمية إلى مختلف المناطق من العالم الإسلامي، و هذا ما جعل المؤرخين و الرحالة يولون المنطقة عناية كبيرة في كتاباتهم نظير ما قدمته من مساهمات تعتبر إضافة لها وزنها في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

فبالرغم من أن مدينة بجاية عرفت عصورا تاريخية متنوعة، إلا أن العصر الإسلامي ترك آثارا عميقة في تاريخ المنطقة و صنع شخصيتها المعاصرة، و ذلك من خلال الآثار التي خلفوها من مساجد و زوايا و أضرحة، و حتى تلك المتعلقة بمرافق الحياة العامة، ثم المعالم ذات الغرض الدفاعي و المنتشرة في بجاية أو خارجها، و كلها معالم تروي المراحل التاريخية التي مرت بها المنطقة من حروب و صراعات داخلية و خارجية، لكن بفضل تمسك سكانها بالدين الإسلامي الحنيف، فإن ذلك لم يؤثر على عقيدة السكان و شخصيتهم.

إن أزهى مرحلة مرت بها المنطقة هي الفترة الإسلامية التي تفتخر بها بجاية، و التي ما زالت بعض معالمها بارزة و شامخة متحدية الإهمال و النسيان رغم ما أصابها من تشوه من جراء العوامل الطبيعية و امتداد يد الإنسان إليها. و لذلك نعتقد بأن الدارس لآثار

بجاية الإسلامية تعترضه عدة مشاكل حول إعادة تصور ما ضاع من تلك الآثار، بالإضافة إلى إجراء تنقيبات أثرية في أكثر من موقع في المدينة.

و بعد معاينة مختلف المعالم الأثرية الإسلامية التي ما زالت قائمة في بجاية و نواحيها و دراستها تمكننا من الخروج ببعض الاستنتاجات الجزئية:

فيما يخص المعالم الدينية كالمساجد مثلا، فلاحظنا أن مبانيها تتسم بالتطور المعماري أحيانا، و بالمحافظة على الطراز المحلي التقليدي في تخطيط المساجد، بالإضافة إلى الوحدة المعمارية و الفنية التي ميزت كل المساجد الريفية بالمنطقة و اتسامها بطراز محلي تقليدي و بسيط، و لقد عرفت المنطقة كيف تخلق لنفسها طرازا معماريا أصيلا يتكرر في كل الأرياف و القرى.

أما عن عمارة الأضرحة، فهي رمز اعتراف من السكان لعلمائهم و المكانة المرموقة التي حظيوا بها في حياتهم، فقاموا بإمكانياتهم البسيطة في فن البناء و بمواد محلية من الطين والحجر و الجص و جذوع الأشجار من إقامة هذه الأضرحة التي أصبحت فيما بعد مزارات يتبركون بها حتى أصبحت من العادات المتأصلة لسكان المنطقة، و من الناحية المعمارية فإن شكلها التخطيطي بسيط و معظمها خال من العناصر المعمارية، و لقد أحصينا نمطين: الأول تعلوه قبة كما في أضرحة بجاية، و أخرى مغطاة بالقرميد المائل على غرار الأضرحة الريفية بالمنطقة.

أما عن الزوايا، فهي منشآت معمارية محلية و تقليدية، لكنها توحي بمدى تقدم فن العمارة التقليدية بحوض الصومام، و كلها معالم تشهد عن العمق الحضاري الإسلامي المتأصل لدى السكان منذ أن دخل الإسلام أرض الجزائر، فالزوايا كانت منارات للعلم و التعلم حافظت على لغة الأمة و عقيدتها.

أما عن المعالم المدنية، فإن قصور بجاية التي اندثرت قد سحرت عقول المؤرخين و الرحالة و الشعراء، و هي تدل حقيقة على مدى تجاوز الفنان و المعمار آنذاك حدود الاتقان و الاجادة إلى درجة التلاعب بالأشكال الفنية و المعمارية في مجال الخلق و الإبداع، و هي معالم تعكس بحق مدى النضج المعماري الكبير للفنان المحلي هذا في بجاية الحاضرة. أما في الريف البجائي فتسجله تلك المساكن التقليدية التي تأخذ مخططا

واحدا، و رغم قساوة الظروف المناخية و الطبيعية إلا أن الإنسان المحلي استطاع التكيف مع تلك الصعوبات وفق معارفه الخاصة و البسيطة ببناء مساكن تستجيب لحاجياته

و حاجات أسرته حتى أصبحت تراثا معماريا أصيلا يضاف إلى ما اكتسبه الإنسان الجزائري عبر حقب التاريخ، ففي هذه المساكن تتجسد هوية الإنسان و أصالته و تاريخه و العادات و التقاليد التي ورثها عن أسلافه في فن البناء. و إن كانت المساكن الحضرية ببجاية أكثر تطورا من حيث التخطيط و الملحقات و هي من مظاهر الرقة و الترف الموجودة عند أهل الحضر خلافا لأهل الريف.

أما في مجال مرافق الحياة العامة، فهي قائمة على مرافق تقليدية و بسيطة و قديمة في آن واحد كمعاصر الزيتون التقليدية والطاحونات المائية و تلك السقايات البسيطة و كلها معالم ما زالت قائمة لحد الآن.

أما عن المعالم العسكرية في المنطقة، فلقد وقفنا على معالم استنتجنا بعد دراستها أنها وضعت باتقان لحراسة المدينة و نواحيها، و توفير الأمن و الآمان لها ، و هي دليل على تطور فن العمارة لاسيما في مجالها الدفاعي من حيث التخطيط و التقنية و التي رافقها أيضا تطور في استعمال السلاح الدفاعي آنذاك، فالتطور يبدو واضحا في الحصون و القلاع و الأسوار و الأبراج و الأبواب و غيرها.

و كاستنتاج عام عن الدراسة نستطيع أن نقول بأن مدينة بجاية تمثل العاصمة الثانية للحماديين بعد أن أفل نجم القلعة، و هذه المدينة تمثل في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر و الإنفتاح، و ذلك راجع لأسباب اجتماعية و اقتصادية، كما كانت مركزا حضاريا بالغ الأهمية في تاريخ المغرب الأوسط باعتبارها المركز الثقافي الوحيد في الشرق الجزائري ككل في تلك الفترة، فكانت مقصد العلماء و رجال الدين و لقد ساعدها موقعها الجغرافي كثيرا على تبوء تلك المكانة بحيث تعتبر بوابة مفتوحة على الساحل، كما يربطها عدة طرق بالمراكز الحضارية الداخلية آنذاك.

إن معالم بجاية الباقية و التي تعود إلى العهد الإسلامي تبين مدى تقدم فن العمارة و الزخرفة الذي بلغ قمته خاصة في العهد الحمادي و الذي طبع المدينة و أعطاها شخصيتها المميزة حتى أن الكثير من الشعراء و المؤرخين و الرحالة قد تغنوا بجمال

المدينة و آثارها الرائعة، و لذلك فإن آثار منطقة بجاية الإسلامية تعتبر إضافة جديدة و مساهمة كبيرة في الحضارة العربية الإسلامية في مجال العمارة و العمران و التي تعكس استمرارية التطور الذي عرفه ذلك العصر في العاصمة الثانية للحماديين، كما يعكس أيضا روح الأصالة و الإبداع و التجديد في فن العمارة الذي تنطق به آثارهم المتبقية و التي هي شواهد مادية و بصمات واضحة في تاريخ و حضارة المسلمين بالمغرب الأوسط (الجزائر).

قائمة المصادر و المراجع

قائمة ا صادر وا راجع:

أولا: باللغة العربية

1- المصادر:

- القرآن الكريم.
- الحديث النبوي الشريف، ابن ماجه 3319 وعبد الرزاق في المصنف 19568 والحاكم (122/4) وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني.
- ابن الأثير (الجزري)، الكامل في التاريخ، ج12، طبعة القاهرة. 1353هـ.
- ابن الحاج النميري، فيض العباب و افاضة قداح الأداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة و الزاب دراسة و اعداد محمد ابن شقرون ط1 الرباط 1990.
- ابن بطوطة (محمد ابن عبد ا)، الرحلة، ج1، ط2، مطبعة التقدم، القاهرة.د.ت.
- ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي)، صورة الأرض، القسم الأول، ط2، مطبعة بريل ليدن 1967.
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المغربي)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتب العلمية، لبنان، 1959.
- ـــــــــــ، التعريف بابن خلدون، تحقيق محمد تاوتي الطنجي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1951.
- ابن فضل ا العمري (أحمد بن يحيى) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر. تحقيق و تعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد. الطبعة الأولى 1409 هـ / 1988.
- البيدق (أبو بكر الصنهاجي)، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس، 1928.
- ابن خلدون (أبي زكريا يحي)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر 1980.

- الإدريسي (أبو عبد ا الشريف السبتي)، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر 1983.
- ــــــــــ، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صححه ونشره هونري بيرس، الجزائر، 1957.
- ــــــــــ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قسم المغرب العربي، تحقيق محمد الحاج صادق، باريس، 1983.
- ــــــــــ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن 1864.
- البكري (أبو عبيد ا بن عبد العزيز)، المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان لبيفن وأندري فيري، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، 1992.
- ــــــــــ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بغداد، د.ت.
- الحفناوي (أبو القاسم محمد)، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الأول ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج3 طبعة بولاق، د.ت، دار التحرير للطباعة والنشر.
- الوزان (حسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة أحميدة عبد الرحمن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي القاهرة، 1385هـ.
- صاحب كتاب الاستبصار، نقلا عن إسماعيل العربي، المدن المغربية المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984.
- المراكشي (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان، القاهرة، 1963.
- العبدري (محمد البلنسي)، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة د.ت.

- ابن أبي زرع (علي بن عبد ا)، الأنيس المطرب بروض القرطاس **في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط 1972.
- الغبريني (أبو العباس أحمد)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، دار الكتاب اللبناني، لبنان 1979.
- التلمساني (محمد ابن مرزوق)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تقديم محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

2- ا راجـ ـع:

- أبو القاسم (سعد ا)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981.
- أجرون (ش. ر)، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، ترجمة وتقديم وتعليق د/ محمد العربي ولد خليفة منشورات ثالة، الجزائر 2004.
- امبروسيو (هوثي ميراندا)، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد اكمير، منشورات الزمن، ط1، الدار البيضاء. (المغرب)، 2004.
- بن حفري (شكيب)، "موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين سنتي 1571-1573م"، الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة 1492-1992، ج2، تحت إشراف الأستاذ عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية زغوان، فيفري- 1993.
- بن قربة (صالح)، عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، وزارة الثقافة والسياحة 1985.
- بورويبة (رشيد)، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1977.

- بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ج3، العهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.
- بوعزيز (يحي)، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989.
- ـــــ، أعلام الفكر والثقافة بالجزائر المحروسة، جزءان، دار الغرب الإسلامي بيروت، ج1، 1995.
- ـــــــ، ثورة عام 1871، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975
- قنانش (محمد)، آفاق مغاربية، المسيرة الوطنية وأحداث 8 ماي 1945 منشورات دحلب د.ت.
- الجيلالي (عبد الرحمن محمد)، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط4، دار الثقافة بيروت، 1980.
- حليمي (عبد القادر علي)، الفضائل المزرية في الأعشاب الطبية، ج1 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1996.
- ـــــــــ، مدينة الجزائر تطورها ونشأتها قبل 1830، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، الجزائر .
- حملاوي (علي)، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية- أثرية المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006.
- دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1 المطبعة التعاونية، 1965.
- زبيس (سليمان)، القباب التونسية في تطورها، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1959.
- ساحي (أحمد)، أعلام من زواوة (إقواون)، ج1، طباعة الثورة الإفريقية د.ت.
- سالم (عبد العزيز)، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1982.

- ـــــــــــ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج 2، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، 1972.
- سامح (كمال الدين)، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991.
- شنيتي (محمد البشير)، التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر،1984.
- صدر (كامل)، العمارة العربية الإسلامية، الإسكندرية، 1995.
- عباد (صالح)، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1832م، دار هومة للطباعة والنشر الجزائر، 2005.
- عبد الجواد (توفيق أحمد)، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج3، المطبعة الحديثة، القاهرة 1970.
- العربي (إسماعيل)، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980.
- ـــــــــــ، عواصم بني زيري، ط1، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، 1984.
- عزوق (عبد الكريم)، تطور المآذن بالجزائر، دار زهراء الشرق للطباعة والنشر القاهرة، 2006.
- عفيف بهنسي، تاريخ الفن و العمارة . المطبعة الجديدة دمشق 1976 /1977.
- عقاب (محمد الطيب)، لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- الغناي (عقيلة)، قيام دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، بن غازي 1988.
- فكري (أحمد)، المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر القاهرة 1936.
- القباني (صبري)، الغذاء لا الدواء، دار العلم للملايين، ط1، 1965 ص.269.

- لمعي (صالح مصطفى)، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية بيروت.
- مؤنس (حسين)، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 37، الكويت، يناير 1981.
- ماهر (سعاد محمد)، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971.
- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن في الجزائر، دار الفكر الجزائر 1988 .
- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية. سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأداب ، الكويت. 1988.
-
- معزوز (عبد الحق)، الكتابات الكوفية بالجزائر من القرنين 2 و8هـ/8-14م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002.
- المليتي (ابن مريم الشريف)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
- الميلي (مبارك)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.
- وشن (مزيان)، مجانة عاصمة إمارة المقرانيين، دار الكتاب العربي الجزائر، 2005.

3- موسوعات- معاجم- رسائل- لات- جرائد- مؤ رات:

أ- ا وسوعات:

- غالب (عبد الرحيم)، موسوعة العمارة، ط1، بيروت، 1988.
- متولي (أحمد مصطفى)، الموسوعة الشاملة في الطب البديل، دار بن الجوزي القاهرة 2005.

ب- المعاجم:

- آبادي (الفيروزي)، القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003.
- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) ، لسان العرب، ج4 طبعة بولاق المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنشاء والنشر ، ط18، رجب 1300هـ/1900، كلمة (سجد).
- الرازي، مختار الصحاح، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001.
- رزق (عاصم محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة 2000 (كلمة ضريح).
- الزبيدي (محب الدين مرتضى)، تاج العروس، تحقيق علي يسري، دار الفكر بيروت 1994 كلمة (مسجد).
- مجموعة من الباحثين، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995.
- قدامة (أحمد)، قاموس الغذاء والتداوي بالنباتات (موسوعة غذائية صحية عامة) ط3، دار النفائس، 1983.
- نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت 1980.

ج- الرسائل الجامعية:

- بعارسية (صباح)، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ/16م رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2005.
- بلعربي (ويزة)، معاصر مادور، دراسة أثرية، رسالة ماجستير، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2006/2005.
- بويحياوي (عز الدين)، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط من القرن 2-8هـ/8-14م، دكتوراه دولة، جامعة الجزائر 2004.

- خلاصي (علي)، التنظيمات والمنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2005/2004.
- سي فضيل (منى)، الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة ماجستير، قسم الاجتماع جامعة الجزائر، 2005/2004.
- لعرج (عبد العزيز)، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية ومعمارية وفنية، دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية جامعة الجزائر، 1999.

د- المجلات:

- بلحميسي (مولاي)، "بجاية في حدائق الكتب"، الأصالة، عدد خاص، بجاية عبر العصور السنة الرابعة، العدد 19. مارس-أفريل 1974.
- بورويبة (رشيد)، بجاية، سلسلة فن وثقافة، مطبعة ألتاميرا، إسبانيا، 1974.
- بورويبة رشيد، "أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط"، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.
- بوعبدلي (المهدي)، "الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها" الأصالة، عدد 19، 1974.
- بوعبدلي (المهدي)، "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، مجلة الأصالة عدد.13 السنة 3، مطبعة البعث قسنطينة 1973.
- بوعبدلي (المهدي)، "بجاية قبلة العلماء"، مجلة أصداء الصومام، جويلية 1985.
- بوعزيز (يحي)، "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19 و 20م" مجلة الثقافة، العدد 63، 1981، ص.18.
- الجيلالي (عبد الرحمن)، "زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية 580هـ/1184م". مجلة الأصالة، عدد19، 1974.
- حملاوي (علي)، "نماذج من منابر الجوامع العتيقة بالقصور الصحراوية" حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 13 2003.

- خالدي (عبد الحميد)، "الحياة التعليمية ببجاية الحمادية"، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، العدد 2 1999.
- دهاش (الصادق)، "تضامن الجزائر مع مسلمي الأندلس أيام المحنة الكبرى 1492-1640م"، حوليات جامعة الجزائر العدد 14، 2001.
- شنيتي (محمد البشير)، "تطور المسكن الريفي في شمال إفريقيا"، مجلة كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، العدد1، 2001.
- صديق (جمال)، "قلعة بني عباس"، محاضرة ألقيت بمناسبة الذكرى الخمسمائة لتأسيس مدينة قلعة بني عباس"، الجمعية الثقافية نادي المقراني، قلعة بني عباس، بجاية.
- طالبي (عمار)، "الحياة العقلية في بجاية، الفلسفة والكلام والتصوف" الأصالة عدد 19 ص.153.
- العربي (إسماعيل)، بجاية، مجلة الثقافة، السنة 3، العدد 18، ديسمبر- جانفي 1973. 1974،
- عزوق (عبد الكريم)، "تأثير مئذنة قلعة بني حماد على بعض المآذن في المغرب والأندلس"، مجلة الدراسات الأثرية، معهد الآثار، عدد.3، سنة 1995.
- قاهر (محمد الشريف)، "عبد الرحمن الوغليسي"، معجم مشاهير المغاربة جامعة الجزائر 1995.
- لعرج (عبد العزيز) ، "المدارس الإسلامية دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، القسم الأول، دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية العدد الأول، 2001.
- لقبال (موسى)، "مميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى"، مجلة الأصالة، عدد 19 1974.
- مصطفاوي (رشيد)، "بجاية في عهد الحماديين"، مجلة الأصالة، العدد 1.
- مصطفاوي (رشيد)، "تاريخ بجاية"، مجلة الأصالة، السنة الأولى، العدد الأول مارس 1971، ص90.

- واشق (محمد الشريف)، "نظرة تاريخية حول الحركة الثقافية في مدينة بجاية" مجلة الصومام، عدد خاص بملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية في 8-15 جويلية 1985.

د - جرائد:

- جريدة الحياة العربية، 16 نوفمبر1990، العدد 10150، ص. 13.
- ع ر، "قوراية امرأة حقيقية، وليست أسطورة خيالية"، جريدة الخبر اليومية الجزائر 6 جانفي 2007، ص14.
- فؤاد (شمس الدين)، "الحمامات التقليدية في الإسلام، من معالم المدن الإسلامية للطهارة والنظافة والارتياح"، جريدة الحياة العربية اليومية، العدد 10188 24/ ديسمبر/ 1990، ص. 13.

هـ - مؤتمرات:

- زبيس (سليمان مصطفى)، "المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامي" المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس 18-29 ماي 1963، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، 1965.

ثانيا: ا راجع باللغة الأجنبية:

1- ا راجع:

- Bel (K), Caractères et développement de l'islam en berbèrie, et plus spécialement en Algérie, In. Histoire de l'Algérie, Bibliothèque nationale Alger, 1931.
- Bourdieu (P), La maison Kabyle ou le monde renversé.
- Bourouiba (R), L'architecture militaire de l'Algérie médiévale, OPU Alger, 1983.
- -------------, Apport de l'Algérie à l'architecture Religieuse Arabo.islamique, OPU, Alger 1987.
- -------------, l'Art Religieux Musulman en Algérie. SNED, Alger. 1983.
- Brunschving (R), La berberie orientale sous les Hafsides de l'origine a la fin de XI siècle, TI et II, maisonneuve, Paris, 1940-1947.
- Cambuzat (Louis Paul), L'évolution des cités du Tell en ifriquia du VII au XI siècle , T1, OPU, Alger, 1986.
- Camps Fabrer , L'olivier et son importance économique dans L'Afrique Antique. Dans. CIHEA . options Méditerranéennes .n° 24.
- Camps Fabrer, L'olivier et L'huile dans L'Afrique Romaine, imprimerie officielle, Alger, 1953.
- Cutance (A), L'olivier histoire botanique, Région, Culture,production, usages,commerce, industrie, etc... edit, J.Rothschild, paris,1887.
- Daoulatli (A), La Casbah de Tunis, Institut national d'archéologie et d'art.
- Debeylie (GL), La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XI siècle, Ernest Leroux, Paris, 1909.
- Diez (Ernest), L'Art de L'islam, Petite bibliothèque, Payot, Paris, S.D.
- Feraud (L.Ch), Histoire des villes de la province de Constantine, 1869.
- Gaid (M), Histoire de Bedjaia et sa région, SNED, Alger 1976.

- Golvin (L), Essai sur l'architecture religieuse musulmane, T4, (l'Art Hispano-Mauresque), Editions Klincksieck 1979.
- -------------, Le Maghreb Central a l'epoque des Zirides. Edition, Art et Metiers Graphiques, Paris. 1957
- Golvin (L**),** Notes sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Kalaa des Banu Hammad, in, mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman, T II, Alger 1957, pp.75-93.
- Golvin (L), Recherches archéologiques à la Kalaa des Banu- Hammad, Paris, 1965.
- Golvin (L), Notes sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du nord in annales de l'institut d'études orientales tome XVI année 1958.
- Hady (Roger Idris), La berbèrie orientale sous les Zirides, Du X au XII Siècle, Paris,1962.
- Hoag (J-d), L'Architecture Islamique, Gallimard, Electa, Paris, 1982
- Idris (H.R), La berbèrie orientale sous Zirides, Paris, 1962.
- Jaques Stamboul, Les cités de la grande Kabylie, Alger 1950.
- Sakina Missoum, La maison berbère au village de Ait Lahcen, in cuadernos di la alhambra , Vol 27, Granada 1991 publicaciones del patronato de la Alhambra y généralife .
- Keddache (Mahfoud), L'Algérie médiévale, SNED, Alger, 1992.
- Louis Salvator de Habsbourg, Bougie la perle de l'Afrique du nord, traduction de Viviane Jambert, France, 1999.
- Marçais (G), L'Architecture musulmane d'occident, Arts et Métiers Graphiques, Paris 1954.
- Moreau (J-B), Les grandes symboles méditerranéens dans la poterie Algérienne, SNED, Alger, s.d.

- Paul (Odinot), « Rôle politique des confréries religieuses et zaouïas au Maroc, In, Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, 1878, T.51, 1980, pp.37-38.
- Pierre Deffontaine, L'homme et sa maison, Géographie humaine, Collimard 1972.
- Terrasse (H), L'art Hispano Mauresque. Des origines au XIIème siècle éditions G.Van Oest paris 1932 publications de l'institut des hautes études marocaines tome XXV.
- Wintzer (P), Bougie Place Forte Espagnole, Alger 1932.
- Yvoune (Tourin), Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Ecole médecine- religion, 1830-1870, année 1978.

2- ا وسوعات والأطالس:

- Bougie, In. Encyclopédie de l'islam, Tome I, Paris1913.
- Gsell (st), Atlas Archéologique de l'Algérie, F n 07, p12, Paris, Alger 1902-1911.
- Marmol, Le royaume de L'Abbès, in. Encyclopédie islamique, T3. p.499.
- Colin (GS) ; « Burj ».in.Encyclopedie de l'islam .Tome1.Paris.1975.p.1355
- Creswell(KAC) ; « Bab ».in.Encyclopedie de l'Islam.Tome1.1975.p.854.

3- الرسائل ا امعية:

- Baelhadj (M), Cezayir de Merkezi Kubbeli Camiler, Thèse Magistère. Istanbul,1991, p.12.
- Naima (Abderrahim), Essai de restitution urbaine de la ville de Bejaia, thèse de Magistère. EPAU, Alger 2002.
- Ramon (B), et Ali (S), Habitat traditionnel et structure familiales en Kabylie, Mémoire du CRAPE, T XXIII, Alger 1974.

4- ا لات:

- Feraud (Ch), Histoire de Bougie, In. Revue Africaine,1858-1859.
- Akli (Mechtoub), Environnement social et habitation en milieu villageois le cas de : Taourirt Mokran en Kabylie, in, revue insaniyat revue Algérienne d’anthropologie et des sciences sociales, N°14-15 Mai- Décembre 2001, Vol.2 et 3.
- Cauvet (C), Les Marabouts, Petits monuments funéraires et votifs du Nord de l’Afrique, In. Revue Africaine, Paris, 1923.
- Feraud (Ch), Notes sur Bougie. In. Revue Africaine, 3ème année, N°13.1858. OPU, Alger. 1985.

5- ا رائد:

- Alem (Arezki), "Trouna, invitation à l’évasion", in, JournalKabylie Estivale, du 24/08/2003 ,p.07.
- Alem (Arezki), " Beni.Maouch ", Tatiaft, un rite vivace,in, journal Kabylie, du 20 mai 2003,p.10.
- Alem (Arezki), " Achtug ,aventure et rêverie ",in, Journal Kabylie, du 1er septembre 2003, p06.

ملخص بلغة أجنبية

Résumé de la thèse de doctorat d'état intitulé :

Les monuments archéologiques islamiques à Béjaia et ses environs.

« Etude archéologique »

La présence musulmane dans le Maghreb central est considérée comme la plus rayonnante de son histoire en particulier et de l'histoire de la civilisation arabo-islamique en général. En effet, de par l'apport d'une nouvelle pensée enseignée aux habitants des pays conquis, elle les enjoint à prendre part au processus progressiste englobant tous les domaines.

Le passage d'une ère empreinte de latinité vers une ère arabo-islamique a engendré à juste titre l'apparition d'une nouvelle architecture représentée par les villes et les centres urbains, qui après une période de tâtonnement, s'est enrichie au contact des autres peuples par des influences stylistiques, décoratives, architecturales et scientifiques. De cet apport culturel et civilisationnel, elle en a fait sienne en premier lieu et en atteignant une symbiose mature, elle l'a propagé dans tous les confins du monde islamique, relayée dans cette tache par les historiens qui ont mis en exergue la prépondérance le rôle civilisationnel qu'a tenu cette architecture.

Béjaîa garde cette empreinte du caractère identitaire liée à la civilisation musulmane. Son urbanisme, unique durant la période musulmane, est la résultante du passage des Hammadites de la kalâa et leur implantation à Béjaîa dont ils ont fait la deuxième capitale connue à l'époque sous l'appelation « El Naciria », du nom de son fondateur Nacer Ben Alnas El Hammadi.

Il est cependant admis que les monuments de l'époque islamique en Algérie et particulièrement à Béjaîa n'ont pas eu la même fortune dans le domaine de la recherche, comme ce fut le cas pour les vestiges datant des époques romaines et byzantines. Et il est désolant de constater une destruction quasi quotidienne de patrimoine, entraînant par conséquent la perte des pans entiers de la civilisation musulmane en Algérie.

De par sa notoriété en tant que capitale des arts et du savoir, Béjaîa a été souvent décrite par les voyageurs, scrutée par les historiens et les géographes et chantée par les poètes. Des traces de son riche passé gisent çà et là dans la ville moderne et sa campagne : qu'ils soient des monuments religieux, civiles ou militaires, force est de constater un désintérêt émanant des études scientifiques qui mettraient en évidence d'une part, l'apport de cette ville dans la vie intellectuelle, et d'autre part l'enrichissement à l'entité arabo-islamique dans les domaines de l'architecture et de l'urbanisme.

La problématique du sujet ainsi cernée, notre première démarche consistait à recenser en premier lieu les édifices de la période islamique à Béjaîa et les villages de la vallée de la Soummam ; puis faire un classement selon la fonctionnalité de chacun d'eux.
Partant de là, nous nous sommes concentré sur quelques exemples pour une étude archéologique et architecturale. Notre action a pour ambition d'élaborer une typologie et de faire ressortir les spécifités de ces monuments, ainsi qu'une étude comparative avec d'autres monuments se situant dans la même région ou dans d'autres régions du monde islamique.
Les monuments exemptés par cette étude sont indiqués dans des tableaux avec leurs indications et leurs références, de même qu'une carte a été élaborée pour indiquer la dispersion des monuments islamiques à Béjaia et ses environs.

Il est évident qu'une telle étude a pour objectif de mettre en relief l'ensemble des structures architecturales, surtout celle omises par les écrits antérieurs et qui se trouvent dans les campagnes et dans la vallée de la Soummam. De cette optique, nous lèverons le voile sur les aspects architecturaux et urbanistiques et leurs différentes caractéristiques.

La nature du sujet nous imposait d'aller vers la quête d'une documentation spécialisée tant en langue arabe qu'en langues étrangères. Les sources historiques nous étaient d'une inestimable aide pour la connaissance de l'histoire de la région, de ses monuments et leurs initiateurs.

Les ouvrages d'El Ouartilani ont été tel un guide nous dévoilant la majorité des villages et des bourgades ainsi que les édifices qui sont attestés jusqu'à nos jours. Nous avons pu connaître les œuvres et les savants qui ont vécu à Béjaia grâce aux manuscrits dEl Ghobrini et d'El Hafnaoui. Par ailleurs, nous nous saurons omettre les précieux livres d'Ibn Khaldoun, « le voyage au Maghreb » d'Abdari ainsi que El Bekri et El Idrissi et tant d'autres sources qui ont fait allusion à la région dans ses différents aspects.

Les ouvrages récents en langue arabe sont nombreux, ils ont décrits les vestiges islamiques en Algérie. Les plus pertinents sont sans conteste ceux de feu Rachid Bourouiba parmi lesquels : « l'état Hammadite, son histoire et sa civilisation », un livre sur Béjaia édité dans la série « Arts et Cultures » ainsi que, « l'art religieux musulman en Algérie » et « Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo-islamique ».

Pour cerner la fonctionnalité des monuments et leurs formes dans le monde islamique, il nous fallait composer avec les différents ouvrages qui traitent des vestiges dans le Maghreb et dans le monde oriental. Les articles parus dans les revus et les périodiques et les thèses universitaires n'ont pas été en reste puisqu'ils ont enrichi le contenu du sujet.

Les ouvrages en langues étrangères sont à majorité en langue française, ce fait s'explique par l'engagement des savants français et leurs intérêts pour l'archéologie algérienne durant la phase d'occupation dans notre pays.

La documentation dans ce domaine est en somme classique à l'exemple de : Georges Marçais, « L'architecture musulmane d'occident » qui est considéré comme le livre de base pour tout chercheur en archéologie islamique dans le Maghreb et en Andalousie.

Lucien Golvin, « Le Maghreb central à l'époque des Zirides » qui est un livre de référence englobant toute l'histoire et les monuments hammadites.

Notre documentation regroupe également des livres généraux dans l'architecture et l'art islamique, le plus représentatif demeure celui de Charles feraud dont le thème porte sur « les villes de province de Constantine » et « notes sur Bougie ».

L'étude pratique a consisté a récolter toutes les données archéologiques inhérentes à l'intitulé de ma thèse, c'est pourquoi mes différentes pérégrinations à travers les bourgades et les villages ont ciblé une description de visu ; l'œil attentif d'un archéologue glanait toutes les informations, notait ses remarques et étayait par la prise de photos et l'élaboration des plans et des coupes des différents édifices. Cette démarche servira pour l'étude architecturale et archéologique de chaque monument.

Notre approche s'inspire d'une méthodologie alliant les aspects historiques, descriptifs et comparatifs d'une part, et d'autre part une démarche analytique se justifie pour faire ressortir cette ambivalence entre unicité des formes et la symbiose comme élément fédérateur entre les différents édifices.

Par ailleurs, nous avons tenté de discerner les différents types de monuments qui nous renseignent sur une évolution au fil des siècles, quoi que lente pour ceux localisés dans la campagne. Quant à ceux de la ville, il apparaît une maturité architecturale et artistique comparable à celle se trouvant dans les autres régions de l'aire islamique.

Vu la nature du sujet, nous l'avons divisé en trois volumes contenant chacun d'eux plusieurs chapitres.

Une introduction générale synthétise la situation géographique de Béjaia, l'origine de son nom ainsi que son parcours historique. Un aperçu sur son urbanisme à l'époque islamique et l'attrait qu'elle exerça sur des personnes de qualité qui ont élu domicile à l'intérieur de ses remparts et qui ont contribués par leur savoir dans les divers domaines à ce qu'elle soit une illustre cité de son époque.

Le premier volume est consacré aux monuments religieux de Béjaia et de ses environs. Réparti en trois chapitres, le premier est axé sur les mosquées dont il nous fallait dresser l'historiographie de ces lieux de culte dans le monde islamique. Concernant Béjaia et ses environs, nous avons pu déceler deux archétypes de mosquées : le premier est ce qu'on pourrait nommer par « mosquée el djamâa » dont voici la liste des plus représentatifs : mosquée de la casbah de Béjaia, mosquée El Attik d'Amallou, mosquée de Kalâa Beni Abbés, mosquée Sidi Abdelhak de Béjaia, mosquée de Mellala. Ils sont en bon état de conservation et dans quelques uns les fidèles y pratiquent toujours les cinq prières quotidiennes.

Le deuxième type est constitué des mosquées du monde rural, nous les avons répertoriées comme suit : l'ancienne mosquée de Tamokra, la mosquée Boudiouane à Bouhamaza, la mosquée Béni Khiar à Béni Maouche, la mosquée Ousahnoun à Kalâa Béni Abbés et l'ancienne mosquée du haut Sadouk.

Nous avons suivi le même raisonnement comme pour le premier type de mosquée et une conclusion avec les principaux résultats ainsi qu'un tableau récapitulatif des mosquées de la région clôture ce chapitre.

Nous avons abordé dans le deuxième chapitre les mausolées dont Béjaia se targue de posséder de très beaux spécimens en parfaite état de conservation et qui ont joué un rôle majeure dans l'histoire de la ville, ils sont comme suit : le mausolée Sidi Touati sur les hauteur de la cité, le mausolée Sidi Mohamed Amokrane qui date de l'ère des ottomans et le mausolée Sidi Abderahmane El Sabagh qui remonte au 15 siècle de notre ère.

Nous avons étudié les mausolées situés dans la campagne de Béjaia, de leurs cotés archéologiques, architecturaux et nous avons prit comme exemple : le mausolée de Sidi Ahmed Ben Yahia d'amalou, le mausolée de Sidi Yahia El Aidli de Tamokra, et le mausolée de Sidi Abderhmane El ouaghlissi se trouvant dans les posséssions des beni Ouaghlisse.

La conclusion de ce chapitre fait ressortir deux types de mausolées, le premier regroupe les monuments à coupoles et le second se caractérise par l'inclinaison de leurs toits.
L'architecture des zaouia est abordée dans le troisième chapitre. Connue dans le monde islamique et particulièrement dans la vallée de la Soummam, nous nous saurions leur dénier leur rôle à la fois scientifique et intellectuel et leurs implications dans l'histoire de l'Algérie. Nous les avons recensé comme suit : zaouia Sidi Ahmed Ben Yahia à Amalou, la zaouia Sidi Yahia el Aidili à tamokra, la zaouia Sidi Moussa à Tinebdar. Bien qu'elles se caractérisent et par la simplicité de leurs techniques de constructions et par les matériaux de construction, il n'en demeure pas moins que de grands savants connus et reconnus qui ont contribués dans l'enrichissement de la culture islamique sont issus de ces modestes lieux de savoir.

Ce choix s'explique justement par ce rôle prépondérant, et l'étude est purement historique, descriptive et analytique. Quant aux autres zaouia, elles ont été répertoriées dans un listing enfin de ce chapitre ou la conclusion suggère leur impact dans la société béjaoui, qui demeure très attachée à des valeurs de la civilisation musulmane.

Le deuxième volume de notre étude a pour sujet principal les monuments civils et nous l'avons réparti en deux chapitres : le premier s'intéresse aux édifices domestiques et qui se divise en trois axes : l'étude des palais hammadite par le biais des sources historiques et la description grâce aux textes poétiques, du faite qu'il n'en reste d'eux aucune trace de nos jours ; nous avons également tenté de faire le rapprochement, par un souci de comparaison, avec les palais de la kalâa de Bani Hammad.

Les maisons citadines sont regroupées dans le deuxième axe, quoi que l'étude porte exclusivement sur les recherches antérieures, cependant, réparties dans l'ancien tissu urbain, elles tirent leur fierté de leurs grandeurs et de leurs belles formes architecturales. Ce goût prononcé pour le luxe est à contre sens de celui offert part les maisons rurales.

La particularité du troisième axe se trouve dans les demeures du monde rural. Nous avons jugé utile de nous étaler sur ces maisons car c'est d'elles que nous puisons les informations sur les us et les coutumes des habitants de la région, ainsi une idée sur les pratiques de la société émerge par l'investigation centrée le plus souvent sur les modestes maisons. Elles sont d'ailleurs fort nombreuses, c'est pourquoi un échantillonnage s'imposait par le choix de quelques unes disséminées dans la vallée de la soummam.

Le deuxième chapitre est réservé pour les monuments utilitaires tels que les huileries artisanales et les canaux d'irrigations, source attractive pour les regroupements humains. Ces dernières, simples ou traditionnelles, rejoignent les puits tel que celui de Mellala, de Boudimane alors que des anciens bains nous avons étudié celui de hammam Sidi Yahia El Adili qui date du quinzième siècle. Nous avons achevé ce chapitre par un monument assez original, ancien et traditionnel, la noria du village de Lazib Sidi Sadek, situé sur les berges de l'oued Bou Sellam, elle est fonctionnelle jusqu'à nos jours.

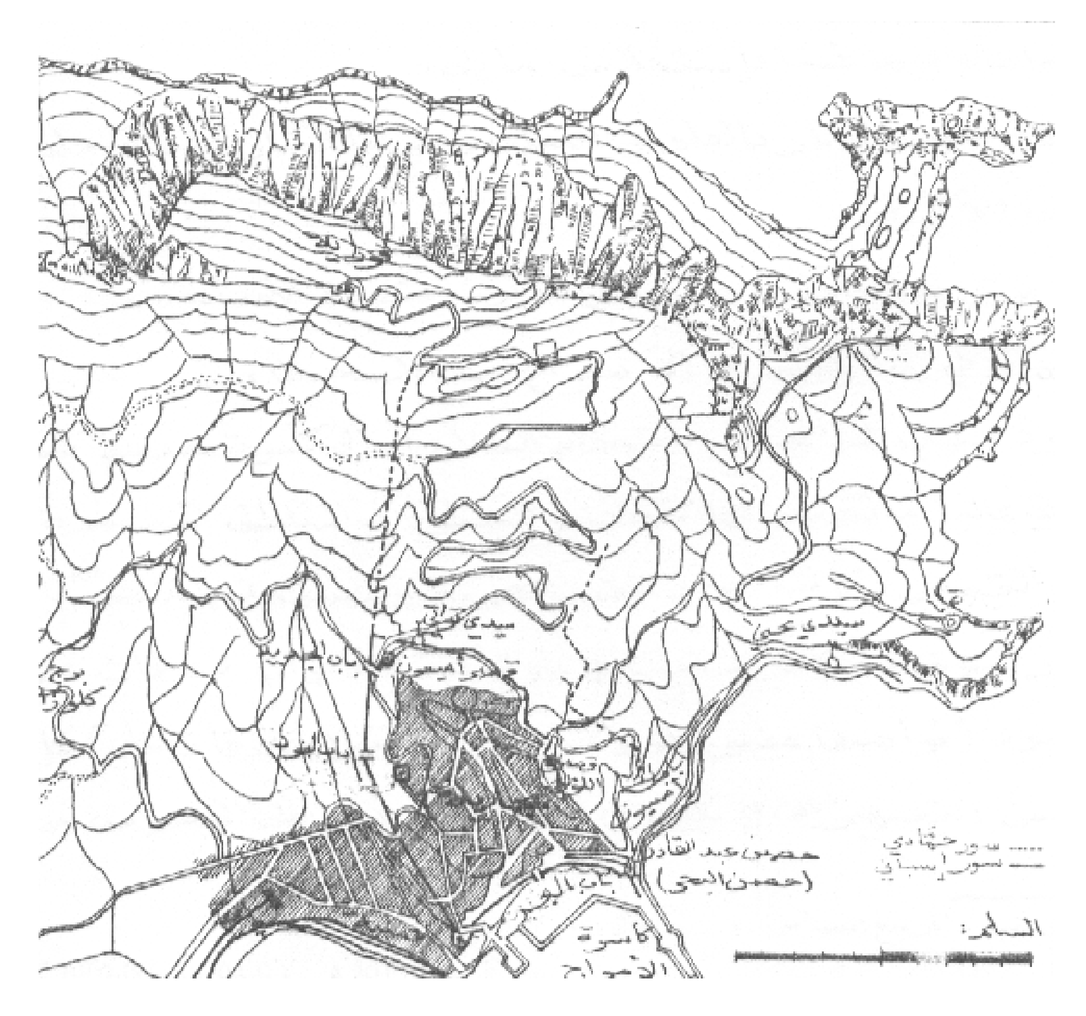
Le troisième volume est représenté par les monuments défensifs et militaires. Répartis en deux axes, nous avons abordé les forts et les citadelles dont les exemples sont : fort de la Casbah, Bordj Sidi Abdelkader, Bordj Moussa, Kalâa Béni Abbés, Kalâa Timzizdekt, et un aperçu sur le fort français de Gouraya. Bien qu'il soit d'époque coloniale, nous l'avons intégré pour une perception globale de l'aspect stratégique de ces monuments militaires.

Il ne reste des portes de Béjaia que celles de Bab El Bahr et El Bunud qui datent de l'époque hammadite, les autres portes bien que décrites, toute fois elles ont disparues du paysage urbanistique.

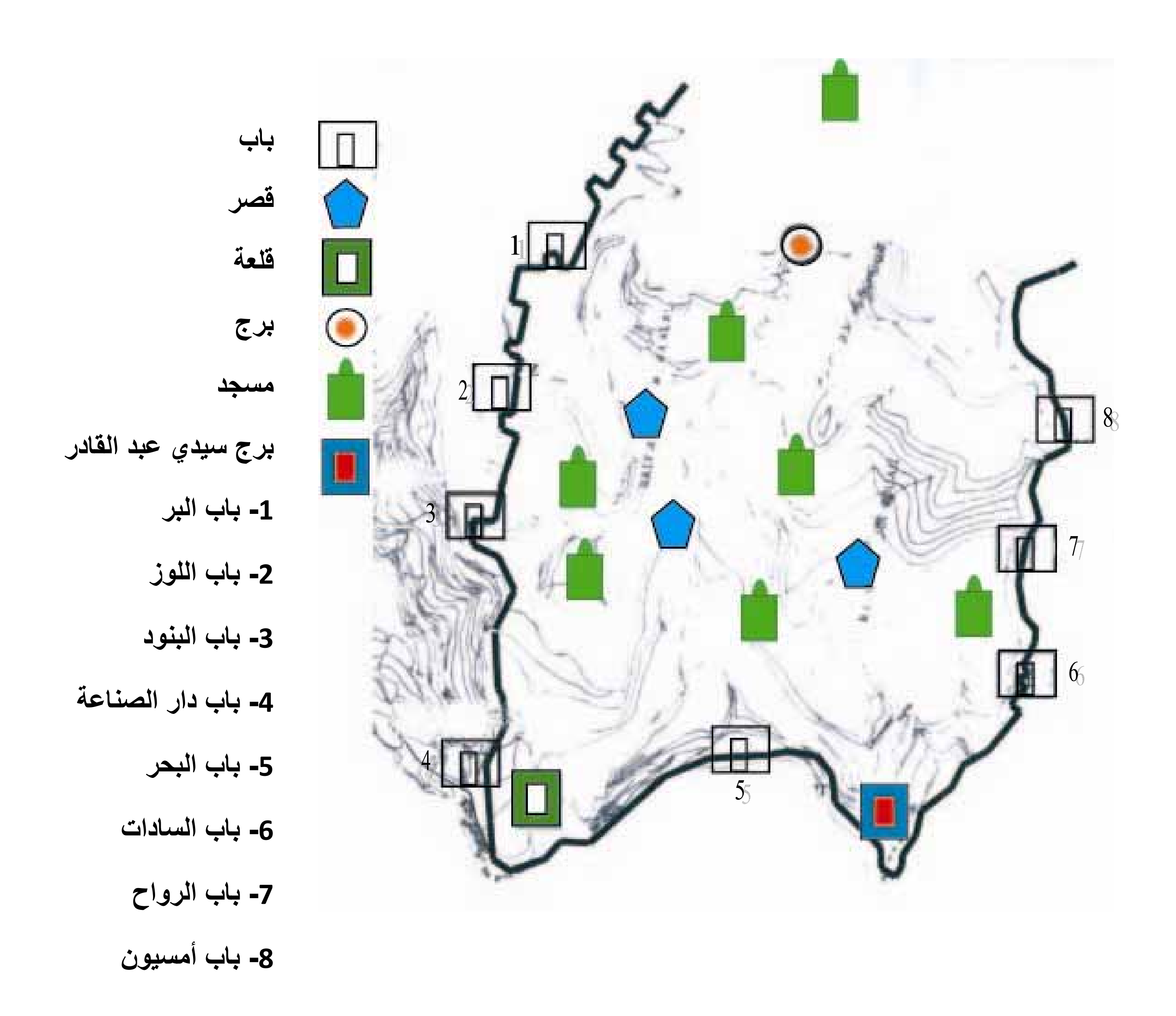
Le deuxième chapitre trait des murs d'enceinte de la ville, jaugés dans leurs détails, elles représentaient un atout majeur dont aucune cité digne de ce nom ne pouvait faire abstraction.

La conclusion de cette recherche met en évidence la grande contribution de Béjaia et de sa région dans l'enrichissement de la civilisation arabo-islamique. Ces monuments témoignent des valeurs qu'elle a accumulée au fil des siècles, elle a su se singulariser par une architecture et un urbanisme digne des grandes capitales et se référant à la pensée idéologique islamique, et faisant d'elle un témoin indélébile, c'est son identité qui s'est affirmée dans toutes ses dimensions plurielles.

ملحق الأشكال

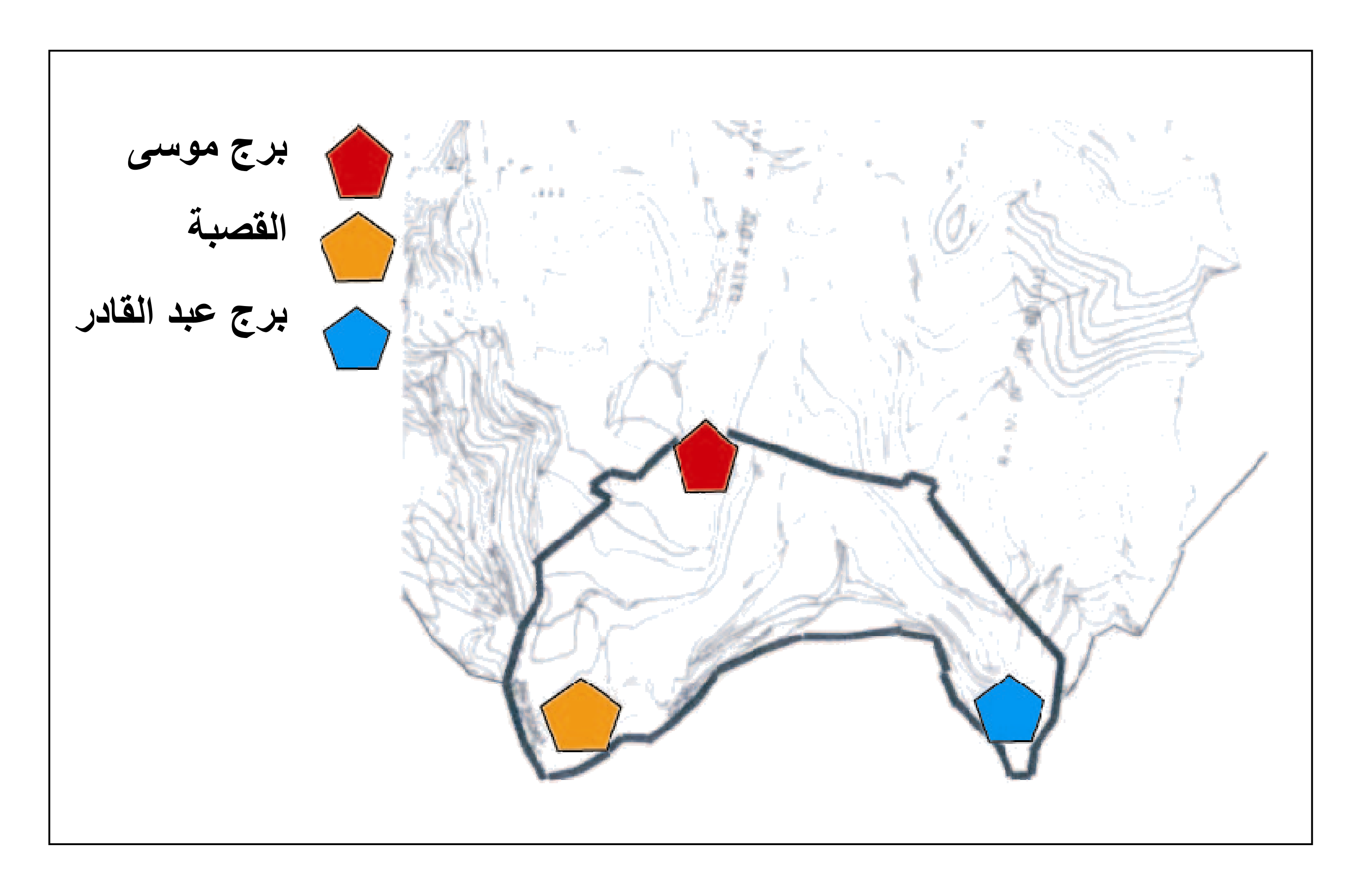


شكل 01: خريطة بجاية عن دوبيلي



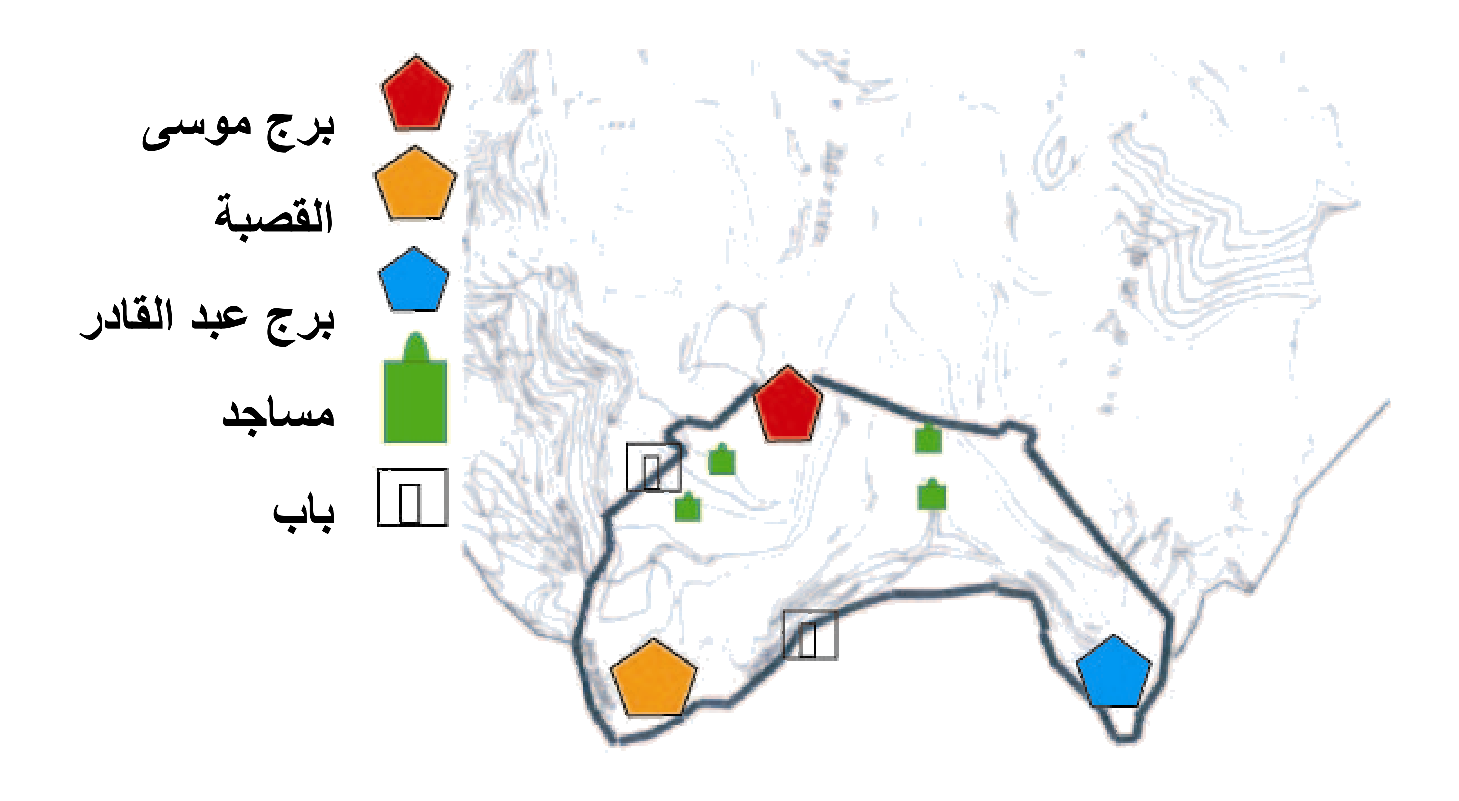
شكل 02: مخطط المدينة في العهد الحمادي (عن نعيمة عبد الرحيم)

(بتصرف)



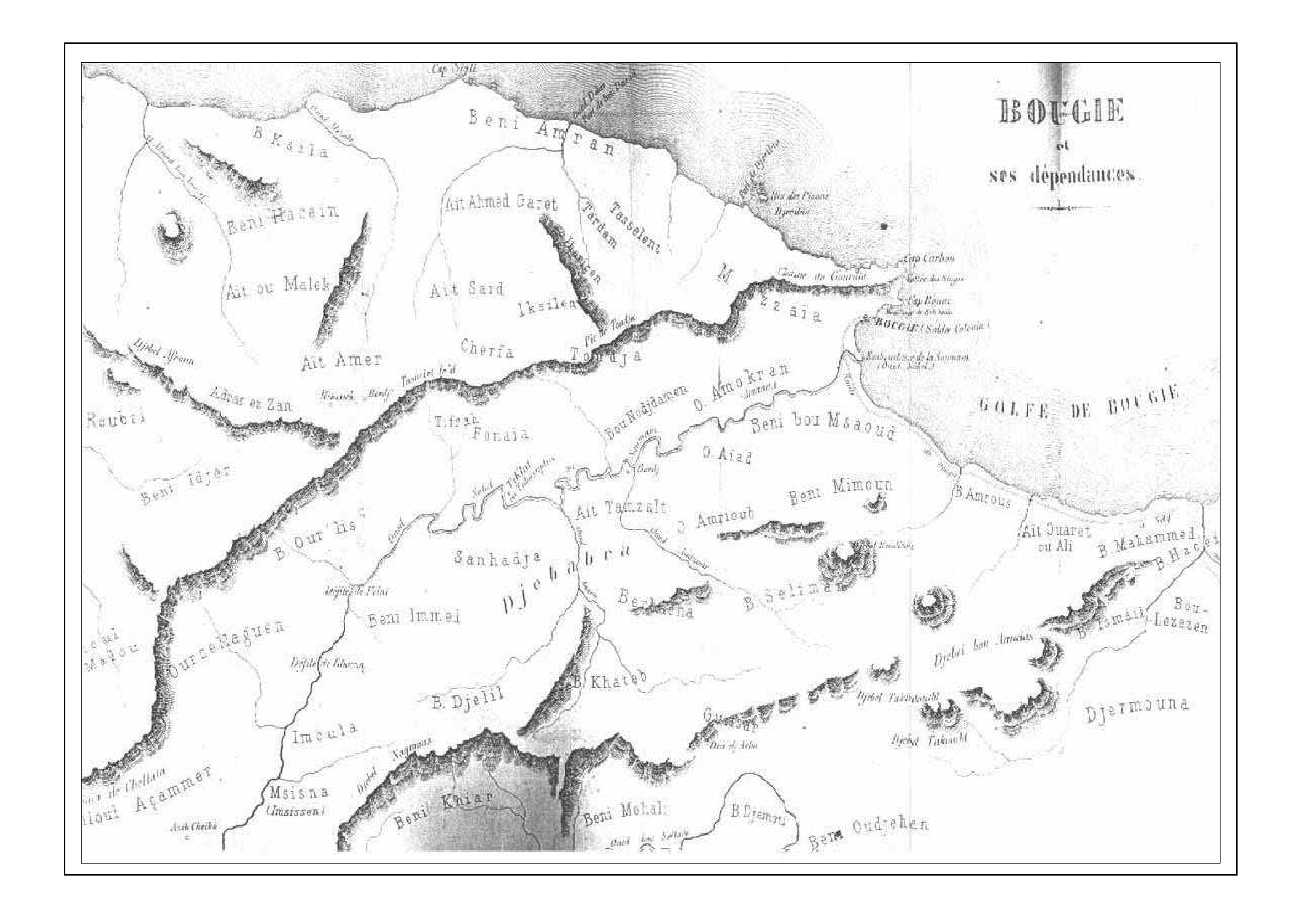
شكل 03: مخطط المدينة في العهد الاسباني (عن نعيمة عبد الرحيم)

(بتصرف)

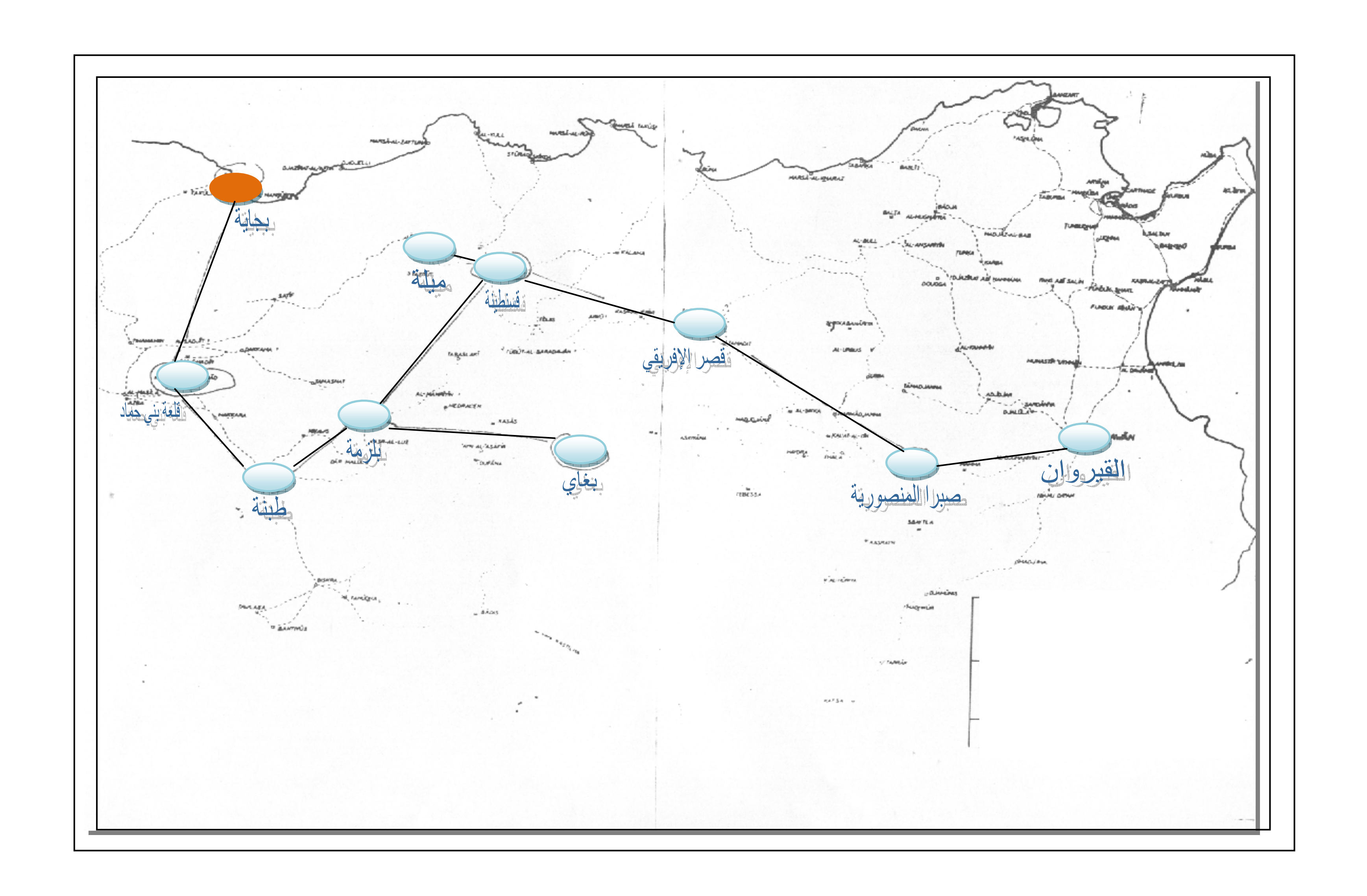


شكل 04. مخطط المدينة في العهد العثماني (عن نعيمة عبد الرحيم)

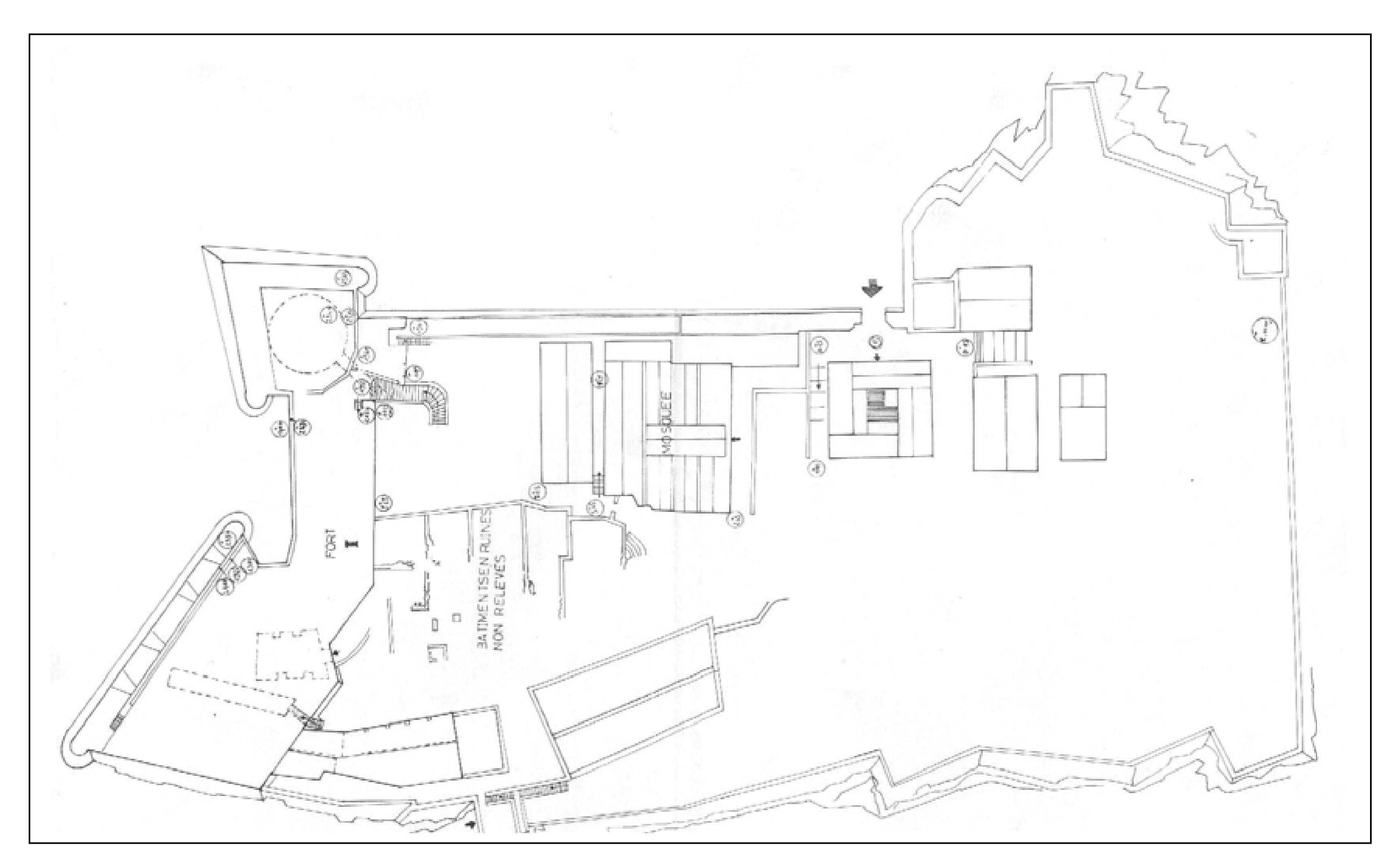
(بتصرف)



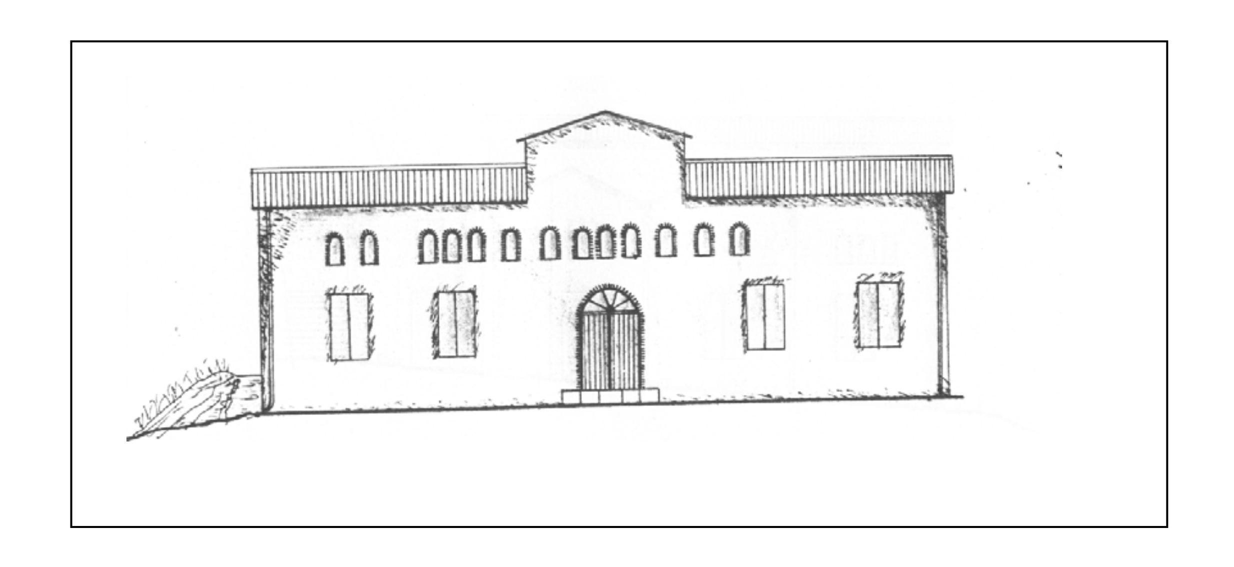
شكل 05 : خريطة السكان و القبائل ببجاية (عن فيرو)



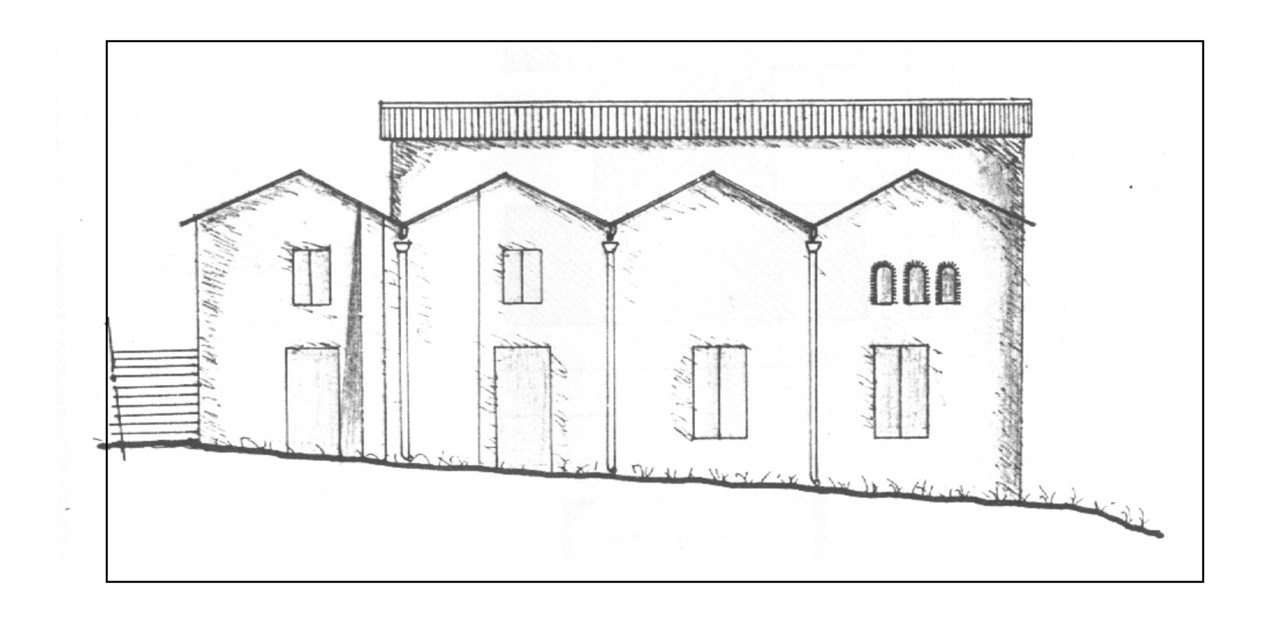
شكل 06: خريطة اتصال بجاية مع المدن الداخلية (عن cambuzat)



شكل 07: مخطط عام لقصبة بجاية سلم 200/1

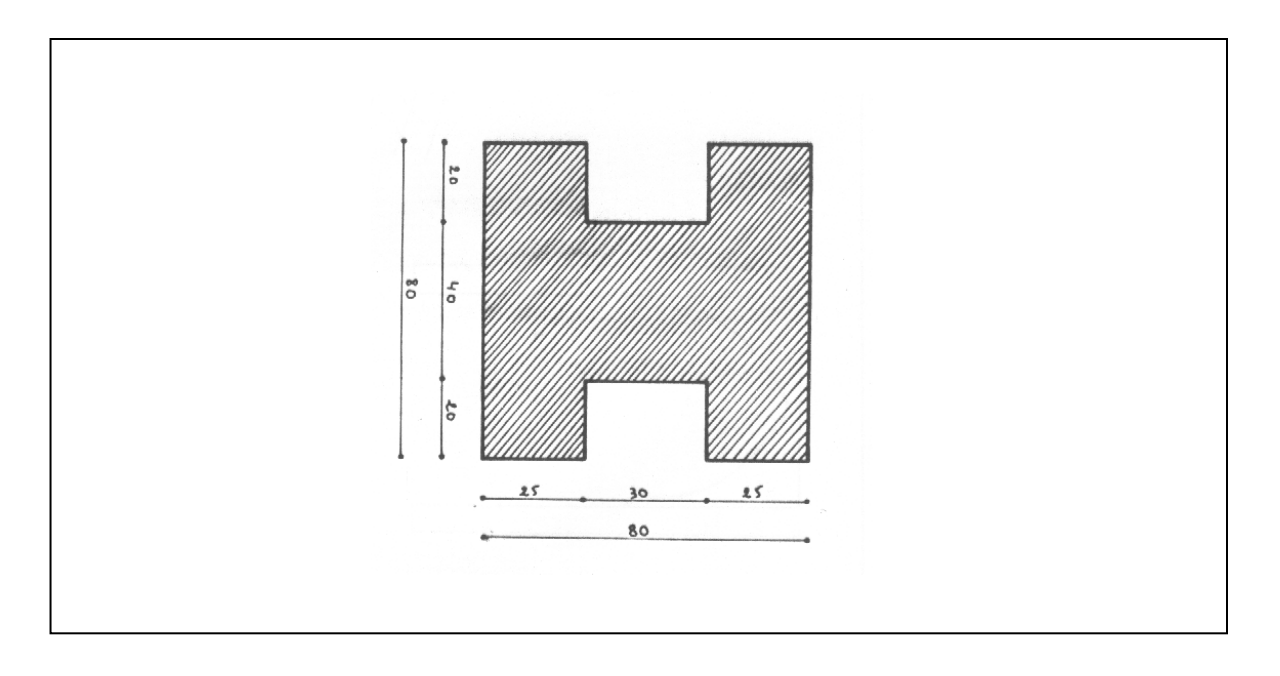


شكل 08: الواجهة الجنوبية الشرقية لجامع قصبة بجاية

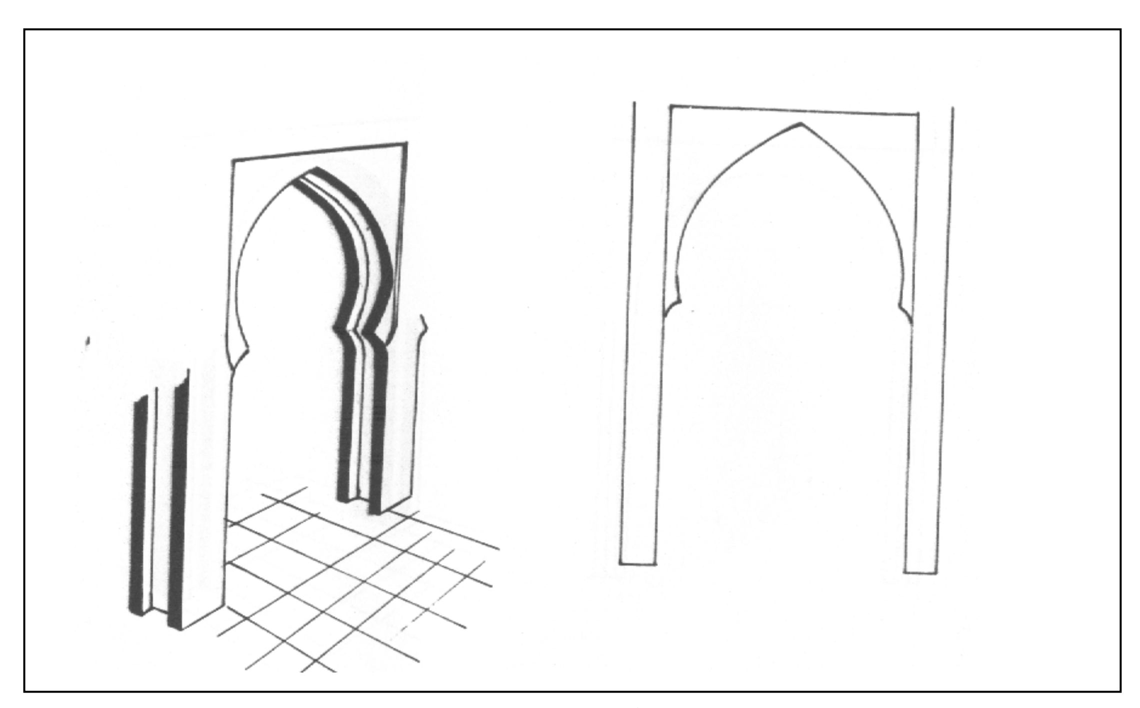


شكل 09: الواجهة الجنوبية الغربية لجامع قصبة بجاية

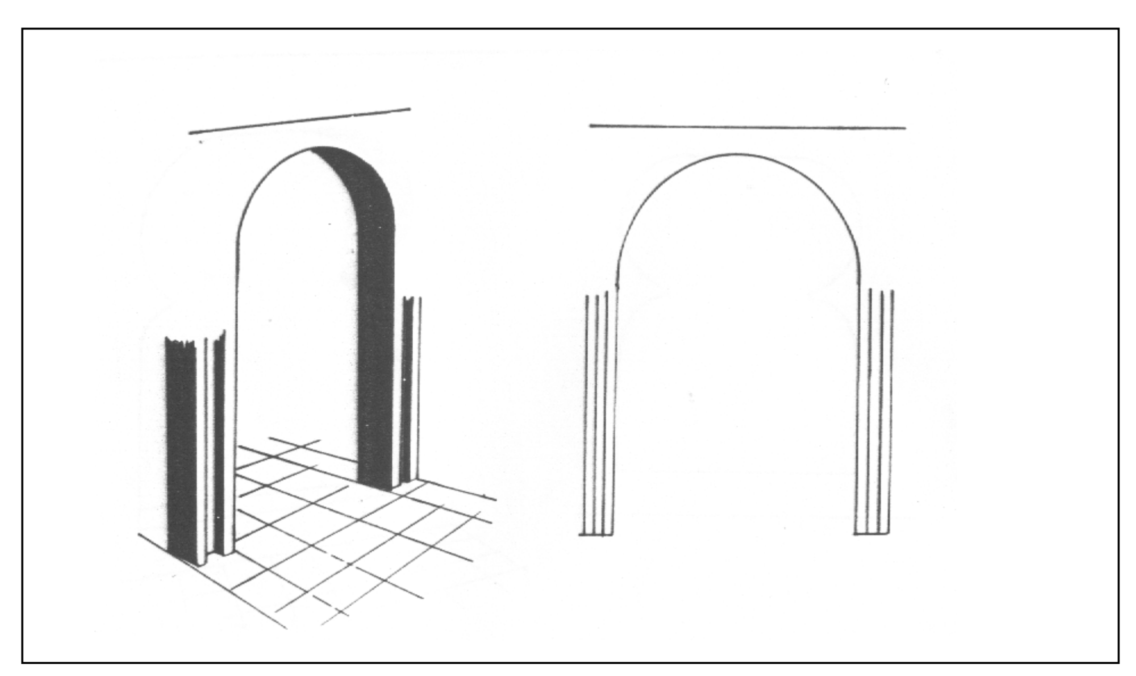
شكل 10: مسقط أرضي لجامع قصبة بجاية سلم 100/1



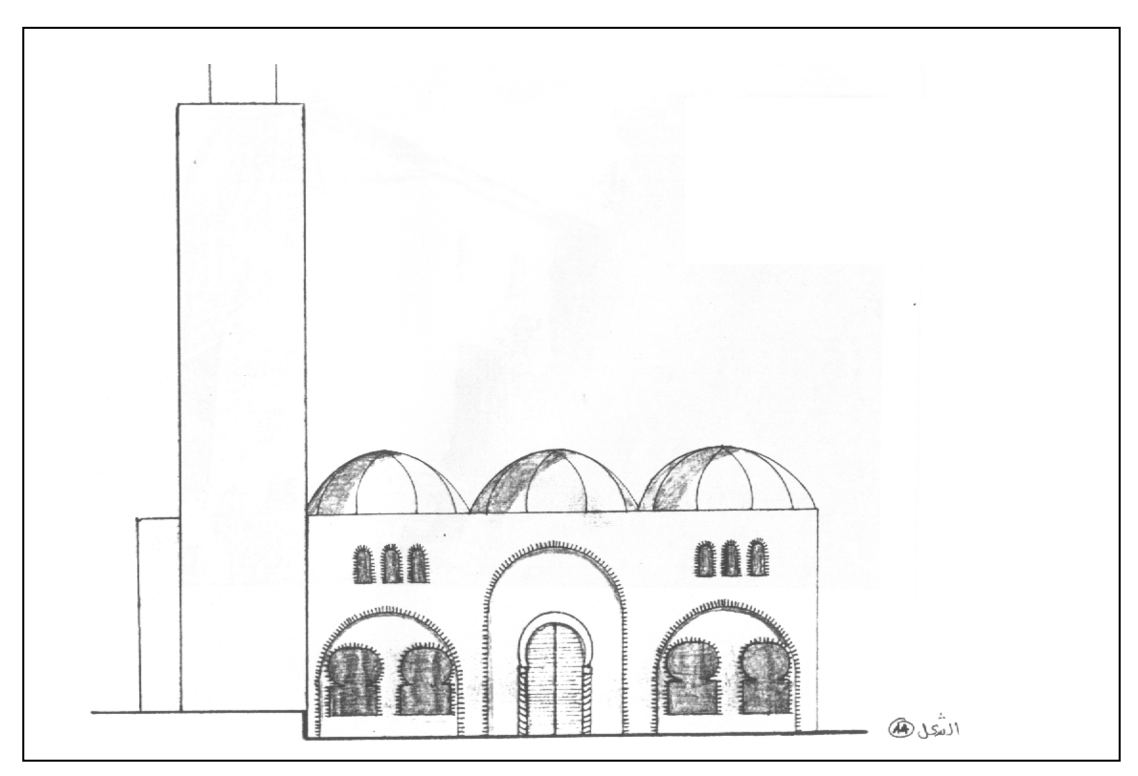
شكل 11: شكل دعامات مسجد القصبة ببجاية



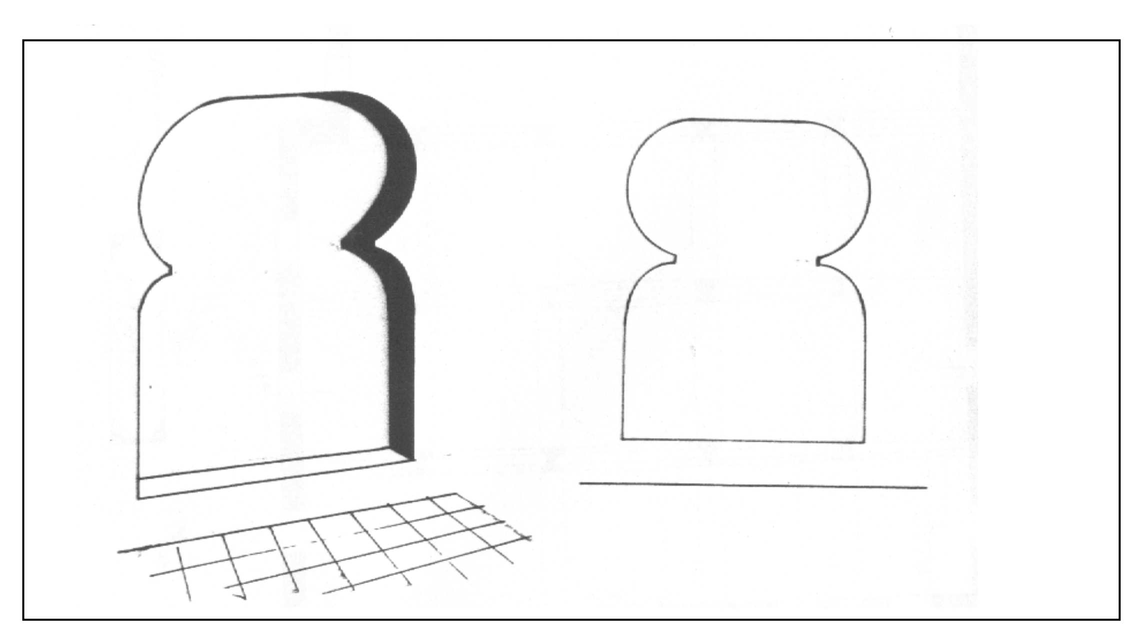
شكل 12أ: عقود جامع القصبة ببجاية



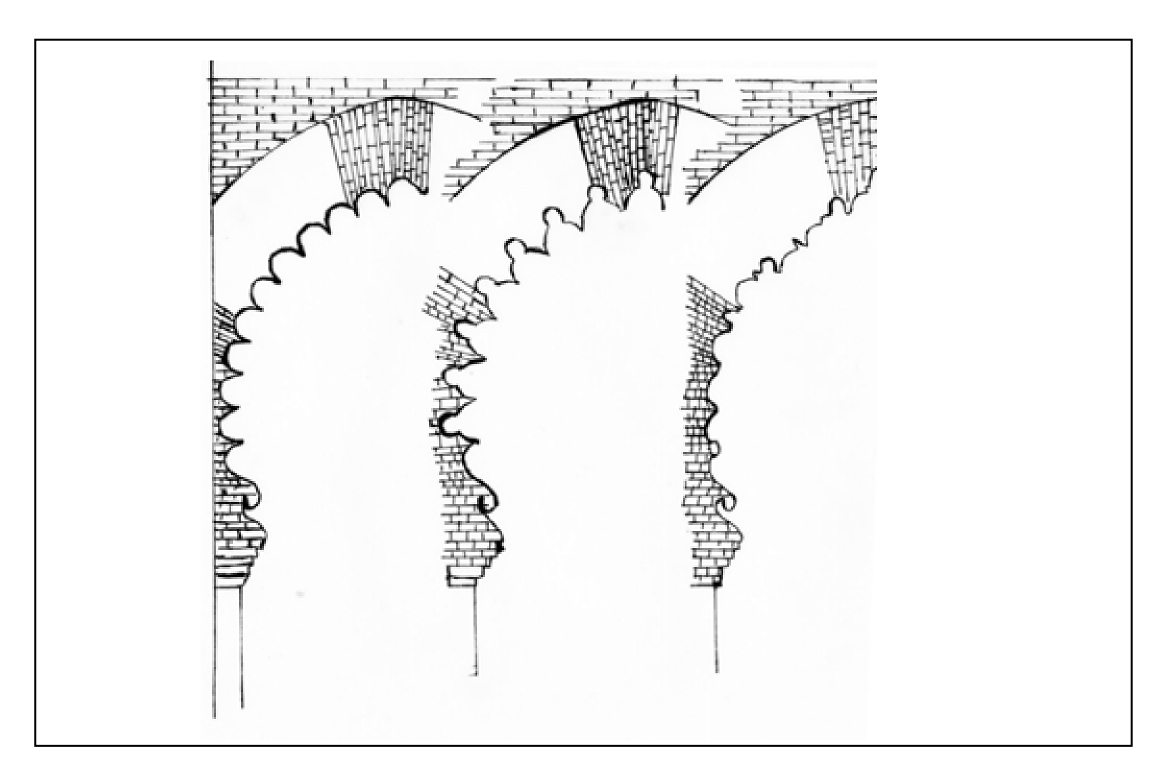
شكل 12 ب: نموذج من عقود جامع القصبة ببجاية



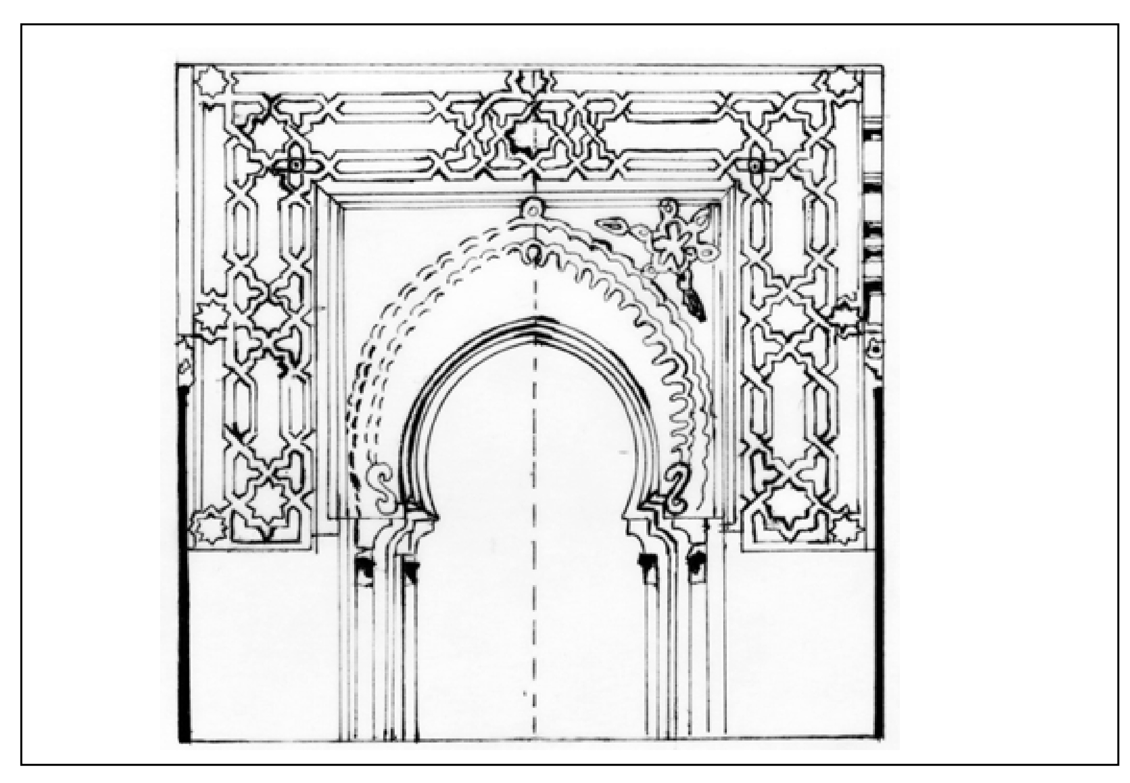
شكل 13: إعادة تصور للواجهة الجنوبية الغربية لجامع القصبة ببجاية



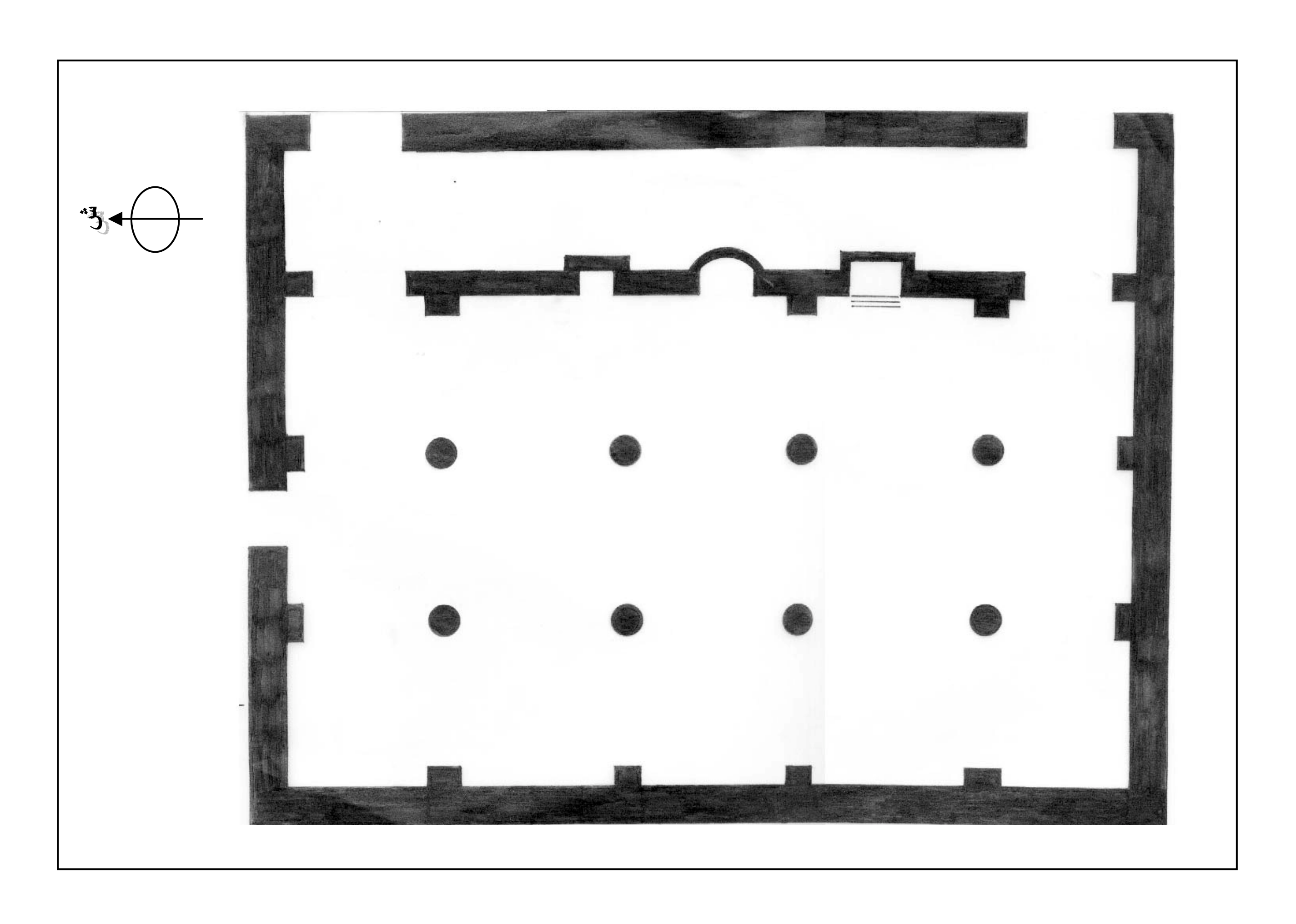
شكل 14: العقد على شكل مقبض القفة لجامع القصبة ببجاية



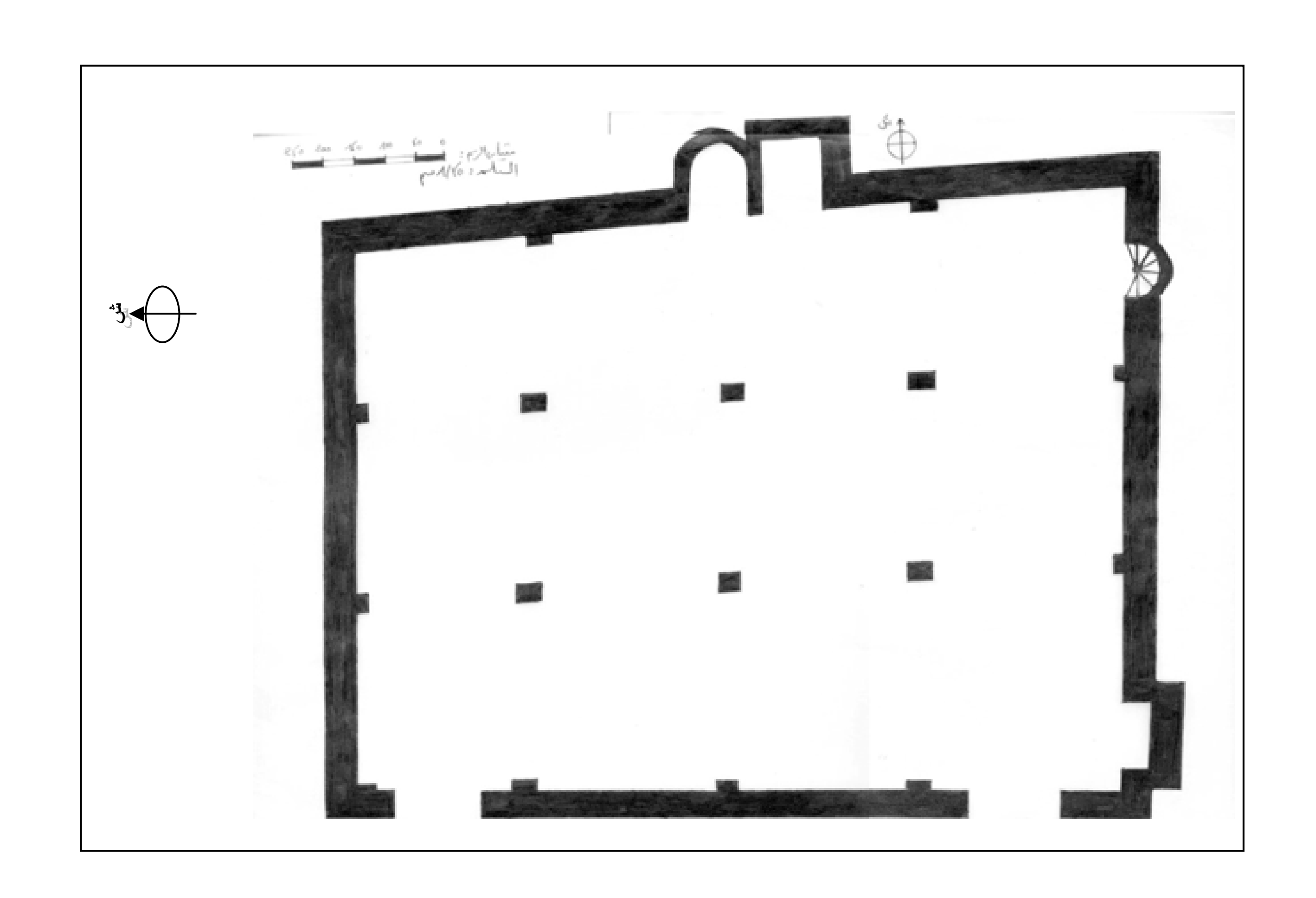
شكل 15: عقود مفصصة منتشرة في العمائر الموحدية (عن Golvin)



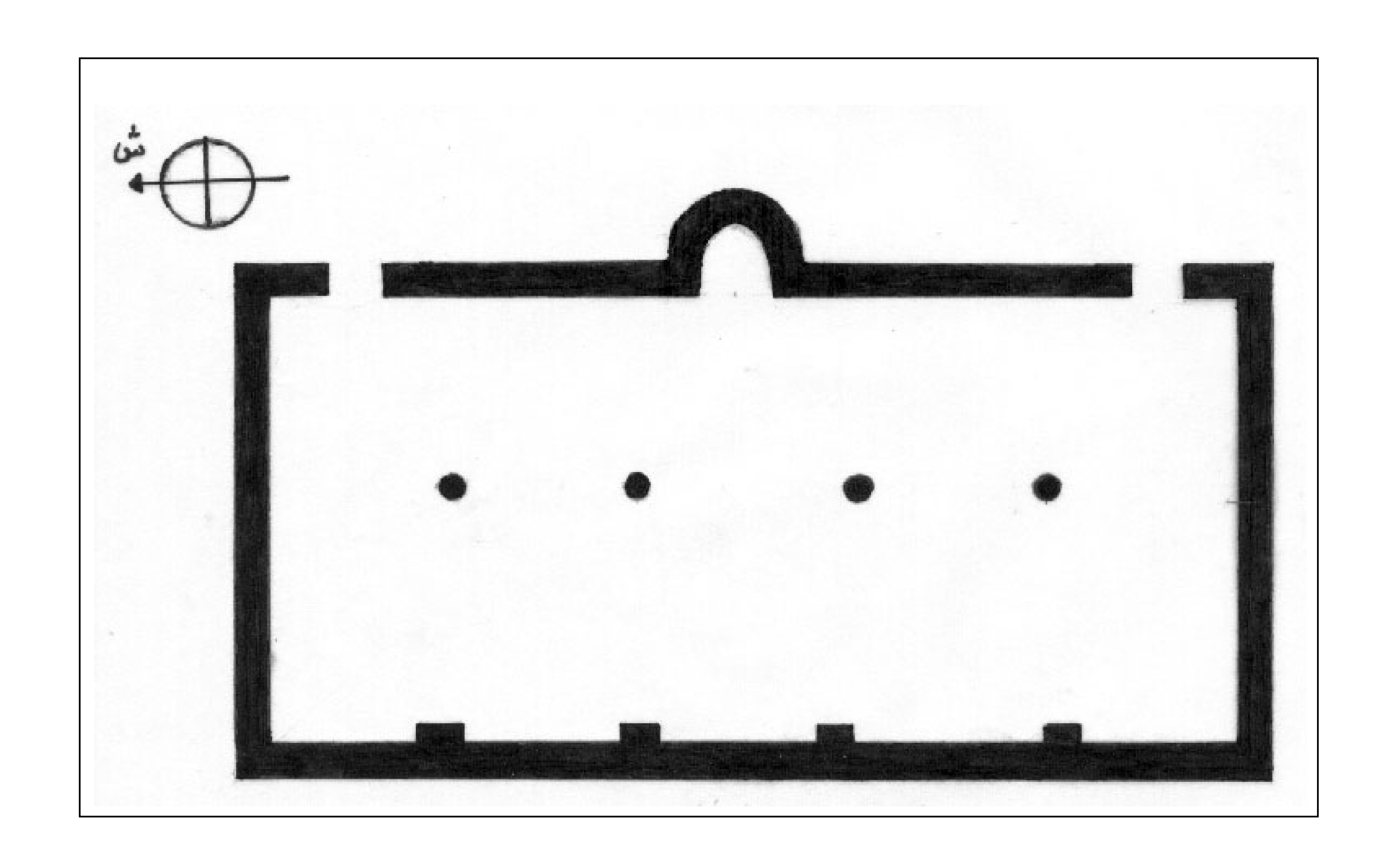
شكل 16: زخارف محراب تنمل من العهد الموحدي عن (Golvin)



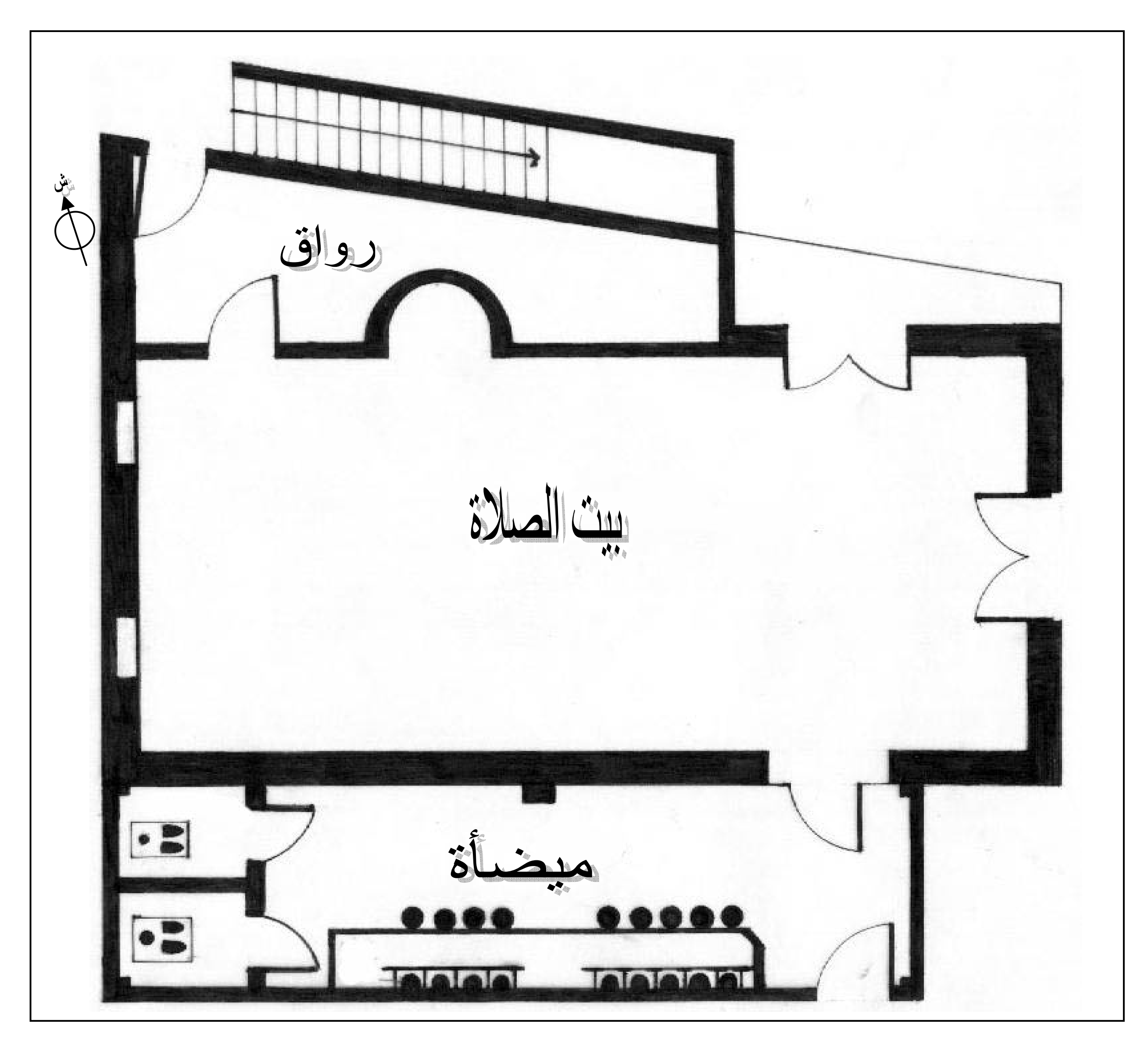
شكل 17: مسقط أرضي لجامع أمالو العتيق سلم 50/1



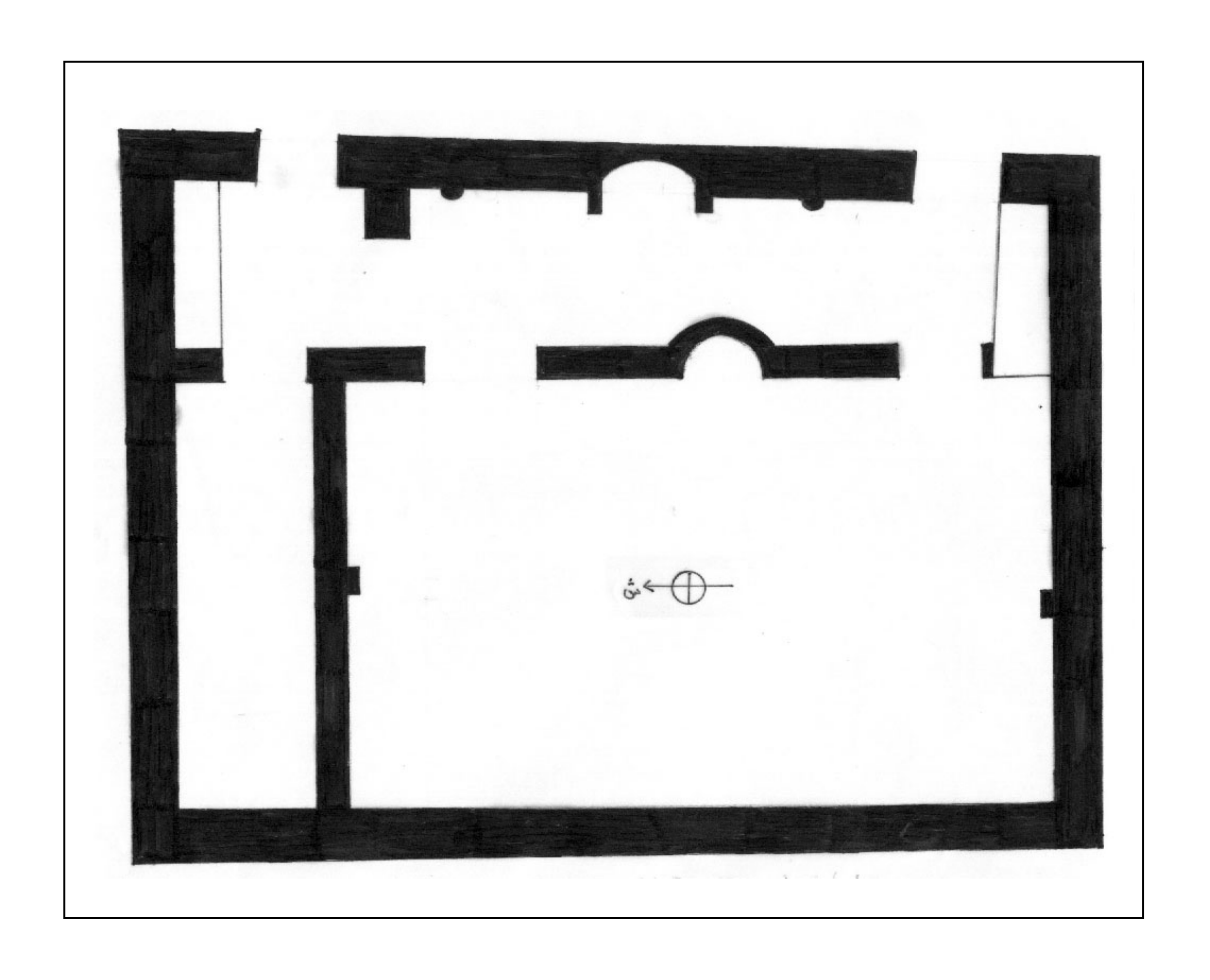
شكل 18: مسقط أرضي لجامع أحمد مقران بقلعة بني عباس سلم 50/1



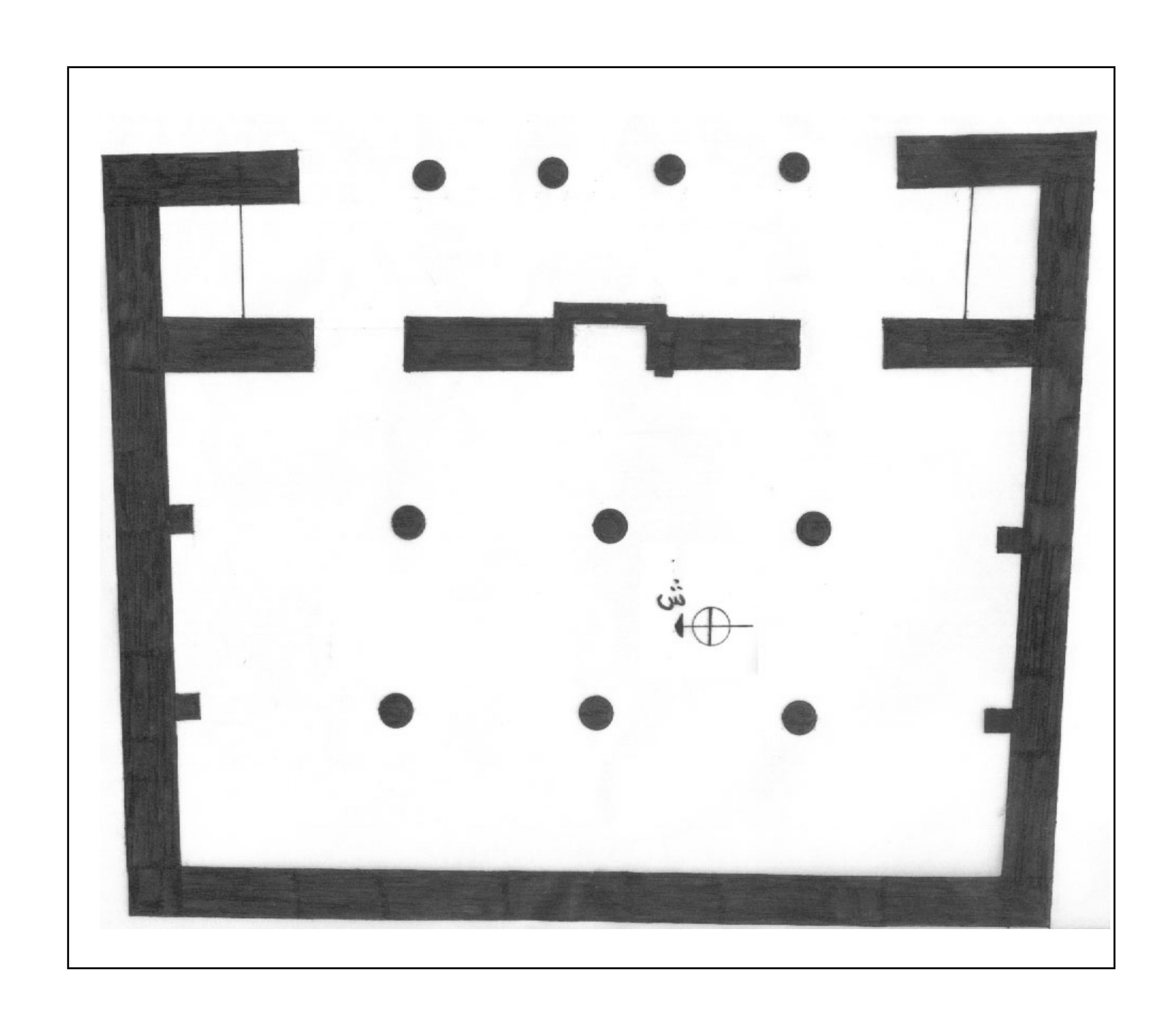
شكل 19: مخطط جامع صدوق العليا سلم 100/1



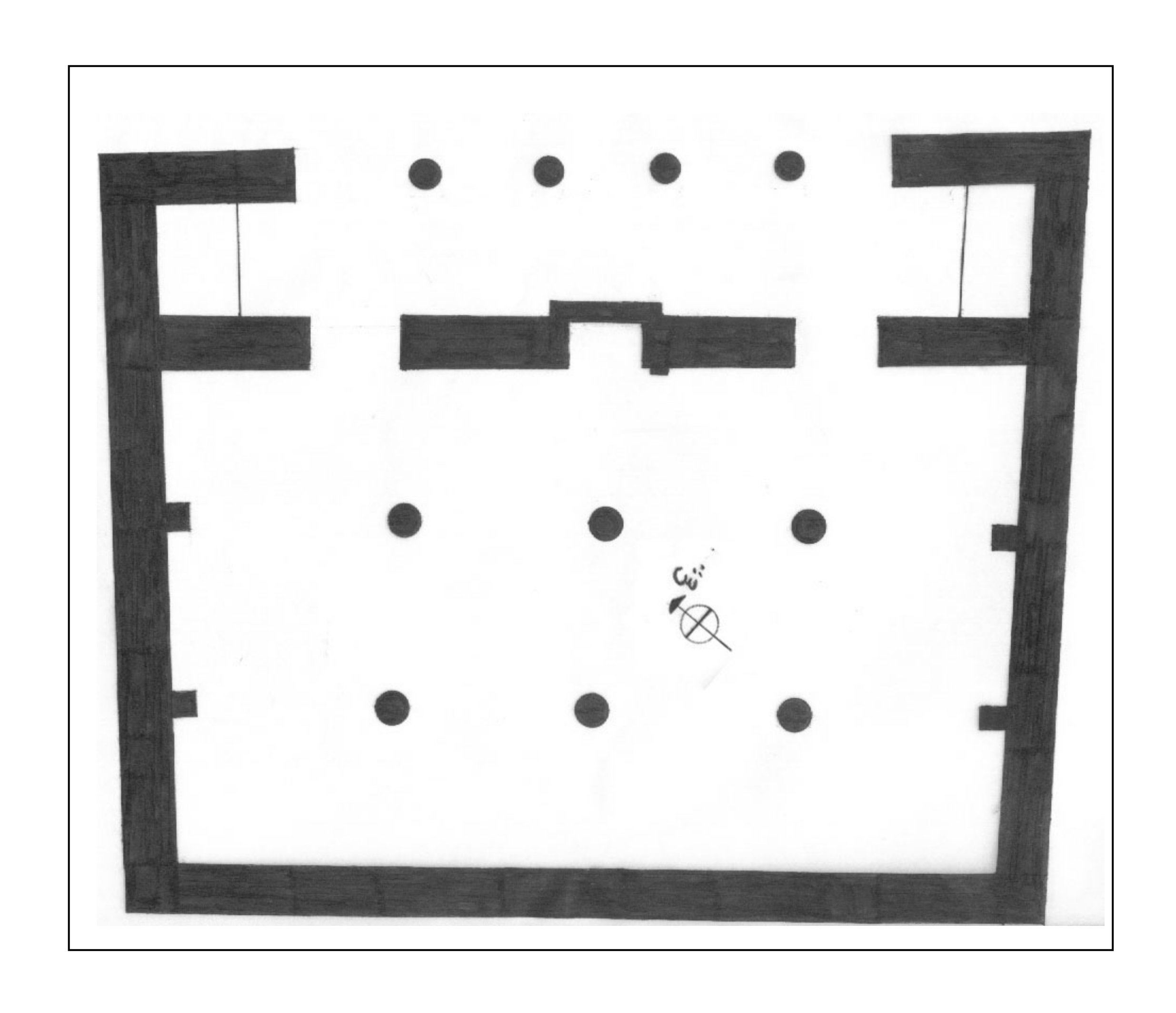
شكل 20: مسقط أرضي مسجد سيدي عبد الحق ببجاية سلم 75/1



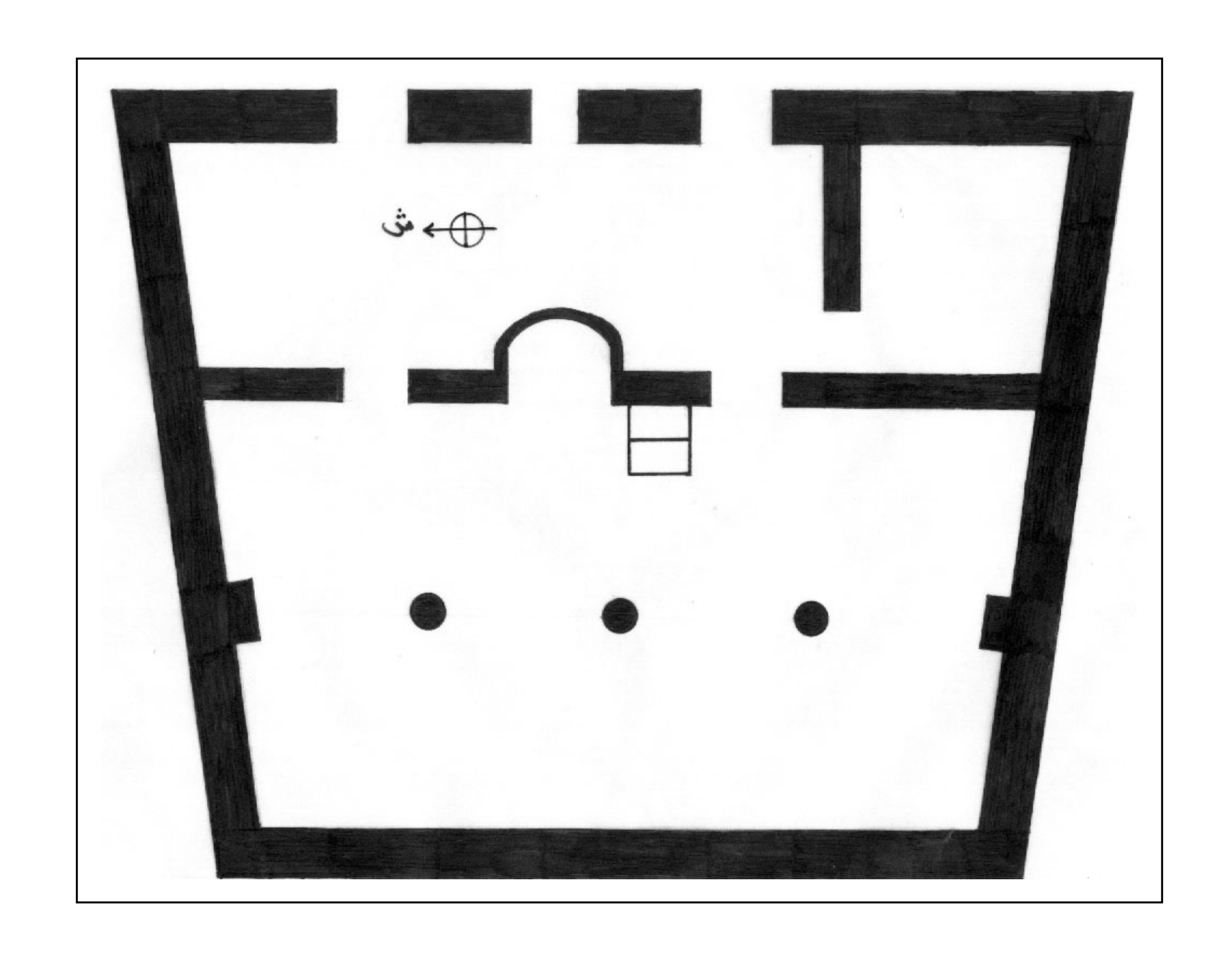
شكل 21: مسقط أرضي لجامع تامقرة القديم سلم50/1



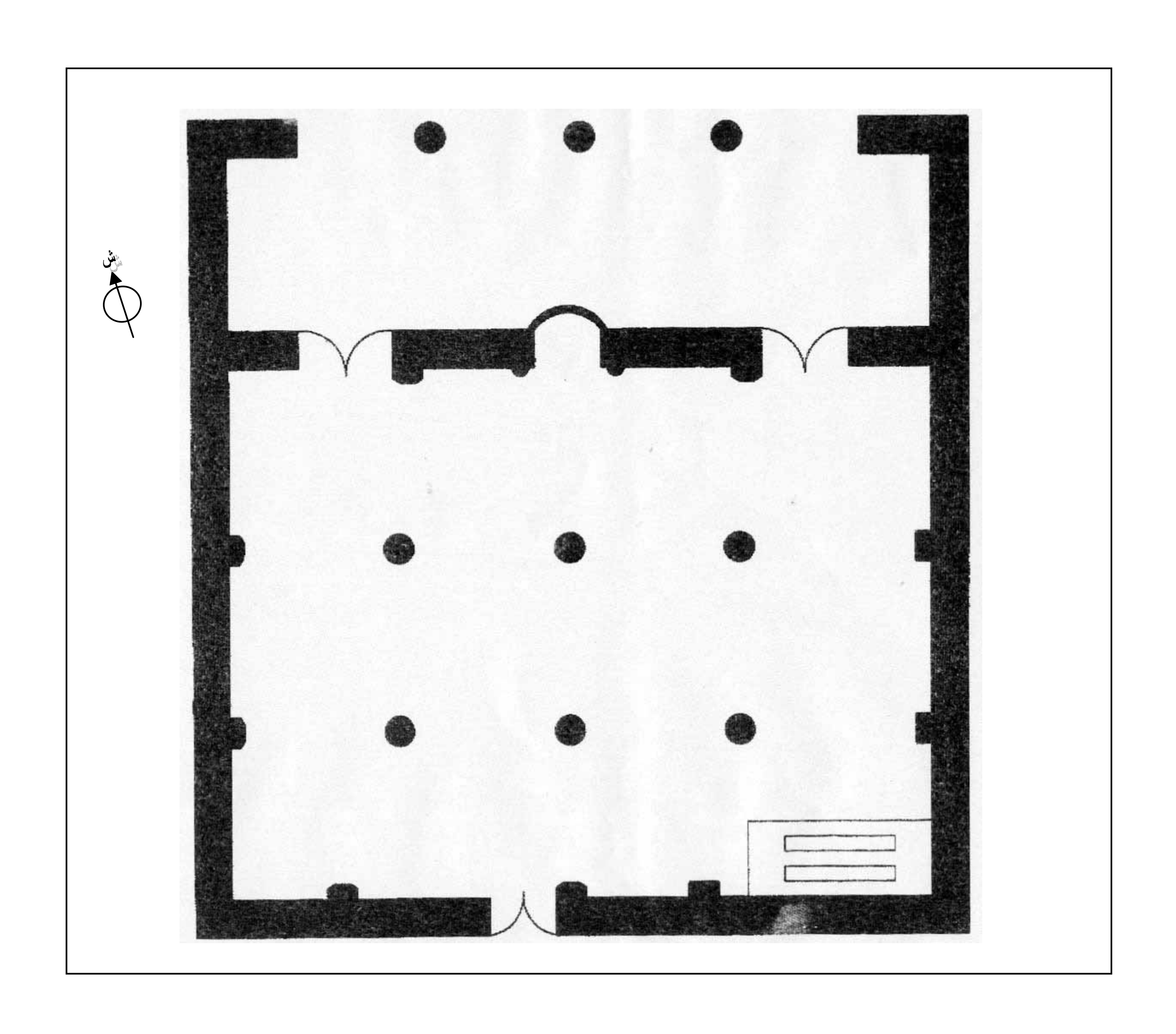
شكل 22: مسقط أرضي لجامع بوديوان بحي إقمونن ببو حمزة سلم 50/1



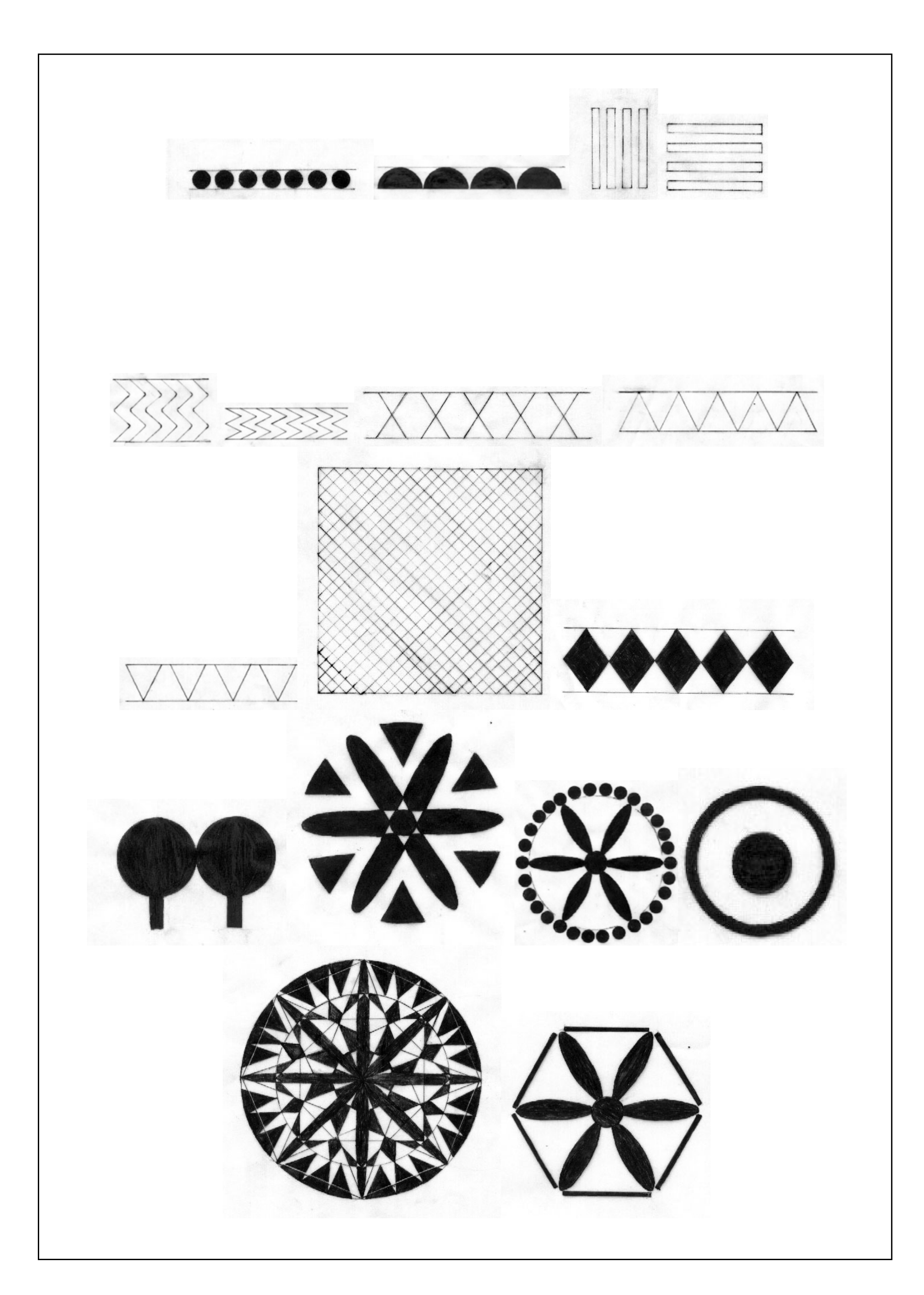
شكل 23: مسقط أرضي لجامع سيدي براهم ببو حمزة سلم 50/1



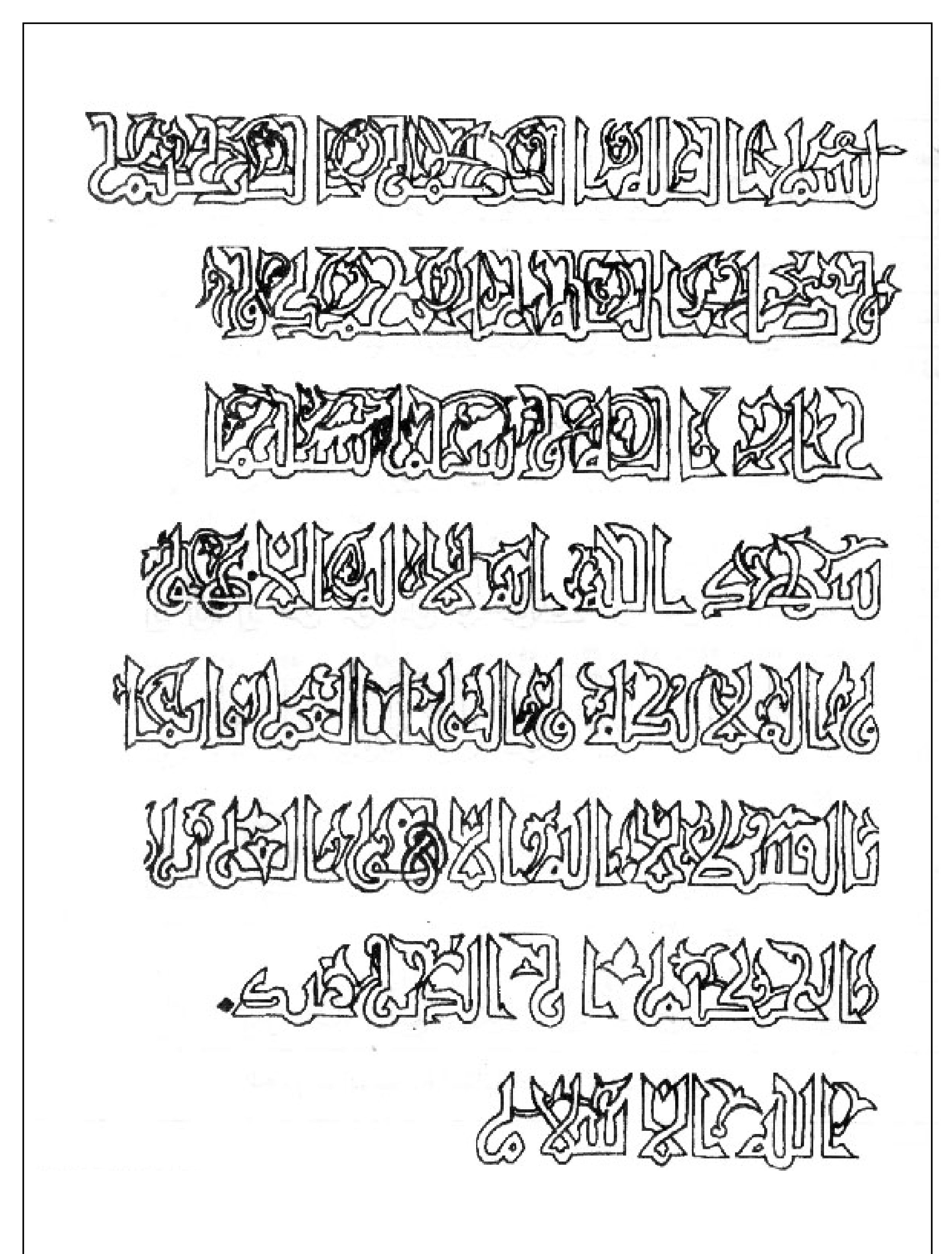
شكل 24: مسقط أرضي لجامع بني خيار (بني معوش) سلم 50/1



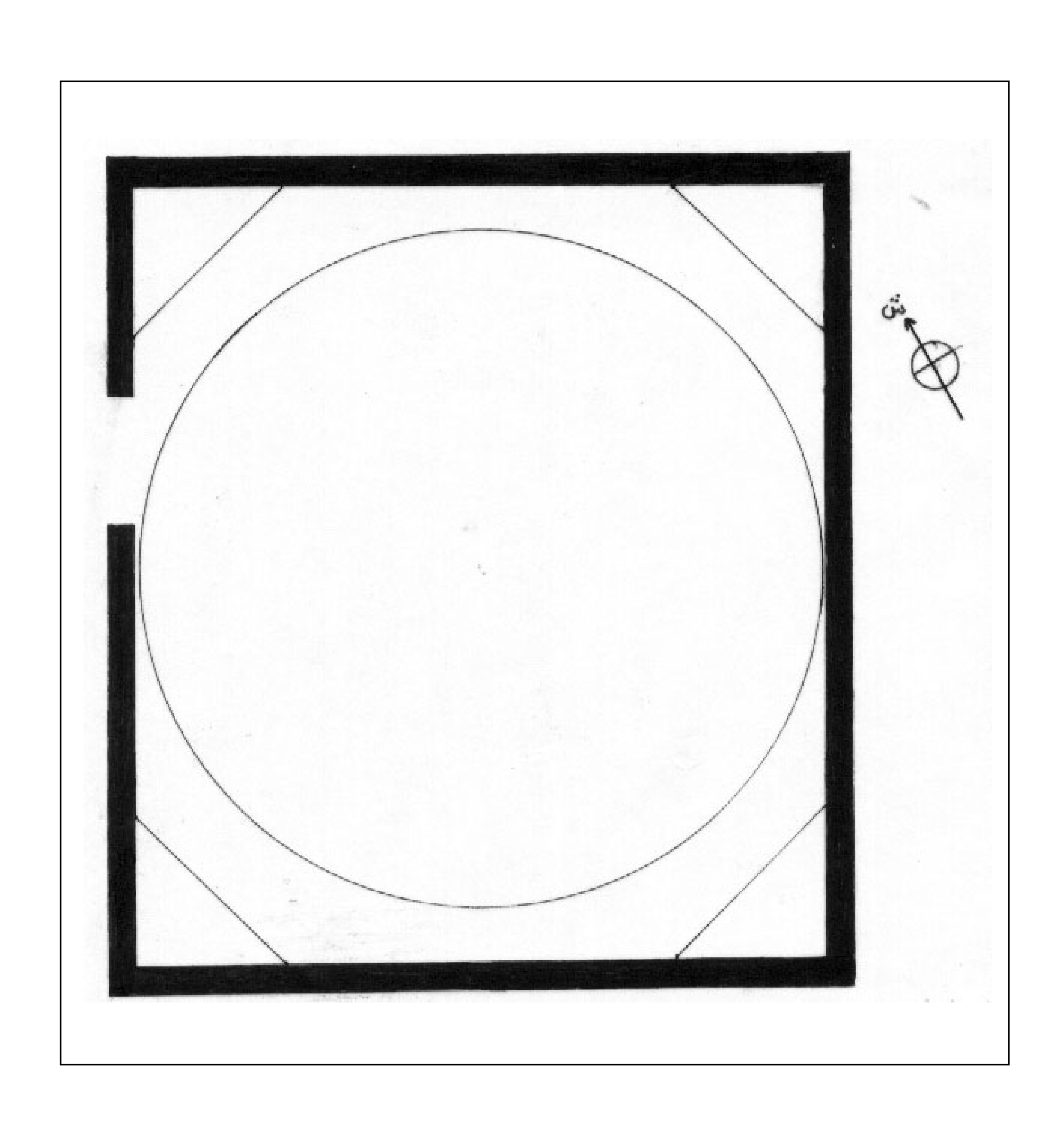
شكل 25: مسقط أرضي لمسجد أسحنون بقلعة بني عباس سلم 75/1



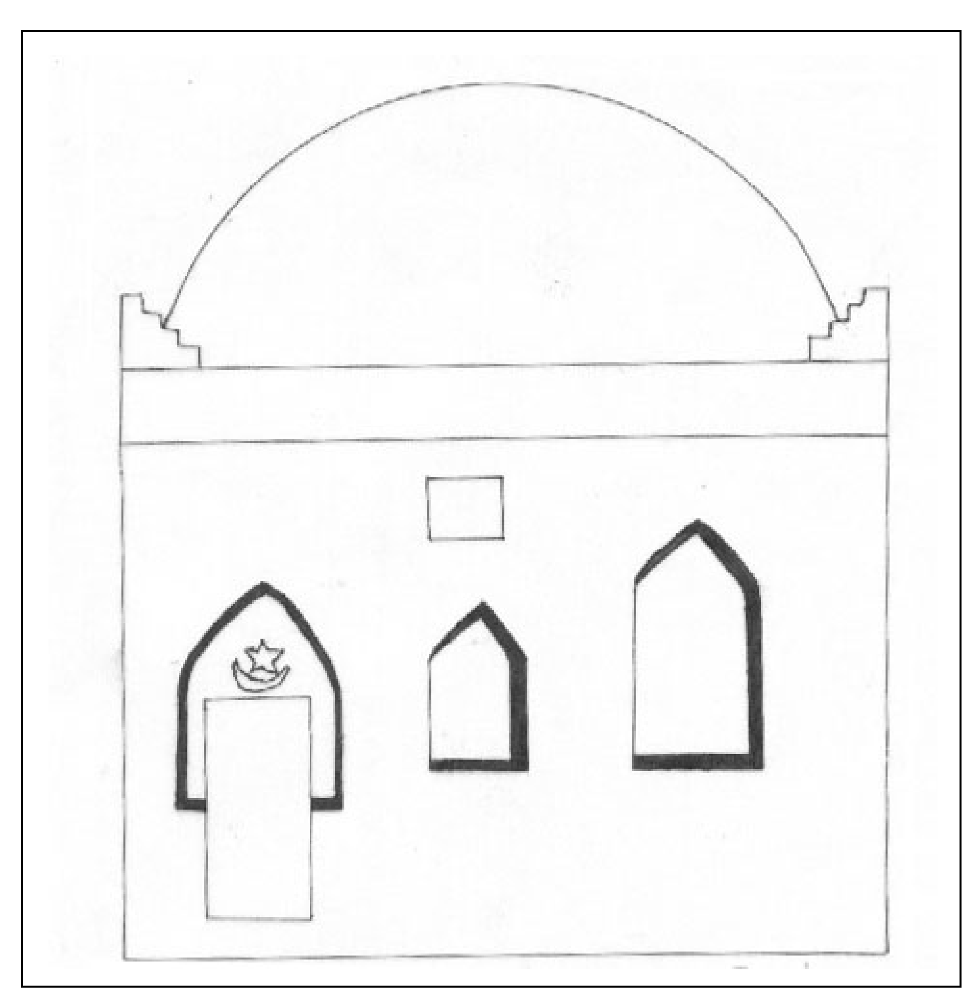
شكل 26: زخارف المساجد بحوض الصومام



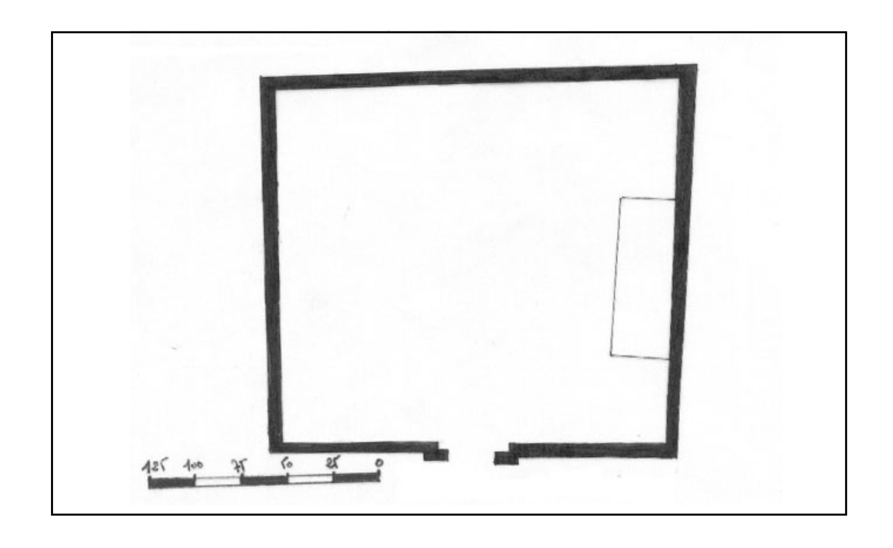
شكل 27: كتابة عثر عليها بضريح سيدي تواتي ببجاية عن (معزوز)



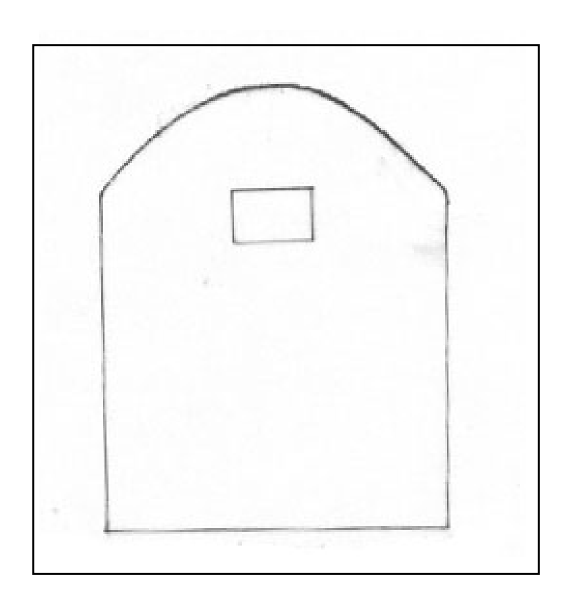
شكل 28: مسقط أرضي لضريح سيدي تواتي ببجاية سلم 25/1



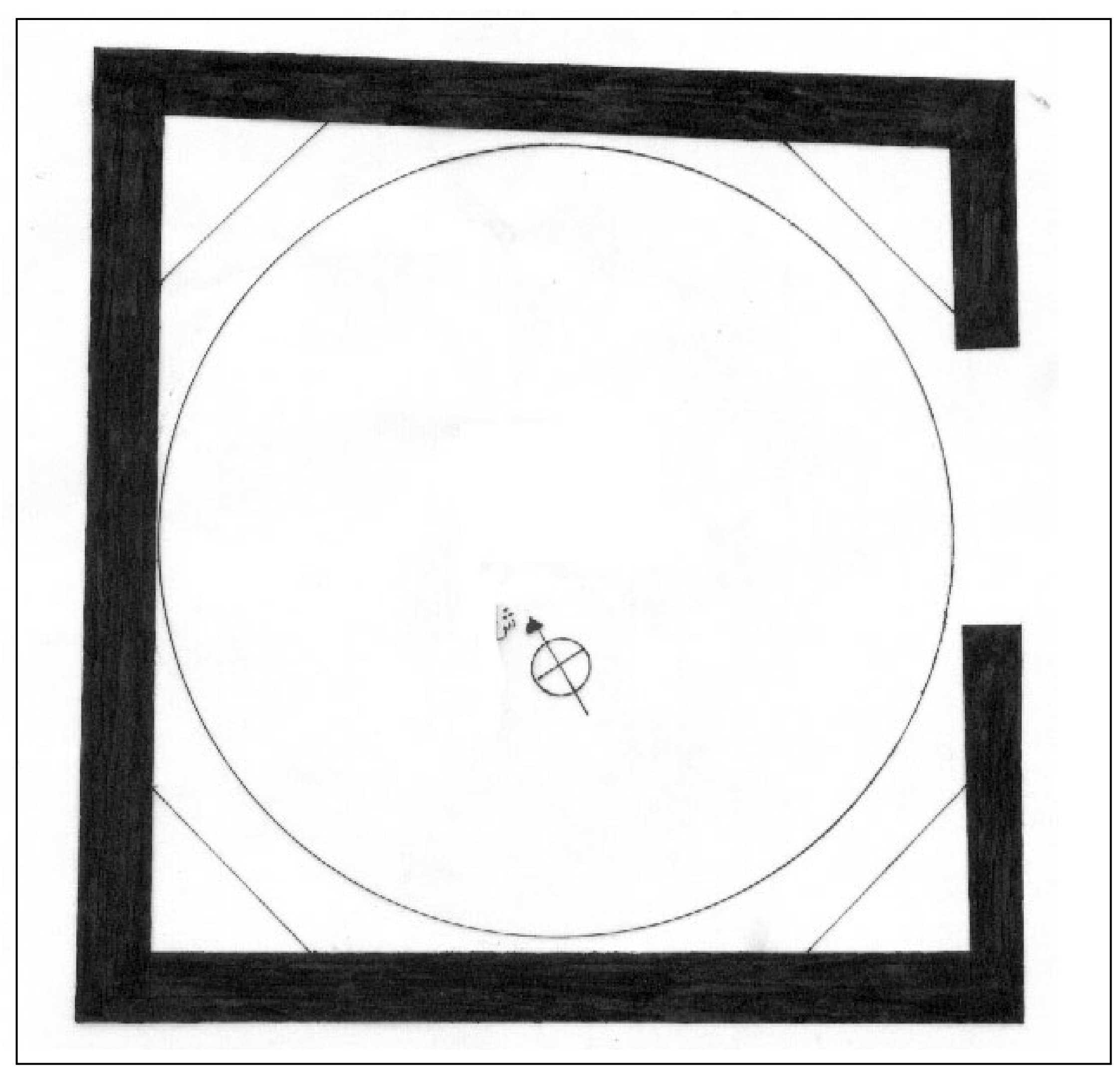
شكل 29: رسم تخطيطي لواجهة ضريح سيدي تواتي



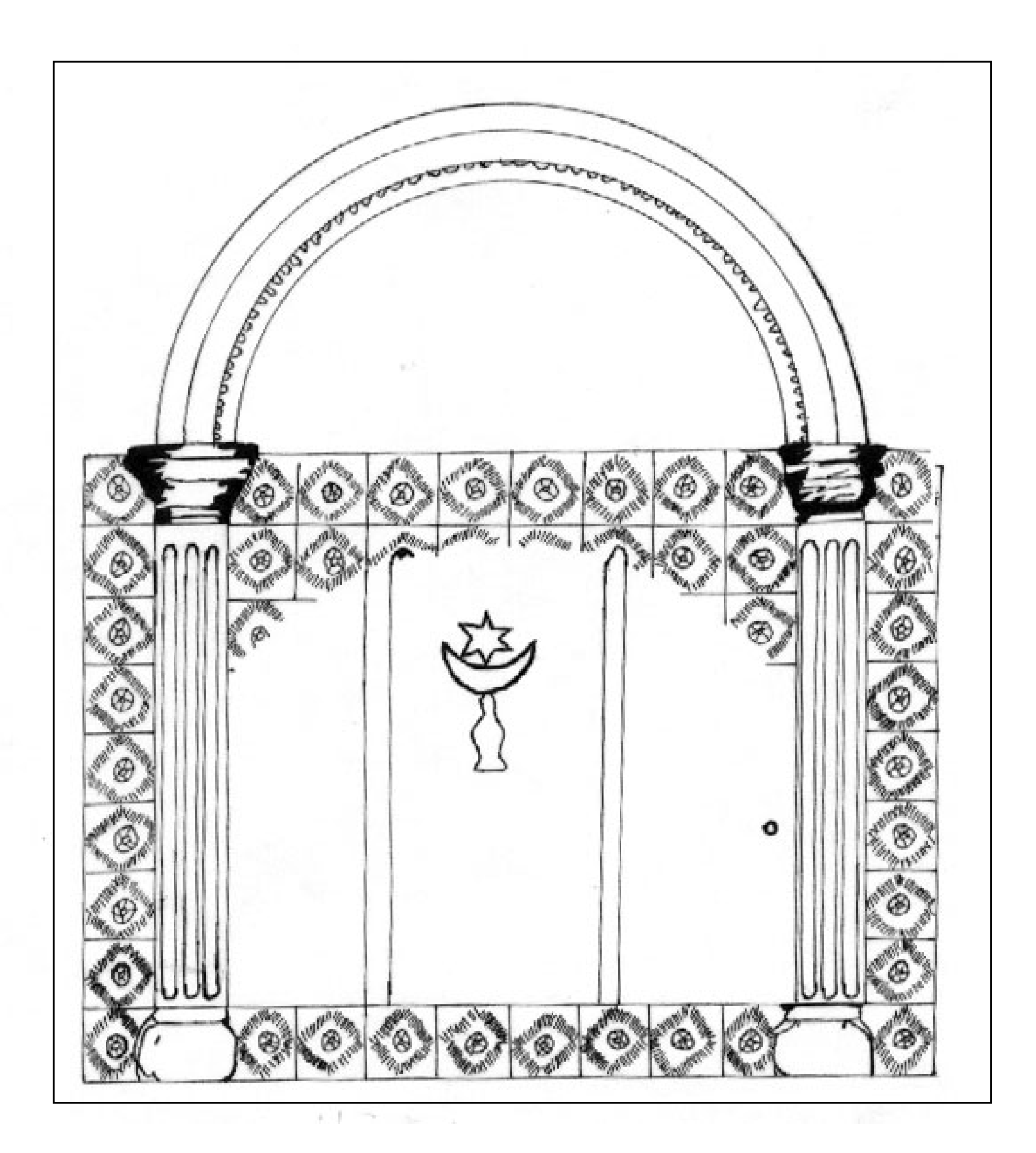
شكل 30: مسقط أرضي لضريح سيدي عبد الرحمان الصباغ ببجاية



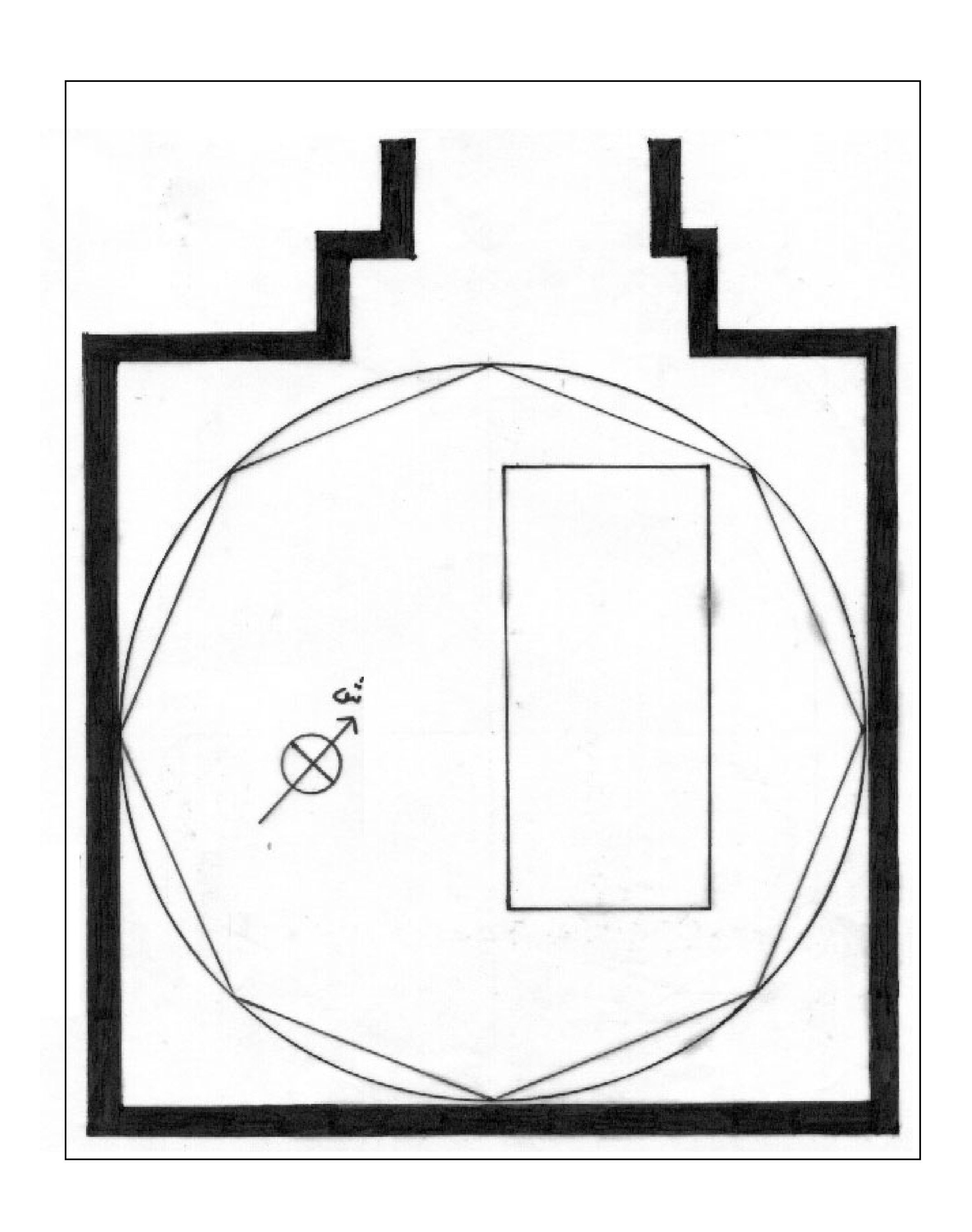
شكل 31: إحدى الفتحات الداخلية بضريح سيدي عبد الرحمان الصباغ



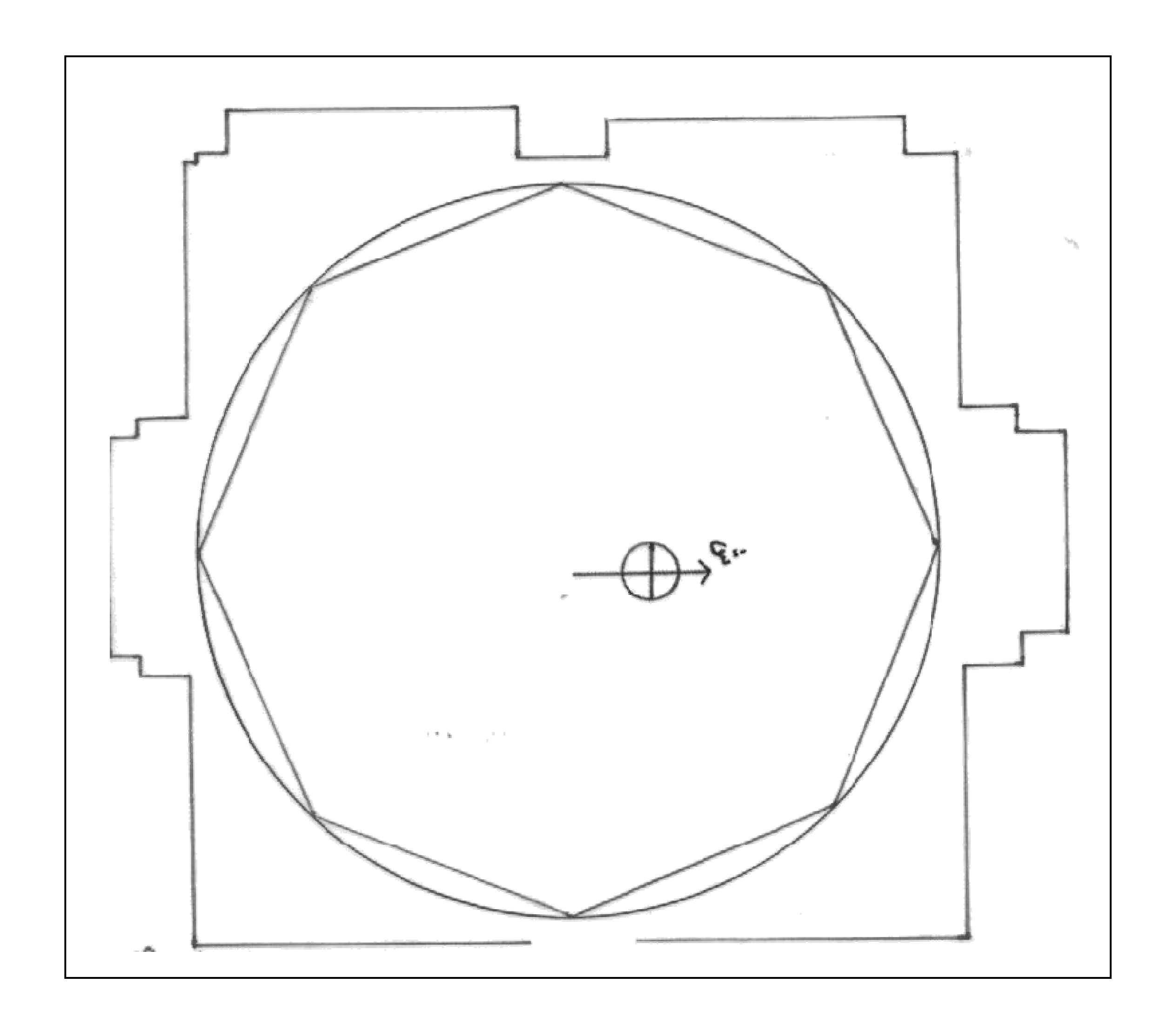
شكل 32: مسقط أرضي لضريح سيدي محمد أمقران ببجاية سلم 25/1



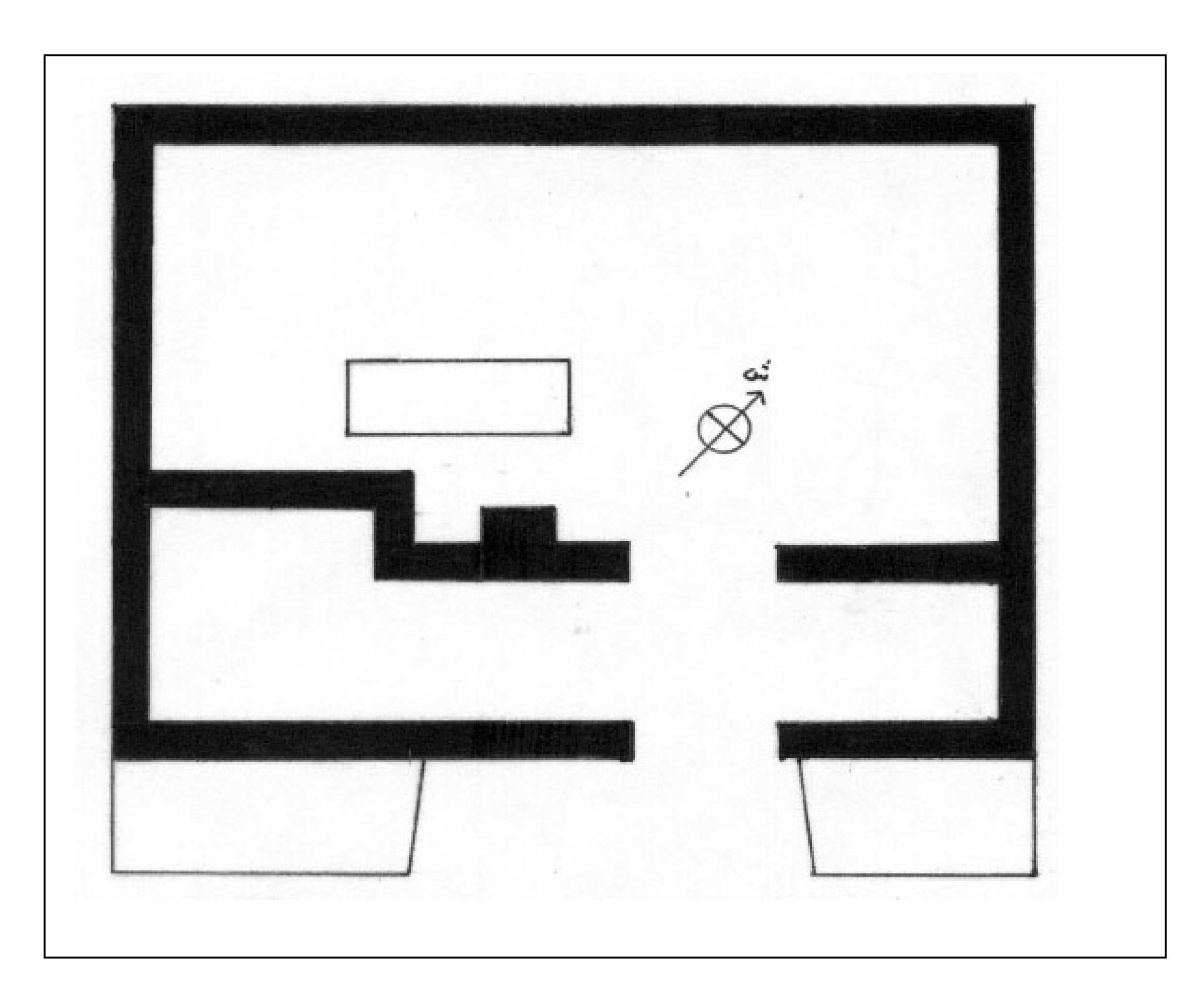
شكل 33: واجهة ضريح سيدي محمد أمقران



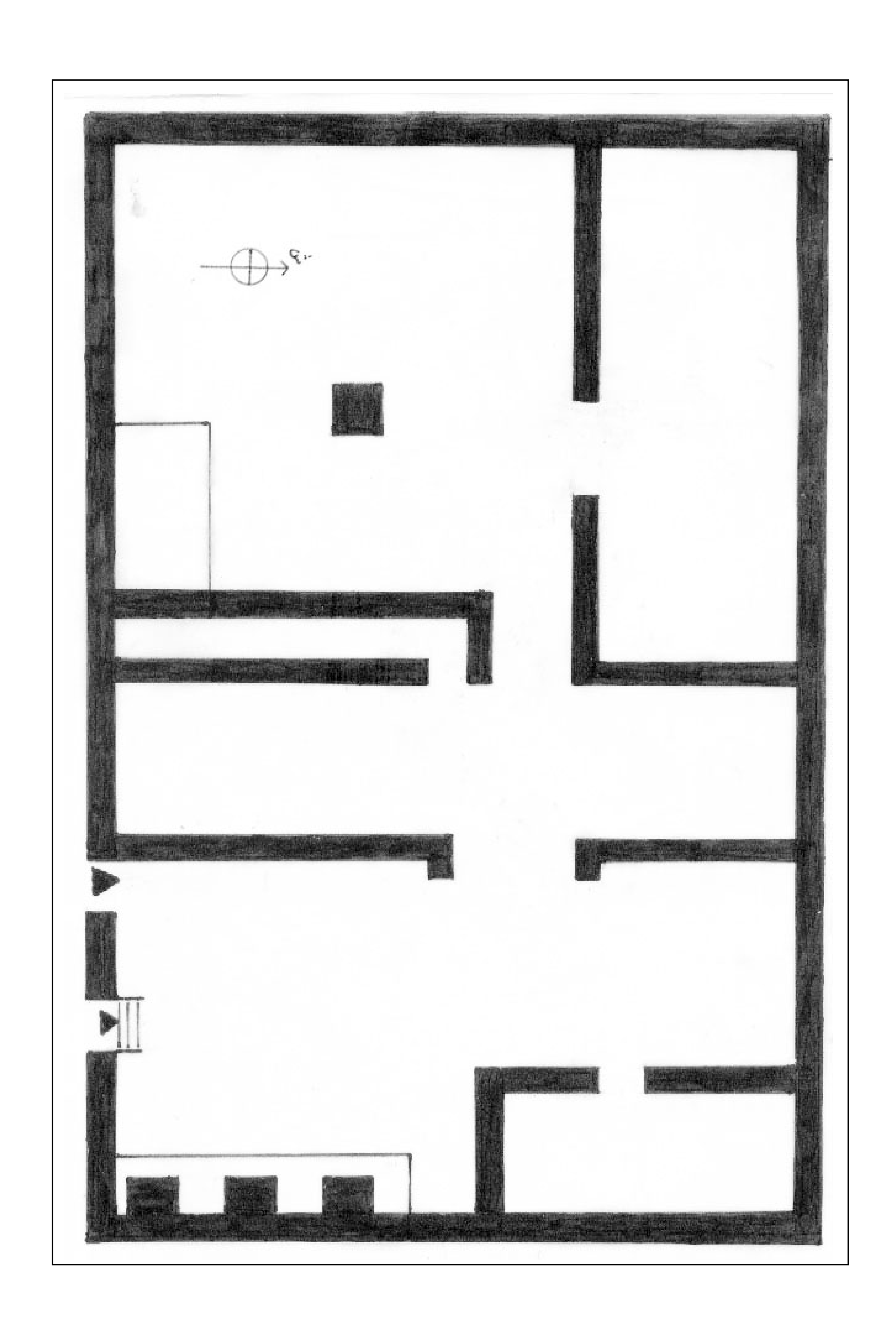
شكل 34: مسقط أرضي لضريح سيدي أحمد بن يحيى بأمالو سلم 25/1



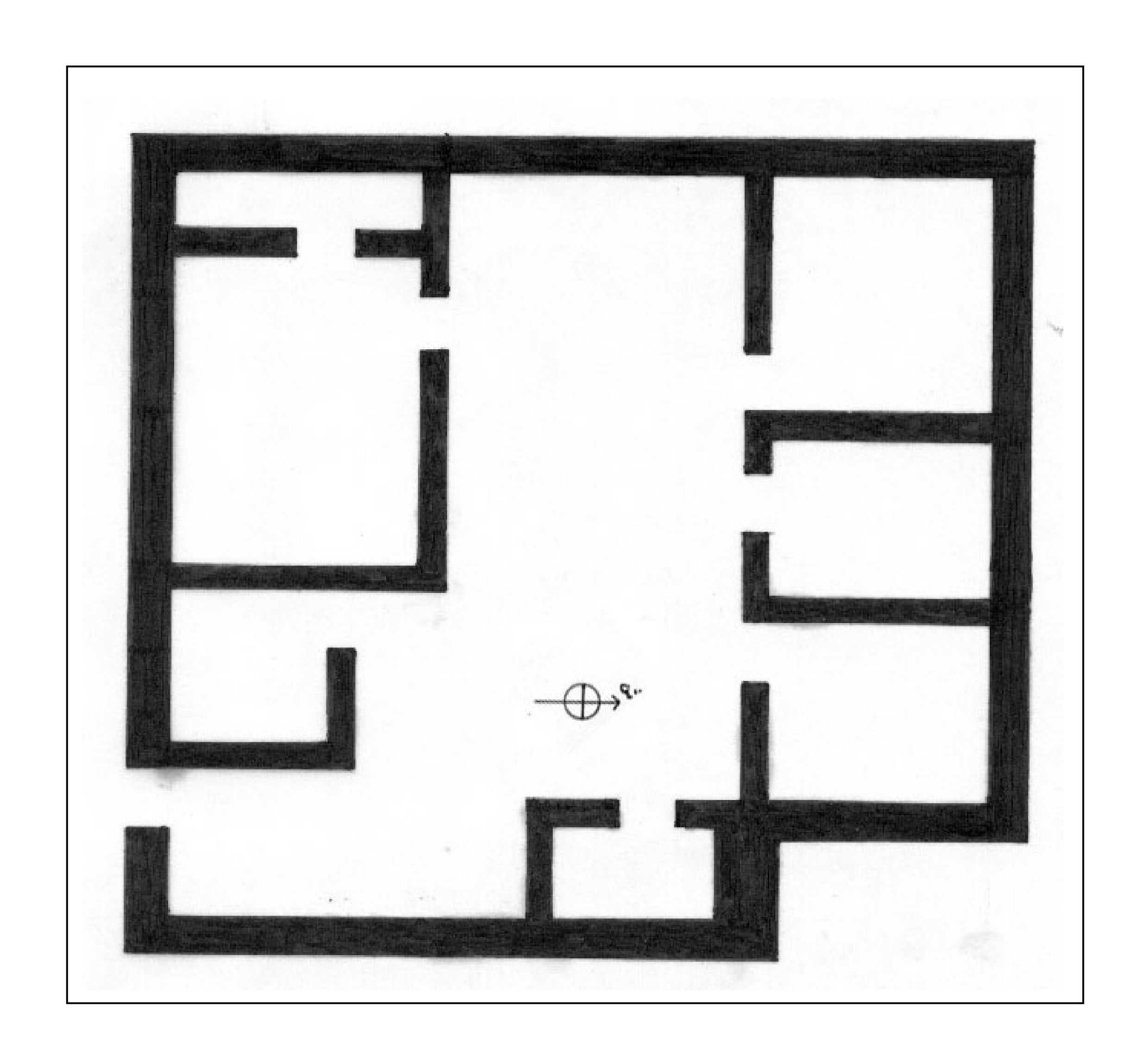
شكل 35: مسقط أرضي لضريح سيدي يحيى العيدلي بتامقرة سلم 30/1



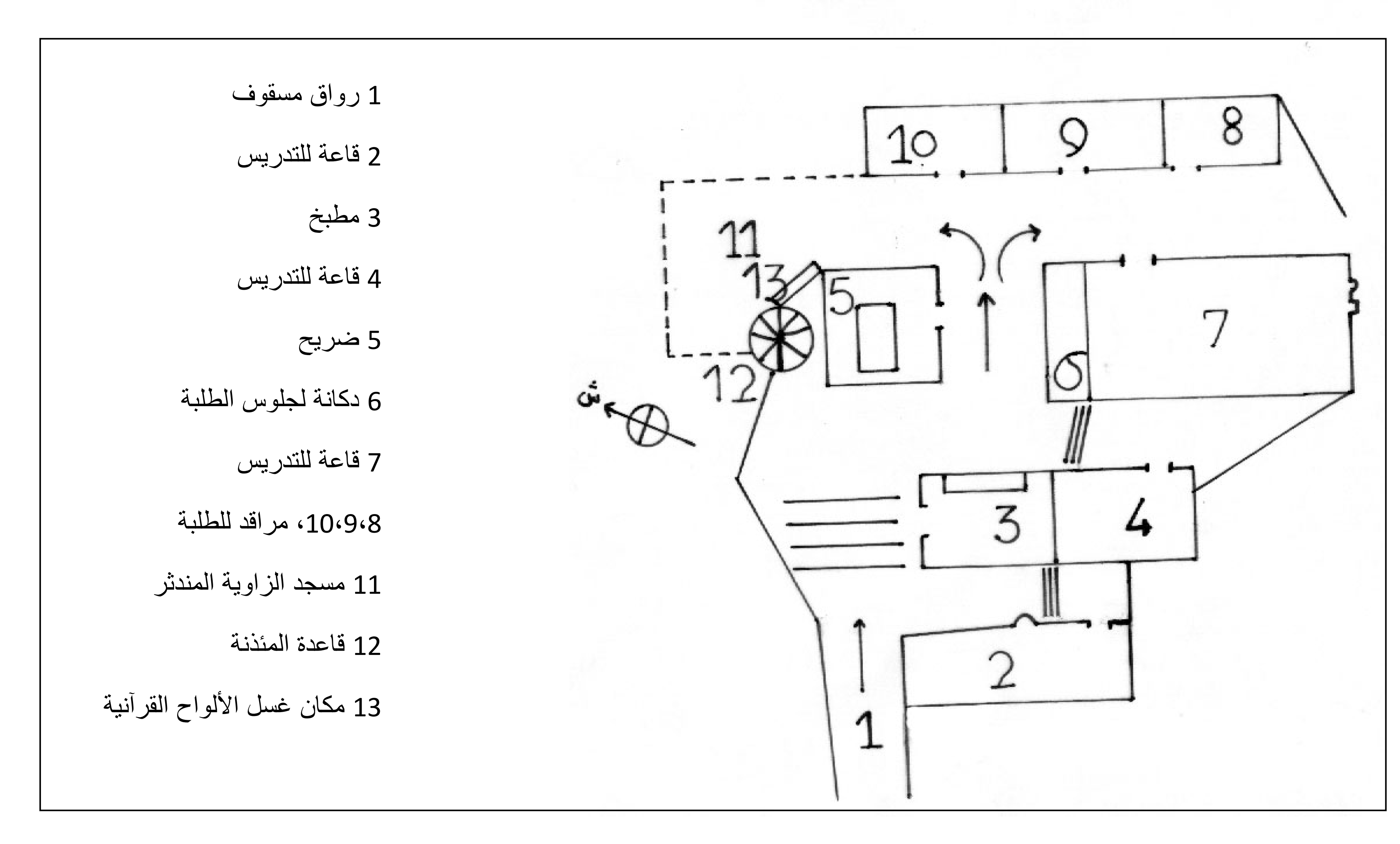
شكل 36: مسقط أرضي لضريح سيدي عبد الرحمان الوغليسي سيدي عيش سلم 50/1



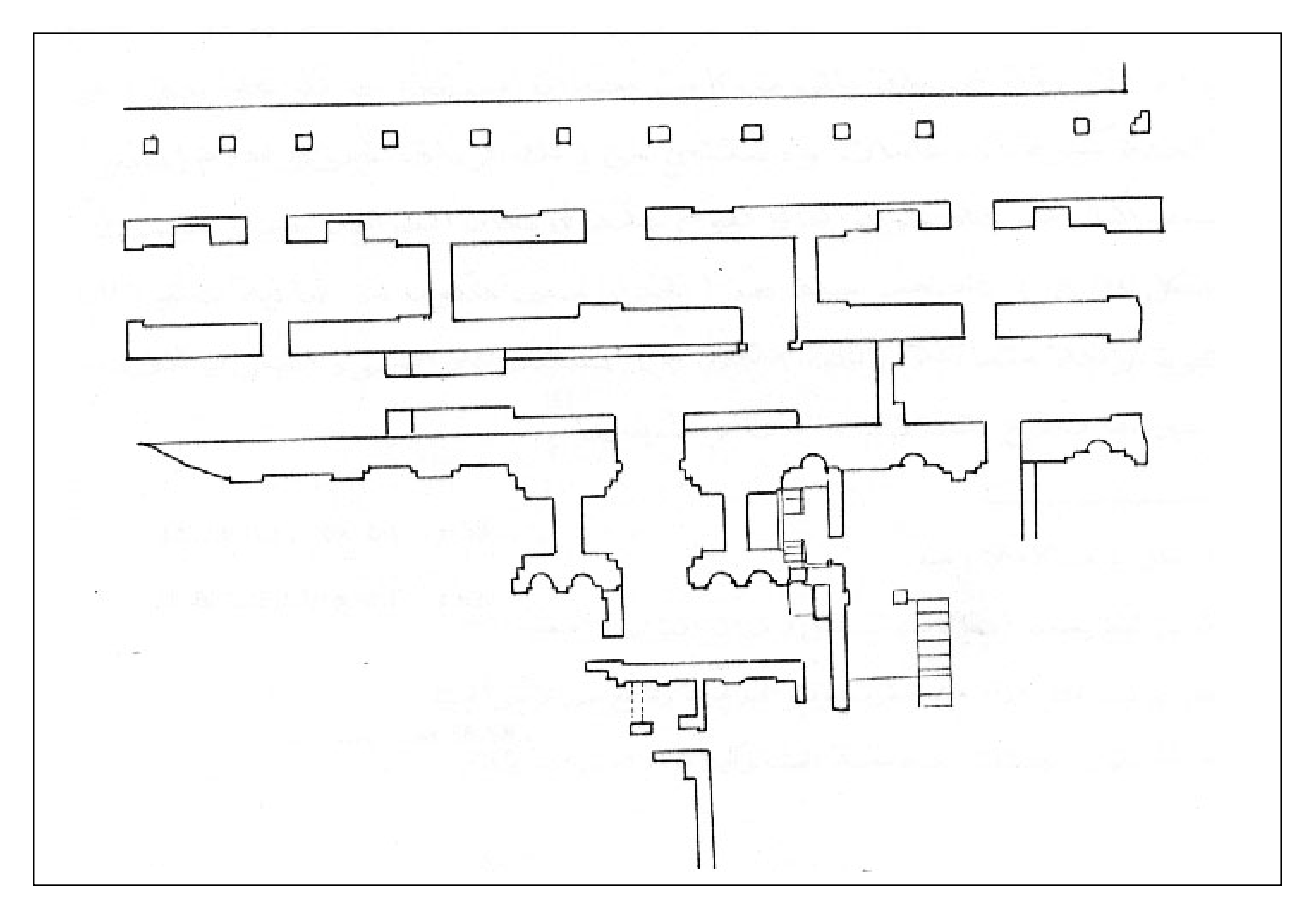
شكل 37أ: مسقط أرضي لزاوية سيدي أحمد بن يحيى بأمالو سلم 50/1



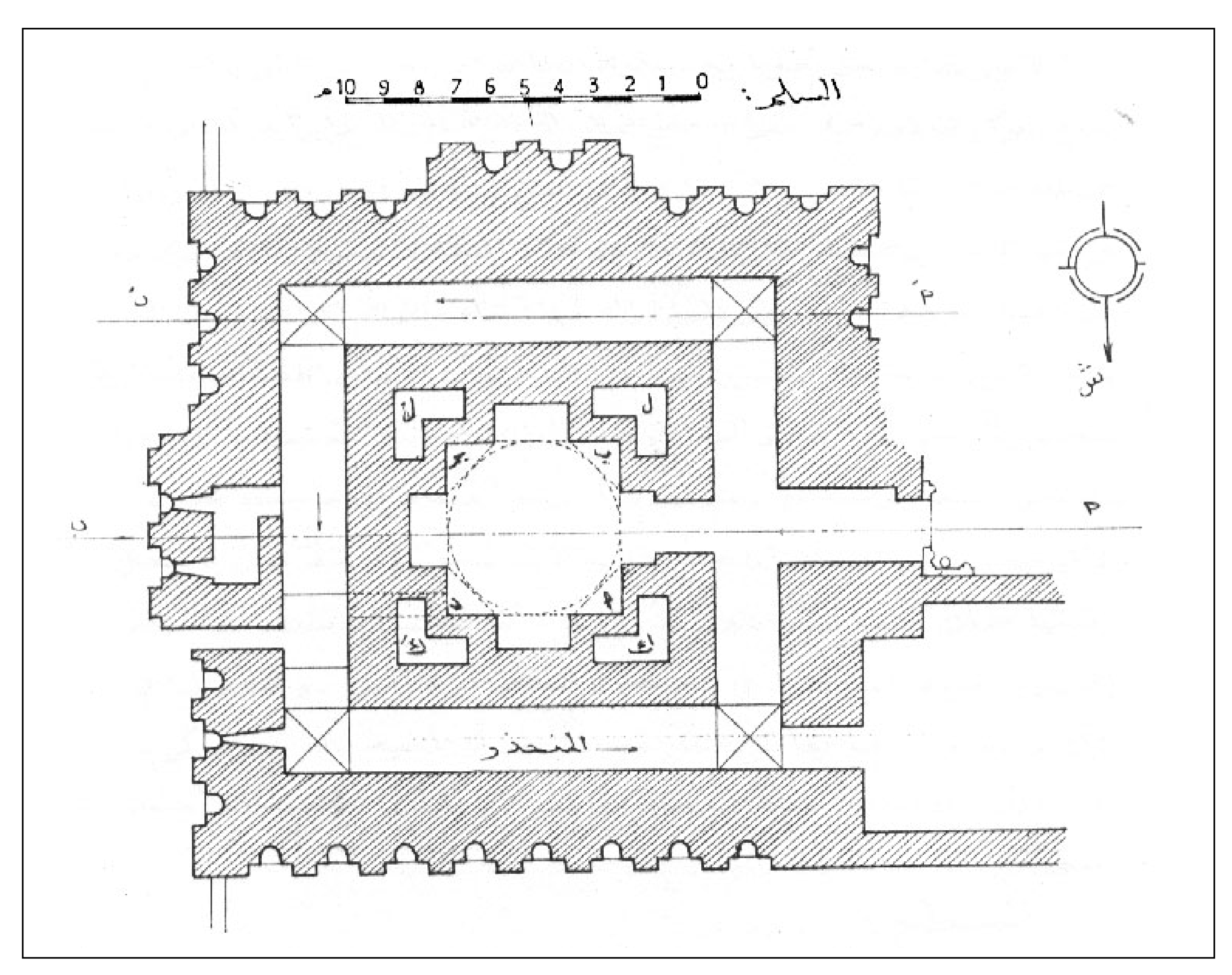
شكل 37ب: مسقط أرضي لزاوية سيدي يحيى العيدلي بتامقرة سلم 100/1



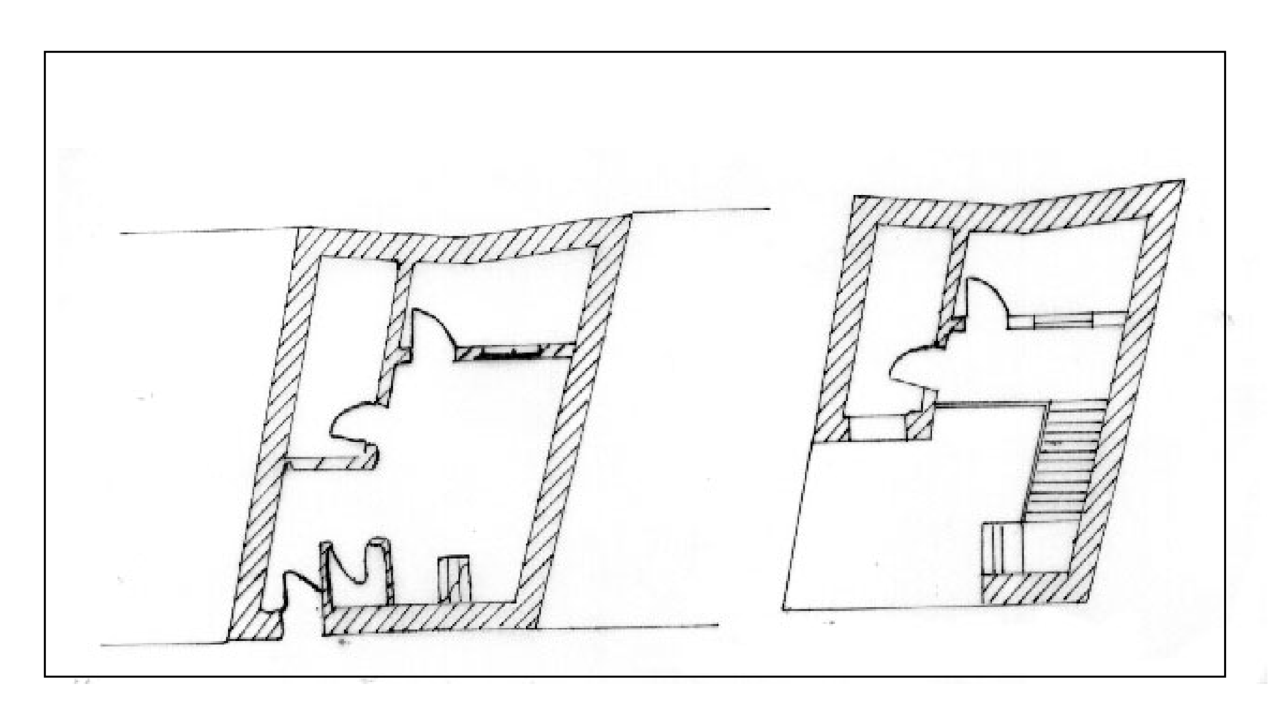
شكل 38: شكل تخطيطي لزاوية تنبدار (سيدي عيش)



شكل 39: الواجهة الشرقية لقصر البحر بقلعة بني حماد (المسيلة) عن دبيلي

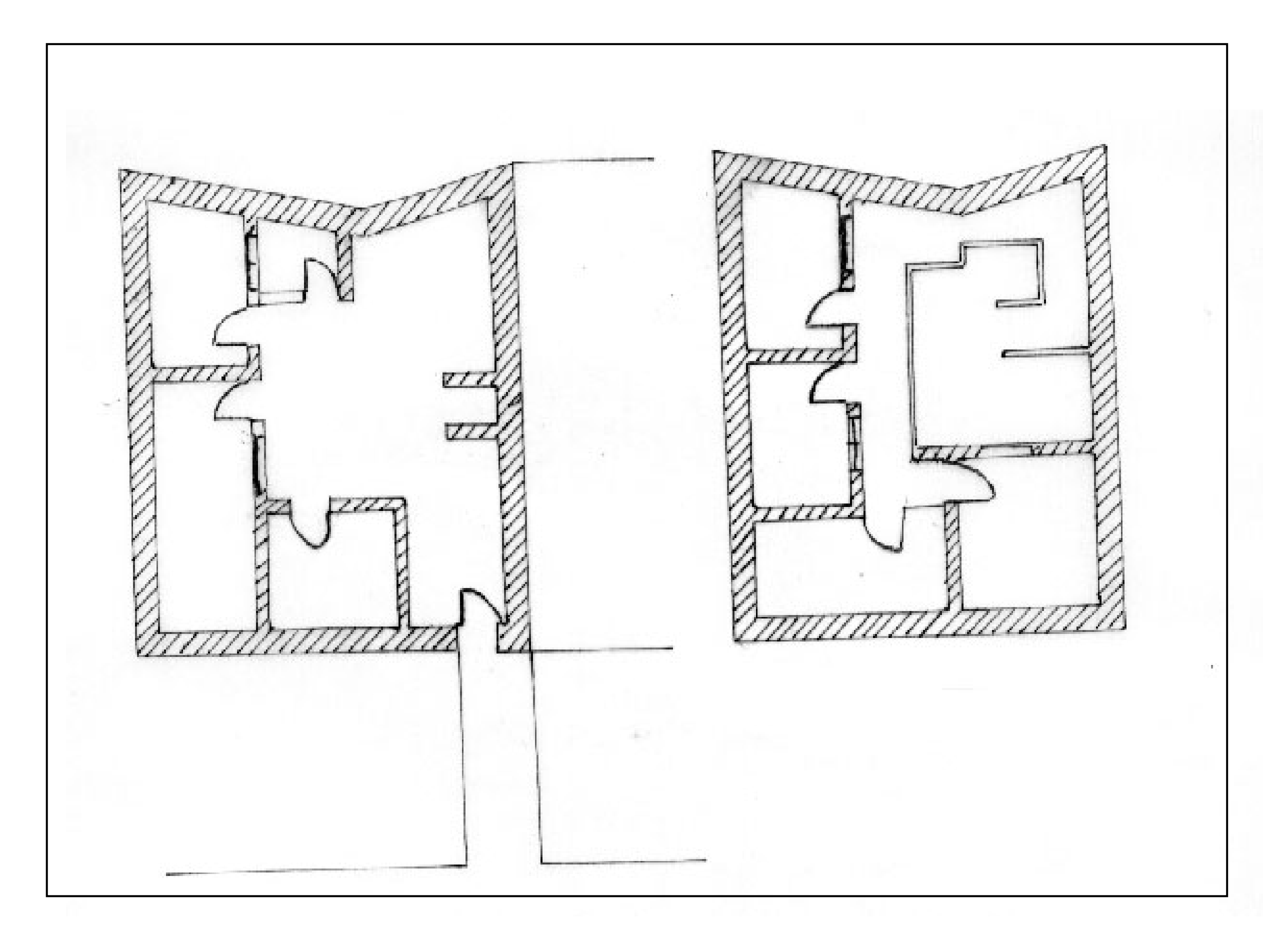


شكل 40: مخطط الطابق الأرضي لبرج المنار بقلعة بني حماد عن دبيلي



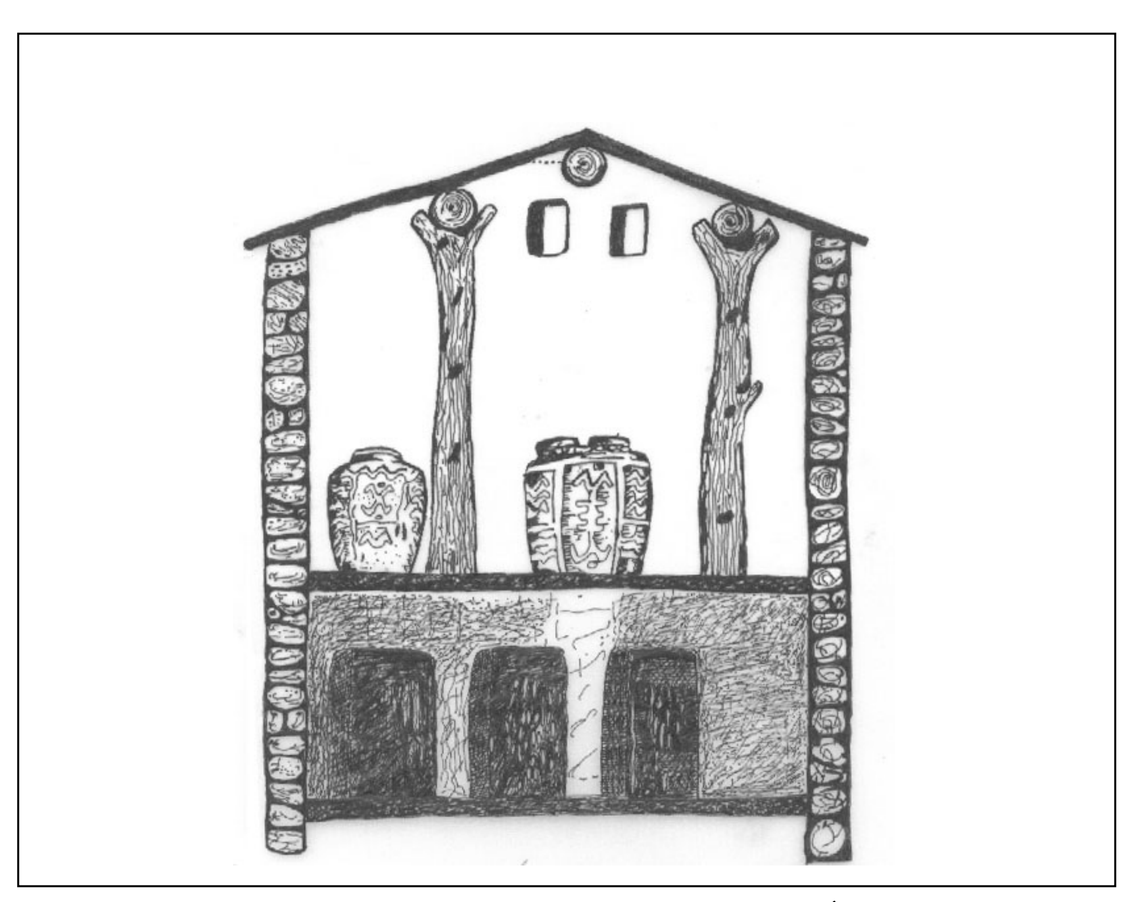
الطابق الأول   الطابق الأرضي

شكل 41: مخطط لمسكن حضري بدرب سيدي الخيضر ببجاية (عن نعيمة عبد الرحيم) سلم 100/1

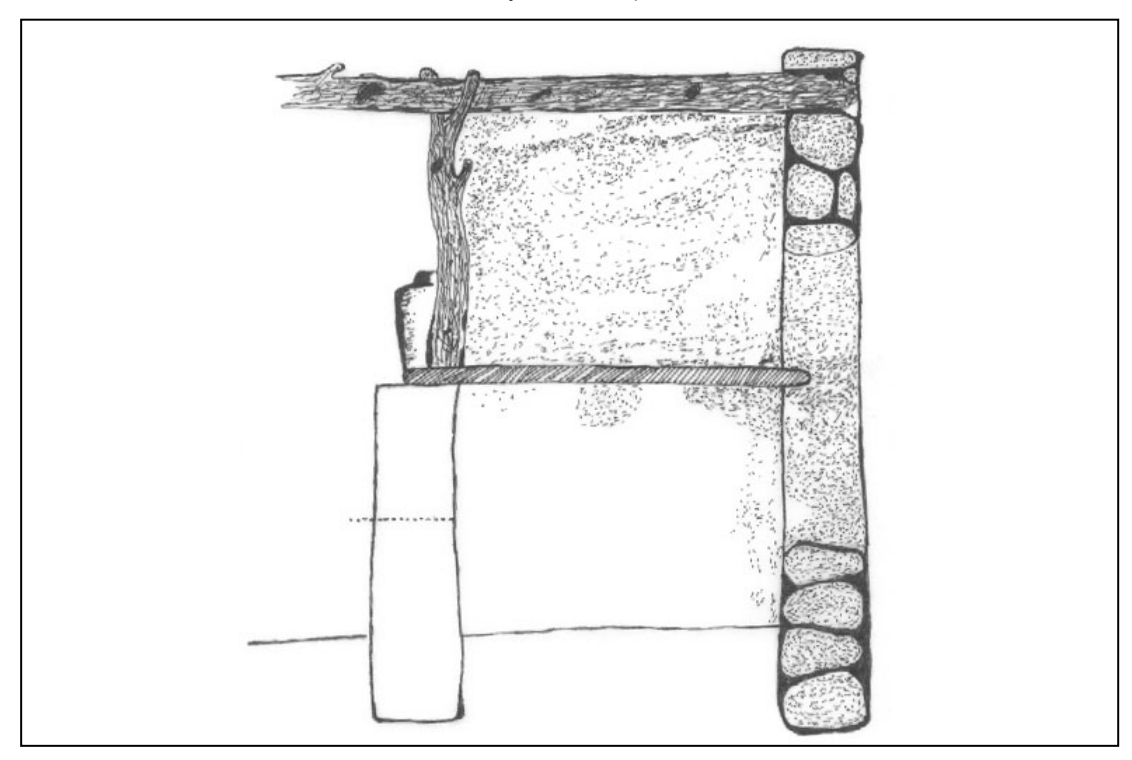


الطابق الأول   الطابق الأرضي

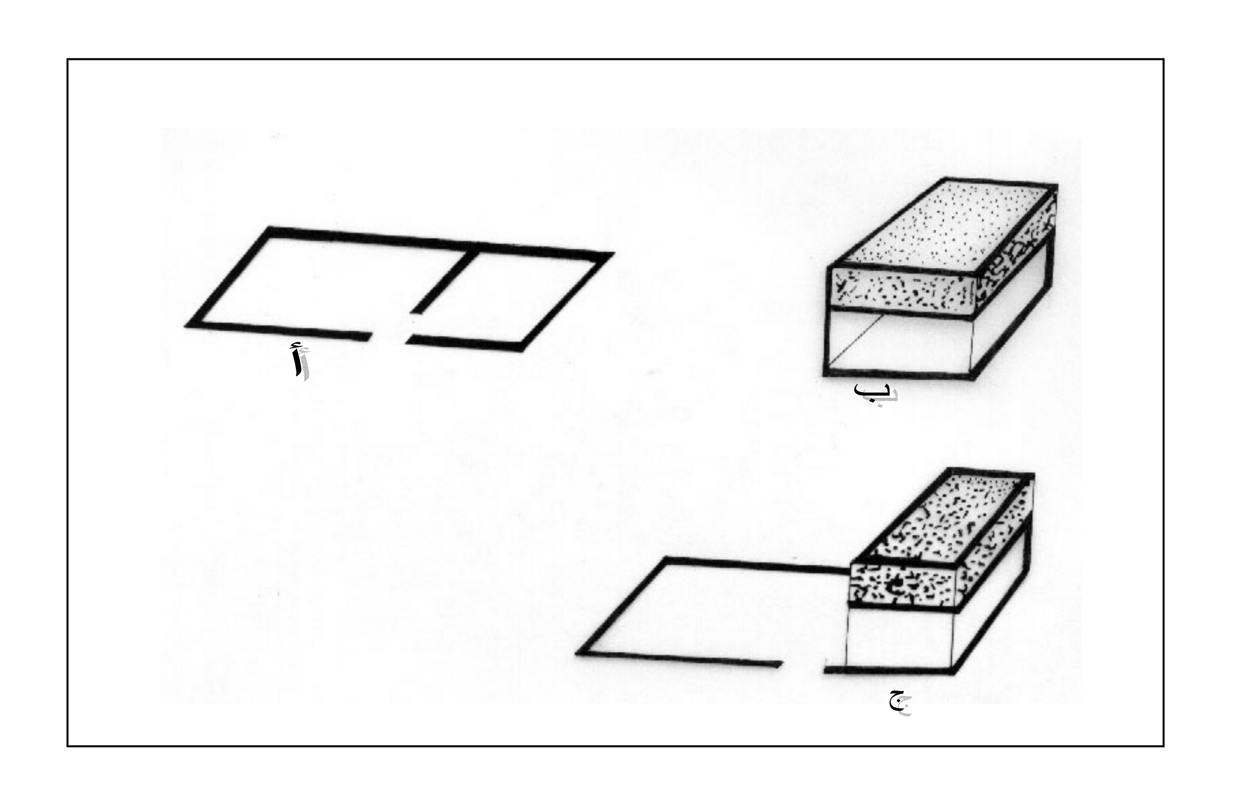
شكل 42:مخطط لطابق الأرضي و الأول في أحد بيوت درب سيدي الخيضر ببجاية سلم 100/1



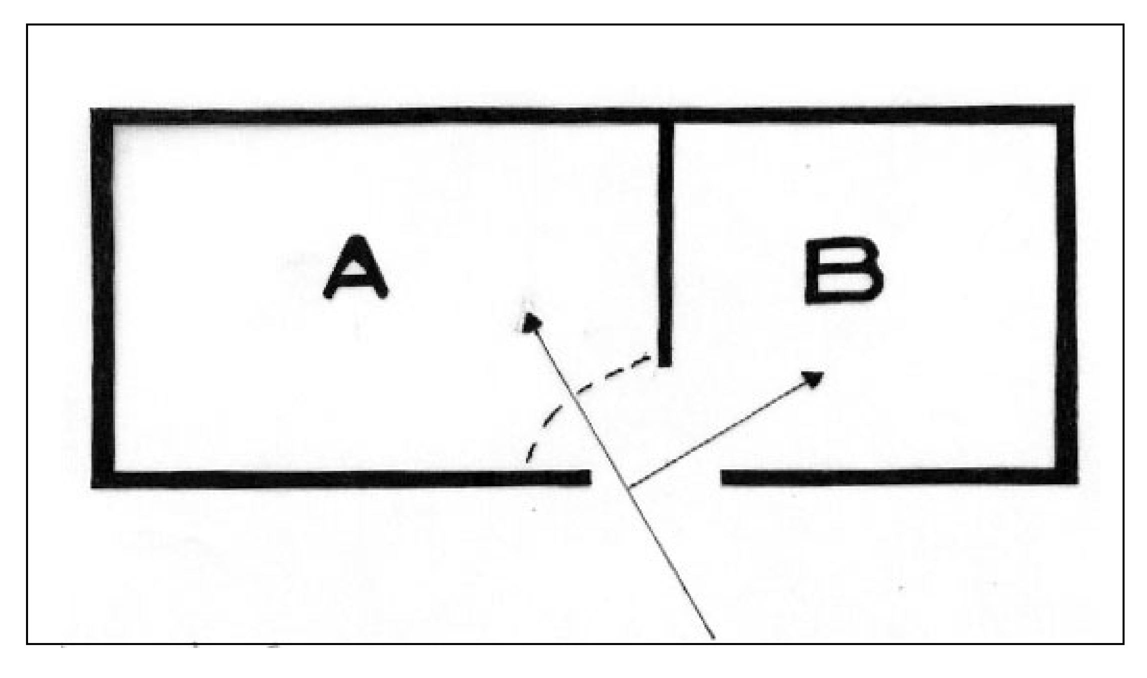
شكل 43: رسم تخطيطي لأحد الواجهات الداخلية للمسكن التقليدي في بلاد القبائل عن (ges grands symboles)



شكل 44: مقطع طولي لترتيب المسكن التقليدي ببلاد القبائل



شكل 45: أقسام و ملاحق المسكن الريفي



شكل 46: المدخل المشترك للمسكن التقليدي (بين أقنز و اداينين)

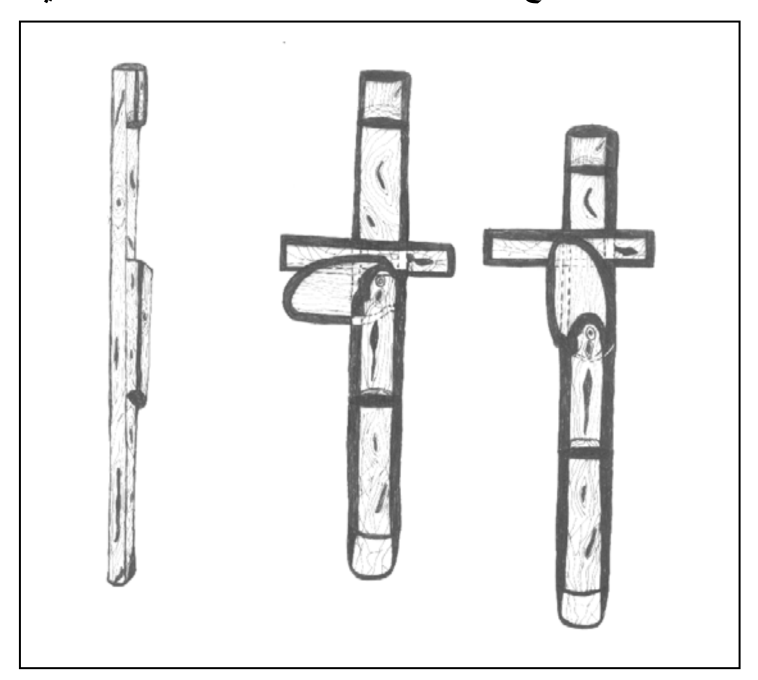
A B

أعريش الكانون

لكدر A أقنز

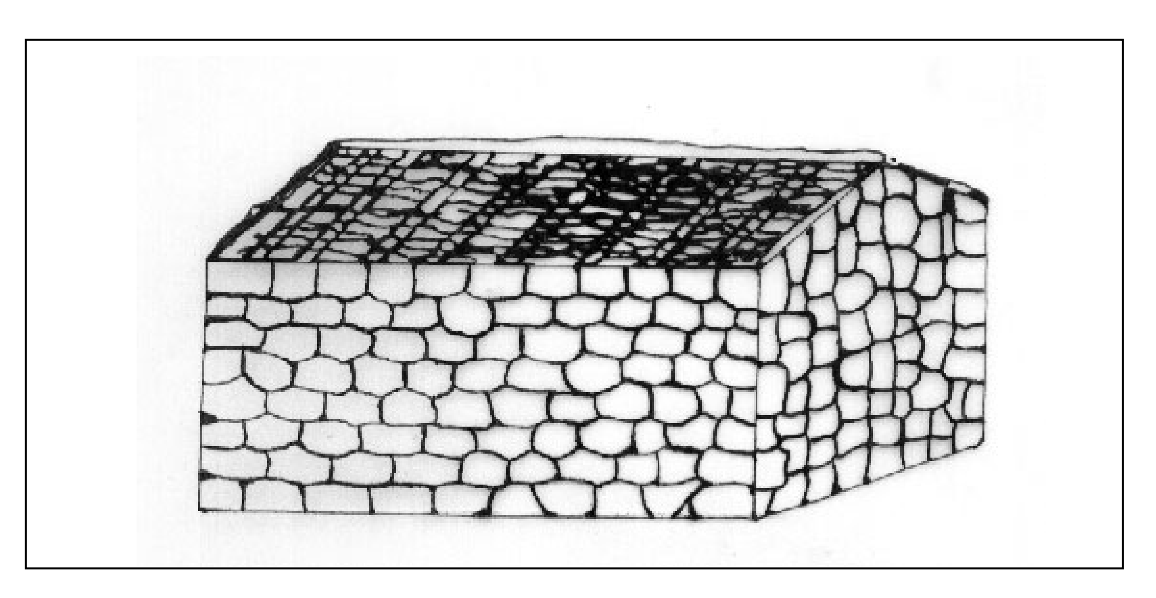
أسرير B أداينين

شكل 47: وضع أعريش و أسرير بالنسبة للمسكن التقليدي

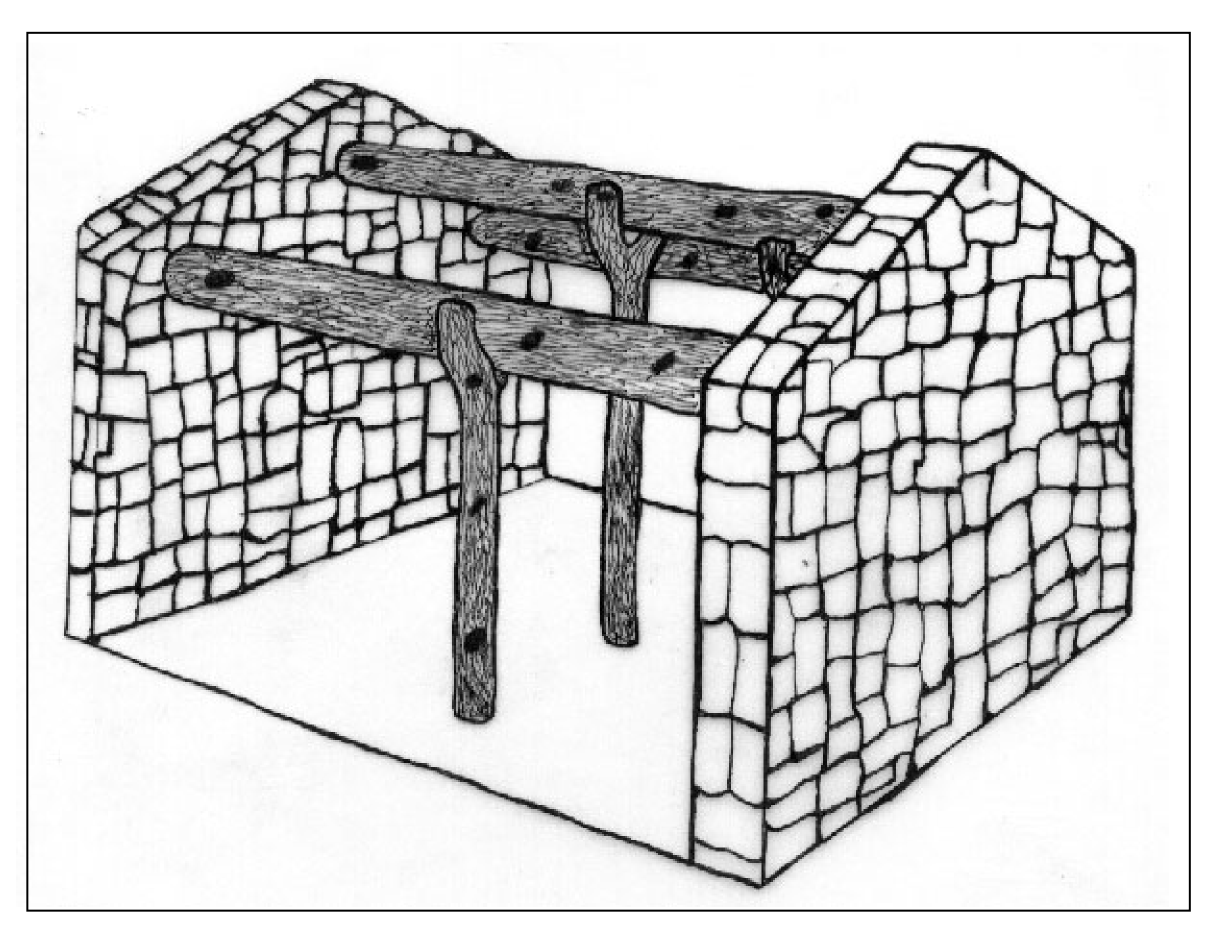


(أ) الغلق (ب) الفتح (ج) نظام الغلق و الفتح

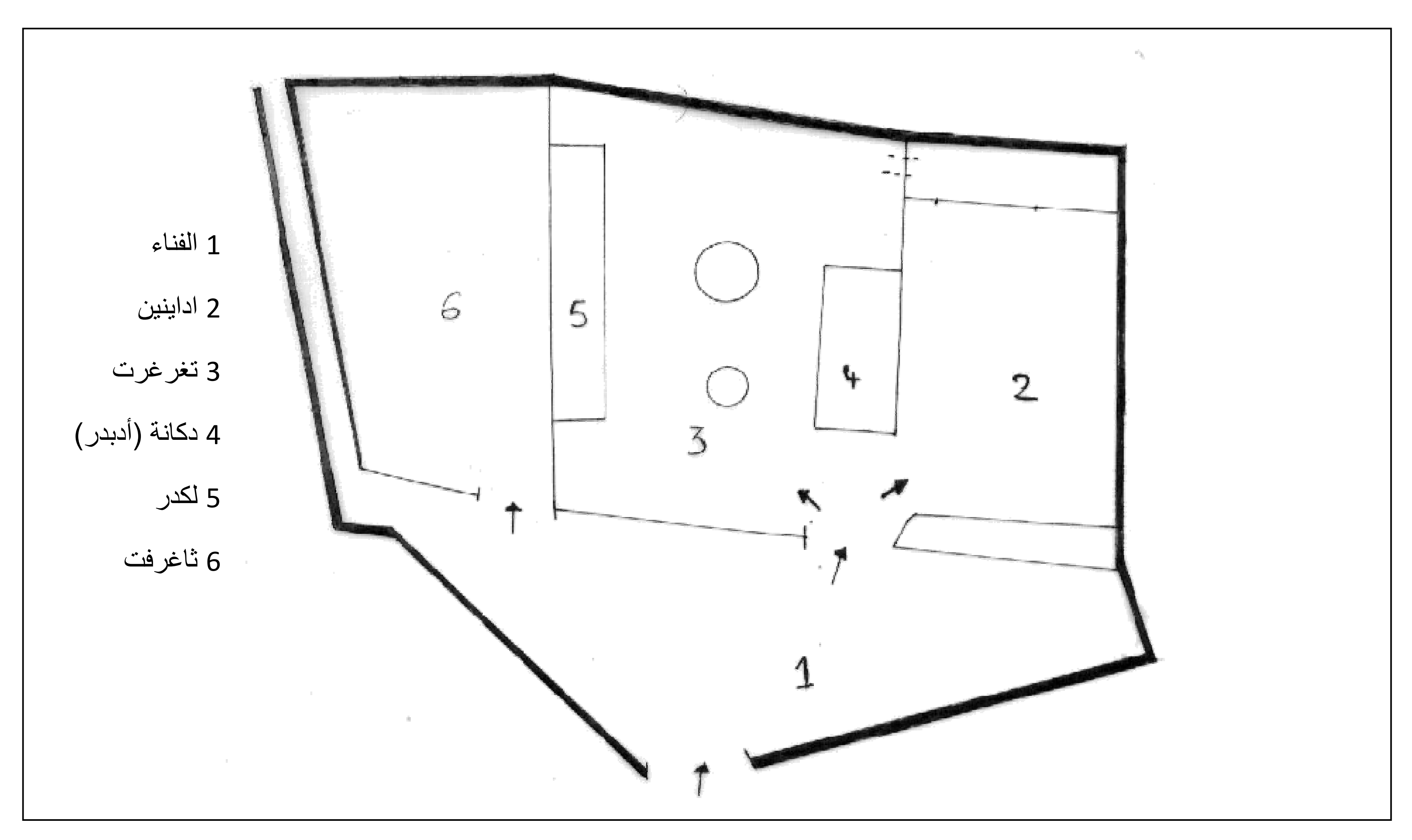
شكل 48: طريقة غلق و فتح الأبواب التقليدية في المساكن



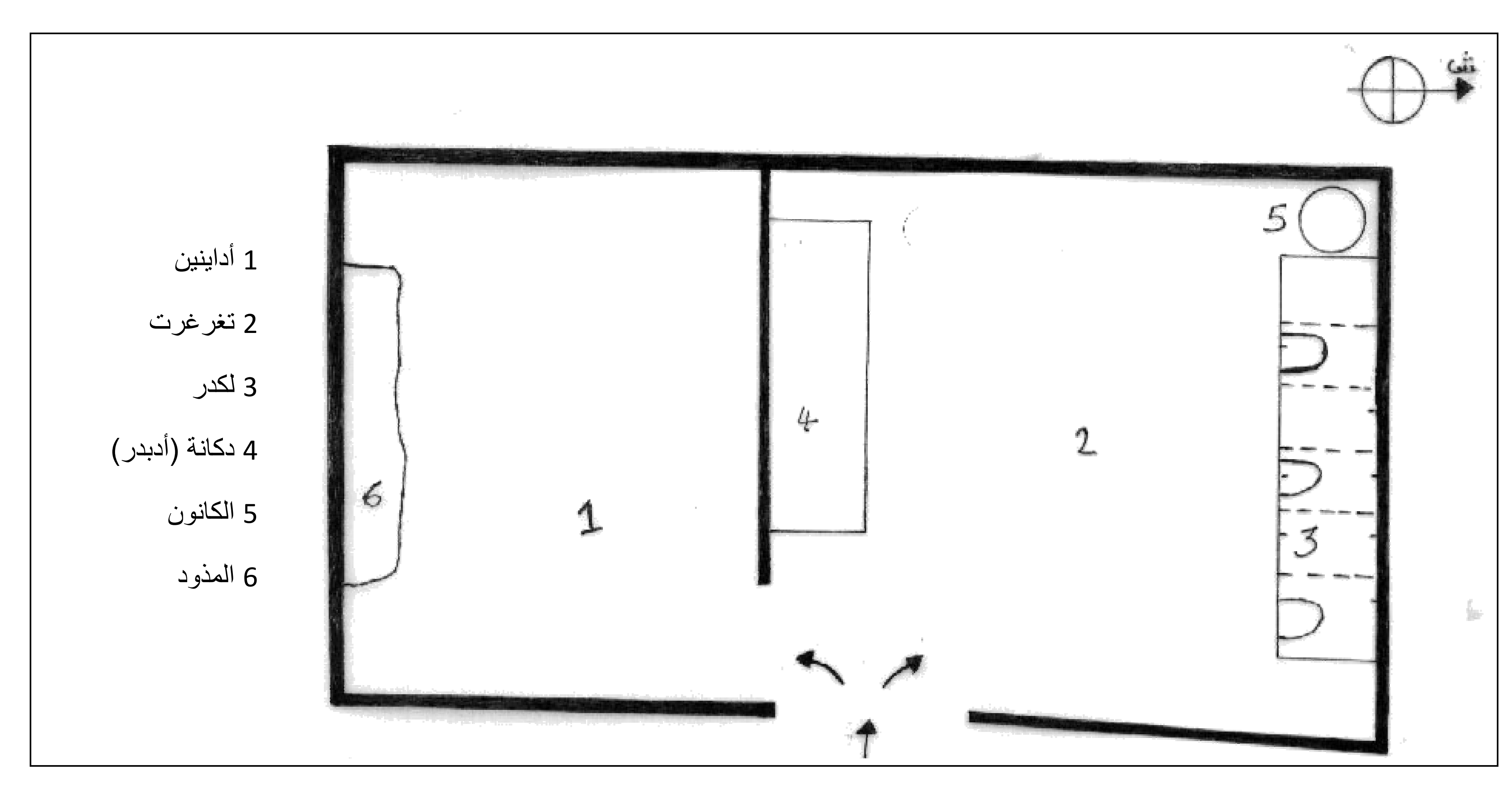
شكل 49: طريقة تسقيف المساكن التقليدية



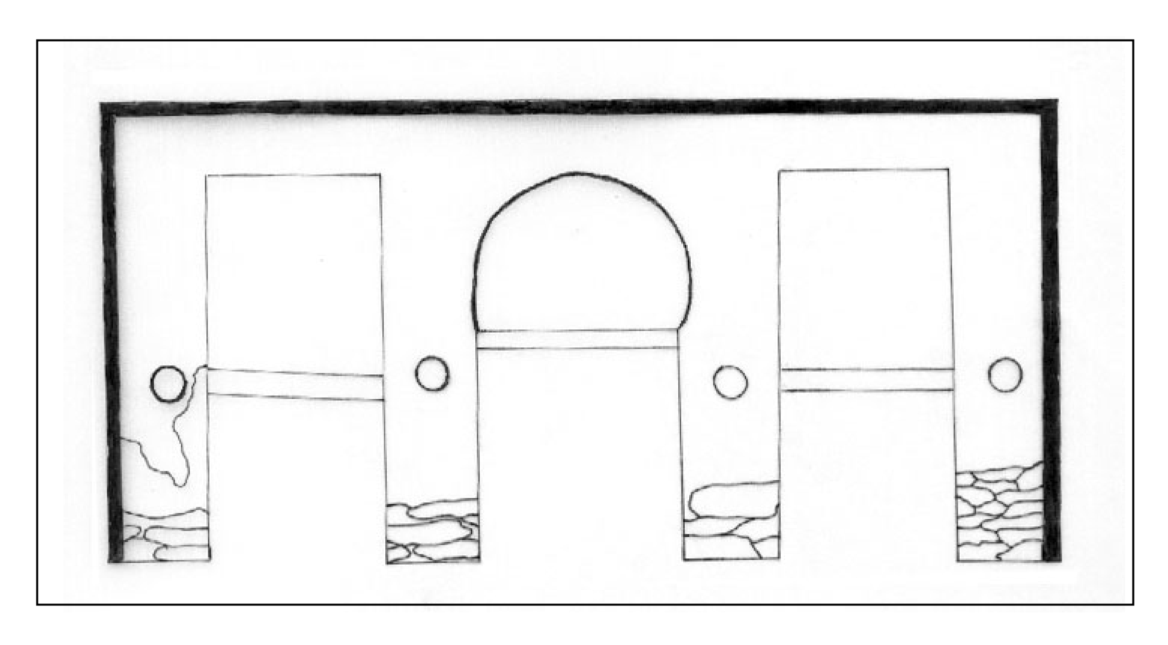
شكل 50: وضع الروافد و الأعمدة في المسكن التقليدي



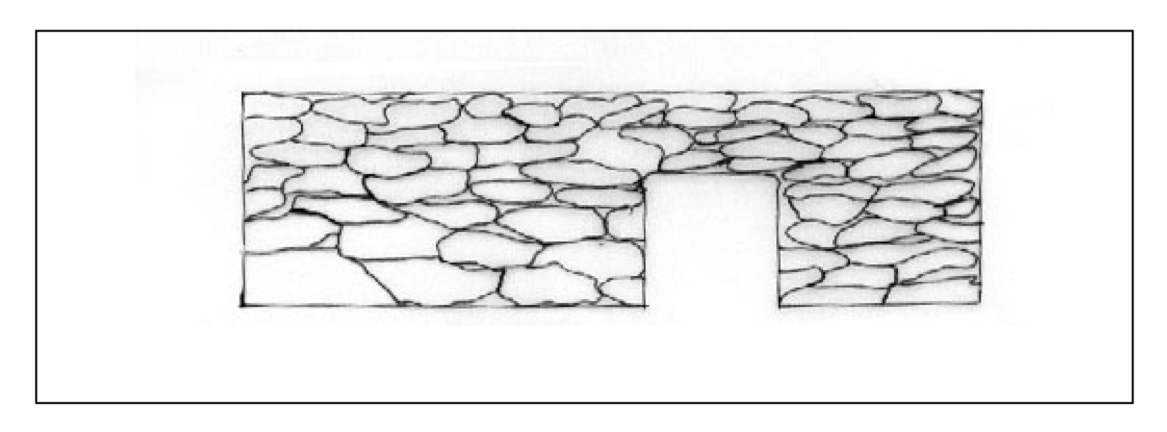
شكل 51: مسقط أرضي لمسكن تقليدي بأثرونن (بني معوش) سلم 75/1



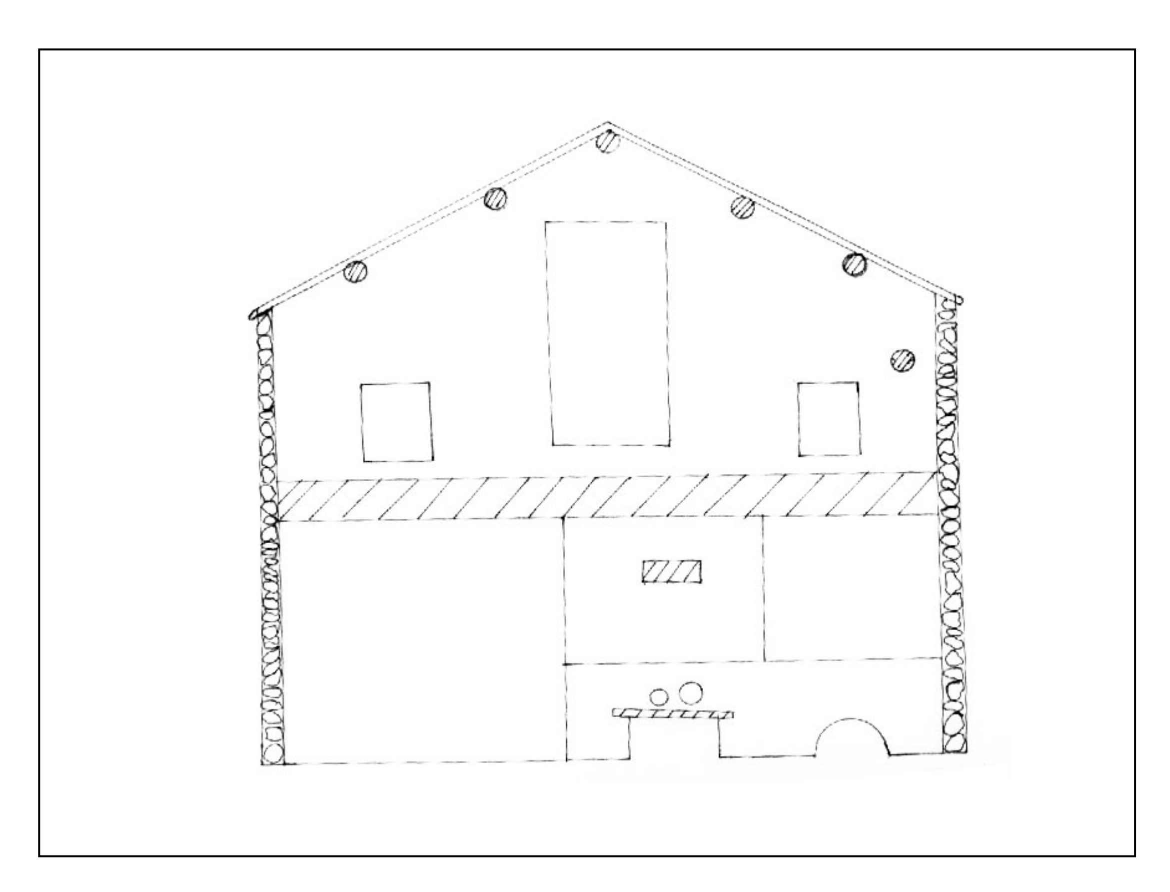
شكل 52: مسقط أرضي عام لمسكن تقليدي بحوض الصومام سلم 50/1



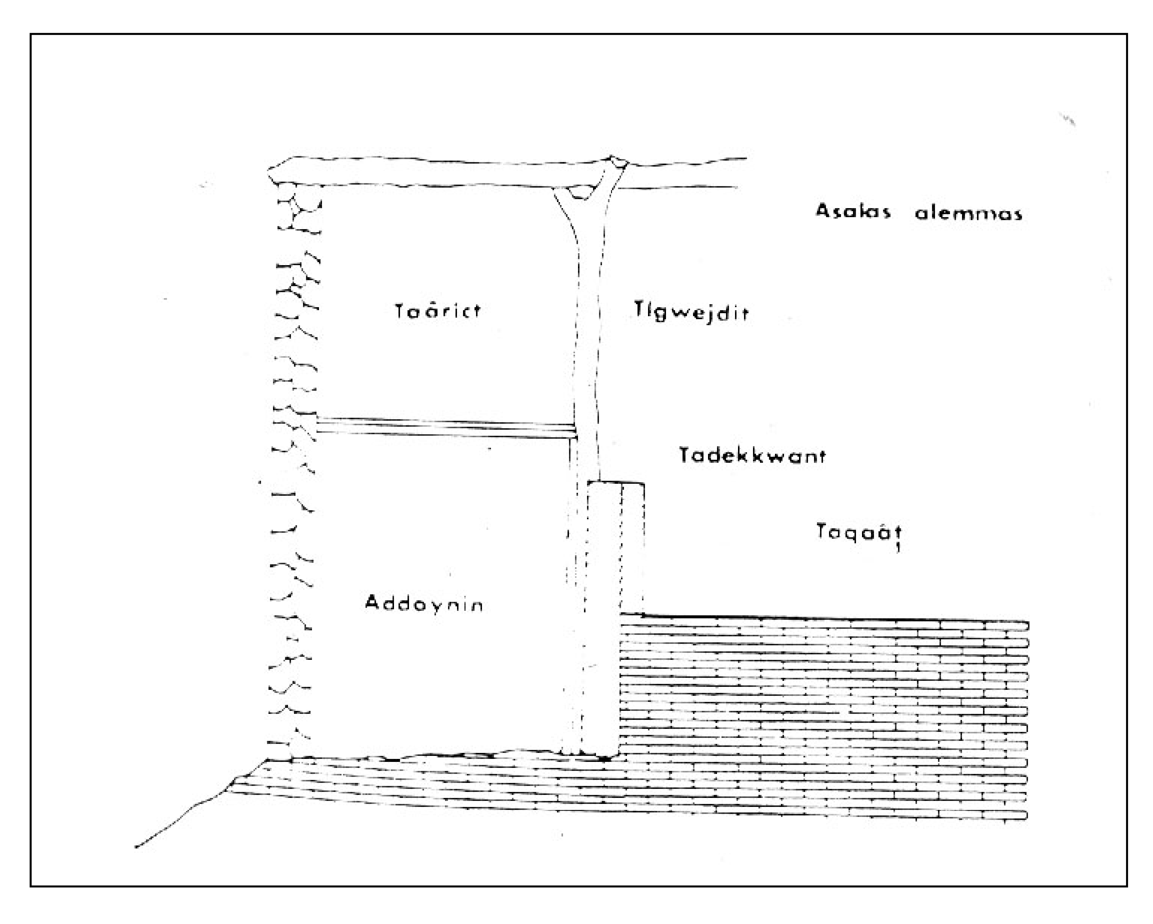
شكل 53: رسم تخطيطي للواجهة المقابلة لتعريشت و أداينين



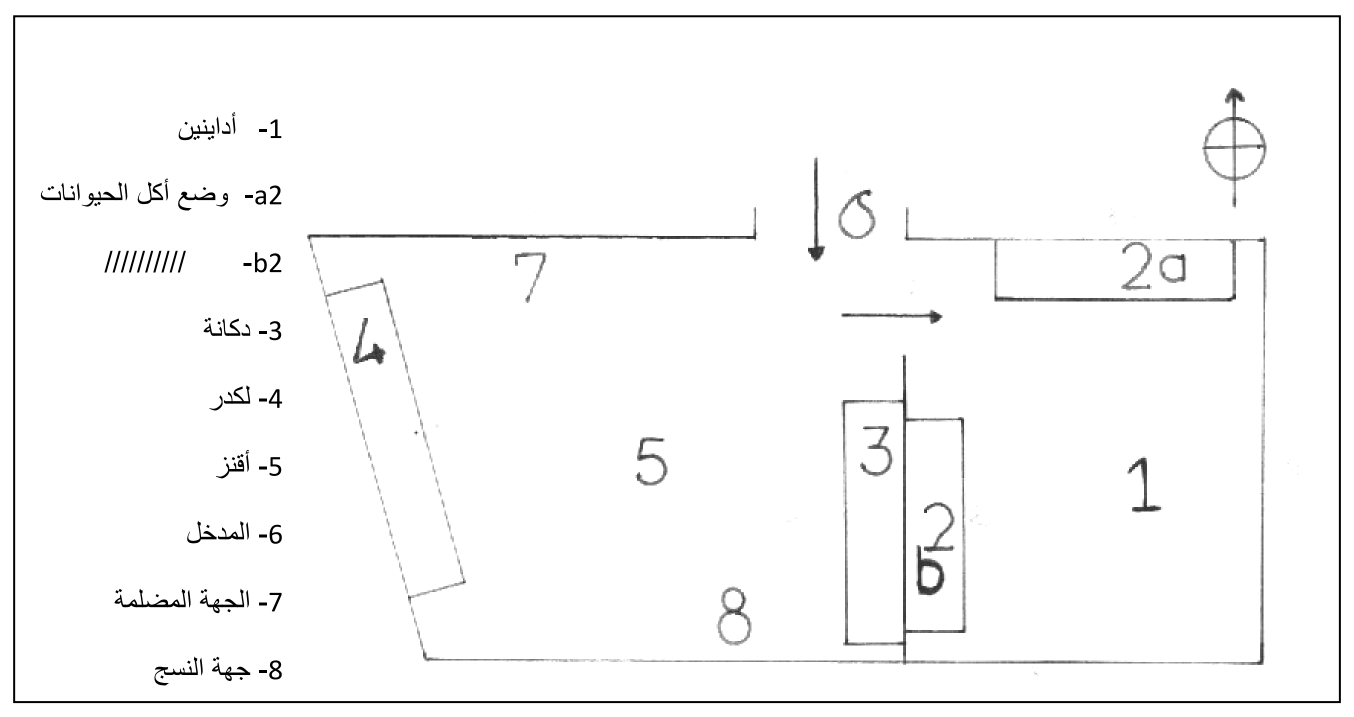
شكل 54: رسم تخطيطي لدكانة بأحد المساكن التقليدية



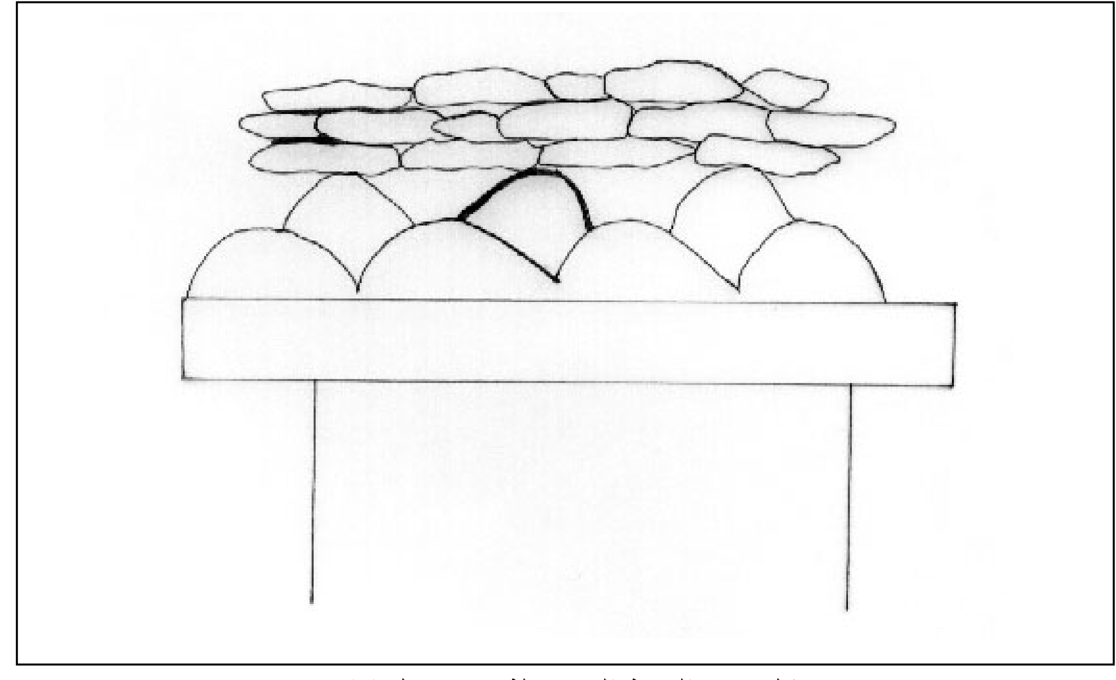
شكل 55: مقطع طولي لواجهة مسكن تقليدي



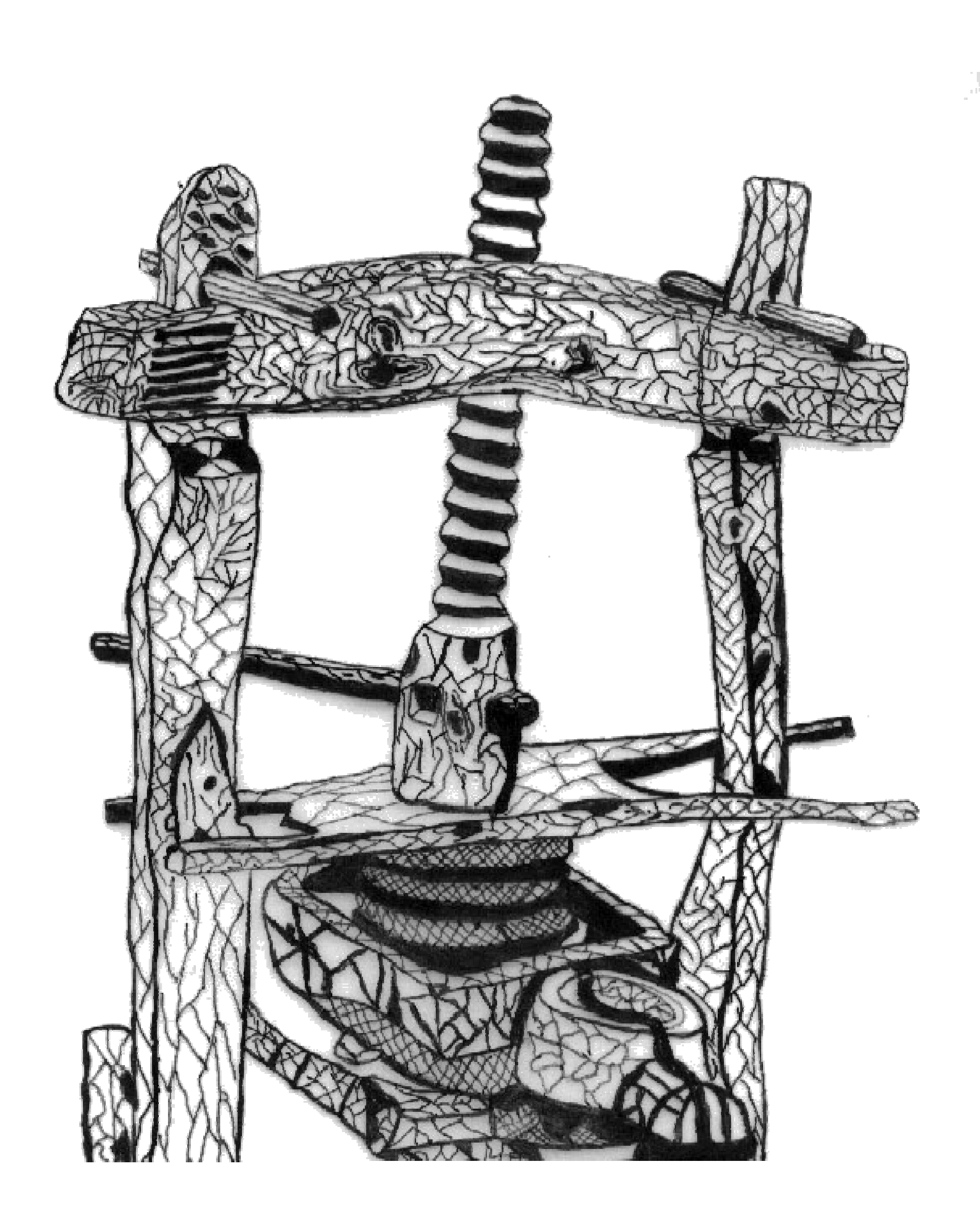
شكل 56: الأقسام العامة لمكونات المسكن التقليدي

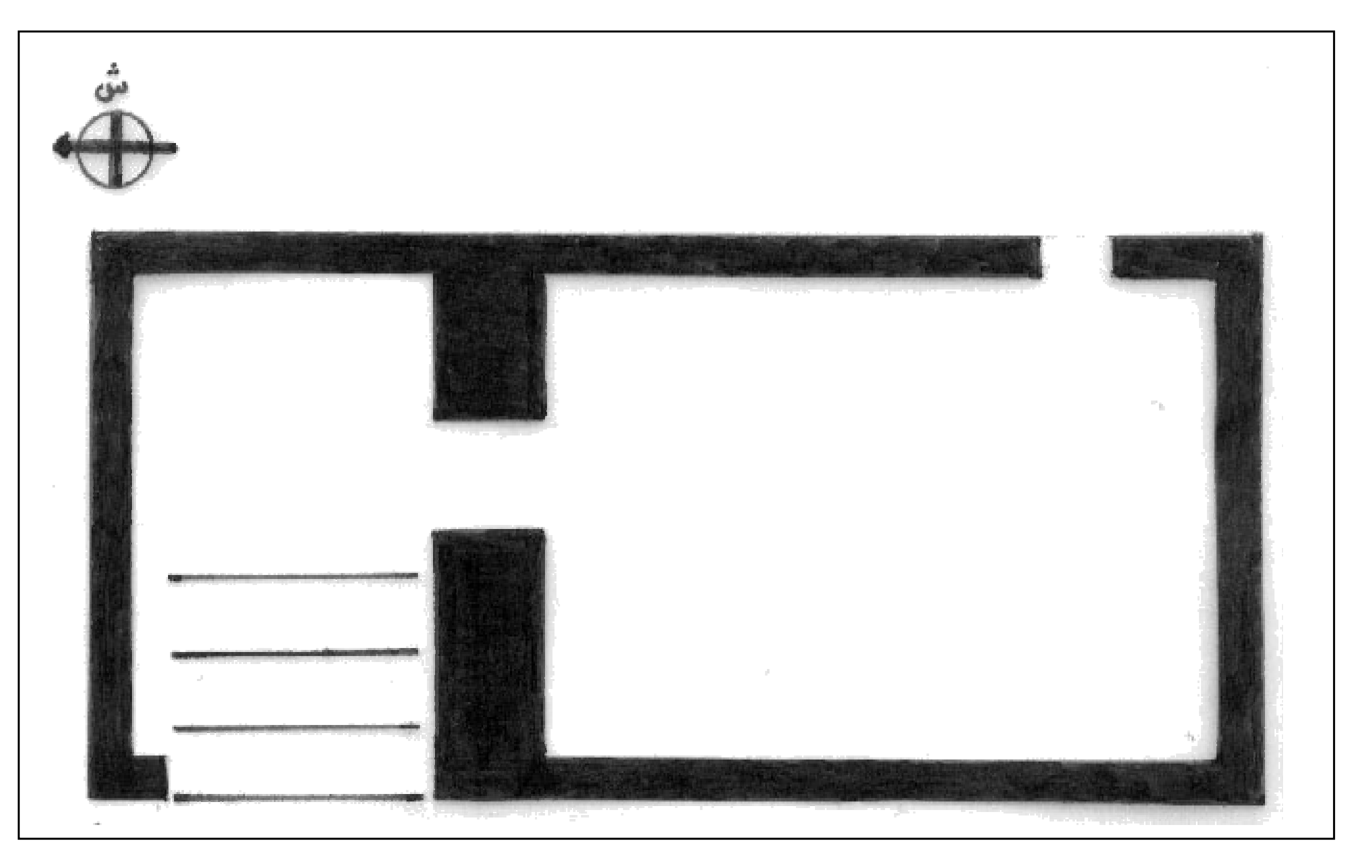


شكل 57: مخطط لمسكن تقليدي بتغرمين



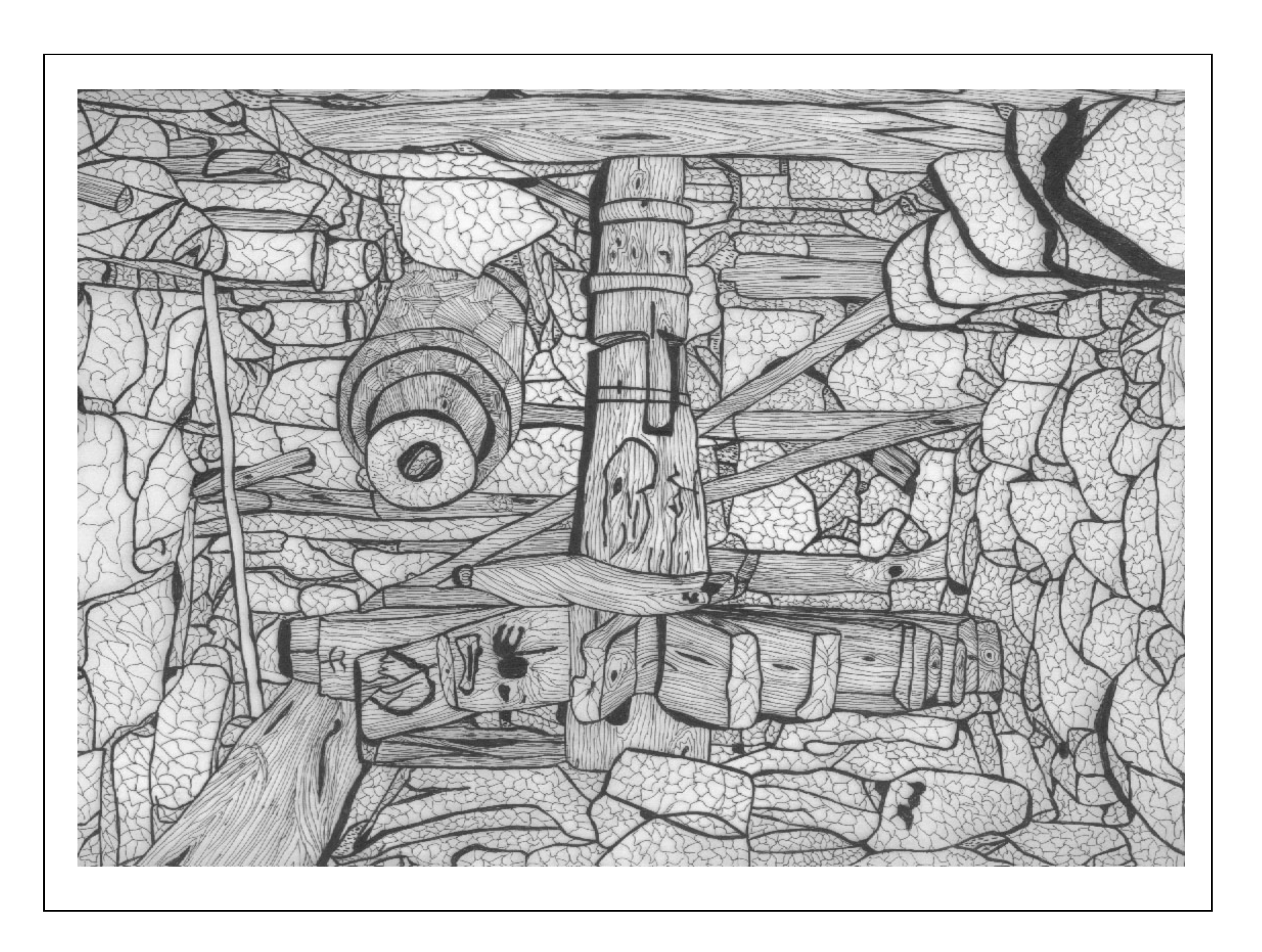
شكل 58: التقنية المستعملة في مدخل اداينين



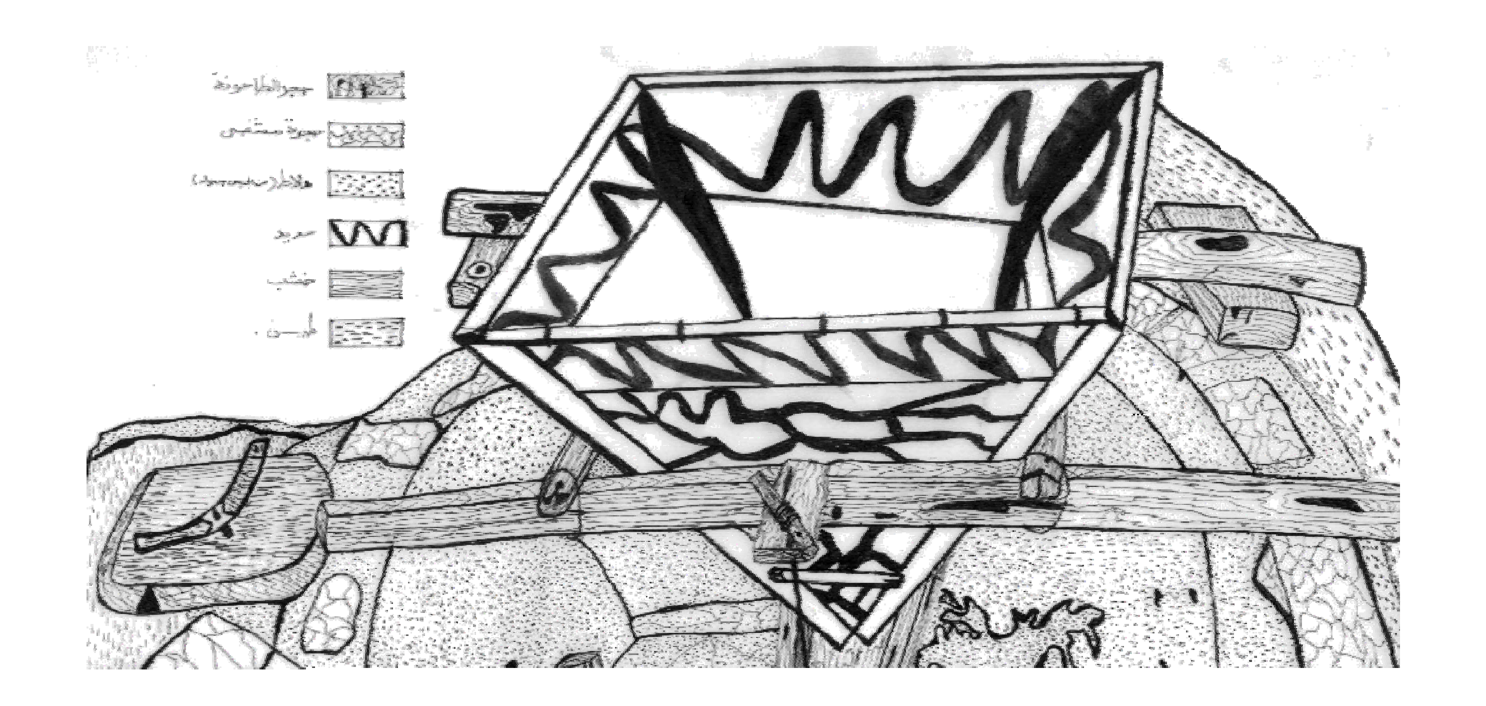


شكل 60: شكل تخطيطي لبئر بوديمان سلم 30/1

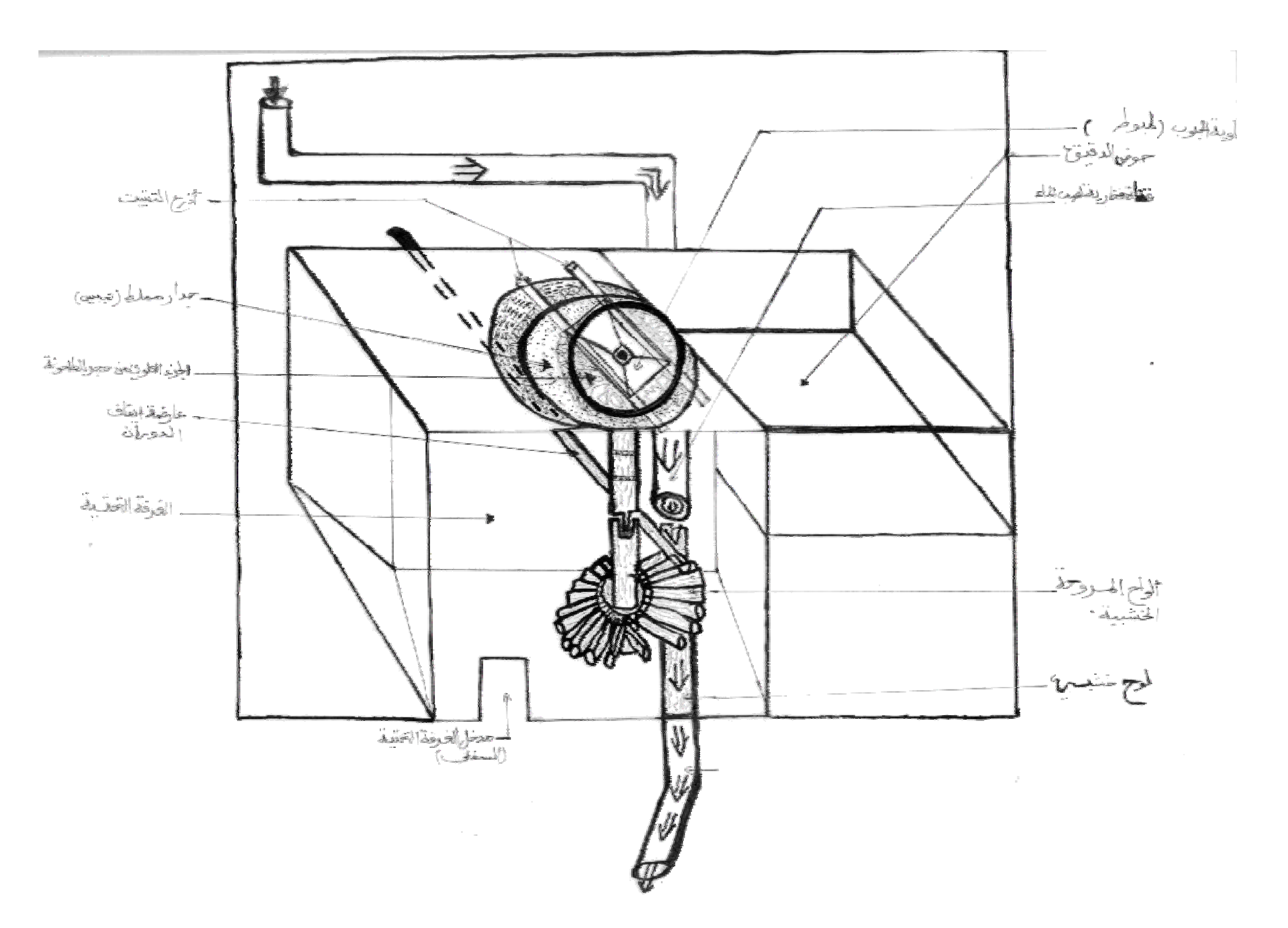
شكل 61: مسقط أرضي لحمام سيدي يحيى العيدلي سلم 30/1



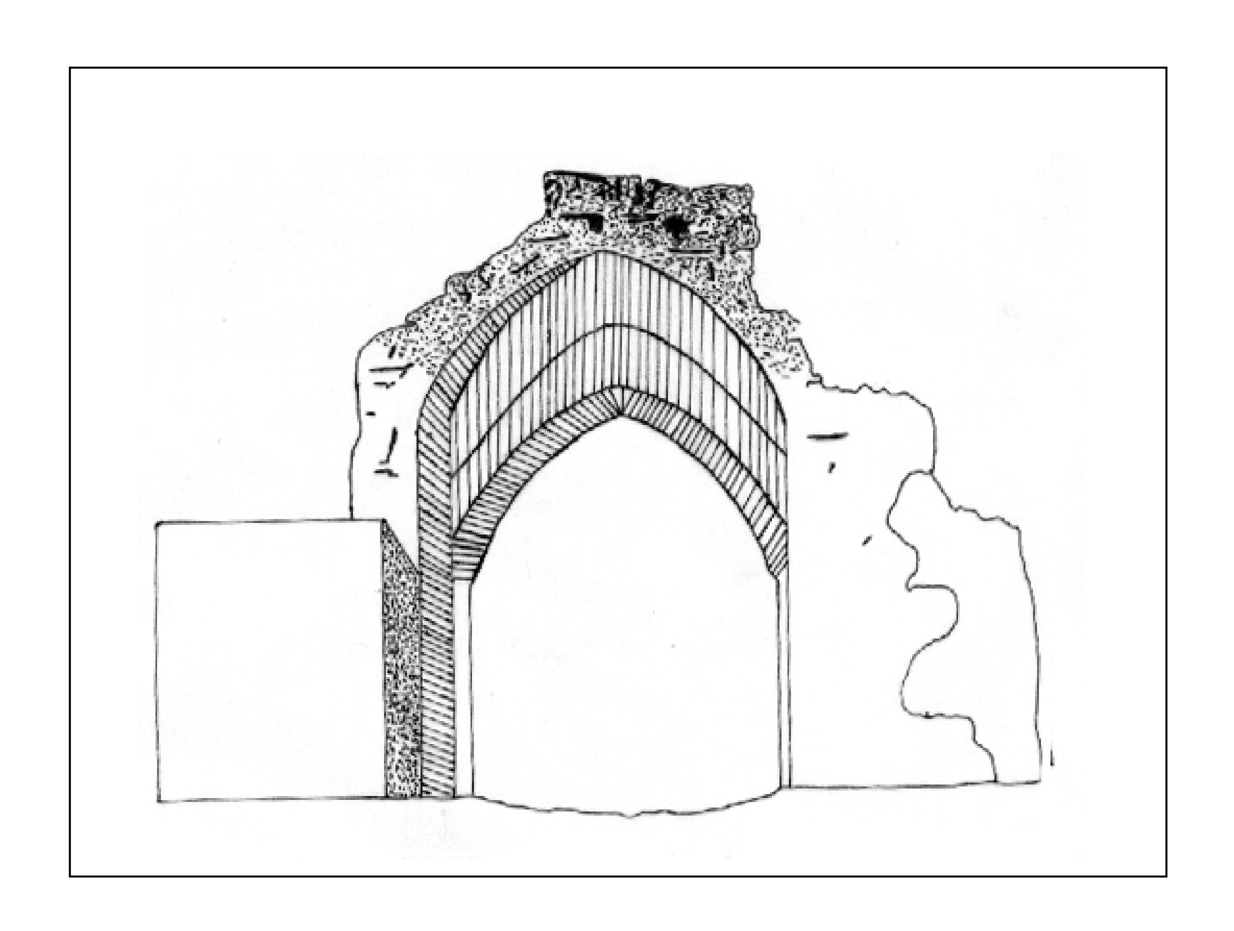
شكل 62 أ: تثبيت العجلة في الغرفة السفلى



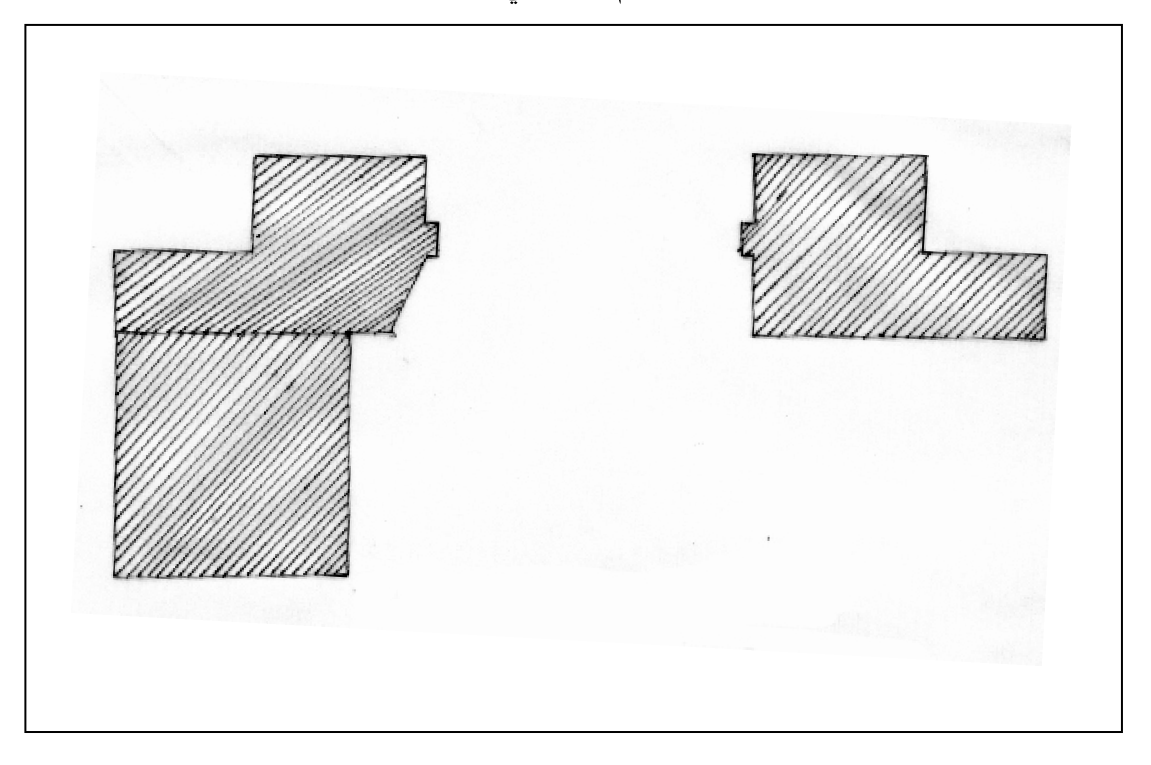
حديد
خشب
طين



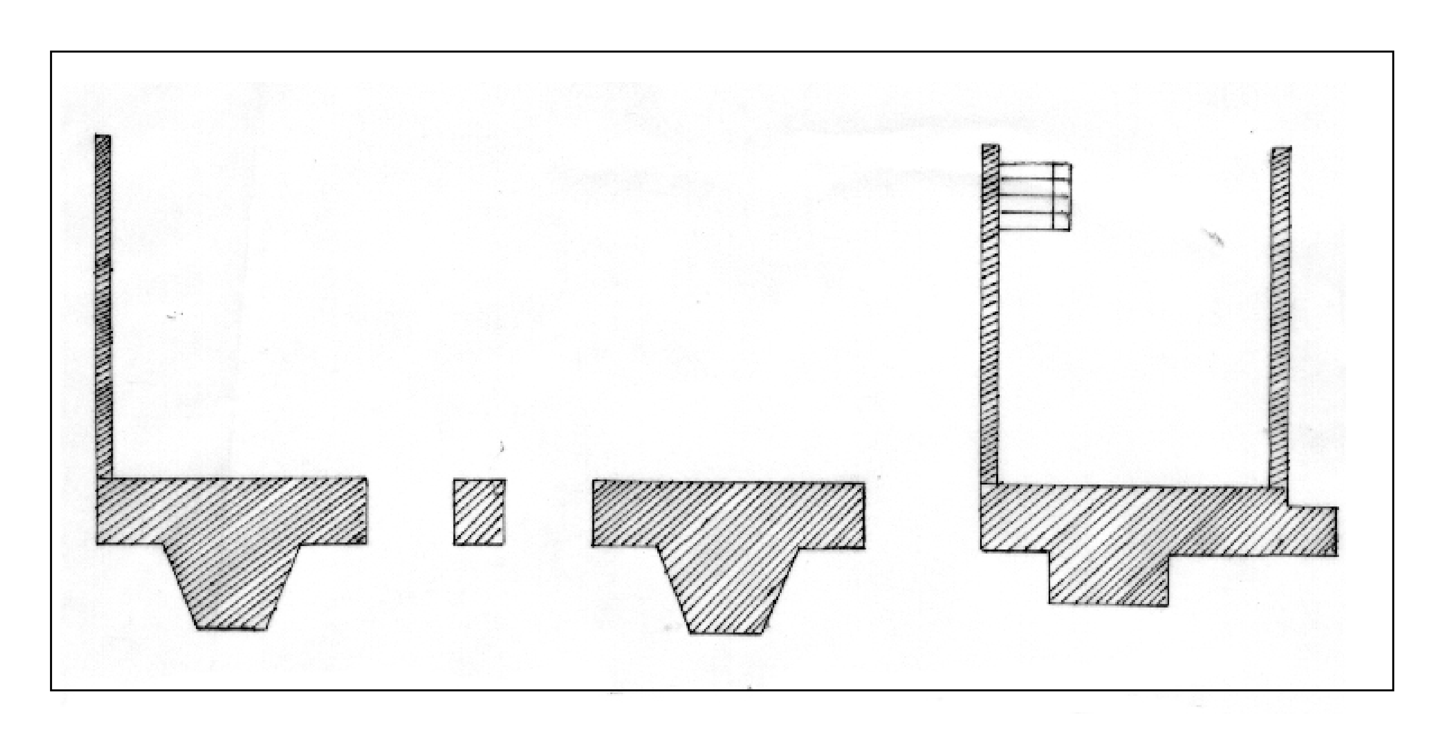
شكل 62 ج: مخطط يوضح نظام عمل الطاحونة المائية و طريقة إيقافها (من تصور الباحث)



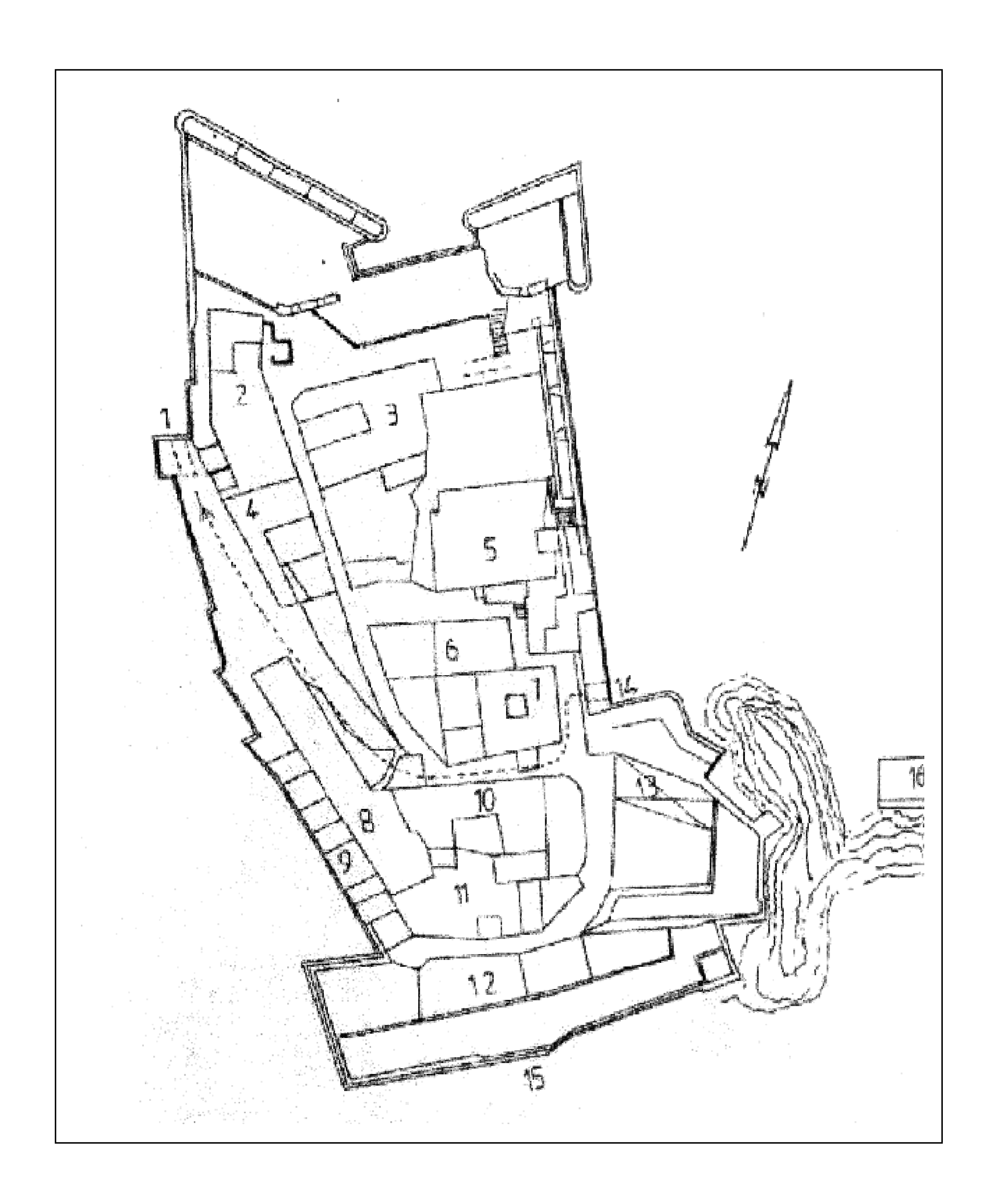
شكل 63 أ : رسم تخطيطي لواجهة باب البحر



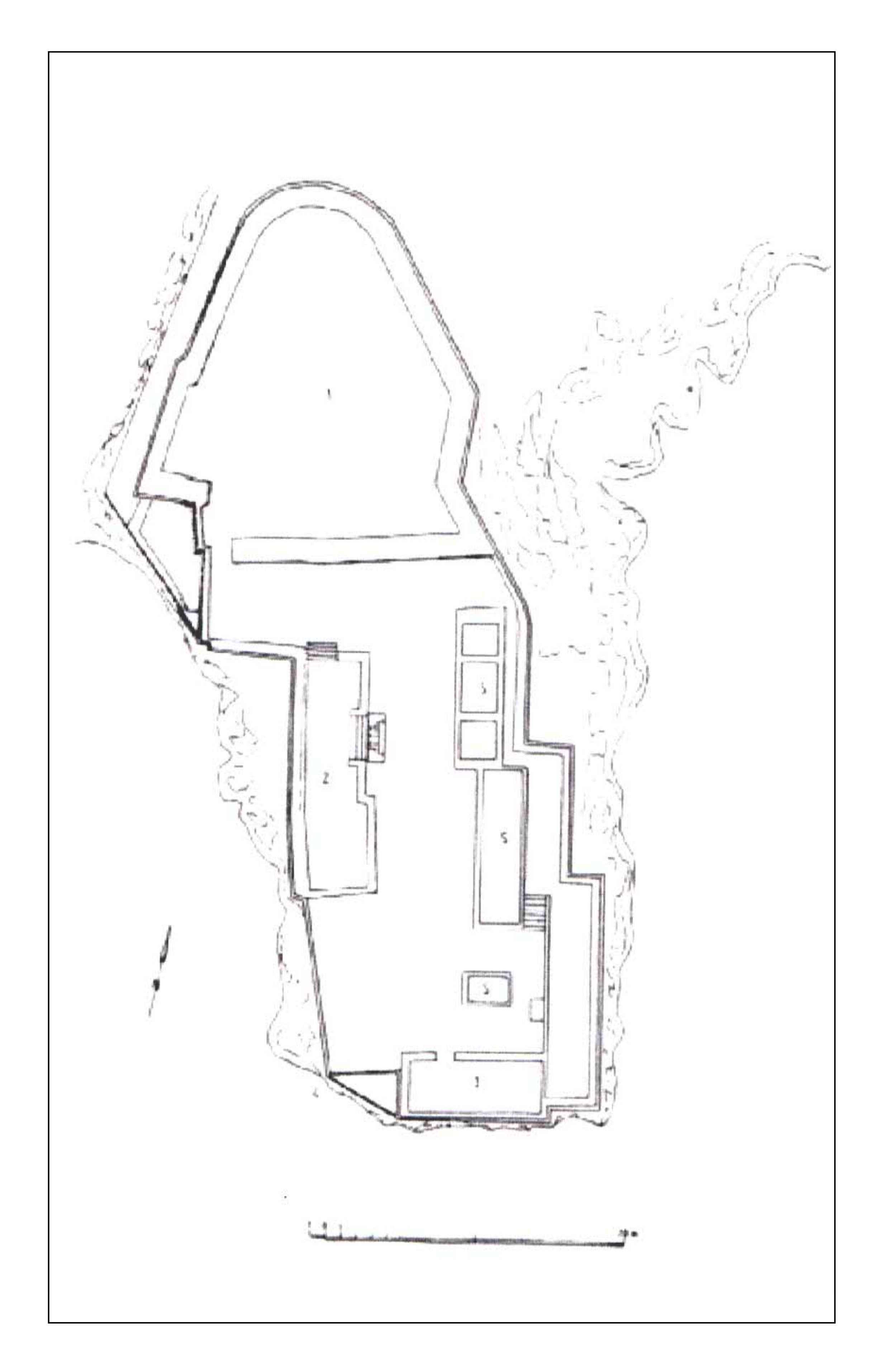
شكل 63 ب : مسقط أرضي لباب البحر ببجاية سلم 200/1



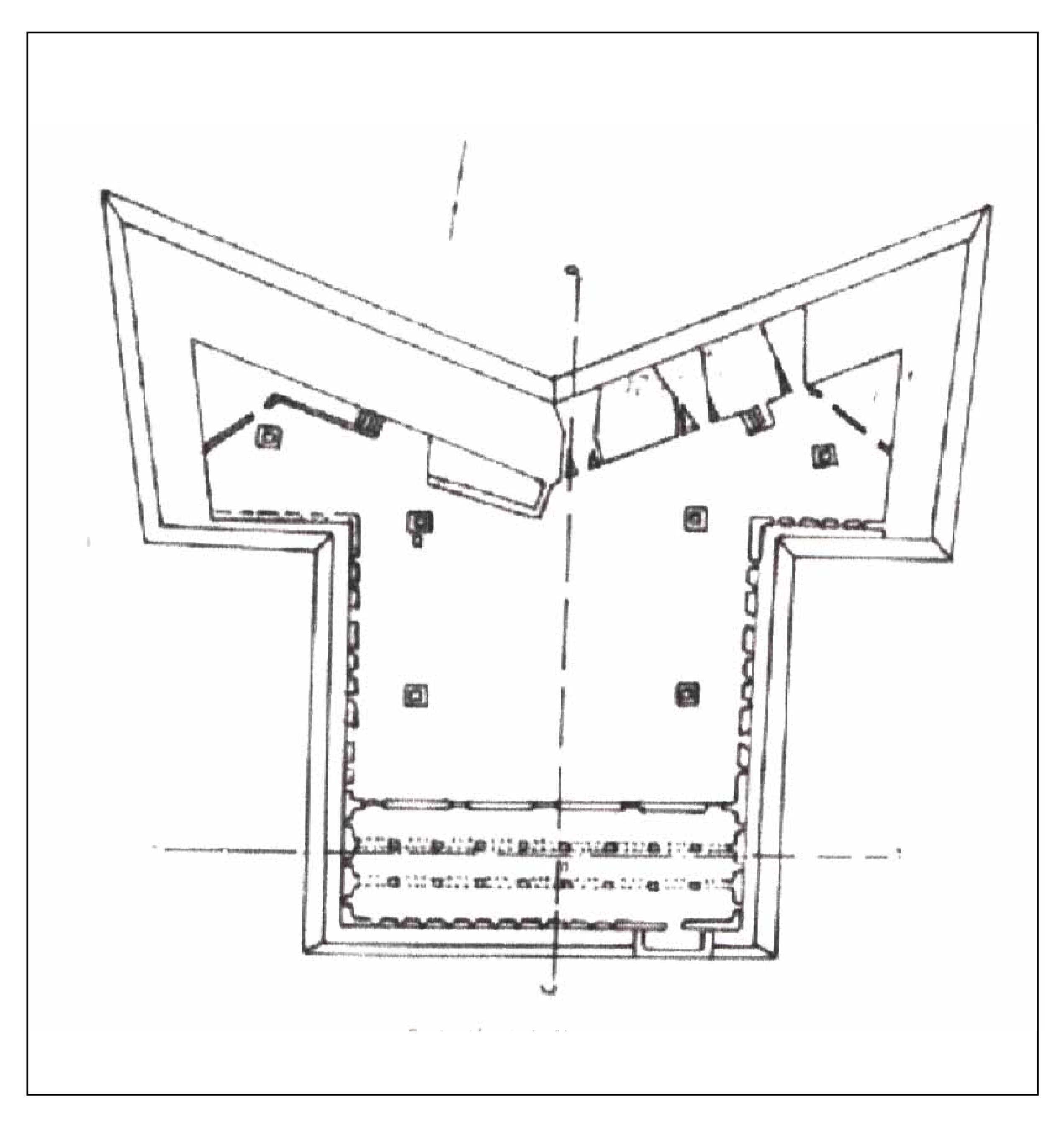
شكل 64: مسقط أرضي لباب البنود ببجاية السلم 100/1



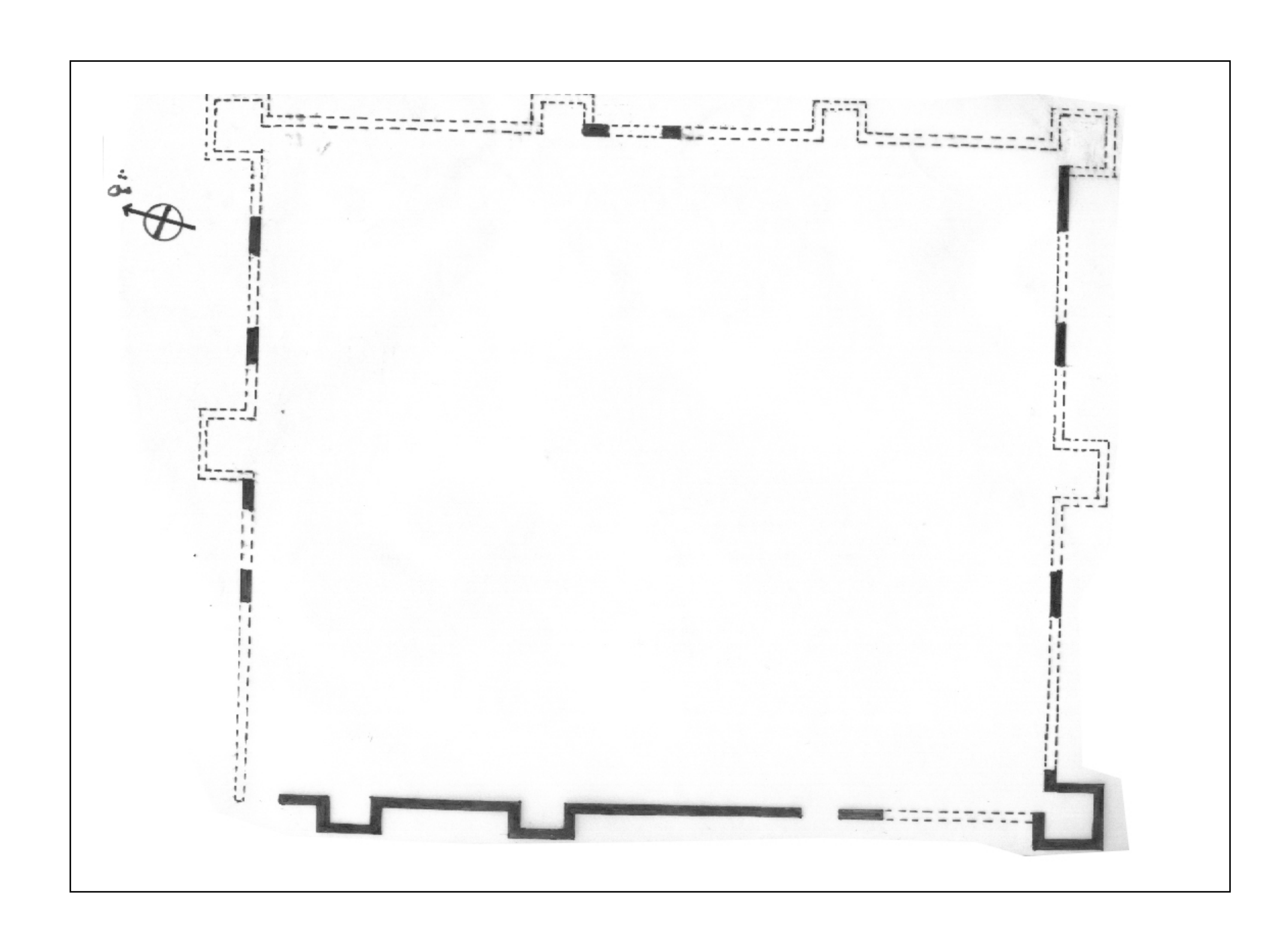
شكل 65: مخطط عام لقصبة بجاية أثناء العهد الفرنسي (عن نعيمة عبد الرحيم)



شكل 66: مخطط عام لبرج سيدي عبد القادر ببجاية (عن نعيمة عبد الرحيم)



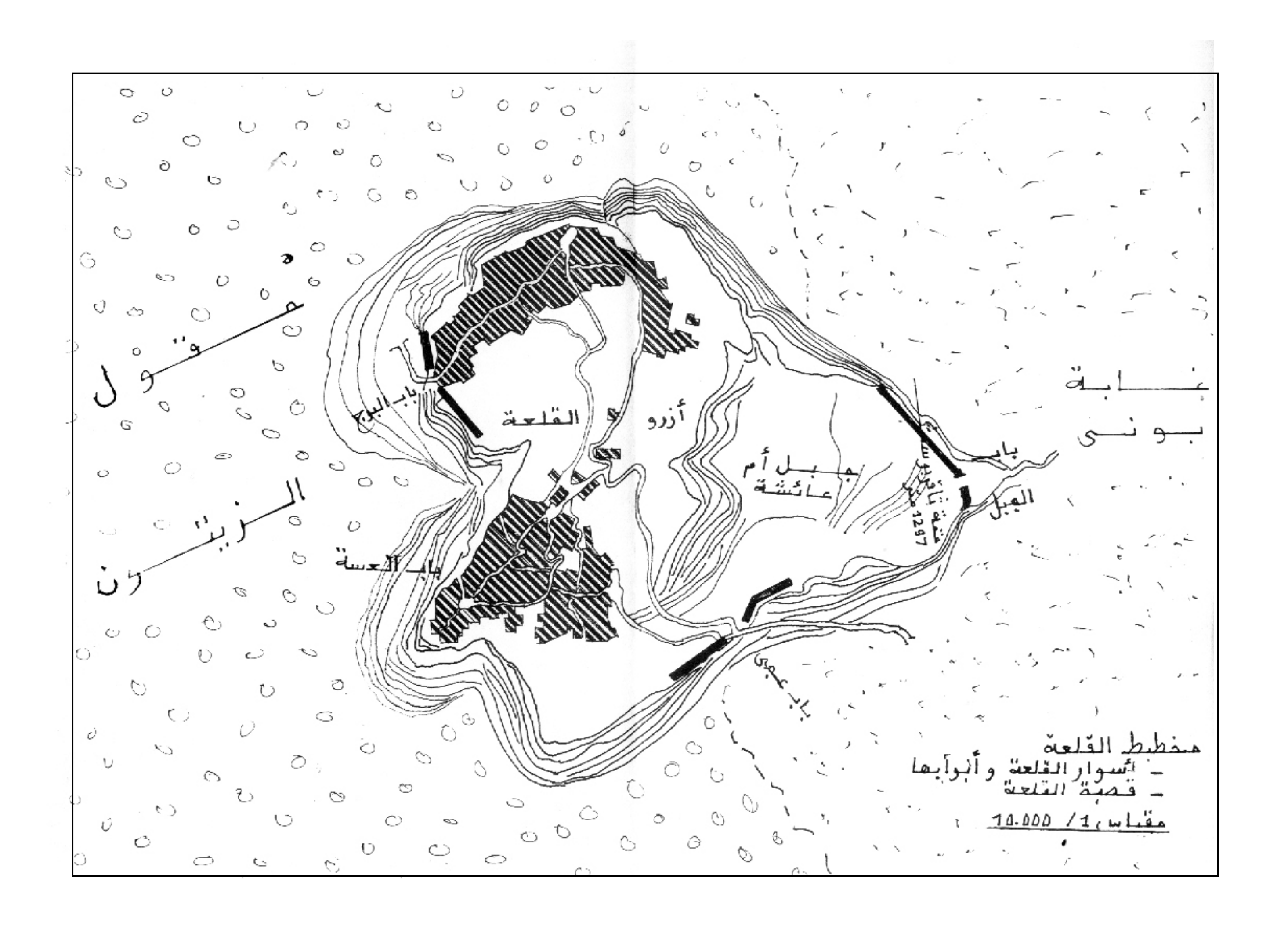
شكل 67: مخطط عام لبرج موسى ببجاية (الطابق الأرضي) عن (نعيمة عبد الرحيم)



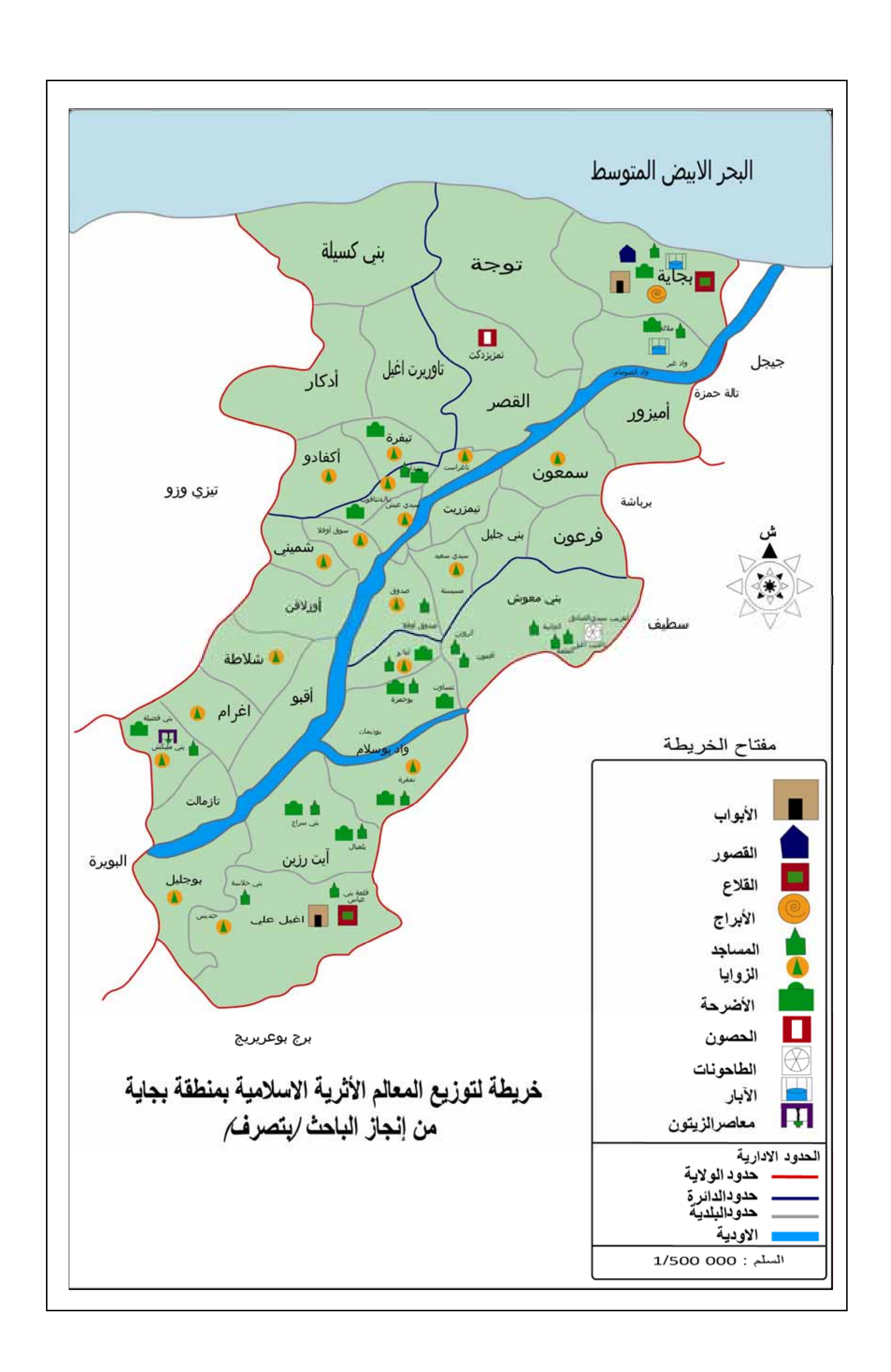
شكل 68: اعادة تصور لقلعة تمززدكت (من عمل الباحث) سلم 500/1



شكل 69: خريطة قلعة بني عباس (عن جمعية المقراني)



شكل 70: خريطة توضح سور و أبواب قلعة بني عباس (عن جمعية المقراني)



خريطة لتوزيع المعالم الأثرية الإسلامية بمنطقة بجاية (من انجاز الباحث)

ملحق الصور



صورة 01 : رأس بوحاي cap noir



صورة 02 : رأس بواك cap bouac



صورة 03 رأس كاربون cap carbon



صورة 04 ضريح الحاج المقراني بقلعة بني عباس



صورة 05: واجهة جامع القصبة ببجاية



صورة 06 : الواجهة الجنوبية الشرقية لجامع القصبة ببجاية



صورة 07 : عمود و تاج بجامع القصبة ببجاية



صورة 08: زخارف محراب جامع ملالة



صورة 09: منظر عام لجامع ابن تومرت الحديث بملالة



صورة 10: ضريح سيدي محمد المراكشي بملالة



صورة 11: منظر علم لجامع أمالو



صورة 12: أعمدة و عقود جامع أمالو



صورة 13 : منظر داخلي لجامع أمالو



صورة 14: زخارف محراب جامع أمالو



صورة 15: أعمدة و تيجان جامع أمالو



صورة 16: عقود جامع أمالو



صورة 17: دعامات جامع قلعة بني عباس



صورة 18: عقود جامع قلعة بني عباس



صورة 19: محراب جامع قلعة بني عباس



صورة 20: منبر و محراب جامع قلعة بني عباس

صورة 21: مئذنة جامع قلعة بني عباس



صورة 21: مئذنة جامع قلعة بني عباس



صورة 22: العقد الذي يعلو مدخل جامع قلعة بني عباس



صورة 23: مدخل جامع صدوق العلوي



صورة 24: طريقة تسقيف جامع صدوق العلوي



صورة 25: كتابة على شاهد قبر ضريح سيدي عبد الحق ببجاية



صورة 26: منظر عام لمسجد سيدي عبد الحق



صورة 27: منبر مسجد سيدي عبد الحق



صورة 28: خزائن حفظ الكتب في الجهة الجنوبية من جامع سيدي عبد الحق



صورة 29: ميضأة جامع سيدي عبد الحق



صورة 30: منظر عام لمسجد سيدي يحيى العيدلي بتامقرة



صورة 31: الواجهة الرئيسية لمسجد تامقرة



صورة 32: محراب جامع تامقرة



صورة 33: منظر عام لجامع بوديوان ببوحمزة



صورة 34: الواجهة الرئيسية لجامع بوديوان



صورة 35: ارتكاز عقود جامع بوديوان على الأعمدة



صورة 36: منظر لواجهة جامع سيدي ابراهيم (ببوحمزة)



صورة37: أعمدة جامع سيدي ابراهيم (بوحمزة)



صورة 38: محراب و منبر جامع سيدي ابراهيم (بوحمزة)



صورة39: منظر عام لقرية بني خيار (بني معوش)



صورة 40: منظر عام لقرية ترونة (بني معوش)



صورة 41: عقود نصف دائرية متجاوزة بجامع بني خيار (بني معوش)



صورة 42: الرواق الأمامي و بروز محراب جامع بني خيار (بني معوش)



صورة 43: زخارف محراب جامع بني خيار (بني معوش)



صورة44: أعمدة و عقود جامع بني خيار (بني معوش)



صورة 45: منظر عام لقرية القلعة (بني معوش)



صورة 46: واجهة جامع أسحنون بقلعة بني عباس



صورة 47: عمود يحمل أربعة عقود بجامع أسحنون بقلعة بني عباس



صورة 48: ارتكاز السقف في جامع أسحنون بقلعة بني عباس



صورة 49: اختراق العوارض الخشبية للعقود بجامع أسحنون بقلعة بني عباس



صورة 50: الأكتاف الخارجية التي تدعم جامع أسحنون



صورة 51: منظر عام لضريح سيدي تواتي ببجاية



صورة 52: مدخل ضريح سيدي تواتي ببجاية



صورة 53: الشرافات المتدرجة التي تحتل أركان ضريح سيدي تواتي



صورة 54: التابوت الخشبي لضريح سيدي تواتي ببجاية



صورة 55: منظر عام لضريح سيدي عبد الرحمان الصباغ ببجاية



صورة 56: مدخل ضريح سيدي محمد أمقران ببجاية



صورة 57: منضر عام يوضح القبة بضريح سيدي محمد أمقران ببجاية



صورة 58: تابوت سيدي محمد أمقران ببجاية

صورة 59: منظر عام لضريح سيدي أحمد بن يحيى بأمالو



صورة 60: قبة ضريح سيدي أحمد بن يحيى بأمالو



صورة 61: مراكز الإنتقال في قبة سيدي أحمد بن يحيى بأمالو



صورة 62: منظر عام لضريح سيدي يحيى العيدلي بتامقرة



صورة 63: مناطق الإنتقال في قبة ضريح سيدي يحيى العيدلي بتامقرة



صورة 64: منظر عام لضريح سيدي عبد الرحمان الوغليسي (سيدي عيش)



صورة 65: اللوحة الرخامية على قبر سيدي عبد الرحمان الوغليسي



صورة 66: ميضأة سيدي عبد الرحمان الوغليسي بالقرب من الضريح



صورة 67: ضريح سيدي يحيى شريف بتالة نتاقوت (سيدي عيش)



صورة 68: ضريح سيدي أبي علي المسيلي ببجاية



صورة 69: ضريح سيدي يحيى أبي زكرياء بالميناء النفطي ببجاية



صورة 70: خلوة سيدي يحيى العيدلي بحمام سيدي يحيى



صورة 71: خلوة الشيخ الحداد بصدوق العلوي



صورة 72: المدرسة القرآنية بقرب جامع بني سراج



صورة 73: منظر عام لزاوية سيدي أحمد بن يحيى بأمالو



صورة 74: آثار مراقد زاوية سيدي أحمد بن يحيى بأمالو



صورة 75: منظر عام لزاوية سيدي يحيى العيدلي بتامقرة



صورة 76: مطبخ زاوية سيدي موسى بتينبدار (سيدي عيش)



صورة 77: حجرة طبخ الرغيف أقدم أثر في زاوية سيدي موسى بتينبدار (سيدي عيش)



صورة 78: منظر عام لضريح سيدي موسى بتينبدار (سيدي عيش)



صورة 79: قاعة تدريس بها محرابان بزاوية سيدي موسى بتينبدار (سيدي عيش)



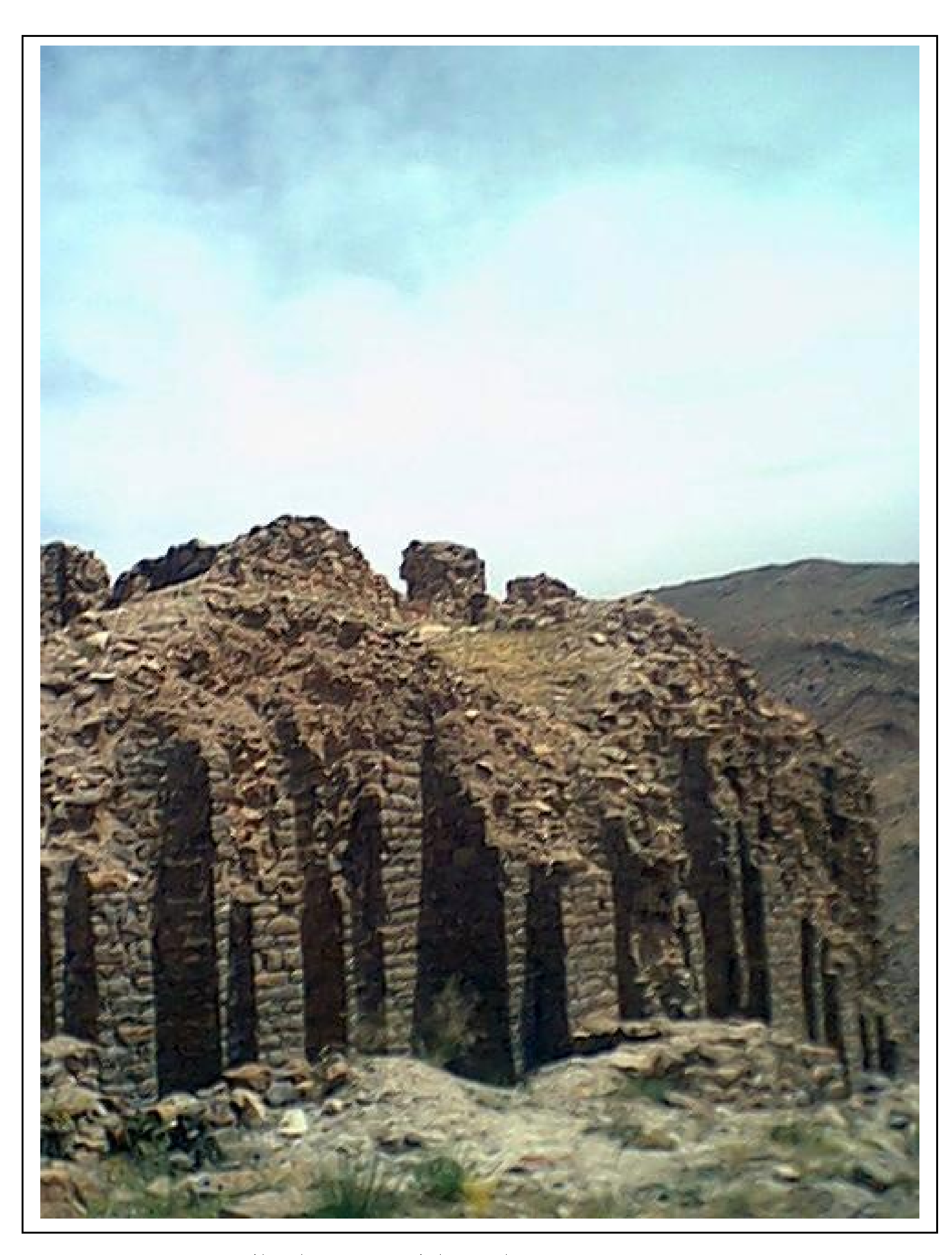
صورة 80: منظر عام لمدينة سيدي عيش من القرى العلوية



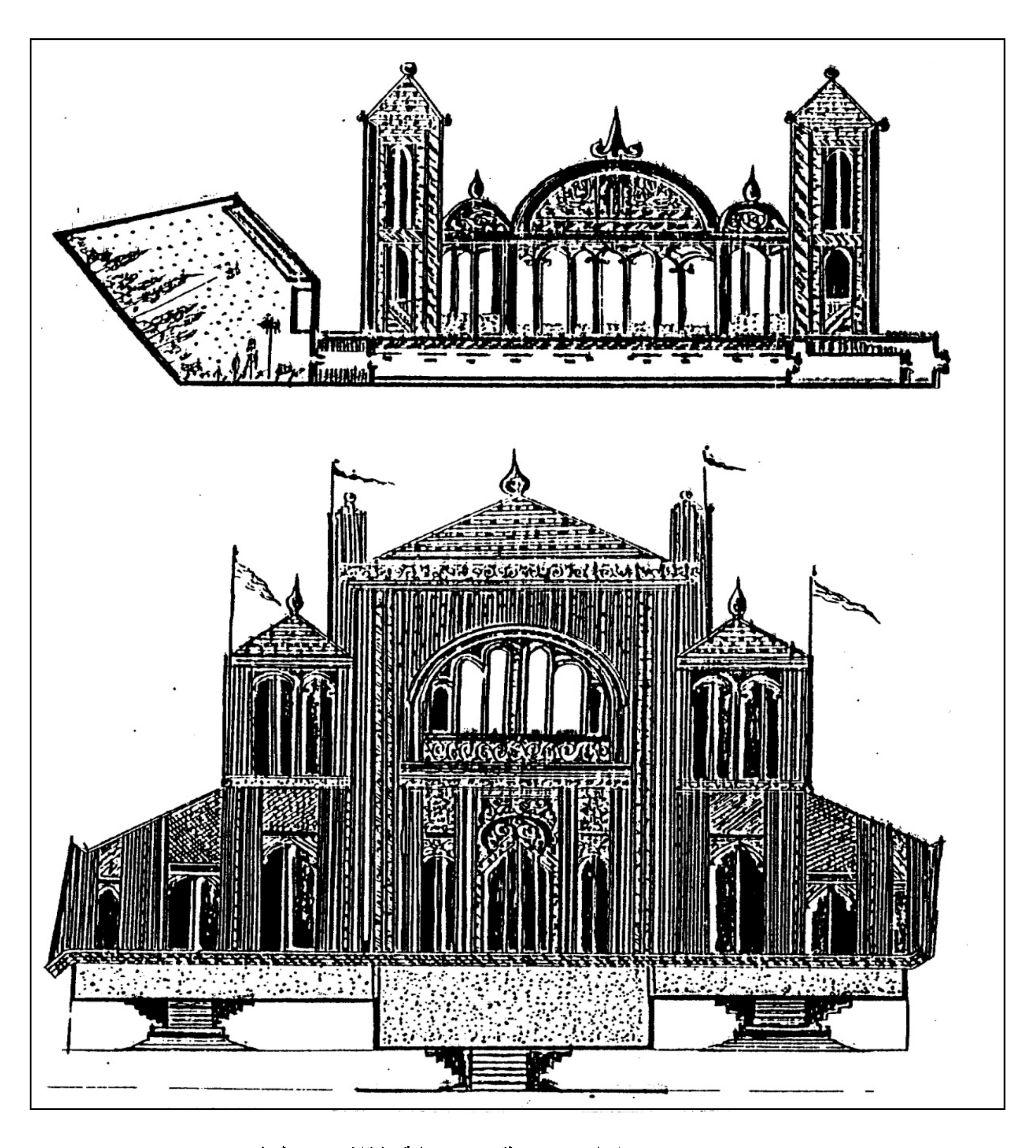
صورة 81: مئذنة مسجد زاوية تينبدار (سيدي عيش)



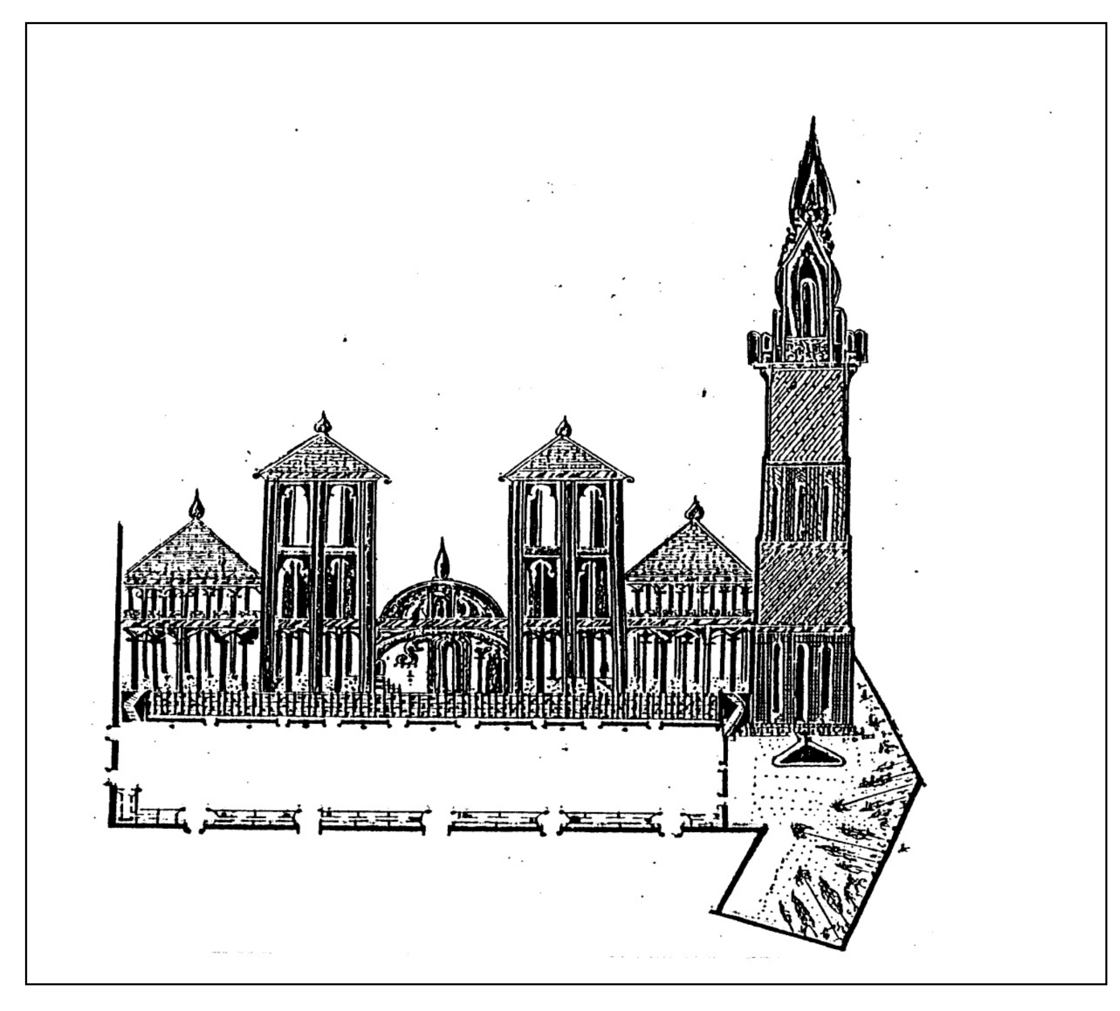
صورة 82: أطلال قصر البحر بقلعة بني حماد (المسيلة)



صورة 83: بقايا قصر المنار بقلعة بني حماد (المسيلة)



صورة 84: إعادة تصور لقصور بجاية (نقلا عن دبيلي)



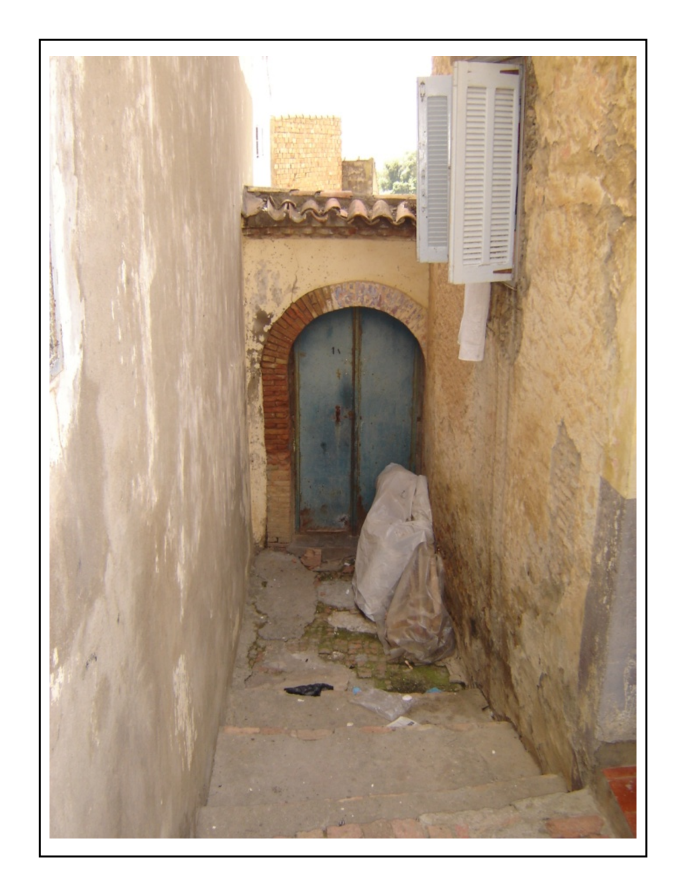
صورة 85: المسجد الملحق بقصر اللؤلؤة (نقلا عن دبيلي)



صورة 86: بقايا قصر أميمون ببجاية



صورة 87: مدخل أحد البيوت الحضرية ببجاية



صورة 88: أحد الدروب في حي خمس عيون ببجاية



صورة 89: طريقة غلق باب مسكن تقليدي بقرية تيغرمين



صورة 90: منظر عام لقرية ترونة (بني معوش)



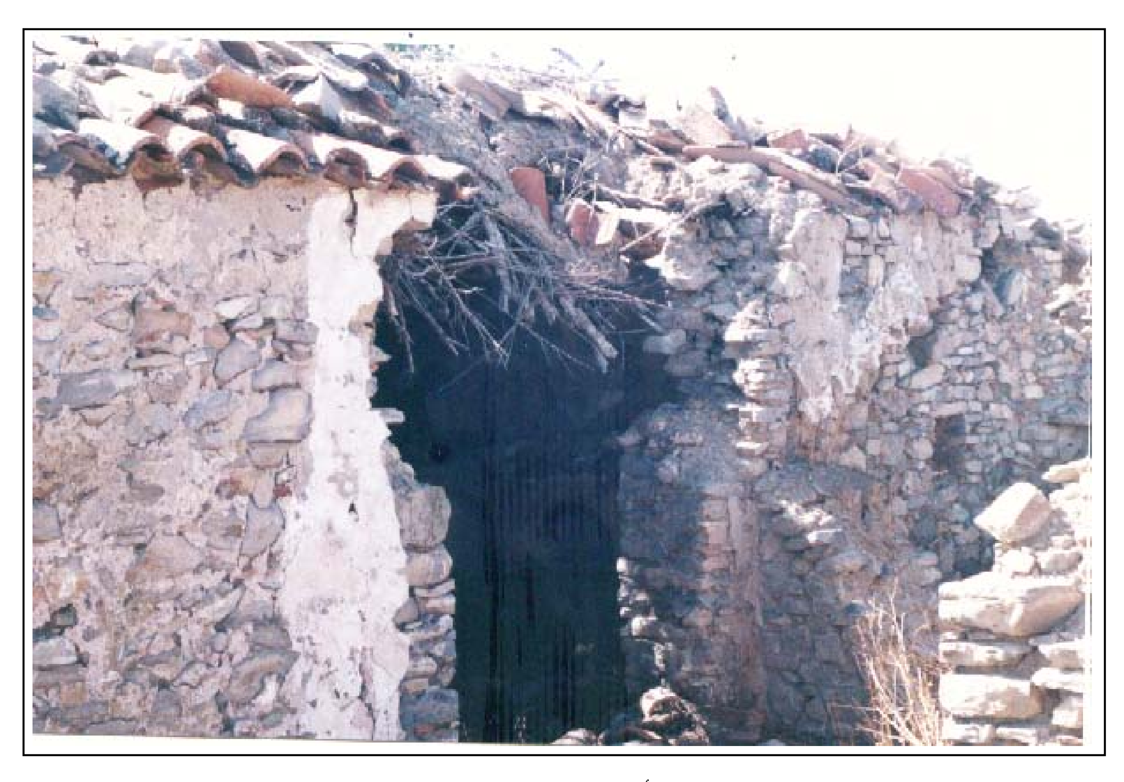
صورة 91: واجهة مسكن تقليدي بترونة (بني معوش)



صورة 92: مدخل اداينين



صورة 93: مدخل تاعريشت



صورة 94: مدخل أحد المساكن التقليدية بحوض الصومام



صورة 95: منظر عام لقرية أسرافيل



صورة 96: بقايا تاغرفت بأسرافيل



صورة 97: تقنية حماية السور من الخارج بقرية أسرافيل



صورة 98: بقايا أحد المساكن بقرية بني خيار (بني معوش)



صورة 99: أطلال أحد المساكن التقليدية بتينبدار (سيدي عيش)



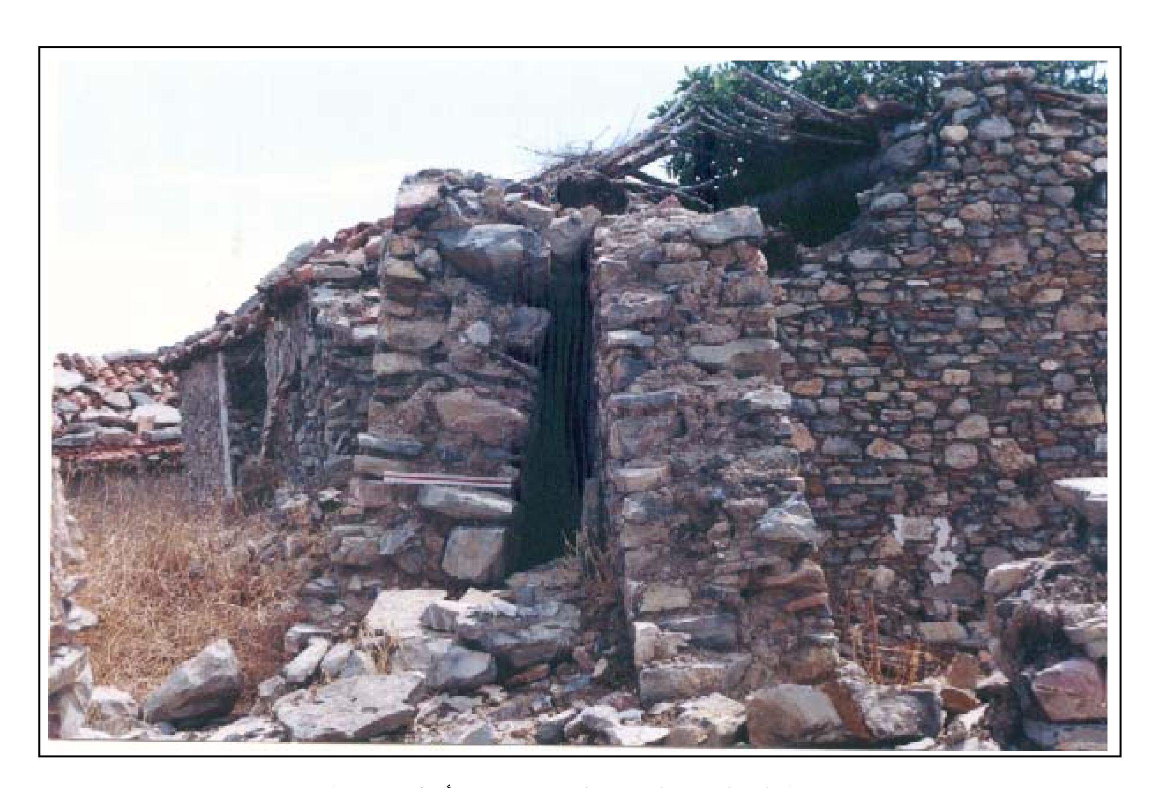
صورة 100: طريقة تلبيس الجدران



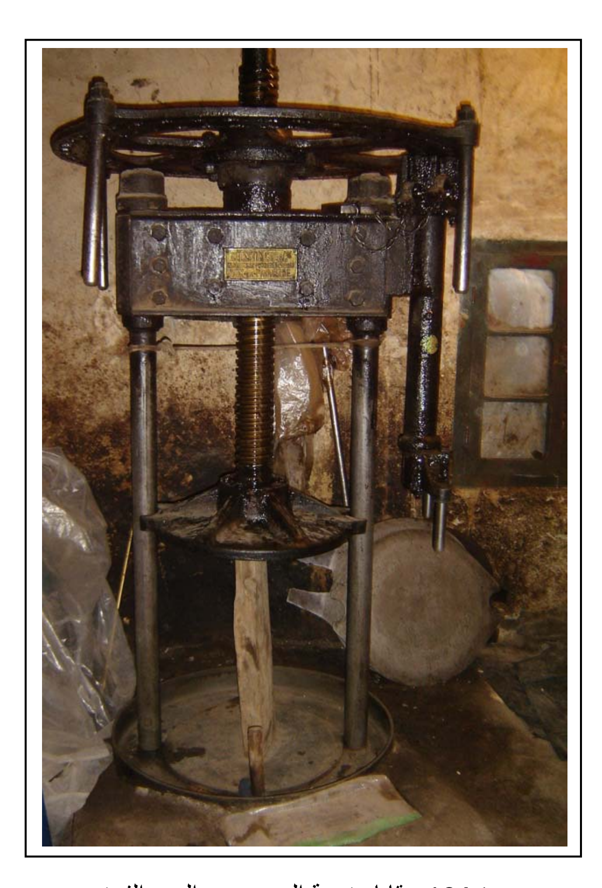
صورة 101: الطبقة التي تعلو مدخل اداينين بترونة (بني معوش)



صورة 102: تقنية بناء الجدران بترونة (بني معوش)



صورة 103: تقنية الفصل بين الجدران لتسريب مياه الأمطار بترونة (بني معوش)



صورة 104: بقايا منصة العصر من العهد الفرنسي



صورة 105: بقايا حوض السحق بمعصرة بني مليكش (أعالي تازمالت)



صورة 106: عملية سحق الزيتون بدفع الحصان



صورة 107: معصرة من الخشب ببني مليكش (تازمالت)



صورة 108: معصرة خشبية من أوائل العهد الفرنسي بالجزائر



صورة 109: حوض تقليدي لسحق الزيتون (معصرة السيد أيت هلال بأعالي أمالو)



صورة 110: أحد أحواض السحق الحديثة (معصرة السيد جادة بلقاسم بتغرمين أعالي أمالو)



صورة 111: سقاية خاصة بشرب الحيوانات (تامقرة)



صورة 112: سقاية للتزود بالماء الصالح للشرب (إغزر الجير أمالو)



صورة 113: دار الساقية ببجاية أسفل جبل قورايا



صورة 114: ثالة نتاقوث أحد السقايات بأعالي سيدي عيش



صورة 115: سقايات حي خمس عيون ببجاية (صورة قديمة)



صورة 116: بئر السلام من العهد الحمادي ببجاية



صورة 117: بئر الخروبة بملالة



صورة 118: بئر الأسد بملالة



صورة 119: بئر بوديمان بنواحي بوحمزة



صورة 120: منظر عام لحمام سيدي يحيى العيدلي (نواحي أقبو)



صورة 121: مساكن المبيت في حمام سيدي يحيى العيدلي



صورة 122: حمام خارجي خاص بالأمراض الجلدية (سيدي يحيى)



صورة 123 أ: تثبيت العجلة الخشبية في المستوى السفلي



صورة 123 ب: شكل العجلة من مادة خشب البلوط



صورة 123 ج: العجلة الحجرية لطحن الحبوب في المستوى العلوي



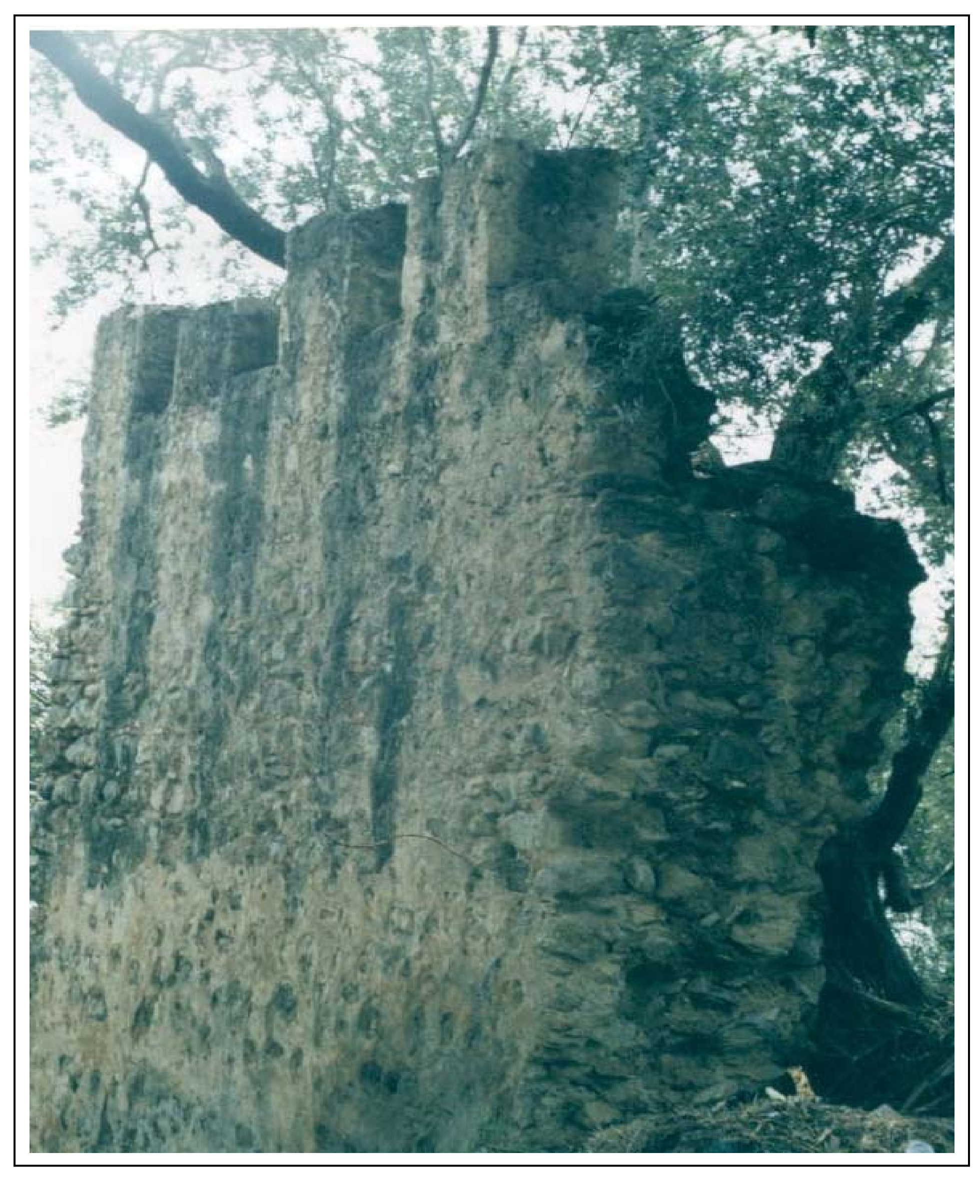
صورة 124: بقايا السور جهة البحر



صورة 125 أ: بقايا السور الحمادي أسفل جبل قورايا



صورة 125 ب: بقايا أحد الأبراج المربعة في سور المدينة أسفل جبل قورايا



صورة 126: شرافات تتوج السور الحمادي أسفل منطقة الزياتين ببجاية



صورة 127 أ: باب البحر في العهد الفرنسي



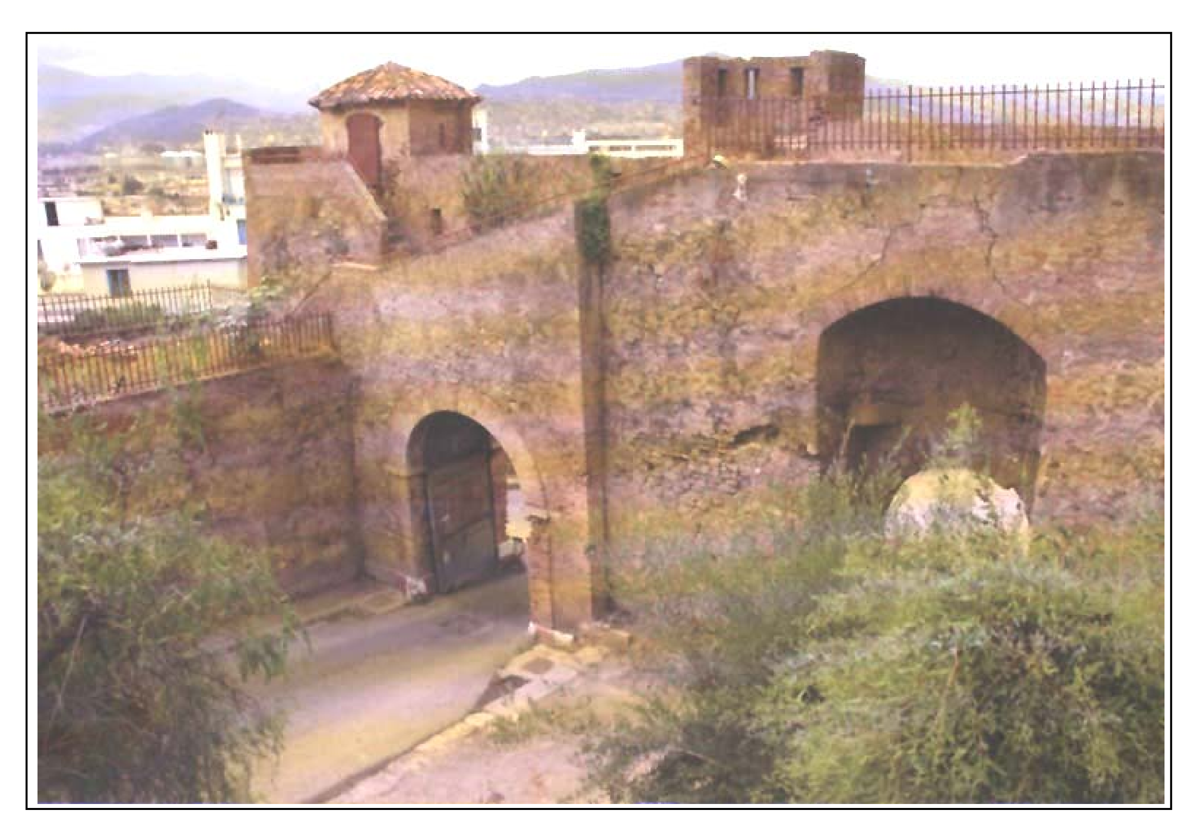
صورة 127 ب: باب البحر ببجاية حاليا



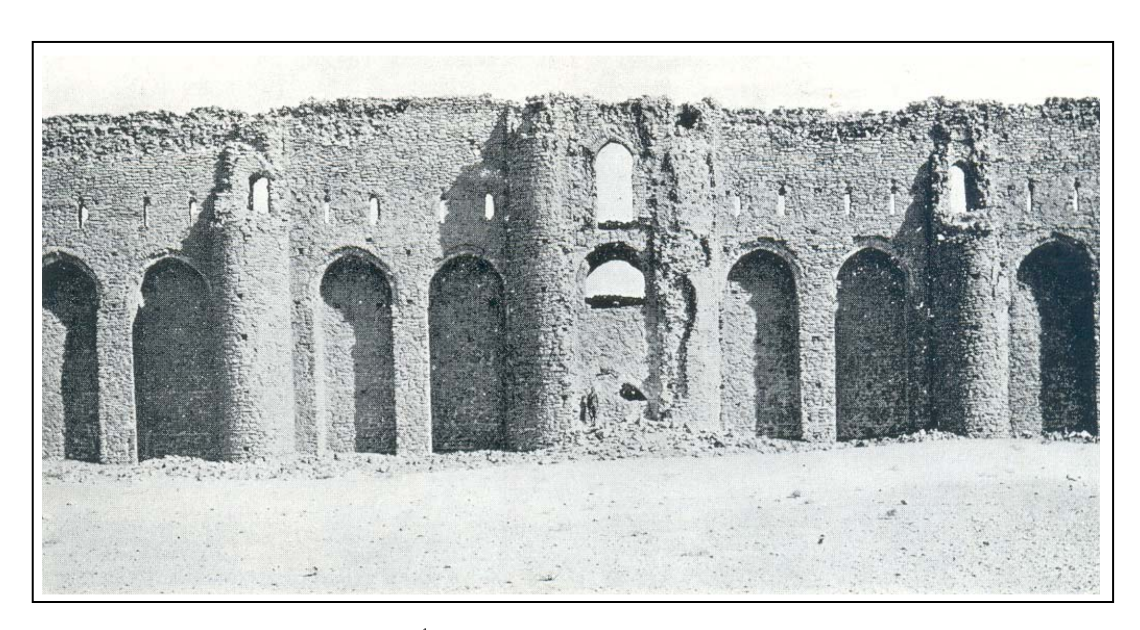
صورة 128 أ: صورة لباب البنود ببجاية أثناء العهد الفرنسي



صورة 128 ب: باب البنود ببجاية حاليا



صورة 128 ج: منظر داخلي لباب البنود ببجاية.



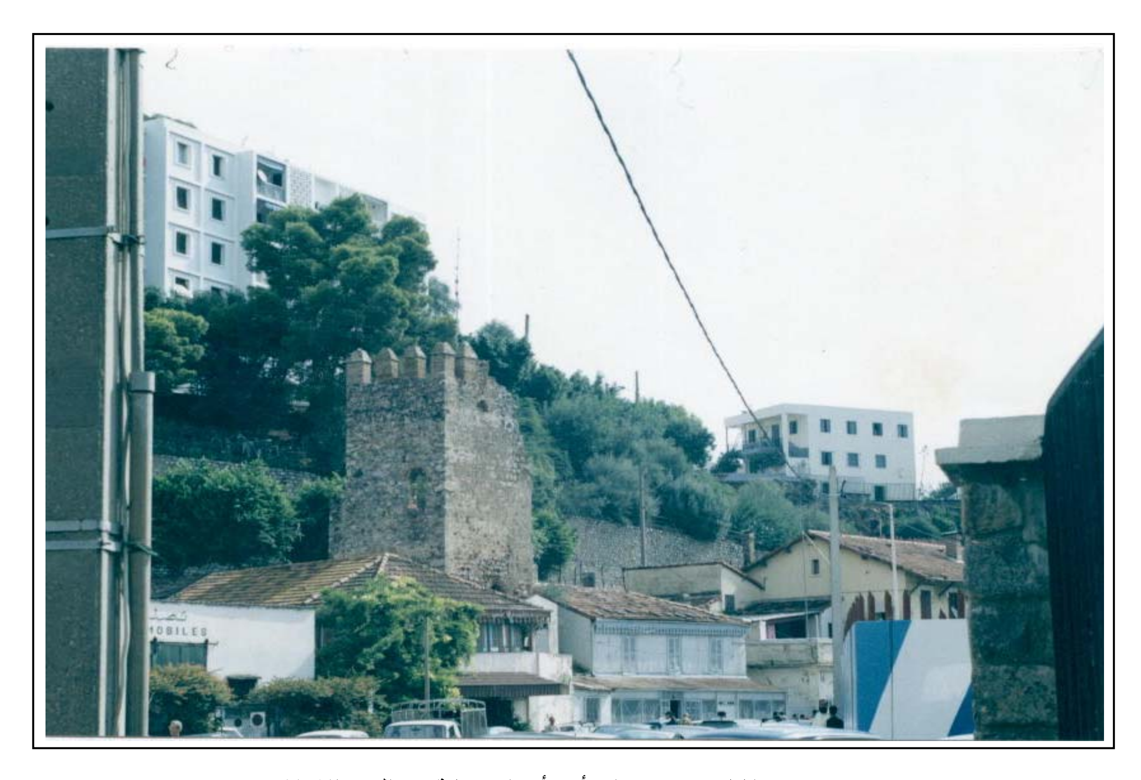
صورة 129: المدخل الشرقي لقصر الأخيضر



صورة 130: باب الفتوح بالقاهرة من العهد الفاطمي



صورة 131: إحدى واجهات قصر الحير الشرقي



صورة 132: بقايا برج مربع في أحد أسوار بجاية من العهد الإسلامي



صورة 133: الواجهة الخارجية لسور القصبة ببجاية



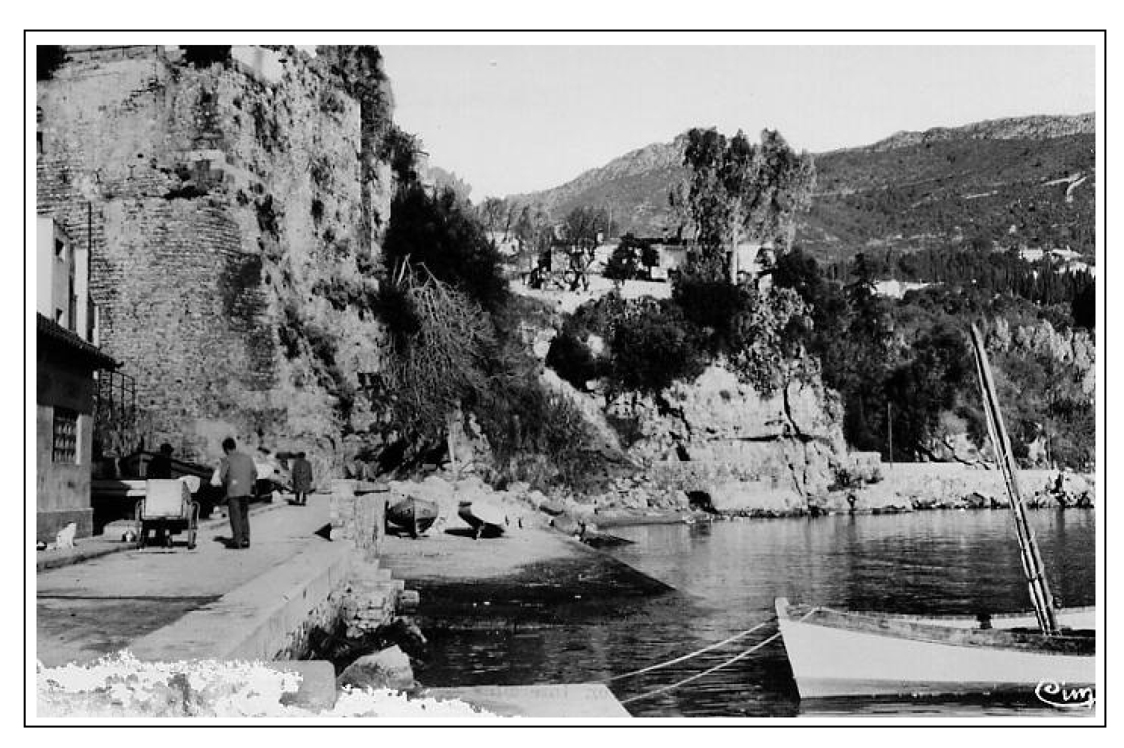
صورة 134: منظرللواجهة الشرقية لقصبة بجاية



صورة 135: برج مربع الشكل في الجهة الشمالية الشرقية لقصبة بجاية



صورة 136: مدخل قصبة بجاية



صورة 137 أ: منظر عام لبرج سيدي عبد القادر (صورة من العهد الفرنسي)



صورة 137 ب: برج سيدي عبد القادر حاليا



صورة 138: طابق تحت أرضي ببرج سيدي عبد القادر



صورة 139: منظر عام لبرج موسى ببجاية



صورة 140: حصن قورايا ببجاية



صورة 141: أسوار قلعة تمزردكت ببجاية



صورة 142: أسوار المنصورة بتلمسان



صورة 143: أسوار قرقرة بعين الدفلى

صورة 144: علو أسوار تمززدكت ببجاية



صورة 144: علو أسوار تمززدكت ببجاية



صورة 145: برج مربع في سور تمززدكت ببجاية



صورة 146: آثار ممشى الحرس بأعلى سور تمززدكت ببجاية



صورة 147: سور أمامي لتكسير الهجمات بتمززدكت ببجاية



صورة 148: منظر عام لقلعة بني عباس ببجاية



صورة 149: جبال قلعة بني عباس



صورة 150: آثار باب البرج بقلعة بني عباس بمنطقة بجاية

فهرس الأشكال

فهرس الأشكـــــا ل

فهرس الصور

فهـــرس الصـــور

فهرس الأماكن و البلدان

فهرس الأماكن و البلدان

- أ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

فهرس الأعلام و القبائل و الشعوب

فهرس الأعلام و القبائل و الشعوب

- أ -

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ف -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس البحث

فهرس البحث